عميلة سرية - كتاب سحري مفقود
ومهمة محفوفة بالخطر

المكتبة الخفية

The Invisible Library

جينيفيف كوجمان

Genevieve Cogman

ترجمة / كاميليا

المكتبة الخفيـــة

جينيفيف كوجمان

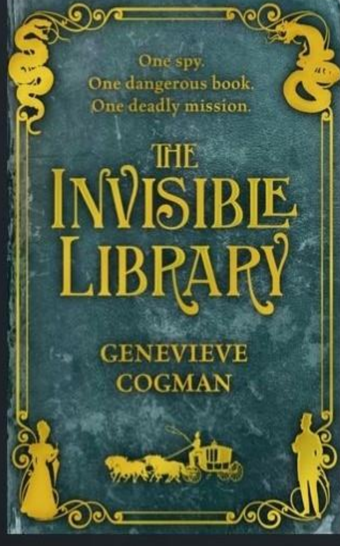
**"قد يكون جمع الكتب مهمة محفوفة بالمخاطر المميتة..
مرحبًا بك في المغامرة الأولى من سلسلة (المكتبة الخفية) المذهلة"**

هناك حقيقة واحدة سيؤكدها لك أي "أمين مكتبة": الحقيقة دائماً أغرب بكثير من الخيال...

تعمل "إيرين" كجاسوسة محترفة لصالح "المكتبة"؛ منظمة خفية تكرس جهودها لجمع أهم الأعمال الأدبية النادرة من كافة أبعاد الواقع المختلفة. في مهمتها الأخيرة، أُرسلت إيرين برفقة مساعدها الغامض "كاي" إلى نسخة بديلة من مدينة لندن. مهمتهما: استعادة كتاب بالغ الخطورة. لكن المشكلة: بحلول الوقت الذي وصلا فيه، كان الكتاب قد سُرق بالفعل.

تجد إيرين نفسها عالقة في شبكة محيرة من المخاطر، والأدلة المتضاربة، والجمعيات السرية الخبيثة. في هذا الصراع، الفشل ليس خياراً مطروحاً على الإطلاق.. لأن ما هو على المحك ليس فقط حياة إيرين، بل طبيعة "الواقع" ذاته!

ترجمات
مكتبة الوادي
t.me/wadistreambooks



ترجمة / قناة wadistreambooks

@t.me/wadistreambooks

تُرجم هذا الكتاب بدعم من مبادرة ترجم

مبادرة ترجم

Tarjim Initiative

هيئة الأدب والنشر والترجمة

Literature, Publishing & Translation Commission

Translation funded by the Tarjim Initiative

ترجمة / كاميليا

جينيفيف كوجمان

GENEVIEVE COGMAN

المكتبةُ الخفيةُ

THE INVISIBLE LIBRARY



"كلٌّ من ارتبط بالمكتبة بوسمها هم أشخاصٌ اختاروا هذا النمط من الحياة لأنهم أحبوا الكتب. لا أحد منا أراد إنقاذ العوالم. أقصد، ليس الأمرُ أننا نعترضُ على إنقاذ العوالم..نحن نريد الكتب. نحن نحب الكتب. نحن نعيشُ مع الكتب. "

إيرين (أمينة مكتبة)

الفصل الأول

راحت إيرين تُمرّر الممسحة فوق الأرضية الحجرية في حركاتٍ رتيبةٍ متمهلة، وهي تتأمل في شرودٍ بريق البلاطات المبللة تحت ضوء الفانوس. كان ظهرها يئنُّ من التعب، لكنّ ذلك كان أمراً طبيعياً بعد أمسيةٍ طافحةٍ بأعمال التنظيف الشاقة.

كان التنظيف ضرورةً لا غنى عنها؛ فتلاميذ «أكاديمية الأمير موردريد الخاصة للبنين» يبرعون في جلب الطين والأقذار إلى الردهات تماماً كما يفعل أي مراهقين آخرين. ورغم أن دروسهم الداخلية كانت تقتصر على الفنون المظلمة، والتاريخ العسكري، والكيمياء، إلا أن ذلك لم يمنع صخب دروسهم الخارجية في القتال الاستراتيجي، والمبارزة، والاغتيال في الميادين المفتوحة، ورياضة الرجبي.

دقت الساعة في غرفة الدراسة معلنةً مرور ربع الساعة. كان ذلك يمنحها خمسًا وأربعين دقيقة قبل بدء صلوات وتراتيل منتصف الليل. كانت تعلم من خبرة أسابيع مضت —— ومن ذكرياتها الخاصة في المدرسة الداخلية، لكي نكون منصفين —— أن الصبية لن ينهضوا من فراشهم قبل اللحظة الأخيرة الممكنة. وهذا يعني أن معظمهم سيجرُّون أقدامهم خارج الأسرّة في الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة، ليتوجهوا إلى الكنيسة بملابس ألقوها على أجسادهم على عجَل وشعرٍ لم يكد يلمسه المشط. إذن، أمامها ثلاثون دقيقة قبل أن يبدأ أيٌّ منهم في التحرك.

ثلاثون دقيقة لتسرق كتاباً وتهرب.

أسنَدت الممسحة في دلوها، ثم اعتدلت في وقفتها، وأخذت لحظةً لتدلك بفاصل أصابعها أسفل ظهرها. أحياناً، كان العمل السري كـ «أمين مكتبة» يتطلب التخفي في زي سيدة مجتمع ثرية، حيث تقيم في فنادق فخمة وبيوتٍ ريفية، مرتديةً أحدث صيحات الموضة وتتناول أرقى الأطباق في صحونٍ ذات حواف مذهبة. وفي أحيانٍ أخرى، يتطلب الأمر قضاء شهورٍ في بناء هوية خادمة كادحة، تنام في غرف العليّة، وترتدي ثوباً صوفياً رمادياً بسيطاً، وتقتات على الطعام ذاته الذي يأكله الصبية. لم تكن تأمل سوى ألا تتضمن مهمتها التالية حصصاً لا تنتهي من العصيدة في وجبة الإفطار.

على بُعد بابين في الممر، كانت وجهة إيرين: «غرفة كؤوس المنزل». كانت غاصةً بالكؤوس الفضية المنقوشة بأسماء مختلفة لـ منزل توركين، فضلاً عن قطع فنية ومخطوطات نادرة.

كانت إحدى تلك المخطوطات هي غايتها المنشودة.

أُرسلت إيرين من قِبل المكتبة إلى هذا العالم الموازي للحصول على كتاب «ترانيم منتصف الليل Midnight Requiems»، وهو أول كتابٍ نشره الساحر الشهير بالان بيستيفير. كان الكتاب، بكل المقاييس، عملاً مذهلاً، غزيراً بالمعلومات، ولكنه لم يلقَ رواجاً يُذكر. أمضت شهراً تبحث عن نسخة منه ـــ فالمكتبة لا تشترط النسخة الأصلية للنص، بل تكتفي بنسخة دقيقة. ولكن لسوء الحظ، لم تكتفِ بالفشل في العثور عليه، بل إن استفساراتها أثارت اهتمام آخرين (سحرة، وعشاق كتب، وغيلان). اضطرت حينها لحرق هويتها السرية والفرار قبل أن ينالوا منها.

كانت الصدفة البحتة (أو كما تحب أن تسميها، غريزتها المصقولة) هي التي لفتت انتباهها إلى إشارة عابرة في إحدى المراسلات حول

«ذكريات السيد بيستيفير الطيبة عن مدرسته القديمة» وأكثر من ذلك «تبرعاته للمدرسة». وفي الوقت الذي كتب فيه بيستيفير هذا العمل المبكر، كان لا يزال شاباً مغموراً. ولم يكن من المستبعد، في خضم تطلعه للاهتمام أو بدافع المباهاة، أن يتبرع بنسخة من كتاباته لمدرسته. (وبعد أن استنفدت كل السبل الأخرى، كان الأمر يستحق المحاولة).

استغرقت إيرين بضعة أسابيع لتأسيس هوية جديدة كامرأة في منتصف العشرينيات من خلفية فقيرة كادحة، تصلح للقيام بالأعمال الوضيعة، ثم وجدت لنفسها عملاً كخادمة تنظيف. لم تحتوِ مكتبة المدرسة الرئيسية على أي نسخة من «ترانيم منتصف الليل»، وفي لحظة يأس، لجأت إلى تفتيش دار السكن الأصلية للساحر. وخلافاً لكل التوقعات، حالفها الحظ.

تخلت عن أدوات التنظيف، وفتحت النافذة في نهاية الرواق. تأرجح الزجاج المؤطر بالرصاص بسهولة تحت يدها؛ فقد اعتنت بتزييته في وقت سابق. تسلّل نسيمٌ بارد إلى الداخل، يحمل نذير مطرٍ قادم. كانت تأمل ألا تضطر لهذا النوع من التضليل، لكن أحد شعارات المكتبة كان مقتبساً مباشرةً من المفكر العسكري العظيم كلاوزفيتز: «لا توجد استراتيجية تصمد أمام الاحتكاك الأول بالعدو». أو باللغة الدارجة: الأمور ستسير على نحو خاطئ. فكن مستعداً.

هرعت عائدةً في الرواق إلى غرفة الكؤوس، ودفعت الباب. تلألأ الضوء الآتي من الممر على الكؤوس الفضية وخزائن العرض الزجاجية. ودون أن تكلف نفسها عناء إشعال الفانوس المركزي للغرفة، عبرت إلى الخزانة الثانية على اليمين. كانت لا تزال تشم رائحة الملمع الذي استخدمته على الخشب قبل يومين. فتحت بابها، وسحبت كومة الكتب

المكدسة في الخلف، واستخرجت مجلداً متهالكاً مكسوّاً بجلدٍ أرجواني داكن.

حين أرسل بيستيفير الكتاب إلى المدرسة، هل ظل يروح ويجيء في غرفته قلقاً، آملاً في الحصول على أي اعتراف من المعلمين، يثنون فيه على بحثه ويتمنون له النجاح؟ أم أنهم أرسلوا له رسالة رسمية جافة تفيد باستلام الكتاب، ثم ألقوا بعمله في كومة كتب الغرور الأخرى التي يرسلها التلاميذ القدامى ونسوا أمره تماماً؟

لحسن الحظ، كان مجلداً صغيراً نسبياً. دسته في جيبٍ خفي، وأعادت الكتب الأخرى لتغطية أثرها، ثم ترددت.

هذه، في نهاية المطاف، مدرسةٌ تُعلّم السحر. وبصفتها «أمين مكتبة»، كانت تملك ميزةً كبرى لا يملكها أحد غيرها —— لا السحرة، ولا الفاي، ولا التنانين، ولا البشر العاديون. إنها «اللغة». وحدهم أمناء المكتبة يستطيعون قراءتها، ووحدهم يستطيعون استخدامها. كانت قادرةً على التأثير في جوانب معينة من الواقع. كانت مفيدة للغاية، حتى وإن كانت مفرداتها تتطلب مراجعةً دائمة. لكنها، لسوء الحظ، لم تكن تجدي نفعاً مع السحر الصرف. فإذا كان أساتذة المدرسة قد وضعوا نوعاً من تعاويذ الإنذار لمنع سرقة الكؤوس، وإذا كان ذلك يسري على أي شيء يُخرج من الغرفة، فقد تواجه مفاجأة غير سارة. وسيكون من المهين حقاً أن تطاردها حشودٌ من المراهقين.

نفضت إيرين الأفكار عن رأسها. لقد خططت لهذا. لا طائل من التأخير، والوقوف لإعادة النظر في الاحتمالات لن يؤدي إلا إلى ضياع الوقت.

خطت عابرةً العتبة.

فجأة، مزّق صخبٌ ناعق السكون. تلوّى القوس الحجري فوق المدخل، وتشكلت منه شفاهٌ صخرية راحت تصرخ:

— «لص! لص!»

لم تضيع إيرين وقتها في لعن القدر؛ فالناس سيهرعون إلى هنا في غضون ثوان. وبصرخةٍ مدوية، ألقت بنفسها فوق ممسحتها ودلوها، متمرغةً عمداً في بركة الماء القذر المحتومة. كما تعمدت صدم ساقها بحافة الدلو، مما استدعى دموعاً حقيقية إلى عينيها.

وصل صبيان من الطلاب الكبار أولاً، يركضون من الزاوية بقمصان النوم والخفاف. كانا مستيقظين تماماً، مما يوحي بأنهما كانا منشغلين بهواية غير مشروعة.

صاح أحدهما، وكان ذا شعر داكن:

— «أين اللص؟»

فأشار الأشقر نحوهما قائلاً:

— «ها هي ذي!»

لكن صاحب الشعر الداكن ردَّ بحدة، مظهراً ميزة سرقة الكتب بزي الخدم:

— «لا تكن أحمق، هذه إحدى الخادمات. أنتِ! أيتها الفتاة! أين اللص؟»

أشارت إيرين بيدٍ ترتجف نحو النافذة المفتوحة، التي اختارت تلك اللحظة لتتأرجح مع الريح المتصاعدة. وقالت متنحبة:

— «لقد.. لقد طرحني أرضاً——»

— «ماذا يحدث هنا؟»

وصل أحد الأساتذة إلى مكان الحادث. كان بكامل أناقته، يتبعه عبير دخان التبغ، وشقَّ طريقه عبر حشد الصبية المتجمعين بإيماءاتٍ من أصابعه.

— «هل أطلق أحدكم الإنذار؟»

قال الصبي الأشقر بسرعة:

— «لا يا سيدي! وصلنا للتو وهو يفر. لقد خرج من النافذة! هل يمكننا ملاحقته؟»

انتقلت نظرة الأستاذ إلى إيرين.

— «أنتِ، يا امرأة!»

سحبت إيرين نفسها بسرعة لتقف، متكئةً ببراعة على الممسحة، وأرجعت خصلة شعرٍ متمردة. (كانت تتطلع للخروج من هذا المكان، لتنعم بحمام ساخن وتصفف شعرها في كعكة أنيقة).

قالت متمخطّةً:

— «نعم، يا سيدي؟»

كان الكتاب في جيب تنورتها يضغط على ساقها.

سألها الأستاذ بصرامة:

— «ماذا رأيتِ؟»

بدأت إيرين كلامها، وهي تجعل شفتها السفلى ترتجف بتكلف:

— «آه، يا سيدي. كنتُ أمسح الممر، وعندما وصلتُ إلى باب غرفة الكؤوس هنا،» أشارت إليه دون داعٍ، «رأيتُ ضوءاً في الداخل. فظننتُ أن أحد السادة الشباب ربما يذاكر.. فطَرقتُ الباب لأسأل إن كان بإمكاني الدخول لتنظيف الأرضية. لكن لم يجبني أحد، يا سيدي. لذا شرعتُ في

فتح الباب، وفجأةً دفعه شخصٌ من الداخل، فطرحني أرضاً وهو يركض خارجاً من الغرفة.»

كان جمهور الصبية، الذين تتراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والسابعة عشرة، معلقين بكل كلمة تنطق بها.

قالت إيرين بلهجة مساعدة:

— «لقد كان رجلاً طويلاً جداً. وكان يرتدي الأسود بالكامل، وكان هناك شيءٌ يلف وجهه فلم أتمكن من رؤيته بوضوح. وكان يحمل شيئاً تحت ذراعه، ملفوفاً بالقماش. ثم انطلق الإنذار، فصرختُ لطلب النجدة، لكنه ركض في الممر وهرب من النافذة.» أشارت إلى النافذة المفتوحة، التي بدت مخرجاً مثالياً —— وربما مفضوحاً —— لأي لص وهمي. «ثم جاء هؤلاء السادة الشباب، بعد هروبه مباشرة.» أومأت برأسها نحو الصبيين الأولين، فظهرا مزهوَّين بنفسيهما.

أومأ الأستاذ برأسه وهو يداعب ذقنه بتفكير.

— «جينكينز! بالمويت! توليا مسؤولية المنزل وليعد الجميع للاستعداد للكنيسة. سالتر، برايس، تعاليا معي لجرد الغرفة. يجب أن نعرف ما الذي سُرق.»

تعالت دمدمة احتجاج من الصبية الذين أرادوا القفز من النافذة ومطاردة اللص. لكن أحداً لم يجرؤ على الفعل.

لعنت إيرين في سرها. كانت تأمل أن تتبعثر الأمور بمطاردة واسعة للصٍ لا وجود له.

التفت الأستاذ إليها وقال:

— «أنتِ، اذهبي إلى المطبخ واشربي بعض الشاي. لا بد أنها كانت تجربة قاسية عليكِ.»

هل كانت تلك نظرة قلقٍ حقيقية في عينيه؟ أم أنها شيء أكثر ريبة؟ لقد بذلت قصارى جهدها لتركٍ أثر زائف، لكن الحقيقة ظلت أنها كانت الشخص الوحيد في المكان، وأن شيئاً ما قد سُرق لتوّه.

تابع قائلاً:

— «كوني مستعدةً في حال احتجنا لاستجوابكِ مجدداً.»

قالت إيرين وهي تنحني قليلاً:

— «بكل سرور يا سيدي.»

التقطت الممسحة والدلو، وشقّت طريقها عبر حشد الصبية، متوجهةً نحو السلالم، حريصةً ألا تمشي بسرعة تثير الشكوك.

تحتاج دقيقتين للوصول إلى المطبخ للتخلص من الممسحة والدلو. ودقيقة أخرى للخروج من المنزل. وخمس دقائق إضافية —— ثلاث دقائق ركضاً —— للوصول إلى مكتبة المدرسة. الوقت يداهمها.

كان المطبخ يعج بالنشاط حين وصلت، حيث كانت الخادمات يجهزن غلايات العصيدة. كانت رئيسة الخدم، ورئيس الخدم، والطباخ يلعبون الورق، ولم يبالِ أحدٌ منهم بصيحات الإنذار في الطابق العلوي.

سألت رئيسة الخدم حين دخلت إيرين:

— «هل هناك خطبٌ ما يا ميريديث؟»

أجابت إيرين:

— «مجرد السادة الصغار وتصرفاتهم المعتادة يا سيدتي. أظن أنه أحد المنازل الأخرى يمازحهم. هل تسمحين لي بالذهاب إلى المغاسل لأنظف نفسي؟» أشارت إلى بقع الماء القذر على زيها الرمادي ومئزرها.

قالت رئيسة الخدم:

— «احرصي ألا تتأخري؛ فستقومين بكنس المهاجع بينما يكون السادة الصغار في الكنيسة.»

أومأت إيرين بتواضع وغادرت المطبخ. لا يزال الهدوء يسود الطابق العلوي. جيد. فتحت باب دار السكن بهدوء، وخرجت إلى العراء.

كانت دور السكن مصفوفةً على طول الشارع الرئيسي، يتوسطها فناءٌ يضم الكنيسة، وقاعة الاجتماعات، والأهم من ذلك —— مكتبة المدرسة. كان منزل توركين هو الثاني في الصف، مما يعني أن هناك منزلاً واحداً فقط عليها تجاوزه دون لفت الانتباه. لا تركضي. لا تركضي بعد. فإذا رآها أحد تركض، فسيثير ذلك الشكوك. فقط تمشي بهدوء، كأنها في مهمة عادية.

نجحت في السير عشر ياردات كاملة.

فجأة، انفتحت نافذة خلفها في منزل توركين، وأطلَّ منها الأستاذ الذي تحدثت إليه. أشار إليها صارخاً:

— «لص! لص!»

رفعت إيرين أطراف تنورتها وانطلقت تركض. تحطم الحصى تحت قدميها، وصفعت أولى قطرات المطر وجهها. وصلت بمحاذاة المنزل التالي، منزل بروس، وفكرت للحظة في التخلي عن خطة هروبها المجهزة والاختباء هناك لقطع الأثر. لكن المنطق أخبرها أن ذلك لن يجدي نفعاً لأكثر من دقائق معدودة——

جاءها تحذيرٌ من الخلف بصرخة صفيرٍ في الوقت المناسب. ارتمت على الأرض، متدحرجةً، بينما هبط تمثال «الغرغول[1]» من السماء ناعقاً، ومخالبه الحجرية ممدودة تحاول التشبث بها. أخطأها التمثال، وراح يكافح للخروج من غطسته، وأجنحته الثقيلة تشق الهواء بمشقة لاستعادة الارتفاع. وكان غرغولٌ آخر قد انقضّ من فوق سطح توركين، وراح يحلق لاتخاذ زاوية هجوم مناسبة.

فكرت إيرين بمرارة: في لحظاتٍ كهذه، كم يكون رائعاً لو كنتُ ساحرة، أو عرافة، أو شخصاً يمكنه التّلاعب بالقوى السحرية لنسف هذه الغراغيل المزعجة من السماء. لقد فعلت ما بوسعها لتجنب الانتباه، والحفاظ على غطائها، وعدم تعريض صبية مدللين يتركون الطين في كل مكان للخطر. فبماذا كوفئت؟ بسربٍ من الغراغيل المهاجمة —— حسناً، هما اثنان فقط حتى الآن، لكّن لا يزال الأمر سيئاً —— وبالتأكيد هجوم شامل من التلاميذ والأساتذة خلال دقائق. هذا هو جزاء الفضيلة إذن.

راجعت بسرعة ما تعرفه عن الغراغيل. هناك واحدٌ فوق سطح كل دار سكن. كانت مذكورةً حتى في دليل المدرسة كضمان لسلامة الطلاب: «*سيُمزَّق أي خاطف إلى أشلاء دامية بواسطة قطعنا التاريخية المصانة باحترافية!*» ورغم ذلك، بعد عملها هنا لعدة أشهر، ظنت أن التلاميذ أنفسهم أكثر فتكاً بأي خاطف محتمل.

من الناحية الإيجابية (يجب دوماً البحث عن الجانب الإيجابي)، كانت الغراغيل استعراضية للغاية، ولكنها لم تكن فعالة حقاً فوق مساحة

---

[1] الغَرغول (*Gargoyle*): مخلوق أسطوري يُصوَّر بهيئة كائن مشوَّه يجمع بين ملامح بشرية وحيوانية، بأنياب بارزة وأجنحة أو مخالب حادة. اشتهر في هيئة تماثيل حجرية خلال العصور الوسطى، خصوصًا في العمارة القوطية الأوروبية، حيث نُصب على واجهات الكاتدرائيات والقصور بوصفه عنصرًا معماريًا ورمزيًا للحراسة وطرد الشر

قصيرة من الأرض. أما من الناحية السلبية، فإن الركض في خط مستقيم للهرب سيجعل منها هدفاً متحركاً سهلاً. وبالعودة للإيجابيات، كانت الغراغيل مصنوعةً من الغرانيت، كما وُصف في الدليل بعناية، على عكس أي شيء آخر في محيط سمعها.

كان الأمر يتطلب توقيتاً دقيقاً. ولحسن الحظ، لم تكن الغراغيل ذكية بشكل خاص، لذا ستصب تركيزها على الإمساك بها، لا على التساؤل عن سبب وقوفها ساكنةً بهذا الشكل المريب.

حبست أنفاسها.

وصل الغرغول الأول إلى ارتفاعٍ مناسب للانقضاض. نادى الغرغول الآخر بصرخةٍ مدوية، ثم هبَط الاثنان نحوها معاً، وأجنحتهما مفرودة كظلالٍ داكنة عريضة في السماء.

صرخت إيرين بأعلى صوتها:

– «**أيـها الغــرانيــت، كُن صخــراً والــزم الســكون!**»

دائماً ما كانت «اللغة» تعمل ببراعة حين تأمر الأشياء بأن تكون على طبيعتها الفطرية، أو أن تفعل ما ترغب فيه طبيعياً. والحجر يريد أن يكون جامداً وصلباً. وأمرها لم يفعل سوى تعزيز النظام الطبيعي للأشياء. لقد كان، إذن، الترياق المثالي للسحر غير الطبيعي الذي يُبقي الغراغيل الحجرية محلقة.

تصلبت الغراغيل في منتصف انقضاضها، وتجمدت أجنحتها في مكانها، فتجاوزتها بسهولة بفعل الاندفاع. ارتطم أحدهما بالأرض بقوة، حافراً حفرةً لنفسه، بينما سقط الآخر بزاوية مائلة، ليحرث أخدوداً واسعاً في طريق الحصى الأملس، قبل أن يصطدم بإحدى أشجار الزيزفون المهيبة المحيطة بالشارع، فتساقطت عليه الأوراق كالمطر.



لم يكن لديها وقتٌ للزهو بنفسها، فانطلقت تركض.

ثم بدأ العواء. إما أنها كانت كلاب الجحيم أو المراهقين، ورجحت الاحتمال الأول. لقد ورد ذكرها في الدليل أيضاً. لقد كان دليل المدرسة مفيداً جداً بشأن الاحتياطات الأمنية. إذا اضطرت للعودة إلى هنا يوماً، فربما تبيع خدماتها كمستشارة أمنية. باسم مستعار بالطبع.

اندلع ضوءٌ أحمر مفاجئ جعل ظلها يقفز على الطريق أمامها، مما أثبت نظرية كلاب الجحيم. حسناً. لقد خططت لكلاب الجحيم. يمكنها التخطيط للسحر المنظم، حتى وإن لم تكن قادرةً على ممارسته. عليها فقط أن تظل هادئة وباردة الأعصاب وتصل إلى محبس إطفاء الحريق في الأمام قبل أن يدركوها.

من بين وسائل الراحة الحديثة في المدرسة، كان هناك نظام مياه جارية واحتياطات ضد الحريق. مما يعني وجود محابس إطفاء موزعة على طول الشارع الرئيسي. المحبس الذي يقع بينها وبين مكتبة المدرسة كان على بُعد عشرين ياردة.

عشر ياردات. كانت تسمع وقع المخالب خلفها، وهي تنبش الحصى بسرعةٍ ضارية. لم تلتفت.

خمس ياردات. شيءٌ يلهث خلفها مباشرةً.

ألقَت بنفسها نحو المحبس، وهو قطعة معدنية سوداء غير لافتة لا يتجاوز ارتفاعها قدمين. ولكن بينما كانت تفعل ذلك، اصطدم وزنٌ حارق ثقيل بظهرها، مما طرحها أرضاً وثبتها هناك. لوَت رأسها بما يكفي لترى المخلوق الضخم الشبيه بالكلب رابضاً فوقها. لم يكن يحرقها تماماً، ليس بعد، لكن جسده كان ساخناً كفرنٍ مستعر. وكانت تعلم أنه، إذا أراد، يمكنه أن يصبح أكثر سخونة بكثير. كانت عيناه

كالجمر المشتعل في رأسه الملتهب، وحين فتح فمه كاشفاً عن أنيابٍ ممزقة، سقط خطٌّ من اللعاب الحارق فوق قفاها. «هيا، جربي،» بدا وكأنه يقول. «فقط جربي شيئاً ما. أعطني عذراً.»

صرخت إيرين:

– «**أيــها المـــحبس، انفجـــــــر!**»

فتح كلب الجحيم فكيه أكثر كتحذيرٍ كسول.

انفجر المحبس عند مستوى الركبة تقريباً. تناثرت شظايا الحديد الملتوي في كل اتجاه مع أول دفقٍ عنيف للماء. كانت إيرين تتأرجح بين التفكير: «الحمد لله أنني منبطحةً على الأرض» وبين: «هذا ما يحدث نتيجة الاختيار السيئ للمفردات». شقَّت قطعة معدنية الهواء على بُعد بوصاتٍ من أنفها وارتطمت بكلب الجحيم بعنف، مما جعله يتدحرج للخلف بعواءِ ألم.

استغرقت إيرين لحظة لتجمع شتات نفسها وتنهض. الماء سيبطئ كلاب الجحيم ويخمد نيرانها لبعض الوقت، لكنها لا تملك أي خطط بديلة أخرى. ولا يزال عليها الوصول إلى مكتبة المدرسة. انطلقت تركض وهي تترنح، ثوبها مبتل وحذاؤها غارق في الماء.

كانت أبواب المكتبة مصنوعةً من خشب ثقيل مدعم بمسامير، وحين جذبتها بقوة، انسكب ضوء الفانوس الدافئ فوقها. «مما يجعلكِ هدفاً سهلاً لأي شخص ينظر في اتجاهكِ،» هكذا نبهتها غريزة البقاء. تعثرت داخل الردهة وأغلقت الباب الثقيل، لكن لم يكن هناك سوى قفل واحد كبير ولا مفتاح له. ولكن مرة أخرى، لم تكن بحاجة لمفتاح.

انحنت وهمست بـ «اللغة»:

– «**يا قفــــل بـــــاب المـــكتبــة، أوصــد نفســـك.**»

كان صوت سقوط ألسنة القفل في موضعها مرضياً للغاية. خاصةً عندما كان الصوت التالي، بعد ثوانٍ قليلة، هو ارتطام كلب الجحيم الثقيل بالباب من الجانب الآخر.

صاح صوتٌ غاضب من أعماق المكتبة:

— «ماذا يحدث هناك؟»

كانت إيرين قد استطلعت المكان مسبقاً، متذرعةً بقطعة قماش وملمع أثاث. أمامها مباشرةً كانت رفوف الكتب غير الروائية، رفوفٌ تعج بالكتب في كل شيء من التنجيم إلى الزرادشتية. وإلى اليمين، كان هناك مكتب صغير حيث تُخزن الكتب المخصصة للترميم. والأهم من ذلك، كان المكتب يحتوي على باب يمكنها استخدامه للخروج من هنا، وهذا ما كانت تحتاجه.

جاءت ضربة أخرى من خلفها. ارتجَّ الباب الرئيسي تحت الهجوم، لكنه ظل صامداً.

لم تكلف نفسها عناء الرد على الصوت الذي سمعته. بدلاً من ذلك، نفضت الحصى عن ملابسها، مجبرةً نفسها على الهدوء. كان جو المكان يهدئ روعها تلقائياً؛ أضواء الفوانيس الغنية، رائحة الورق والجلد، وحقيقة أنها أينما نظرت، كانت ترى كتباً.. كتباً.. كتباً جميلة.

دقة أخرى على الباب الخارجي، وصوتُ صياحٍ غاضب. حسناً، ربما لا يجب أن تسترخي أكثر من اللازم.

وقفت أمام باب المكتب المغلق، وأخذت نفساً عميقاً.

قالت:

— «افتح نحو **المـكـتــبـة**.»

منحت كلمة «المكتبة» قيمتها الكاملة في «اللغة»، وشعرت بالوشم المرسوم على ظهرها يتحرك ويتلوى مع تأسيس الرابط. حدثت تلك اللحظة المعتادة من الوعي والضغط، وكأن شيئاً ضخماً ولا يمكن تصوره كان يقلب صفحات عقلها. كان الأمر يستمر دوماً لفترة أطول قليلاً مما يُحتمل، ثم اهتزَّ الباب تحت يدها وانفتح.

أشار انفجارٌ مفاجئ من الضوضاء إلى أن ملاحقيها قد نجحوا في الدخول. شعرت بأسفٍ عابر لأنها لم تملك الوقت لجمع كتبٍ أخرى، ثم خطت بسرعة إلى الداخل. ومع انغلاق القفل خلفها، أعاد الباب تعريف نفسه كجزءٍ من العالم الذي تركته وراءها. ومهما حاولوا فتحه الآن، فلن يكشف لهم إلا عن المكتب الذي ينتمي إليه أصلاً. لن يتمكنوا أبداً من تتبعها إلى هنا.

لقد صارت في المكتبة. ليس مجرد أي مكتبة، بل «المكتبة العظمى».

ارتفعت الرفوف العالية على الجانبين، شاهقةً وغاصةً بالكتب بحيث لا يمكنها رؤية ما يقع خلفها. كانت الفجوة الضيقة أمامها لا تكاد تكفي لمرورها. ترك حذاؤها آثاراً مبللة في الغبار خلفها، وتخطت ثلاث مجموعات من الملحوظات المهملة وهي تتجه نحو المنطقة المضاءة في الأفق. كانت الأصوات الوحيدة هي صرير خفي غير مسموع في مكانٍ ما إلى يسارها، غير منتظم ومتردد كحركة أرجوحة طفل بطيئة.

انفتحت المساحة الضيقة فجأة على غرفة أوسع مكسوة بالخشب، ذات أرضية خشبية. تطلعت حولها، لكنها لم تستطع تمييز المكان فوراً. كانت الكتب على الرفوف مطبوعة، وبعضها بدا أكثر حداثة من أي كتبٍ في العالم الذي غادرته للتو، لكن ذلك في حد ذاته لم يثبت شيئاً. كانت

الطاولة الكبيرة في المركز والكراسي مغطاةً بالغبار، تماماً مثل الأرضية، وكان الحاسوب القابع على الطاولة صامتاً. عُلّق فانوسٌ واحد من السقف، تتوسطه بلورة بيضاء تشتعل ببرياء. وفي الجدار البعيد، أطلت نافذة مقوسة على شارع ليلي تضيئه مصابيح الغاز، وكانت الريح تعبث بأغصان الأشجار، فتجعلها تتمايل وتنحني بصمت.

تنهدت إيرين بارتياح، وجلست على أحد الكراسي، ونفضت الحصى العالق بشعرها، واستخرجت الكتاب المسروق من جيبها الخفي. كان آمناً وجافاً. مهمةٌ أخرى أُنجزت، حتى وإن اضطرت للتخلي عن هويتها السرية. بل إنها منحت المدرسة أسطورةً يتناقلونها. جعلتها الفكرة تبتسم؛ فبإمكانها أن تتخيل الصبية الجدد وهم يروون قصة «الليلة التي تعرض فيها منزل توركين للسطو». ستتوسع التفاصيل بمرور الوقت، وستصبح في النهاية لصةً عالميةً محترفة تسللت إلى المكان متنكرة، وأغوت نصف المعلمين، واستدعت الشياطين لمساعدتها على الهرب.

نظرت بتأمل إلى الكتاب بين يديها. بعد كل هذا العناء للحصول عليه، كانت فضولية قليلاً لمعرفة أسرار السحر العظيمة التي قد يكشفها. هل هو استحضار جيوش الموتى؟ استدعاء الأشباح؟ كيف تطيل حياتك بشكل غير طبيعي لآلاف السنين؟

فتحته من البداية. قرأت الصفحة الأولى:

«إن نظريتي هي أن الحقائق الكبرى التي تقوم عليها الحياة والموت يمكن فهمها بشكل أفضل كحكاية — أي كعمل خيالي. فلا سبيل للعقل البشري أن يفهم، ناهيك عن أن يتقبل، أيّاً من المبادئ الأساسية التي تحكم انتقال الأرواح وعودتها، أو تدفق الطاقات التي يمكنها ربط الجسد على الخط الفاصل بين الحياة والموت، من الناحية العملية: إن القوانين التي

ناقشها الآخرون، أو اقترحوها، أو حتى أكدوها في النصوص العليا حول هذا الموضوع، تنزلق بعيداً عن حدود ذلك المستوى من الفهم الذي يسمح بالإدراك الفطري الحقيقي والتلاعب بتلك الضرورات.»

قررت أن هناك الكثير من الفواصل والعبارات الطويلة جداً.

«لذا قررتُ وصف عملي وتجاربي، والفهم الذي استخلصته منها، في شكل قصة. ولمن يرغب في ذلك، فليأخذ منها ما يستطيع. رغبتي الوحيدة هي الشرح والتنوير.»

وآملت إيرين، أن يكون الكتاب «ممتعاً» أيضاً. قلبت الصفحة.

«كان ذلك في صباح عيد ميلاد بيريدور حين جاءته الغربان للمرة الأخيرة. كان قد أمضى ثلاثة أسابيع في منزل الساحرات، وعلمنه الكثير، لكنه غاب طويلاً عن بلاط آرثر. انقضَّ الغراب الأول، واتخذ هيئة امرأة. وعندما ضربها ضوء الصباح، ظهرت بالهيئة التي يعرفها: عجوز شمطاء، لا تكاد تقوى على حمل الخوذة والدرع اللذين ترتديهما. ولكن عندما كانت تقف في الظل، كانت شابةً فاتنة: لم يكن هناك شعرٌ بهذا السواد أو بشرةٌ بهذه الشحوب، أو عيونٌ بمثل تلك الحلاوة الثاقبة.»

«قالَت: "يا بيريدور، باسم سيدات أوركني، أطلب منك أن تبقى هنا يوماً إضافياً. فقد فتشتُ أنا وأخواتي النجوم، وأقول لك إنك إذا رحلتَ عنا الآن، فستهلك قبل أوانك، وفي رحلة حمقاء: ولكن إذا بقيت يوماً واحداً إضافياً معنا، فسيكون مسارك ثابتاً وستلتقي بأختك قبل أن ينتهي كل شيء."»

«قال بيريدور: "ليس لي أخت."»

«قالت الغرابة الساحرة: "أجل، ليس لك أختٌ قابلتَها بعد.."»

أغلقت إيرين الكتاب على مضض. بالطبع كان عليها إرساله إلى كوبيليا أولاً للفحص والتقييم، ولكن ربما بعد ذلك يمكنها وضع يدها عليه مجدداً.

لا ضير في الفضول لمعرفة كيف ستنتهي القصة. فهي «أمينة مكتبة»، وهذا جزءٌ من وظيفتها. لم تكن تريد أسرار السحر العظيمة، أو أي نوع آخر من السحر. كانت تريد فقط — ولطالما أرادت — كتاباً جيداً لتقرأه. أما مطاردة كلاب الجحيم وتفجير الأشياء، فكانت مجرد أجزاء غير مهمة من العمل. إن الحصول على الكتب، هو ما يهمها حقاً.

هذا هو جوهر المكتبة كما عُلمت؛ لم يكن الأمر يتعلق بمهمة سامية لإنقاذ العوالم، بل بالعثور على أعمال خيالية فريدة، وحفظها في مكانٍ خارج حدود الزمان والمكان. ربما يظن البعض أن هذا أسلوبٌ تافه لقضاء الأبدية، لكن إيرين كانت سعيدة بخيارها. وأي شخص يحب القصص حقاً سيتفهم ذلك.

وإذا كانت هناك شائعات بأن لـ المكتبة غرضاً أعمق — حسناً، هناك دائماً الكثير من الشائعات، ولديها مهامٌ لتنجزها. يمكنها الانتظار للحصول على مزيد من الإجابات. فلديهَا متسعٌ من الوقت.

الفصل الثاني

انصبَّ تركيز إيرين على الخطوات التالية؛ فكلما سارعت بتسليم هذا الكتاب وتقديم تقريرها، تمكنت من تنظيف نفسها وتجفيف ثيابها، والجلوس مع كتابٍ جيدٍ يخصّها. وكان من حقها أن تتوقع إجازة لبضعة أسابيع تتفرغ فيها لمشاريعها الخاصة، وهي أمنيةٌ كانت تتوق إليها بكل كيانها في تلك اللحظة.

دبّت الحياة في الحاسوب القابع أمامها حين ضغطت مفتاح التشغيل. مسحت الشاشة بكمّ ثوبها، ونفخت الغبار عن لوحة المفاتيح. كان من المؤسف أنه لا أحد يملك القدرة على التحكم في نقطة العودة عند الخروج القسري من العوالم الموازية إلى المكتبة؛ فكل ما تعرفه هو أنك ستنتهي في مكانٍ ما داخلها، وإن كانت هناك قصص رعبٍ تُروى عن أشخاصٍ قضوا سنواتٍ وهم يحاولون إيجاد طريق عودتهم من سراديب الموتى حيث تُخزن البيانات الموغلة في القدم.

توهجت الشاشة بشعار «المكتبة»: كتابٌ مغلق، تظهر فوقه نافذتان لاسم المستخدم وكلمة المرور. كتبت بسرعة، ثم ضغطت مفتاح الإدخال، فانفتح الكتاب ببطء، وراحت صفحاته تتقلب لتعرض لها صندوق الوارد.

على الأقل، لم يفلح أحدٌ حتى الآن في اختراق نظام حواسيب المكتبة بالرسائل الطفيلية.

استدعت خريطةً محلية، فظهرت على الشاشة كنموذج ثلاثي الأبعاد، وأشار سهمٌ أحمر إلى غرفتها الحالية. لم تكن بعيدةً جداً، فهي لا

تبعد سوى مسيرة ساعتين مشياً عن المركز. واطمئناناً منها، أرسلت بريداً إلكترونياً سريعاً إلى كوبيليا، رئيستها المباشرة ومعلمتها:

«*إيرين هنا. لقد حصلتُ على المادة المطلوبة. أرجو تحديد موعدٍ للتسليم. أنا حالياً في القسم (A-٢٥٤) أدب أمريكا اللاتينية القرن العشرين، على بُعد ساعتين ونصف تقريباً من مكتبكِ.*»

كسر صوتُ التنبيه الصادر عند إرسال الرسالة صمت الغرفة.

كان من المؤسف أن الهواتف المحمولة، وشبكات الـ Wi-Fi، وأي تقنياتٍ مشابهة، كلها تتعطل داخل «المكتبة»؛ فأي نوعٍ من الإرسال لا يعتمد على روابط مادية بحتة كان يفشل، أو يصاب بالخلَل، أو يطلق ضجيجاً ساكناً بنبرات مغردةٍ حادة. لقد أُجريت أبحاث، ولا تزال تُجرى، وتشكُّ إيرين فيٍّ أنها ستظل تُجرى بعد مئة عامٍ من الآن. ولم يكن الفشل حليف التكنولوجيا وحدها، بل إن وسائلَ التواصل السحرية كانت هي الأخرى عديمة الفائدة، وغالباً ما كانت آثارها الجانبية أكثر إيلاماً، أو هكذا سمعت، فهي لم تجربها قط؛ إذ كانت تُفضل بقاء دماغها داخل جمجمتها حيث ينتمي.

وبينما كانت تنتظر الرد، راحت تطلع على رسائل بريدها؛ كانت الأمور المعتادة: طلباتٌ جماعية لكتبٍ في مواضيع بحثية محددة، ومقارناتٌ للأدب الإباحي في العصر الفيكتوري عبر العوالم الفيكتورية الموازية، وشخصٌ يروج لأطروحته الجديدة عن تعاطي المنشطات والشعر الترابطي. حذفت رسالة توسلٍ محزنة تبحث عن مقترحاتٍ لتحسين استخدام البنسلين في العوالمٍ الموازية التي تعيش عصوراً مظلمة. لكنها ميزت دزينةً من تحديثات «اللغة»، ونحتها جانباً لتفحصها لاحقاً.

أما الرسالة الشخصية الوحيدة في المجموعة فكانت من والدتها؛ ملاحظة سريعة ومقتضبة، تماماً كرسالة إيرين إلى رئيستها، تُعلمها فيها أنها ووالدها سيكونان في العالم الموازي (G-٣٣٧) طوال الأشهر القليلة القادمة. كانا في روسيا، يبحثان عن الأيقونات وألحان المزامير. أعربت الملحوظة عن أملها في أن تكون إيرين بخير وتستمتع بوقتها، وسألتها بضبابية عما ترغب فيه كهديةٍ لعيد ميلادها.

وكالعادة، كانت الرسالة بلا توقيع؛ فقد كان من المتوقع من إيرين أن تقرأ الاسم في عنوان البريد الإلكتروني ولا تطلب المزيد.

أسندت ذقنها إلى يديها وحدقت في الشاشة. لم ترَ والديها منذ عامين؛ فـ «المكتبة» تُبقي الجميع مشغولين، ولأكون صادقة، لم تكن تعرف أبداً ما ستقوله لهما هذه الأيام. يمكن للمرء دائماً أن يناقش العمل، ولكن ما وراء ذلك كان حقل ألغامٍ من التفاعل الاجتماعي. من المحتمل أن يتقاعد والداها في «المكتبة» بعد بضعة عقود، وتأمل أن تكون بحلول ذلك الوقت قد تعلمت كيفية إدارة حديثٍ مهذبٍ معهما. لقد كان الأمر أسهل بكثير حين كانت أصغر سناً.

ردت على البريد قائلة:

«*أودُّ الحصول على بعض الكهرمان.*»

من المفترض أن يكون طلباً آمناً بما يكفي.

كانت تحديثات «اللغة» كما توقعت بعد غياب ثلاثة أشهر؛ لا قواعد نحوية جديدة، بل بعض المفردات الجديدة، ومعظمها خاصٌّ بعوالم معينة ويتعامل مع مفاهيم أو أدوات لم تدخل «المكتبة» من قبل. بعض إعادة التعريف للصفات، ومجموعة مختارة من الظروف التي تصف فعل النوم.

تصفحتها إيرين بأسرع ما يمكن؛ فالمشكلة في لغةٍ متطورة يمكن استخدامها للتعبير عن الأشياء بدقة هي أنها، حسناً، تتطور. وكلما جلب عملاء مساهمون مثل إيرين مواد جديدة إلى «المكتبة»، زاد تغير «اللغة». تساءلت بكآبة ما إذا كان كتابها الأخير سيلهم كلمةً جديدةً أو كلمتين، أم سيغير كلمةً قديمةً فحسب؛ ربما سيساعد في تعريف درجة معينة من سواد اللون الأسود.

ومع ذلك، كانت هناك تعويضات؛ مثل القدرة على إعطاء أوامر للعالم من حولك. لكنها حين وهبت نفسها للأبدية، لم تكن تتوقع تماماً أن تقضي معظمها في مراجعة قوائم المفردات.

أصدر الحاسوب رنيناً مجدداً؛ كان رداً من كوبيليا، وقد وصل بسرعةٍ مدهشة. فتحته إيرين، ورمشت بعينيها أمام طول الرد:

«عزيزتي إيرين،

يا له من سرورٍ أن أراكِ تعودين إلى هنا مجدداً! رغم أنني حين أقول أراكِ، أقصد أنني أشعر بوجودكِ في المكتبة. لقد مرت عدة أسابيع الآن، ولن تصدقي مدى سعادتي بعودتكِ...»

قطبت إيرين حاجبيها؛ بدا هذا الكلام وكأنه أُعدَّ مسبقاً، وانتابها شعورٌ سيئ حيال ذلك.

«... ولديَّ مهمة صغيرة لكِ للقيام بها.»

بالطبع.

«عملكِ المتكرر هناك في العوالم الموازية جعلكِ تتأخرين عن المنهج المطلوب لتوجيه الطلاب الجدد، ولكن لحسن الحظ، وجدتُ وسيلةً لتجاوز ذلك.»

أصدرت إيرين صوتاً ساخراً. كانت كوبيليا قد أكدت لها أن كل شيء سيُسوى، لكنها أعطت انطباعاً بأنها نجحت في تنحية الأمر جانباً وتجاوزه، لا أن عليها تعويضه لاحقاً بمهمةٍ غير سارة.

«تصادف تماماً...»

لقد وقعتُ في الفخ تماماً.

«... أن لدينا منتسباً جديداً بين أيدينا، وهو مستعدٌ لأول عملٍ ميداني له، وطبعاً فكرتُ فيكِ كالشخص المثالي لتوجيهه! ستتمكنين من منحه كل فوائد خبرتكِ، وفي الوقت نفسه ستحصلين على بعض النقاط في سجلكِ لتعاملكِ معه.»

أتعامل معه؟ ماذا يكون، قنبلةً موقوتة؟ لقد اكتفت تماماً من التلاميذ في الأسابيع القليلة الماضية.

«إنها مهمة قصيرة جداً، ولا ينبغي أن تستغرق منكِ أكثر من بضعة أيام، وربما أسبوع. ستعملين بالقرب من نقطة خروج ثابتة إلى العالم المحدد، لذا إذا حدثت أي مشاكل أو تأخير، يمكنكِ إرسال تقرير لي.»

فكرت إيرين أن الأمر يبدو وكأن كوبيليا تريد حقاً حماية نفسها في هذه المهمة.

«عزيزتي إيرين، لديَّ ثقةٌ مطلقة بكِ. أعلم أنني أستطيع الاعتماد عليكِ للارتقاء إلى تقاليد المكتبة وتوقعاتها، مع تقديم نموذجٍ قيم لهذا المنتسب الجديد.»

بدا الأمر أيضاً وكأن كوبيليا كانت تقرأ الكثير من منشورات التوظيف الرديئة ومدونات السلوك.

«لقد سمحتُ لـ كاي (هذا هو اسمه) باستخدام إحدى "الانتقالات السريعة" إلى حيث أنتِ، لذا يمكنكِ توقعه في أي لحظة.»

توقفت إيرين لتستمع بتوتر. إذا كان ذلك صحيحاً، فقد سُمح لـ كاي باستخدام واحدةٍ من أكثر وسائل النقل تقييداً في «المكتبة» بأكملها. وهذا يعني إما أن كوبيليا لا تريد أي نقاش وترغب فقط في إبعادها والبدء بالمهمة، أو أن المهمة عاجلة جداً، أو أن هناك شيئاً مشبوهاً بشأن كاي لدرجة أنه لا ينبغي أن يُرى علناً. ربما ببساطة لا يستطيع كاي التعامل مع التنقل الطبيعي في «المكتبة»، وهو ما يعد خبراً سيئاً في حد ذاته... وهذه كانت جملةً معقدة مبنية على احتمالات متداخلة، وهو ما يعتبر نحواً رديئاً. وهي تكره النحو الرديء.

«إنه يملك كل تفاصيل المهمة.»

كان هذا سيئاً حقاً؛ فقد يعني أن كوبيليا لم تكن مستعدة لوضع التفاصيل في بريد إلكتروني. بدأت إيرين تشم رائحة سياسة، ولم تكن ترغب في التورط في ذلك أبداً. لطالما اعتقدت أن كوبيليا رئيسةٌ عقلانية، مهتمة بالبحث، ولا تلجأ للميكافيلية إلا نادراً؛ وليست من النوع الذي يلقي بها في مهمةٍ غامضة، مع متدربٍ عديم الخبرة، ودفعةٍ سريعة عبر أقرب نقطة خروج للعبور.

«اتركي موادكِ الأخيرة في أقرب مكتب استلام؛ وضعي عليها اسمي، وسأحرص على معالجتها.

المخلصة لكِ،

كوبيليا»

حسناً، كان هذا شيئاً على الأقل...

من الممر في الخارج، جاءت هبة ريحٍ مفاجئة متبوعة بصوت ارتطام، يشبه صوت أنبوب ضغط هواء يسلّم أوراقاً.

صمتٌ قصير. ثم طرقٌ على باب قريب.

نادت إيرين وهي تدير كرسيها لتواجه الباب:

– «تفضل بالدخول.»

انفتح الباب ليكشف عن شاب.

نهضت إيرين واقفةً وقالت:

– «لا بد أنك كاي. تفضل بالدخول.»

كان يمتلك ذلك النوع من الجمال الذي ينقله فوراً من مرتبة حبيبٍ محتمل إلى مستحيلٍ مطلق. لا أحد يحظى بقضاء الوقت مع أشخاصٍ يبدون هكذا، إلا على الصفحات الأولى للصحف والمجلات البراقة. كانت بشرته شاحبةً لدرجة أنها استطاعت رؤية العروق الزرقاء عند معصميه وحلقه. وكان شعره بلونٍ أسود يبدو كأنه أزرق فولاذي في الأضواء الخافتة، مضفوراً خلف رقبته. حاجباه كانا من الدرجة ذاتها، كأنهما خطان من الحبر على وجهه، وعظام وجنتيه كانت حادةً كفيلتان بقطع الماس، ناهيك عن قطع الجبن. كان يرتدي سترةً جلديةً سوداء عتيقة وبنطال جينز فشلا تماماً في التقليل من وسامته الصارخة، ولم يكن قميصه الأبيض مغسولاً بعناية فحسب، بل كان مكويّاً ومنشّى.

قال الشاب:

– «أجل، أنا هو. وأنتِ إيرين، أليس كذلك؟»

حتى صوته كان يستحق الإعجاب؛ منخفض، دقيق، وأجش. بدا اختياره للكلمات العامية تصنّعاً أكثر منه إهمالاً حقيقياً. اعترفت إيرين قائلة:

– «أنا هي. وأنت متدربي الجديد.»

– «همم.» خطا داخل الغرفة، تاركاً الباب يغلق خلفه. «وأخيراً سأخرج من هذا المكان.»

– «أرى ذلك. تفضل بالجلوس من فضلك. لم أنتهِ من قراءة بريد كوبيليا بعد.»

رمش بعينيه، ثم توجه بخطى واسعة إلى أقرب كرسي وألقى بنفسه عليه، مما أثار سحابةً خانقة من الغبار.

«تعاملي مع الأمور بسلاسة وكفاءة، ويمكنكِ توقع بعض وقت الفراغ لأبحاثكِ الخاصة عند انتهاء المهمة. يؤسفني أن أضطر لإرسالكِ للخارج بهذه السرعة، ولكن للضرورة أحكام يا عزيزتي إيرين، وعلينا جميعاً أن نكتفي بالموارد المتاحة لنا.»

تابعت القراءة:

«المحبة لكِ،

كوبيليا»

جلست إيرين متكئةً ونظرت بعبوس إلى الشاشة. لم تكن من هواة نظرية المؤامرة، لكن لو كانت كذلك، لاستطاعت تأليف مجلدات بناءً على تلك الفقرة. قالت وهي تلتفت إليه:

– «تقول كوبيليا إنك تملك كل تفاصيل المهمة.»

– «أجل. السيدة كوبيليا،» شدد على اللقب قليلاً، «أعطتني الأوراق. لم تبدُ كثيرة.»

استدارت إيرين لتواجهه وقالت مادّةً يدها:

– «إذا كنتَ لا تمانع؟»

أدخل كاي يده داخل سترته، وأخرج ظرفاً أزرق نحيفاً. ناوله إياها بعناية، جاعلاً الإيماءة تتسم بالتهذيب لا بمجرد التسليم.

– «تفضلي. أيتها الرئيسة؟ سيدتي؟ قائدتي؟»



قالت:

— «إيرين تكفي.» ترددت للحظة، متمنيةً لو كان لديها سكين ورق، لكن لم يكن هناك واحدٌ في المتناول ولم تكن ترغب في إظهار المكان الذي تخبئ فيه نصلها السري. بلمحةٍ من الانزعاج من غياب الأناقة، مزقت الظرف واستخرجت منه ورقةً واحدة.

لم يمل كاي بجسده ليتلصص على الرسالة، لكنه أمال رأسه بفضول.

قرأت إيرين بصوتٍ مسموع:

— «الهدف: مخطوطة "غريم[٢]" الأصلية، المجلد الأول، عام ١٨١٢، موجودة حالياً في لندن، العالم الموازي (B-٣٩٥). أقرب مخرج للعبور داخل المكتبة البريطانية، الواقعة داخل المتحف البريطاني. مزيد من التفاصيل متوفرة لدى أمين المكتبة المقيم في الموقع.»

— «غريم؟»

— «حكايات خرافية، على ما أظن.» نقرت إيرين بإصبعها على حافة الورقة. «ليس هذا من تخصصاتي. لستُ متأكدة لماذا كُلفتُ —— لماذا كُلفنا بها. إلا إذا كان لديك خبرة في هذا المجال؟»

هزَّ كاي رأسه قائلاً:

— «لستُ مطلعاً على الأمور الأوروبية. لا أعرف حتى أي عالمٍ موازي هو ذاك. هل تعتقدين أنه شيء فريد في ذلك العالم؟»

---

[٢] غريم (*Grimm*): شخصية حقيقية. يقُصد به غالباً الأخوان غريم، ياكوب وفيلهلم غريم، كاتبان وباحثان ألمانيان في القرن التاسع عشر، اشتهرا بجمع وتدوين الحكايات الشعبية الأوروبية مثل سندريلا وهانسل وغريتل. أسهما في حفظ التراث الشفهي الألماني، وتميّز قصصهما بنبرة مظلمة وأخلاقية عميقة أثّرت في الأدب والفولكلور العالميين.

كان سؤالاً منطقياً؛ فهناك ثلاثة أسباب أساسية تجعل أمناء المكتبة يُرسلون إلى العوالم الموازية للعثور على كتب محددة: إما لأن الكتاب مهم لأمين مكتبة رفيع المستوى، أو لأن الكتاب سيكون له تأثير على «اللغة»، أو لأن الكتاب محدد وفريد في ذلك العالم الموازي. وفي الحالة الأخيرة، فإن امتلاك «المكتبة» له سيعزز روابطها بالعالم الذي نشأ فيه الكتاب. (لم تكن إيرين متأكدة من أي الفئات الثلاث يندرج تحتها استحواذها الأخير، رغم أنها اشتبهت في حالة "تأثير على اللغة". كان عليها أن تحاول اكتشاف ذلك في مرحلة ما).

إذا كانت مخطوطة «غريم» هذه من نوع الكتب التي تظهر في عدة عوالم موازية مختلفة، فلن تستحق مهمة محددة من كوبيليا. فبحلول الوقت الذي يصبح فيه أمناء المكتبة كباراً، لا يهتمون إلا بالنوادر. أي كتاب عادي يوجد في عوالم متعددة سيظهر ببساطة في قائمة تسوق شخص ما العادية. إن مسألة لماذا تكون بعض الكتب فريدة وتوجد فقط في عوالم معينة كانت من الألغاز الكبرى، وتأمل إيرين أن تحصل على إجابة لها يوماً ما. ربما حين تصبح أمينة مكتبة رفيعة المستوى بنفسها. بعد عقودٍ في المستقبل. وربما حتى قرون.

على أي حال، لا فائدة من الوقوف والتخمين. حاولت إيرين صياغة إجابتها لتبدو عقلانية، بدلاً من مجرد إسكات كاي في الدقائق العشر الأولى من تعارفهما.

— «الأفضل أن نعرف من أمين المكتبة المقيم حين نصل إلى وجهتنا. بما أن كوبيليا لم تخبرك، ولم تخبرني...»

هزَّ كاي كتفيه.

— «طالما أن هذا سيخرجني من هنا، فلن أشكو.»

سألت إيرين بفضول:

— «منذ متى وأنت هنا؟»

— «خمس سنوات.» كان صوته مصقولاً بتهذيبٍ حذر، كحجارةٍ صقلها البحر. «أعلم أن السياسة هي إبقاء الجدد هنا حتى يدرسوا الأساسيات ويتأكدوا من أننا لن نهرب، لكنها كانت خمس سنوات لعينـة.»

قالت إيرين ببرود وهي تكتب رداً سريعاً على بريد كوبيليا:

— «أنا آسفة.»

— «آسفة؟»

— «أجل. لقد وُلدتُ في هذه الوظيفة. والداي كلاهما أمناء مكتبة. ربما جعل ذلك الأمور أسهل؛ فقد كنتُ أعرف دائماً ما هو متوقع مني.» كان ذلك حقيقياً؛ فقد جعل الأمور أسهل. كانت تعرف دائماً ما الذي تتربى من أجله. سنوات «المكتبة» كانت تتناوب مع سنواتٍ في العوالم الموازية، ومضت سنة تلو الأخرى، مع الدراسة والممارسة والجهد وممرات الكتب الطويلة الصامتة.

— «أوه.»

— «لا أظن أن الانتظار كان... ممتعاً.»

سخر قائلاً:

— «ممتعاً؟ لا، لم يكن ممتعاً. كان مثيراً للاهتمام نوعاً ما، لكنه لم يكن ممتعاً.»

— «هل أحببتَ كوبيليا؟» أرسلت البريد الإلكتروني، ثم سجلت الخروج بأناقة.

— «لم أدرس تحت إشرافها إلا في الأشهر القليلة الماضية.»

— «إنها واحدة من أكثر...» توقفت إيرين، مفكرةً في الكلمات التي يمكن أن تستخدمها ولا تسبب لها المشاكل لاحقاً إذا نُقلت في مكانٍ آخر. كانت تحب كوبيليا شخصياً، لكن كلماتٍ مثل «ميكافيلية»، «عديمة المبادئ بكفاءة»، و«باردة القلب» لا تلقَى ترحيباً دائماً في المحادثات.

قال كاي بسرعة، فالتفتت إيرين لتنظر إليه مستغربةً الدفء في صوته:

— «أوه، لقد أحببتُها. إنها امرأة قوية. منظمة جداً. شخصية قيادية. كانت والدتي ستحبها — لو.. كما تعلمين. إنهم لا يأخذون أشخاصاً للعمل هنا ولهم أقارب أحياء مقربون، أليس كذلك؟»

وافقت إيرين قائلة:

— «لا. هذا في القواعد. سيكون من غير العدل لهم.»

— «و.. أمم..» نظر إليها من تحت رموشه الطويلة. «ماذا عن تلك الشائعات التي تقول إنهم أحياناً يتأكدون من عدم وجود أقارب أحياء مقربين؟ أو عدم وجود أي أقارب أحياء على الإطلاق؟»

ابتلعت إيرين ريقها. مالت لتطفئ الحاسوب، آملةً أن يخفي ذلك إيماءتها العصبية.

— «هناك دائماً شائعات.»

— «هل هي حقيقية؟»

أحياناً أعتقد أنها كذلك. لم تكن ساذجة؛ كانت تعلم أن «المكتبة» لا تلتزم دائماً بقواعدها الخاصة. قالت ببرود:

— «لن يفيد أياً منا أن أخبركِ أنها كذلك.»

– «أوه.» اتكأ على كرسيه مجدداً.

– «أنت هنا منذ خمس سنوات. ماذا تتوقع مني أن أقول؟»

– «كنتُ أتوقع منكِ نوعاً ما أن تعطيني الرواية الرسمية.» كان ينظر إليها الآن باهتمامٍ أكبر، وعيناه تلمعان في الضوء الخافت. «لم أتوقع أن تلمحي إلى أنها قدٍ تكون حقيقة.»

قالت بسرعة:

– «لم أفعل.» أعادت الورقة إلى الظرف، ودسته في جيب ثوبها. «إليك أول مقترح لي بصفتي مرشدتكِ الجديدة، يا كاي. "المكتبة" تقوم على نظريات المؤامرة. لا تعترف بشيء، أنكر كل شيء، ثم اكتشف ما يحدث وانشر بحثاً حول هذا الموضوع. ليس الأمر وكأنهم يستطيعون منعك من فعل ذلك.»

أمال رأسه قائلاً:

– «أوه، يمكنهم دائماً التخلص من البحث.»

ضحكت قائلة:

– «التخلص من البحث؟ يا كاي، هذه هي "المكتبة". نحن لا نتخلص من أي شيء هنا أبداً. على الإطلاق.»

هزَّ كتفيه، متخلياً بوضوح عن الاستفسار.

– «حسناً. إذا كنتِ لا تريدين أن تكوني جادة في هذا الأمر، فلن أضغط عليكِ. هل نتحركَ؟»

نهضت إيرين قائلة:

– «بالتأكيد. اتبعني من فضلك. يمكننا التحدث في الطريق.»

مرت نصف ساعة قبل أن يبدأ الكلام مجدداً، باستثناء الهمهمات العابرة للموافقة أو الاعتراض. كانت تقود الطريق عبر سلم حلزوني من البلوط الداكن والحديد الأسود؛ كان ضيقاً جداً لدرجة لا تسمح لهما بالسير جنباً إلى جنب، وكان هو يسير خلفها ببضع خطوات. نوافذ ضيقة في الجدران السميكة تطل على بحرٍ من الأسطح. تبرز بين الحين والآخر هوائيات التلفاز بين الصروح المبنية من الطوب الكلاسيكي والقباب الشرقية الزائفة.

أخيراً قال كاي:

— «هل يمكنني طرح بعض الأسئلة؟»

— «بالطبع.» وصلت إلى أسفل السلم، وتنحت جانباً حتى يلحق بها. كان الممر الواسع أمامها يعج بالأبواب على الجانبين، بعضها مصقول وممسوح من الغبار أفضل من غيره. تلألأ ضوء الفوانيس على لوحاتها النحاسية.

— «آه، إذا كنا سنذهب سيراً على الأقدام إلى نقطة الخروج، ألن يستغرق هذا وقتاً طويلاً؟»

قالت إيرين:

— «نقطة وجيهة. هي في الجناح (B-٣٩٥)، هل تذكر؟»

— «طبعاً.» قالها وهو ينظر إليها بتعالٍ؛ فقد كان أطول منها بعدة بوصات، مما سمح له بقدرٍ لا بأس به من الاستعلاء.

— «حسناً.» بدأت السير في الممر. «لقد ألقيتُ نظرة على الخريطة قبل دخولك، وأقرب وصول إلى الجناح (B) هو من هذا الطريق ثم إلى الطابقين العلويين. يمكننا فحص إحدى محطات الحاسوب حين نصل

إلى هناك ونجد أسرع طريق من هناك إلى (٣٩٥). نأمل ألا يستغرق الأمر أكثر من يومٍ أو نحو ذلك من مكاننا هذا.»

— «يوم أو نحو ذلك.. ألا يمكننا فقط أخذ انتقال سريع للوصول إلى هناك؟»

— «لا، أخشى أن ذلك غير ممكن. لا أملك الصلاحية لطلب واحد.» لم تستطع إلا التفكير في كم كان ذلك سيسهل الأمور. «يجب أن تكون في مستوى كوبيليا لتطلب واحداً من هؤلاء.»

— «أوه.» مشى في صمت لبضع خطوات. «حسناً. ماذا تعرفين عن (٣٩٥-B)؟»

— «حسناً، من الواضح أنه عالم موازي يطغى عليه السحر.»

— «لأنه عالم من النوع (B) أو (بيتا)، أليس كذلك؟»

— «أجل. من أي نوع كنتَ أنت، بالمناسبة؟»

— «أوه، أحد عوالم "غاما". لذا كان هناك تكنولوجيا وسحر معاً. تكنولوجيا عالية، وسحر متوسط. كان لديهم مشاكل في جعلهما يعملان معاً، أي شخص كان "آلياً" بشكل مفرط لم يكن يستطيع جعل السحر يعمل.»

قالت إيرين بحياد:

— «همم. أفترض أنك لا تملك أي تعزيزات آليّة في جسدك.»

— «لا. وهذا أمر جيد أيضاً؛ فقد أخبروني أنها لن تعمل هنا.»

قالت إيرين بدقة:

— «ليس بالضبط. الأمر يتعلق أكثر بأنه لا يمكن لأي جهاز يعمل بالطاقة عبور "المكتبة" دخولاً أو خروجاً وهو لا يزال يعمل. الأجهزة

ستعمل بشكل مثالي إذا استطعت إطفاءها أثناء العبور، ثم تشغيلها مجدداً بمجرد دخولك إلى هنا...»

هزَّ كاي رأسه.

— «ليس هذا جوّي. ما الفائدة منه إذا كان عليَّ الاستمرار في تشغيله وإطفائه؟ لم أكن حقاً مهتماً بالسحر أيضاً. كنتُ أكثر ميلاً لأمور العالم الحقيقي، مثل القتال الجسدي، والفنون القتالية، وأشياء من هذا القبيل.»

سألته:

— «كيف تم اختيارك للعمل في المكتبة إذن؟»

هزَّ كاي كتفيه قائلاً:

— «حسناً، الجميع كان يجري أبحاثاً باستخدام أدوات الإنترنت حيث كنت. لكن من وقتٍ لآخر كنتُ أحصل على وظائف لتعقب كتب قديمة لهذا الباحث. بعضها كان، كما تعلمين، غير قانوني —— وغير قانوني بشكل كبير جداً.. لذا بدأتُ في البحث في خلفيته، ظننتُ أنني قد أجد شيئاً مثيراً للاهتمام. وأعتقد أنني تماديتُ في البحث قليلاً؛ لأن الشيء التالي الذي حدث هو أنني تلقيتُ زيارةً من بعض الأشخاص الصارمين جداً، وأخبروني أنني بحاجة للذهاب والعمل معهم.»

— «أو؟»

نظر إليها كاي ببرود:

— «الـ "أو" كانت ستكون خبراً سيئاً بالنسبة لي.»

صمتت إيرين طوال المدة التي استغرقتها لتجاوز عدة أبواب. وفي النهاية قالت:

— «ها أنت ذا إذن. هل أنت غير سعيد؟»

قال مفاجئاً إياها:

— «ليس تماماً. أنت تلعب اللعبة، وتتحمل المخاطر. كان عرضاً أفضل مما قد يقدمه لي بعض الناس، أليس كذلك؟ أحد الأشخاص الذين يُدرِّسون لي هنا، الأستاذ غريمالدي، قال إنه لو كان لديَّ عائلة لما قدموا لي العرض أبداً. كانوا سيحذرونني بطريقة أخرى فقط. لذا لا يمكنني الشكوى من ذلك.»

— «إذن من ماذا تشكو؟»

— «خمس سنوات.» انعطفا عند زاوية. «لقد مرت خمس سنوات لعينة وأنا هنا أدرس. أعلم بشأن موضوع استمرارية الوقت. سيكون قد مر خمس سنوات منذ أن انقطعتُ عن عالمي الخاص. كل الرجال الذين كنت أعمل معهم سيكونون قد مضوا في حياتهم أو ماتوا. كان ذلك النوع من الأماكن. كانت هناك تلك الفتاة، ستكون قد انتقلت إلى شخصٍ آخر. ستكون هناك صيحات موضة جديدة. أساليب جديدة. تكنولوجيا وسحر جديدان. ربما تكون بعض الدول قد فجرت نفسها. ولن أكون موجوداً لأشهد أيّاً من ذلك. كيف يمكنني أن أسميه عالمي الخاص إذا كنتُ أستمر في تفويت أحداث منه؟»

أجابت إيرين:

— «لا يمكنك ذلك.»

— «كيف تتأقلمين أنتِ؟»

أشارت إيرين إلى الممر:

— «هذا هو عالمي.»

— «حقاً؟»

اشتدت قبضة إيرين على كتابها.

– «تذكر أنني أخبرتكِ أن والديَّ كانا أمناء مكتبة؟ لم أولد في المكتبة، ولكن كان من الممكن أن أكون كذلك. لقد أحضراني إلى هنا بينما كنتُ لا أزال رضيعة. اعتادا أن يأخذاني معهما في المهمات. قالت أمي إنني كنتُ أفضل "قطعة ديكور" حصلت عليها يوماً.» ابتسمت ابتسامة خافتة عند الذكرى. «اعتاد والدي أن يروي لي قصة قبل النوم عن كيف هربوا بمخطوطة في حقيبة حفاضاتي.»

توقف كاي عن المشي وقال:

– «لا.. حقاً؟»

رمشت إيرين بعينيها قائلة:

– «أنا جادة. كنتُ أطلب منه أن يرويها لي كل ليلة.»

– «لقد أخذوكِ في مهماتٍ كهذه؟»

قالت إيرين وهي تدرك الآن ما يزعجه:

– «أوه. لم تكن مهمات خطيرة، بل فقط المهمات الآمنة حيث كنتُ مفيدة. كانا يتركاني خلفهما في المهمات الخطيرة. وبعد ذلك لاحقاً، عندما احتجتُ لتعليمٍ وتأقلمٍ اجتماعي سليم، وضعاني في مدرسة داخلية. المشكلة الوحيدة كانت أن عليَّ أن أكون حذرة في مقدار وقت العطلة الذي أقضيه في المكتبة، وإلا لكان ذلك قد أخرجني من التزامن الزمني مع العالم الذي كنتُ أدرس فيه. تحدثوا عن نقلي بين العوالم إلى مدارس مختلفة حتى أتمكن من قضاء سنوات في المكتبة بينهما، لكننا لم نعتقد أن ذلك سينجح.» كانت فخورة جداً بأنهم ناقشوا الأمر معها، وعاملوها كشخصٍ بالغ وطلبوا رأيها.

سأل كاي بحذر، وكأنها ستصرخ في وجهه لسؤاله:

– «وكان لديكِ.. أصدقاء في المدرسة الداخلية، أليس كذلك؟»

– «بالطبع.»

– «هل لا تزالين على اتصال مع أيٍّ منهم؟»

هزت إيرين كتفيها قائلة:

– «عامل الوقت يقف ضد ذلك. مع مقدار الوقت الذي كان عليَّ قضاؤه في دراسة مخصصة في المكتبة، أو في عوالم أخرى، كان الأمر صعباً.. لقد بقيتُ على اتصال مع بعضهم لفترة من الوقت. كنتُ أرسل رسائل كلما استطعت، لكن في النهاية لم ينجح الأمر. كانت مدرسة في سويسرا. مكاناً لطيفاً. وجيدة جداً في اللغات.»

انعطفا عند زاوية أخرى. أمامهما، ضاق الممر بشكل كبير، وبدأ يميل إلى الأعلى. الأرضية والجدران والسقف كانت كلها مصنوعة من الألواح الخشبية الصامتة ذاتها، المتهالكة والقديمة. نوافذ في الجدار الأيسر تطل على شارع خالٍ تضيئه مشاعل متوهجة، حيث تظهر آثار عجلات طينية مرور حركة المرور، لكن لم يكن هناك أي أثر لأي شخص هناك.

سأل كاي:

– «إلى الأمام مباشرة؟»

أومأت إيرين برأسها. صرَّت الأرضية تحت أقدامهما بينما بدأا في الصعود.

قال كاي:

– «هذا يشبه الجسر.»

– «الممرات بين الأجنحة دائماً ما تكون غريبة قليلاً. مررتُ ذات مرة بواحد كان عليك الزحف عبره.»

– «وكيف كانوا ينقلون الكتب عبره؟»

— «لم يفعلوا ذلك عادة. كانوا يوجهونها من طريقٍ آخر. لكنه كان مفيداً إذا كنتَ في عجلة من أمرك.»

أشار بإبهامه نحو النافذة قائلاً:

— «هل رأيتِ أحداً هناك في الخارج؟»

— «لا. ولم يره أحد.» استوى الممر، ثم بدأ يميل إلى الأسفل مجدداً. «الآن، لو استطعنا فقط العثور على مخرج عبور يصل إلى ذلك المكان، ألن يكون ذلك مثيراً للاهتمام؟»

تنهد كاي قائلاً:

— «أجل. كان هذا أحد المواضيع الكبيرة للنقاش بين الطلاب.»

كانت إيرين تنظر حولها، ورأت ما تريده على اليسار. قالت مشيرةً إلى فتحة في الجدار:

— «لحظة واحدة، دعني أضع هذا الكتاب لـ كوبيليا.»

أومأ كاي برأسه، واتكأ بكسل على الجدار، تاركاً إيرين تأخذ ظرفاً من الكومة بجانب فتحة الجدار وتزلق كتابها فيه. انحنى قليلاً وهي تكتب اسم كوبيليا على الظرف، بما يكفي ليرى عنوان الكتاب، وضاقت عيناه بفضول.

اقترح قائلاً:

— «يمكنكِ دائماً أخذه إليها شخصياً. قولي إنكِ أردتِ التأكد من أنها استلمته، واسأليها أكثر قليلاً عن المهمة بينما تكوني هناك.»

ألقت إيرين الظرف في الفتحة ورفعت حاجبها نحوه.

— «أجل، ويمكنني أيضاً أن أجعل نفسي أبدو كمغفلة جاهلة لا تعرف كيف تقرأ الأوامر، ناهيك عن اتباعها. شخصٌ بوضوح لا يستحق

أي نوعٍ من المهمات، إذا كنتُ سأعود إليها راكضةً لمزيدٍ من التفاصيل بينما أعطتني كل ما أحتاجه.»

تنهد كاي قائلاً:

— «أوه.. حسناً.»

— «هل ظننتَ أنني لم أسمع ذلك الخطاب منها؟»

— «أعلم أنني سمعته. كنتُ آمل نوعاً ما أنكِ لم تسمعيه.»

— «أجل.» منحته إيرين ابتسامة قصيرة قبل أن تبدأ في المشي مجدداً. «محاولة جيدة على أي حال. إذن، (٣٩٥).» انعطف الممر ودخلا غرفة تحتوي على حاسوبين ضخمين على طاولة سيراميك لامعة. كان أحدهما مستخدماً من قبل شاب، لم يكلف نفسه عناء النظر للأعلى، مبقياً تركيزه على شاشة المونيتور. كانت بدلته البنية رثة ومتهالكة عند المرفقين والركبتين، وأكمام من الدانتيل تحيط بمعصميه الهزيلين. ربما كانت مناسبة لأي عالم موازي جاء منه للتو، أو كان على وشك الذهاب إليه. وكانت لا تزال أفضل من ثوب إيرين الرمادي المتهالك الحالي.

قالت إيرين وهي تجلس عند النهاية الطرفية الأخرى:

— «انظر، امنحني لحظة وسأجد أفضل طريق للوصول إلى نقطة العبور لهذه المهمة.» وأضافت في نفسها: وأجمع أي شيء آخر يمكنني جمعه عن ذلك العالم. لقد كانت مرتبكة جداً بوصول كاي لدرجة أنها لم تقم بنوع البحث الذي تجريه عادةً في المهمات. كما أنه حتى لو تم تزويدهما بالمعلومات من قبل أمين المكتبة المقيم في العالم الموازي، فسيكون من المفيد أن يكون لديهما فكرة عما يتوجهان إليه.



نظر كاي حوله مشيراً بوضوح إلى نقص الكراسي الأخرى، ثم جلس متربعاً وظهره إلى الجدار، وعلى وجهه ملامح صبر قدّيس.

سجلت إيرين الدخول بسرعة واستدعت الخريطة. مخرج العبور إلى (B-٣٩٥) كان على بُعد نصف ساعة مشياً. أفضل مما كانت تأمل. لا عجب أن كوبيليا أرسلت كاي إليها، بدلاً من جعل إيرين تذهب للقائها. تناولت القلم والمفكرة المعتادة، ودونت الاتجاهات، قبل أن تبحث عن مزيد من المعلومات حول العالم الموازي نفسه.

لا بد أن رد فعلها ظهر على وجهها؛ لأن كاي اعتدل في جلسته وقطب حاجبيه نحوها.

— «ما الأمر——»

أشارت إيرين بسرعة نحو الشاب الآخر، وهمست قائلة «صه»، واضعةً إصبعها على شفتيها بأوضح طريقة ممكنة.

حدق فيها كاي بغضب، ثم استرخى مجدداً، ناظراً بعيداً.

دونّت الحقائق القليلة بسرعة، ثم طوت الورقة وسجلت الخروج من الحاسوب. وبإيماءة غامضة للشاب، نهضت واتجهت نحو الباب. وقالت بحزم:

— «هيا يا كاي.»

نهض كاي بأناقة وتمشى خلفها، ويداه في جيبيه.

وبعد مسافة في الممر على الجانب الآخر، بعيداً عن مسمع الشاب، قالت:

— «أعتذر عن ذلك.»

أجاب كاي:

— «أوه، لا تقلقي.» حرك كتفه بلامبالاة عابرة، وبدا مفتوناً بالألواح المصنوعة من خشب الزان والسقف الجصي المزخرف. كان صوته بارداً كالجليد: «أنتِ محقة تماماً، لم يكن عليَّ إصدار ضجيج وإزعاج الطلاب الآخرين أثناء عملهم. أعتذر عن مخالفة قواعد المكتبة——»

قالت إيرين قبل أن يستطرد في سخريته:

— «انظر، لا تفهمني خطأ. أنا لا أعتذر لكوني ملتزمة بالقواعد.»

— «أوه؟»

— «لا. أنا أعتذر لأنني صرختُ في وجهكِ لأسكتكِ، لأنني لم أستطع مناقشة معلومات سرية مع شخصٍ آخر في الغرفة.»

خطا كاي بضع خطوات أخرى. وقال: «أوه.. حسناً.»

قررت إيرين أن هذا هو أقرب شيء للاعتذار ستحصل عليه في الوقت الحالي. وقالت بحزم:

— «وجهتنا تخضع للحجر الصحي. هي مدرجة على أنها تعاني من "غزو فوضوي" عالٍ.» فكرت بغضب أن هذا يعني أن عامل الخطر فيها يتجاوز مجرد كونه خطيراً. فيما كانت تفكر كوبيليا حين أرسلتهما إلى هناك؟ إذا كان العالم النشط سحرياً يخضع للحجر الصحي، فهذا يعني أنه قد تلوث بقوى الفوضى. سحره قد مال بعيداً جداً في الاتجاه الخاطئ في الميزان بين النظام والفوضى. وكما تم إخبار كاي بالتأكيد، فإن الفوضى التي تلوث العوالم المنظمة هي خطر قديم ومميت لموظفي «المكتبة». وهذا يتعارض مع كل ما تمثله «المكتبة» كمؤسسة تدعم النظام. مستوى عالٍ من الفوضى يعني أنه يمكنهما توقع مقابلة الفاي، مخلوقات الفوضى والسحر، القادرين على اتخاذ شكل والتسبب في اضطراب في مثل هذا العالم الملوث. وهذا لم يكن أبداً خبراً جيداً.

سأل كاي:

— «أليس هناك عنصر موازن يحاول إعادة العالم من الفوضى إلى النظام؟»

— «لا. إما أن التنانين لا تعرف عن هذا العالم الموازي، أو أنها ببساطة تبتعد عنه.» وما لم تقله، وهي تكافح لتهدئة مخاوفها الخاصة، هو أنه بدون عنصر موازن، يمكن للعالم الملوث أن يميل تماماً إلى الفوضى البدائية. لا يمكن لأحد أن يتأكد أين يكمن الخط الفاصل بين الغزو الفوضوي والامتصاص الكامل. وهي بالتأكيد لم تكن ترغب في اكتشاف ذلك.

قطب كاي حاجبيه قائلاً:

— «ظننتُ ـــ أقصد، قيل لنا في التوجيه الأساسي أن التنانين تتدخل دائماً إذا كان هناك مستوى عالٍ من الفوضى. وأنها تستطيع إعادة العالم إلى المسار الصحيح. وأنه كلما زاد الأمر سوءاً، زادت احتمالية تدخلها.»

— «حسناً، وفقاً للسجلات، لا توجد علامة عليها هناك.» قد يكون حقيقياً أن التنانين تكره الفوضى، لكونها مخلوقات قانون وبناء. لقد تلقت إيرين التوجيه الأساسي ذاته مثل كاي. لكن هذا لا يعني بالضرورة أنها ستتدخل أينما وُجدت. ومن خلال خبرتها الشخصية مع العوالم الموازية، توصلت إيرين إلى استنتاج مفادُه أن التنانين تُفضل اختيار معاركها بعناية.

— «ربما سيعرف أمين مكتبة العالم أكثر قليلاً. اسمه دومينيك أوبري. لديه وظيفة ـ كغطاء لهويته ـ في طاقم المكتبة البريطانية. رئيس

قسم المخطوطات الكلاسيكية.» أمالت رأسها لتنظر إلى كاي: «هل هناك خطبٌ ما؟»

دفع كاي يديه بعمقٍ أكبر في جيبيه.

– «انظري، أعلم أنهم يخبروننا نحن الطلاب بأسوأ السيناريوهات الممكنة في التوجيه حتى لا نحاول فعل أي شيء غبي. وربما يجعلونها تبدو أسوأ مما هي عليه في الواقع، لكن عالماً به غزو فوضوي عالٍ ولا توجد تنانين حتى لتبدأ في موازنته.. يبدو مخاطرة نوعاً ما لأول مهمة لي ولـ..»

– «ولرتبة مبتدئة مثلي؟»

تمتم كاي:

– «أنتِ من قلتِ ذلك، لستُ أنا.»

تنهدت إيرين قائلة:

– «إذا كان هذا يهم، فأنا لستُ سعيدة أيضاً.»

– «إذن ما مدى سوء الأمر؟»

فكرت في تمرير يديها عبر شعرها، والدخول في نوبة هيستيرية، والجلوس وعدم فعل أي شيء للساعات القليلة القادمة بينما تحاول اكتشاف طريقة لتجنب المهمة. وقالت:

– «لديهم تكنولوجيا بمستوى المحرك البخاري، رغم وجود ملاحظة جانبية تشير إلى حدوث "تقدم ابتكاري" مؤخراً. الغزو الفوضوي يتخذ شكل مظاهر خارقة للطبيعة متعلقة بالفلكلور، مع وجود شذوذ علمي عرضي.»

– «ماذا يعني ذلك؟»

— «يعني أنه يمكنك توقع العثور على مصاصي دماء. مستذئبين. مخلوقات خيالية تظهر في الليل. قد تجد أيضاً تكنولوجيتهم تعمل بطرق غير متوقعة.»

قال كاي بحماسٍ طائش:

— «حسناً.. لا مشكلة في ذلك.»

— «ماذا؟»

— «أنا من عالم "غاما"، تذكري؟ أنا معتاد على فهم السحر. حتى لو لم أكن أمارسه بنفسي، كان علينا معرفة كيفية التعامل مع النظام إذا أردنا الابتعاد عن المشاكل. السحر دائماً ما يبدو وكأنه يتضمن محرمات ومحظورات أيضاً. لذا كل ما علينا فعله هو اكتشاف ما هي هذه الأشياء ثم تجنبها بينما نحصل على المخطوطة أو الكتاب. لا مشكلة.»

أومأت إيرين برأسها.

— «إذن، غزو فوضوي عال.» كان التفكير في الأمر يقلقها بوضوح أكثر بكثير مما يقلق كاي. ربما لأنها مرت بتجربة مع غزو فوضوي من قبل ولم تستمتع بها على الإطلاق.

كانت الفوضى تجعل العوالم تسلك مسالك غير عقلانية؛ إذ نتج عن ذلك تفشّي أشياء خارجة عن النطاق الطبيعي في تلك العوالم كأثرٍ مباشر: مصاصو دماء، ومستذئبون، وجنيات، وطفرات، وأبطال خارقون، وأجهزة مستحيلة.. كان بإمكانها التعامل مع بعض الأرواح والسحر، حيث يعمل كلاهما وفق مجموعة من القواعد ويُعدَّان ظواهر طبيعية داخل عوالمهما. فالعالم الموازي الذي غادرته للتوّ كان يتسم بسحرٍ منظم للغاية، ورغم أنها لم تمارسه فعلياً، إلا أنه كان منطقياً على الأقل. كانت تأمل أن تتمكن من التعامل مع التنانين أيضاً؛ فهي الأخرى كائنات

تنتمي لنظام جميع العوالم المرتبطة، وجزءٌ من بنيتها، وليست كائنات تعمل بنشاط على تقويض النظام.

لم تكن لديها أدنى فكرة من أين تبدأ في مواجهة الفوضى. لا أحد يعرف بالضبط كيف أو لماذا تخترق الفوضى عالماً موازياً — أو ربما كانت تلك المعرفة تتجاوز رتبتها الوظيفية. لكنها لم تكن أبداً من طبيعة ذلك العالم، وبدت كأنها تنجذب إلى "النظام" لكي تفتك به، وتُشوّه كل ما تلمسه. لقد خلقت أشياء تعمل وفق قوانين غير منطقية، وأصابت العوالم بالعدوى وكسرت المبادئ الطبيعية. لم تكن الفوضى خيراً لأي عالم تدخله، ولا للبشرية القاطنة فيه.

حتى وإن كانت تصنع مادةً دسمة للأدب الجيد.

تمتلك المكتبة مجموعة كاملة من إجراءات الحجر الصحي لمواجهة تفشّي الفوضى، لكن الإجراء المفروض على هذا العالم الموازي تحديداً كان من أكثر الأنواع تطرفاً مما رأته في حياتها، رغم أنه لا يزال يسمح بالدخول. لم تكن راضية عن اصطحاب طالب معها في هذه المهمة، مهما بلغت ثقته في قدرته على إدارة الأمور.

لاحظ كاي:

— «من المؤسف أن السيدة كوبيليا لم تمنحنا مزيداً من المعلومات. ولا تنظري إليَّ هكذا، فكلينا نفكر في الأمر ذاته، أليس كذلك؟ أنا فقط أنطق بما لا تريدين قوله.»

كادت إيرين تضحك، وقالت:

— «حسناً، نحن نتفق على هذه النقطة. وكلينا يدرك أن الأمر سيكون سيئاً، كما أننا لا نعرف بعضنا البعض جيداً بعد. لذا، فالأرجح أن الأمور ستكون فوضوية، ومقيتة، وخطيرة. وإذا نجحنا في الحصول

على المخطوطة، فأنا متأكدة أنها ستكون سرية للغاية، وسنكون محظوظين إن حصلنا على أي ذكر لها في سجلاتنا، لأن كل شيء سيُدفن في الملفات.»

تمتم كاي قائلاً:

— «ذكريني.. لماذا قبلتُ بهذه الوظيفة؟»

— «لأن هناك من صوبوا البنادق نحوك، أليس كذلك؟»

— «أجل، شيء من هذا القبيل.»

— «ولأنك تحب الكتب.»

رمقته بنظرة جانبية، فبادلها ابتسامة سريعة وصادقة:

— «أجل، لا بد أن هذا هو السبب.»

خرجوا من الممر الأخير ليجدوا أنفسهم يطلون على قاعة واسعة. استمر مسارهم فوق جسر من الحديد المطروق بزخارف متقنة، يمتد بعظمة من جانب إلى آخر فوق فضاء مفتوح غصّت جدرانه بالكتب، بينما كانت السلالم تلتف حول الجدران لتلتقي بالجسر عند نقاط مختلفة.

قال كاي بنبرة تنم عن الرضا:

— «يا للهول، لقد زرتُ هذه القاعة من قبل. كان هناك حشد من نسخ مسرحية "فاوست" المختلفة هناك بالأسفل.»

أشار إلى الزاوية اليمنى السفلية من الغرفة وتابع:

— «كنتُ أقوم بمقارنة النسخ القادمة من عوالم موازية مختلفة للأستاذ ليجيس. كان تمريناً تدريبياً، لكنه كان من أفضل التمارين، أتعرفين؟»

أومأت إيرين برأسها قائلة:

— «كان يمكن للأمر أن يكون أسوأ؛ فقد جعلنا شالكن نبحث في رسوم توضيحية للفسيفساء أثناء تدريبنا. قضينا وقتاً طويلاً جداً جالسين بعدسات مكبرة وأجهزة مسح ضوئي، نحاول اكتشاف ما إذا كان هناك فرق، أو ما إذا كان هناك.. أمم..»

حاولت تذكر عبارة شالكن ونبرة صوته المرافقة لها وتقليده:

— «"انحراف مفهوم ولكنه مقبول عن المعيار، كما هو موضح في العالم المختار، بالنظر إلى الاختلافات الطبيعية في توفر المعادن والألوان.."»

قطعت حديثها جولة من التصفيق الناعم. التفتت هي وكاي لينظرا إلى الطرف البعيد من الجسر؛ كانت هناك امرأة ترتدي أثواباً خفيفة تتكئ على السياج، بشرتها شاحبة كالثلج وشعرها يشبه قلنسوة داكنة.

ابتسمت المرأة.

أما إيرين، فلم تفعل.

الفصل الثالث

– «لقد حاكيتِ نبرته ببراعة،» قالت المرأة. «وليس هذا بمستغرب، بالنظر إلى المرات التي اضطررتِ فيها لسماعه وهو يردد تلك العبارة حتى أتقنتِها.»

قالت إيرين بهدوء، بينما كان وعيها يسجل تلك التقلصات في معدتها، وذلك الشعور بالغثيان الذي قررت ألا تُظهره أبداً:

– «برادامانت. من اللطيف رؤيتكِ. تُرى ما الذي جلب لنا مسرة صحبتكِ؟»

قالت برادامانت وهي توجه حديثها نحو كاي بنبرةٍ توحي بالثقة:

– «يمكنك دائماً أن تدرك متى ينال منها الضيق؛ فهي تصبح مفرطة في الرسمية.»

قال كاي:

– «لا أظن أننا التقينا من قبل.»

كانت إيرين تشعر بوجوده بجانب مرفقها، رغم أن تركيزها كان منصباً بالكامل على برادامانت.

تابع كاي قائلاً:

– «أفترض أنكِ إحدى زميلات إيرين.»

– «بالضبط يا عزيزي.»

خطت برادامانت مبتعدةً عن الدرابزين. كان شعرها الداكن مقصوصاً بنعومة وقِصر، كأنه حريرٌ أسود يكسو بشرتها.

— «أنا هنا من أجل تلك المهمة التي كُلفتِ بها يا إيرين. لقد حدث تغييرٌ في الخطة.»

— «ماذا؟ في غضون الدقائق العشر الماضية؟»

قالت برادامانت دون أن يرف لها جفن:

— «الخطط تتغير بسرعةٍ خاطفة. كوني فتاةً مطيعة وسلميني الأوراق.»

— «لا تتوقعي مني حقاً أن أصدق هذا.»

— «سيجعل هذا الحياة أسهل لكلتينا يا عزيزتي.»

— «أوه؟»

ابتسمت برادامانت قائلة:

— «سيعني هذا أن المهمة قد أُنجزت بالفعل، كبداية.»

قالت إيرين بهدوء شديد:

— «وبعيداً عن أي تساؤلاتٍ حول كفاءتكِ أو نقص كفاءتي، ما الذي سأقوله لرئيستي؟»

لم تكن تنوي فقدان السيطرة على أعصابها، خاصةً أمام تلميذها، لمجرد استفزازٍ من هذا المستوى. لكنها كانت تعلم من خبرتها المرة مدى السمّية التي يمكن أن تبلغها برادامانت، وأن هناك دائماً سياسةً قذرة تحت السطح.

هزت برادامانت كتفيها، فتموجت أثوابها الشفافة:

– «تلك يا عزيزتي مشكلتُكِ وحدكِ. ورغم أن سجلكِ مقبول، على ما أظن، إلا أنكِ ستواجهين عقوداً من العمل الشاق لتستعيدي مكانتكِ مجدداً.»

قال كاي:

– «انتظري لحظة. هل تقترحين بجدية أن تسلمكِ المهمة هكذا ببساطة؟»

أجابت إيرين:

– «هي تقترح ذلك، أما أنا فلا.»

عرضت برادامانت قائلة:

– «سآخذ المتدرب أيضاً؛ فـ كاي العزيز يملك سجلاً جيداً جداً.»

استطاعت إيرين سماع شهيق كاي المكتوم. فأجابت:

– «هذا لن يكون ضرورياً. لا يملكني سببٌ لتسليمه إليكِ، رغم أنكِ تملكين سجلاً حافلاً في "التعامل" مع الطلاب.»

فحيحت برادامانت:

– «هذا افتراء.»

جاء دور إيرين لتبتسم. لـ برادامانت أن تسميه افتراءً كما تشاء، لكن الحقائق مسجلة في السجلات؛ فالمرأة الأخرى لم تنجح في الاحتفاظ بمتدربٍ لأكثر من مهمة واحدة، وكلما حدثت مشكلة في تلك المهمة، كان المتدرب هو من يقع عليه اللوم. من سوء الحظ أن يحدث هذا مرة أو مرتين، لكنه يصبح نمطاً قبيحاً حين يتكرر.

قالت إيرين:

– «لا دخان بلا نار.»

— «وكيف عرفتِ ذلك؟ هل تتتبعيني إذن؟»

بدت برادامانت غاضبةً بشكلٍ غير متناسب، وخطت بضع خطواتٍ متوترة نحوهما، وكان وقع كعبيها عالياً فوق الجسر.

ابتسمت إيرين في وجهها، محاولةً جعل تعابيرها فاترةً قدر الإمكان:

— «ولماذا قد أرغب في فعل شيءٍ كهذا؟»

شهقت الأخرى وهي تحاول استعادة رصانتها، وراحت تتأمل أظافرها:

— «أفهم إذن أنكِ ستكونين حمقاء.»

قالت إيرين:

— «افهميها كما تشائين. لكني لن أمنحكِ مهمتي، ولن أمنحكِ متدربي، ولو كنتُ من النوع الذي يربي الفئران، لما منحتكِ فأري. هل الأمر واضح؟»

قالت برادامانت ببرود:

— «واضحٌ جداً.»

ولفت وشاحاً إضافياً حول كتفيها بحركةٍ أنيقةٍ طائشة.

— «لا تتوقعي مني أن أكون لطيفةً معكِ حين أضطر لتنظيف فوضاكِ لاحقاً.»

تمتمت إيرين:

— «أوه، لم أتوقع ذلك يوماً.»

استدارت برادامانت دون كلمةٍ أخرى. رنَّ وقعُ خطواتها على الجسر الحديدي قبل أن تتوارى في الممر المظلم، ثم تلاشت النقرّات القوية لكعبها العالي فوق الأرضية الخشبية، حتى ساد الصمت.

قال كاي بهدوء:

— «توضيحٌ للأمر سيكون لطيفاً.»

لم يحاول الهمس، فتردد صدى صوته في السكون.

وافقتها إيرين قائلة:

— «سيكون كذلك.»

ثم قطبت حاجبيها وهي تنظر نحو الممر المظلم.

— «أتمنى لو كنتُ أعرف إن كان ذلك لأسبابٍ شخصية أم سياسية.»

— «لقد بدوتِ وكأن بينكما تاريخاً طويلاً.. تاريخاً حافلاً.»

قالت إيرين باختصار:

— «نحن لا نتفق، ولم نتفق يوماً. هي تنجز العمل، لكن سمعتها سيئة. لن ترغب في العمل معها.»

وبدأت تسير نحو الممر.

قال كاي:

— «إيرين..»

وقد أدهشها بطريقةٍ ما مناداته لها باسمها هكذا.

— «أفهم أنكِ لا تحبينها——»

قاطعته إيرين وهي تحافظ على هدوء خطواتها واتزانها بجهدٍ جهيد:

— «أنا لا أحبها على الإطلاق. ولا أريد لكرهي الشديد لها أن يدفعني للافتراء على شخصٍ يُعتبر أمين مكتبة كفؤاً، ومقتدراً، بل وموضع إعجاب.»

صفرَّ كاي قائلاً:

– «أنتِ حقاً لا تحبينها.»

تابعت إيرين:

– «نحن نكره بعضنا لدرجة أنها قد تكون افتعلت ذلك المشهد برمته كمجرد نزوة لمضايقتي. لولا أن الأمر يتطلب سلسلةً مستحيلة من المصادفات لتعرف أني في مهمةٍ وتكون هنا لاعتراضي. وهذا يعني أن الأمر سياسي.»

توغلت في الممر المظلم، تسبق كاي بخطوة.

– «إذن من هو رئيسها؟»

– «كوستشي.»

– «أوه.» صمت كاي لبضع خطوات. «هو إذن. تعلمين، لقد فكرتُ دائماً أن هذا الاسم دراميٌّ جداً ليختاره لنفسه، حتى هنا.»

هزت إيرين كتفيها، ممتنةً لتغير الموضوع. كان حقيقياً أن أسماء أشرار الحكايات الخرافية الروسية[٣] ليست الخيار الأكثر وضوحاً. لكن مرة أخرى، خيارها لاسم «إيرين» لم يكن منطقياً تماماً. على الأقل لقب «الخالد»، الذي يُلحق عادةً بهذا الاسم، كان دقيقاً إلى حدٍ ما بالنسبة لأمين مكتبة وصَل إلى سنه.

قالت:

– «عندما كنا طلاباً، قضى البعض ساعاتٍ في محاولة اختيار ما سيسمون به أنفسهم بعد ترسيمهم. كانوا يطوفونَ قائلين: "ما رأيك بهذا

---

[٣] كوشتشي (*Kostchei*): اسم شخصية أسطورية في الفولكلور الروسي، تُصوَّر كمخلوق شرير هزيل لا يموت بسهولة، إذ يُخفي موته داخل سلسلة معقّدة من الأشياء (إبرة داخل بيضة داخل بطة...)، ما جعله رمزًا للخلود الشرير والقوة التي يصعب القضاء عليها.

الاسم؟" أو "هل تعتقد أن منيموسيني يبدو جيداً أم أنه مفضوحٌ جداً؟" أو "أنا أحب أراكني، هل تراه يناسبني؟"»

أصدر كاي ضحكةً ساخرة.

واصلا السير معاً، متجاوزين غرفةً تلو أخرى من الكتب المخزنة. ورغم وجود طرقٍ أسرع (وغير خطية) للتنقل في «المكتبة»، إلا أن إيرين كانت ستحتاج إلى تصريحٍ من أمين مكتبة رفيع المستوى لاستخدامها. وفي غياب مثل هذه الاختصارات، لم يكن أمامها وأمام كاي سوى المشي ومراقبة المعالم. أخيرًا، انفتح الممر على غرفةٍ صغيرة، كان أبرز ما فيها الباب ذو القضبان الحديدية في الجدار المقابل. كانت الجدران مغطاةً برفوف الكتب، لكن ملصقاتٍ ضخمة غطت أجزاءً من الكتب، تحمل عباراتٍ مثل:

«غزو فوضوي»، «الدخول بإذن فقط»، «حافظ على هدوئك وابقَ في الخارج»، و«هذا الكلام موجهٌ إليك أنتً».

وضع كاي قبضتيه على وركيه وتأمل الملصقات.

— «أخبريني، هل هناك أشخاصٌ هنا لا يفهمون هذه التلميحات؟»

قالت إيرين:

— «أخبرني أنت، بالنظر إلى بعض الأشخاص الذين قابلتَهم هنا بالتأكيد.»

أخرجت من جيبها موجز مهمة كوبيليا.

قال كاي بنبرةٍ أكثر جدية:

— «قبل أن نمضي أبعد من ذلك، ماذا عن كوستشي و برادامانت؟ هل تعتقدين أنها تعمل لصالحه؟»

لمست إيرين شحمة أذنها ملمحةً:

— «قد يكون هناك من يتصنت علينا.»

وعندما لم يبدُ أن كاي قد فهم التلميح، شددت عليها بشكلٍ أوضح.

— «أو هل تعتقدين——»

قاطعتْه بحدة:

— «أُفضل أن أقوم بتفكيري في الجانب الآخر.»

لقد خاب ظنها في إجرام كاي المفترض وقدرته على فهم الإشارات.

— «لنحصل على إيجازٍ من أمين المكتبة المقيم هناك أولاً قبل أن نصل إلى أي استنتاجات.»

تراخى كتفا كاي. وقال ببرود:

— «حسناً. كما تقولين.»

عزمت إيرين على الاعتذار له لاحقاً—— نوعاً ما —— ثم التفتت لتضرب موجز المهمة على الباب. رنَّ المعدن الصلب بنعومة، كجرسٍ بعيد، ثم تردد الصدى مجدداً، مُحدثاً نغماتٍ متتابعة حتى غصت الغرفة بألحانٍ بعيدة.

اقترب كاي، وبدا مستعداً للتخلي عن ضيقه للحظة.

— «ماذا كان سيحدث لو كانت هذه الأوراق مزورة؟»

أجابت إيرين:

— «لم يكن ليكون لها هذا الرنين العذب.»

أعادت الموجز إلى جيبها، ثم مالت لتفتح مقبض الباب. تحرك بسهولة، وانفتح ليدخلها مع كاي إلى غرفةٍ أخرى مليئة بالكتب، والخزائن الزجاجية، ومصابيح الغاز المتوهجة.

كانت للغرفة تلك الأجواء التي لا تُخطئها العين للمجموعات المتحفية؛ جذابة ومهجورة في آنٍ واحد. رقدت المخطوطات تحت الخزائن الزجاجية، وأوراق الذهب على رسوماتها المنمقة تلمع في ضوء الغاز. كانت هناك وثيقةٌ واحدة مفروشة على مكتبٍ في وسط الغرفة، بجانب مفكرةٍ وقلم يبدوان حديثي الصنع. السقف المقوس العالي كانت تعلو زواياه خيوط العنكبوت، والغبار يكمن في شقوق الجدران الخشبية. بجانب مدخل «المكتبة» كانت هناك آلةٌ رثة، تتكون من تروس وعجلات وأسلاكٍ تتطاير منها الشرارات، وملحقٌ بها آلية طابعة بدائية وأنابيب مفرغة.

تطلع كاي حول الغرفة.

— «هل ندق جرساً أو شيئاً من هذا القبيل؟»

قالت إيرين:

— «ربما لا نحتاج لذلك.»

أغلقت الباب خلفهما، وسمعته يُوصد نفسه بوضوح.

— «أتخيل أن السيد أوبري قد تَبَلَّغ بقدومنا بالفعل؛ فأمناء المكتبة الذين يحرسون نقاط العبور الثابتة مثل هذه لا يتركونها دون حماية.»

دوى رنينٌ خفيف. أضاءت عدة أنابيب مفرغة في تلك الآلة الميكانيكية، وراحت الطابعة تهتز وتتحرك، وهي تبصق شريطاً ورقياً طويلاً، حرفاً تلو الآخر.

التقطه كاي وقرأ:

— «مرحباً بكما. أرجو أن تجعلا نفسيكما مرتاحين وسأكون معكما...»

توقفت الطابعة بصوت احتكاكٍ نهائي.

قالت إيرين:

— «قريباً، كما آمل.»

— «هذا مذهل.»

بدأ كاي يتجول بين المخطوطات، متفرساً فيها.

— «انظري، هذه تقول إنها النسخة الأصلية لقصيدة "لاميا" لـ كيتس، رغم أني لستُ متأكداً مما تفعله في قسم المخطوطات الكلاسيكية في هذه الحالة——»

— «ذلك لأني أقوم بمقارنتها بمواد بلوتارخ.»

انفتح الباب في الطرف البعيد من الغرفة ليكشف عن رجلٍ في منتصف العمر، ذي بشرةٍ داكنة.

— «طاب يومكما. أنا دومينيك أوبري. **إن فعلَ رؤيتكما يبعث على المسرَّة،**» أضاف الجملة بـ «اللغة».

أجابت إيرين:

— «**وفعلُ محادثتِك يبعث على المسرَّة**. أنا إيرين. وهذا كاي. نحن هنا بخصوص مخطوطة "غريم" لعام ١٨١٢.»

كانت تشعر بـ كاي وهو يقطب حاجبيه، وتذكرت من أيامها قبل الترسيم كم يمكن لـ «اللغة» أن تبدو غريبة؛ فالسامعون الذين لم يتدربوا عليها يسمعونها بلغتهم الأم، ولكن بلكنةٍ معينة لا يمكن تحديدها. أما أمناء المكتبة، بالطبع، فيسمعونها على حقيقتها، مما يجعلها أداةً مثالية للفحص وكلمات السر. هكذا تماماً.

أومأ دومينيك أوبري برأسه قائلاً:

— «كنتُ سأدعوكم للجلوس، ولكن لا يوجد سوى كرسي واحد. أرجو أن تتكئا حيثما يحلو لكما.»

عالج نظارته بتوتر، دافعاً إياها إلى الأعلى فوق جسر أنفه، ثم نفض معطفه. كان يرتدي ما يشبه الزي الفيكتوري من الخطوط الزمنية الأكثر شيوعاً؛ قميصاً أبيض بياقةٍ صلبة، مع معطفٍ أسود طويل، وصدرية وبنطال. شعره المسترسل كان مربوطاً للخلف في ذيلٍ أنيق، يصل لمنتصف المسافة بين كتفيه.

— «الوضع قد.. أمم.. تطور قليلاً منذ أن أرسلتُ تقريري الأخير.»

اتكأت إيرين على حافة المكتب، محاولةً ألا تبدو ملامحها لائمة أو منتقدة، مهما كان شعورها.

— «أتفهم ذلك تماماً. هذا عالمٌ مصاب بالفوضى في نهاية المطاف. ربما لو أعطيتنا الإيجاز من البداية؟»

نظرت إلى كاي، فأومأ بالموافقة، منتظراً منها أن تتولى زمام الأمور.

جلس دومينيك على كرسيه، وعقد ذراعيه، ومال للأمام قائلاً:

— «حسناً. لقد عرفتُ بأمر الطبعة الأولى من كتاب "غريم" بعد وفاة إدوارد بونهوم، حين طُرحت للتداول. كان بونهوم مالك عقاراتٍ محلياً ومحباً للكتب. امتلك مجموعةً لطيفة من الأحياء الفقيرة وحققٍ منها أرباحاً طائلة، ووضع تلك الأموال في كتبه. لسوء الحظ، كان من أسوأ أنواع المكتنزين؛ لم يدعُ أحداً لمنزله قط، ولم يسمح لأحد حتى بالنظر إلى كتبه، بل أبقاها كلها حبيسةً يتلذذ بالنظر إليها. هل تعرفين هذا النوع؟»

وافقت إيرين قائلة:

— «لقد اضطررتُ لزيارة قلةٍ من هؤلاء الناس. هل هناك أي شيء مريب حول وفاته؟»

هز دومينيك كتفيه:

— «سقط من على السلالم، وانكسرت رقبته، ووجدته خادمة المنزل في الصباح. كان في الثمانينيات من عمره، يشتري أرخص الشموع في السوق، وسجادة السلم كانت مهترئة. الكثير من الناس استفادوا من وفاته، لكن لا يبدو أن لأي منهم دافعاً قوياً. تعاملت الشرطة مع الأمر كحادث وأُغلق الملف على ذلك.»

أومأت إيرين برأسها: «إذن، الكتاب؟»

— «عُرض في مزادٍ بعد وفاة بونهوم، مع بعض القطع الأخرى من مجموعته. كانت الأموال ستُخصص لتمويل منحة دراسية باسمه في أكسفورد. غرورٌ نموذجي لما بعد الموت.» تنهد وتابع: «على أي حال، انتشر الخبر بسرعة وارتفعت المزايدة بسرعة كبيرة. اشتراه اللورد ويندهام. إنه —— أو بالأحرى "كان" —— جامعاً للكماليات باهظة الثمن أكثر منه محباً حقيقياً للكتب، لكن سعر الكتاب واهتمام المجتمع جعلاه شيئاً يرغب في ضمه لمجموعته. وقد حصل عليه.»

— «"كان"، كما تقول.»

شعرت إيرين بشعورٍ متزايد بالشؤم.

— «آه، نعم. بالضبط. لقد تم "خزقه" قبل يومين.»

— «خزقه؟»

— «لقد كان مصاص دماء. استخدموا الطرق التقليدية، كما تعلمين؛ وتدٌ خشبي عبر القلب، وقطع الرأس، وحشو الفم بالثوم.. ورغم ذلك، وللأمانة، فإن ترك رأسه مغروساً على حديد السياج خارج

الباب الأمامي، حيث يمكن لجميع ضيوف حفلته رؤيته، قد يُعتبر أمراً مبالغاً فيه قليلاً.»

— «والكتاب فُقد حينها، أليس كذلك؟»

قال دومينيك بابتهاج:

— «نعم! كيف حزرتِ؟»

رفع كاي يده متسائلاً:

— «معذرةً. هل يُعتبر مصاصو الدماء جزءاً طبيعياً من المجتمع هنا؟»

— «أمم، حسناً.» رفع دومينيك إصبعه. «كون المرء مصاص دماء أو مستذئباً ليس غير قانوني في حد ذاته. أما الاعتداء على شخص أو قتله بسبب نزوات مصاص دماء أو مستذئب فهو الممنوع.. وكما هو الحال دائماً، امتلاك الكثير من المال يساعد في تخفيف القواعد. واللورد ويندهام كان يملك الكثير من المال.»

أومأت إيرين برأسها:

— «إذن لقد قُتل —— أو خُزق بالأحرى —— في حفلته، وسرق شخصٌ ما الكتاب؟»

— «هنا تتعقد الحبكة.» رفع دومينيك إصبعه مجدداً. «شوهدت لصةُ منازل شهيرة وهي تهرب من القصر في تلك الليلة. ورغم أنها لم تُعرف بقتل أي شخص من قبل، إلا أنه يبدو من قبيل المصادفة أن تكون بصدد سرقة المنزل في الليلة ذاتها التي قُتل فيها اللورد ويندهام.»

— «شوهدت وهي تهرب، كما تقول؟»

— «بدراميةٍ شديدة. لقد قفزت من سطح المنزل لتلتقط سلماً يتدلى من منطادٍ عابر.»

— «مهلاً. منطاد؟»

— «إنه جزءٌ من الروح العلمية لهذا المكان. مناطيد، وأشعة الموت[٤]—— لم ينجحوا في جعلها تعمل بشكل صحيح بعد، رغم ذلك —— وأدوات دمارٍ أخرى. كما أن لديهم طفراتٍ بيولوجية، وتكنولوجيا تعمل بالتروس، ومنتجعاتٍ صحية للعلاج بالكهرباء..»

نظرت إيرين إلى كاي؛ كان يرتدي تعبيراً يجمع بين الاهتمام الحاد والدهشة المُعجبة. فسألته:

— «ألم أخبركِ أني لا أحب عوالم الغزو الفوضوي؟ لهذا السبب.»

احتج كاي:

— «لكن المناطيد رائعة. لم يكن بإمكاننا امتلاك أي منها في عالمي الموازي القديم بسبب التلوث، لكني أظن أنها ستكون مذهلة. هناك في السماء، تتلاعب بك الرياح، تقود عبر انحناء العالم والأراضي والبحار منبسطةٌ تحتك..»

أضافت إيرين:

— «والسقوط من مسافةٍ بعيدة جداً نحو الأسفل.»

فقط نظر إليها.

قالت لـ دومينيك بسرعة:

— «أعتذر منك. أرجوك تابع. أخبرنا عن لصة المنازل هذه.»

قال دومينيك الذي بدا مستمتعاً بمقاطعاتهما أكثر من كونه منزعجاً:

---

[٤] «أشعة الموت» : مصطلح يُطلق على اختراع خرافي نُسب إلى نيكولا تسلا، زُعم أنه سلاح يطلق حزمة طاقة قادرة على تدمير الطائرات والجيوش عن بعُد. في الواقع، لم يثبت وجود مثل هذا السلاح عمليًا، وكانت أفكار تسلا أقرب إلى تصورات نظرية ومبالغات صحفية في أواخر حياته، فتحولت إلى أسطورة علمية شائعة في الثقافة الشعبية.

— «يسمونها بيلفيغور. إنها طويلة. طويلة جداً. وعلى ما يبدو ترتدي حُلّة جلدية سوداء ضيقة وقناعاً ذهبياً.»

— «أي تفاصيل عن القناع؟»

— «أظن أن الناس عادةً ما يكونون مشغولين جداً بالنظر إلى الحُلّة الجلدية السوداء الضيقة.»

تنهدت إيرين قائلة:

— «إذن لدينا لصةُ منازل فاتنة بشكلٍ لا يُصدق، تتسلل في حُلّةٍ جلدية سوداء، وتقتل مصاصي الدماء في وقت فراغها؟»

قال كاي بحماس:

— «سأتولى أنا أمرها.»

رفعت إيرين حاجبها:

— «وكيف عرفتَ أني لا أريد تولي أمرها؟»

— «هل تريدين؟»

— «التورط مع لصوص المنازل الفاتنات لا ينتهي بخير أبداً.»

— «وهل كانت لكِ تجارب معهن؟»

قالت إيرين وهي تأمل ألا تحمر وجنتاها كثيراً:

— «مرة واحدة.»

قال دومينيك بنبرة مفاجأة:

— «أوه، أنتِ تلك الـ إيرين إذن. أتذكر الآن أن كوبيليا أخبرتني عن ذلك. ألم ينتهِ بكِ الأمر في نوعٍ من المواجهة في منتصف حفل استقبال و——»

رفعت إيرين يدها مقاطعة:

— «هل يمكننا التركيز على المشكلة الحالية؟ من فضلك؟»

لاحظ دومينيك:

— «يسرني أن أراكِ تأخذين الأمر بهذا المرح. فبعض صغار أمناء المكتبة كانوا سيهرعون نحو نقطة العبور في هذه اللحظة محاولين التخلص من الوظيفة. لكن ليس أنتِ. لا، أستطيع أن أرى أنكِ مستعدة للمهمة وكلكِ حماس للبدء.» وابتسم كاشفاً عن أسنانه.

أخذت إيرين نفساً عميقاً وقالت ببرود:

— «أنا أعتبرها تحدياً.» *واللعنة عليّ إن سمحتُ لـ برادامانت بتولي هذا الأمر بدلاً مني.*

رفع كاي يده: «هل لي بسؤال؟»

— «تفضل،» قال دومينيك.

— «هل لديك أي نوع من الملفات عن هذا المكان يمكننا قراءتها؟»

أومأ دومينيك برأسه:

— «لديَّ مجموعة مسودات من الملاحظات حول الشؤون الجارية، والتاريخ، والجغرافيا، وكل ذلك. كما أعددتُ بعض الهويات الاحتياطية، للرجال والنساء، لاستخدامها حين يزورني أمناء مكتبة. سأمنحكم اثنتين منها، مع التمويل وما إلى ذلك. لا تقلقوا، لن أترككم تواجهون الأمر وحدكم. أردتُ فقط أن أرى كيف سيكون رد فعلكما تجاه الموقف.»

قالت إيرين:

— «بصراحة، يبدو الأمر كقصةٍ رخيصة ومبتذلة.»

قال دومينيك:

— «بصراحة، هو كذلك.»

تنهدت إيرين:

— «حسناً. إذن اللورد ويندهام قد مات، ولم يعد حتى "ميتاً حياً" بعد الآن. من المفترض أن الكتاب قد سُرق من قبل لصة المنازل بيلفيغور، و.. هناك المزيد، أفترض؟»

قال دومينيك باعتذار:

— «ليس الكثير. كل هذا حدث قبل يومين فقط، كما تفهمين. الصحف لا تزال تضج بالخبر. في الواقع، إذا أردتِ البحث في القصة من أجل "غطاء هويتكِ" السري..»

وافقت إيرين:

— «نقطة جيدة. كيف هو وضع النساء هنا؟»

— «يُقبل وجود النساء عموماً في معظم المهن، باستثناء الخدمة كجنود في الجيش، حيث غالباً ما ينتهي بهن المطاف في أقسام الهندسة هناك. لا يوجد شيء غير عادي في وجود مراسلة صحفية، رغم أنهن غالباً ما ينتهي بهن المطاف في صفحات المجتمع المخملي والفضيحة. لذا سيكون هذا مناسباً تماماً.»

— «وهل هناك سحر؟»

قال دومينيك ببطء:

— «ليس بالمعنى الصريح، رغم وجود مصاصي دماء ومستذئبين ومخلوقات خارقة أخرى. لديَّ نظرية تقول إن التكنولوجيا الغريبة في هذا المكان هي في الواقع تطور هيكلي لما كان سيتجلى في مكانٍ آخر كسحرٍ موجه، لكنني لا أستطيع إثبات ذلك.»

أومأت إيرين برأسها: «هل لديك أي نظريات حول غياب تدخل التنانين؟»

سخر دومينيك قائلاً:

— «سوء فهم بيروقراطي نموذجي في تلخيص تقاريري. التنانين لا تتدخل هنا لأنها لا تحتاج لذلك. قد يكون هناك مستوى عالٍ من الغزو الفوضوي، ولكن هناك أيضاً الكثير من الأرواح الطبيعية المتأصلة في النظام المحلي تحوم حول المكان —— أتحدث بشكلٍ مجازي طبعاً —— ويبدو أنها تعمل كعنصر توازن. في الواقع،» قالها بحماس، «أعتقد أن لدينا هنا أسباباً لدراسةٍ كاملة حول كيف يستجيب مستوى عالٍ من السحر في عالمٍ ما لغزوٍ فوضوي عبر العمل بطرقٍ غير فوضوية. وهكذا، يتم تعزيز النظام الطبيعي عبر التكنولوجيا بـ "العلم الغريب"، ويتم تقويته أيضاً بشكلٍ خارق للطبيعة. وهذا الأخير يحدث عبر هيكلٍ هرمي للأرواح الحارسة والتعزيز الجوهري——»

قالت إيرين بتعاطف قبل أن يسترسل:

— «ولكنك لا تستطيع الحصول على تمويلٍ لها؟»

تراخى دومينيك وتمتم:

— «البرابرة الرافضون للثقافة.»

رفع كاي يده مجدداً:

— «إذن، نظرياً، هل ستكون هذه الأرواح المحلية مصدراً مفيداً للمعلومات؟ أقصد، لقد كنتُ عالقاً في المكتبة طوال السنوات الخمس الماضية، أعرف النظرية، لكني لا أعرف كيف يتم الأمر علي أرض الواقع..»

قالت إيرين:

— «تفكيرٌ جيد.» لكنها رأت دومينيك يقطب حاجبيه. «لماذا؟ هل هناك مشكلة؟»

قال دومينيك:

— «يمكن أن تكون خطيرة.» وعالج نظارته مجدداً. «لا أوصي بها كخيارٍ أولي. بصراحة، لم تتح لي فرصة كافية للتحقيق في الأمور بنفسي —— بسبب "غطائي" كما تعلمين. هناك حدودٌ لما يمكنني فعله كرئيسٍ لقسم المخطوطات الكلاسيكية. ستتمكنان على الأرجح من اكتشاف المزيد في الميدان.»

أومأت إيرين برأسها:

— «سنبقيها إذن كخيارٍ احتياطي. هل لديك أي تحديثاتٍ محلية في "اللغة" يجب أن أكون على علمٍ بها؟»

وعدها دومينيك:

— «لقد وضعتُها في الإيجاز. لكنها ليست كثيرة. المفردات كلها عامة إلى حدٍ ما. مصاص الدماء هو مصاص دماء كما تتوقعين، بأنياب وكل شيء. في الواقع، إذا أردتما الانتظار هنا، سأذهب لإحضار الوثائق، وبعدها يمكنكما التسلل والبدء بالعمل.»

نظر كاي إلى ملابسه وسأل:

— «بهذا الشكل؟»

قال دومينيك بابتهاج:

— «سيكون عليكما الادعاء بأنكما زوار برابرة من كندا. لديَّ بعض الملابس للطوارئ، ولكن في ظل هذه الظروف يمكنكما المرور كطلاب حتى تتمكنا من شراء ملابس تناسبكما بشكل أفضل. ستحتاجان فقط

لبعض المعاطف الثقيلة حتى تصلا إلى المتجر.» وقف وهو ينفض يديه مجدداً. «سأعود في لحظة. لا تقلقا.»

قالت إيرين وهي تكتم تنهيدة ارتياح:

— «شكراً لك.»

لكنه كان قد خرج بالفعل من الباب. ربما كان خروجه السريع بسبب الإحراج؛ فمساعدة عملاء المكتبة الزائرين على البقاء بعيداً عن الأنظار من المفترض أن يكون جزءاً من وظيفة أمين المكتبة المقيم، بعد كل شيء. وعادةً ما يتطلب الأمر أكثر قليلاً من «هاك معطفاً وهناك أقرب متجر». فكرت في أعذارٍ محتملة لصاحب المتجر:

أنا آسفة جداً، لكن كل حقائبنا سُرقت أثناء نزولنا من الباخرة المحيطية..

تمطى كاي ونظر حوله بتململ:

— «هل تظنين أن البرابرة الكنديين يرتدون الجينز؟»

قالت إيرين بجفاف:

— «آمل أن البرابرة الكنديات يرتدين السراويل؛ فهي أسهل في الركض.»

التفت كاي لمواجهتها وسألها:

— «هل رأيتِ يوماً غزواً فوضوياً سيئاً حقاً؟»

أجابت بهدوء:

— «لا. فقط حالات معتدلة. لكني سمعتُ أشياءً. عرفتُ شخصاً دخل في إحداها ذات مرة. رأيتُ بعض تقاريره.»

«*هناك شيءٌ يسبب الإدمان في الأمر،*» كان قد كتب. «*العالم نفسه يبدو أكثر منطقية ومعقولية بكثير. هناك شعور بأن كل شيء مفهوم، وأعلم أن هذا فقط لأن العالم نفسه يتشكل ليناسب "الغيشتالت"، لكنك لن تصدق مدى الراحة التي يمنحني إياها ذلك الشعور.*»

فرقع كاي أصابعه أمام وجهها، فرمشت بعينيها نحوه.

— «أحم. يمكنكِ على الأقل مشاركتي، بدلاً من الجلوس هناك والعبوس في تفكيركِ وتخيل أنكِ تحميني أو ما شابه.»

قالت إيرين وهي تحاول ألا تشعر بالضيق:

— «أنت حقاً تعتز بنفسك كثيراً. حسناً. هل تتذكر مراحل الغزو؟ العاطفية، والبديهية، والافتراضية، والتكتلية؟»

أومأ كاي برأسه:

— «مما قلتِه أنتِ ودومينيك، يبدو هذا العالم في المرحلة العاطفية المتجهة نحو البديهية، صحيح؟ لذا تشير النظرية إلى أنه يتم تشويهه، وسيصل بعد ذلك لمرحلة تميل فيها الأشياء للوقوع في أنماطٍ سردية. فبدلاً من سيادة النظام الطبيعي، تبدأ الأحداث في اتخاذ نوعٍ من الإيقاع أو المنطق الذي قد تجده في القصص الخيالية أو الحكاياتً الشعبية. وهو ما قد يكون مرعباً. لكن من المؤكد أنه يصعب رصده؛ فحتى في العوالم القائمة على النظام، يمكن للواقع أن يكون أغرب من الخيال.. لم يصل الأمر لتلك المرحلة بالكامل بعد، أليس كذلك؟»

— «لا. وهذا أمرٌ مثير للاهتمام. يجعلني أظن أن دومينيك محق في نظريته بأن النظام يتم فرضه. أتمنى لو كنتُ أفهم المزيد عن ذلك.»

دفعت إيرين نفسها بعيداً عن المكتب، وبدأت تتجول في الغرفة، محدقةً بذهول في مختلف خزائن العرض الزجاجية.

– «الآن، لو أمكن تعطيل عالمٍ ما عند هذه النقطة، حتى لا يتوغل أكثر في الفوضى، سيكون من المفيدٍ معرفة كيف يتم ذلك. نحن لا نعرف عدد العوالم الموجودة، لذا لا نعرف كم نفقد منها لصالح الفوضى. لكننا نفقد ما يكفي لنعرف ذلك. والتنانين ليست مهتمة بالحديث معنا عن كيفية قيامها بما تقوم به.»

سعل كاي قائلاً:

– «تماماً كما أننا لسنا مهتمين بالحديث معهم عن كيفية قيامنا بما نقوم به؟»

التفتت إيرين لتنظر إليه، بنظرةٍ تمنت أن تكون ساحقة:

– «هل تظن أنك أول شخصٍ يطرح هذا الجدل؟»

– «بالطبع لا.» وهز كتفيه. «لكن الحقيقة تبقى كما هي. نحن لا نتحدث.»

قالت إيرين:

– «لقد قابلتُ واحداً من التنانين ذات مرة.»

– «وعن ماذا تحدثتما؟»

– «لقد أثنى على ذوقي الأدبي.»

رمش كاي بعينيه: «لا يبدو هذا كنوعٍ من المحادثات التي تهدد الحياة.»

هزت إيرين كتفيها: «حسناً، لقد كان هو من حصل على المخطوطة التي كنا نبحث عنها كلانا. ترى، كان هناك هذا——» ورأته ينظر بعيداً. «أوه، لا تهتم.»

فكرت في سرها :كانت هناك تلك الغرفة المليئة بالأخشاب الفاخرة والعظام، وقد رافقني إليها خادمان، وكنتُ في الحقيقة أخشى أن أُقتل. لقد تعديتُ على ممتلكاته الخاصة. لقد تفاوضتُ مع أحد باروناته من أجل تلك اللفافة دون أن أدرك ذلك. لقد أُلقي بي في القاع المظلم وكنتُ أغرق بسرعة.

قال كاي بنبرةٍ غير مقنعة:

— «لا أقصد التطفل.»

كان يبدو بشرياً تقريباً. كانت لديه حراشف في تجاويف وجنتيه وعلى ظهر يديه، ناعمة كالريش أو الشعر. كانت لديه مخالب، مصقولة بلمعان عرق اللؤلؤ. كانت لديه قرون. عيناه كانتا كالجواهر في وجهه. بشرته كانت بلون النار، ومع ذلك بدت طبيعية؛ أما بشرتي أنا فكانت مبقعةً وباهتة بالمقارنة معه.

قالت إيرين:

— «ليس هناك الكثير لأرويه. لقد تركني أذهب.»

ناقش القصائد الموجودة في اللفافة. أثنى على ذوقي. وأوضح أنه لا يتوقع رؤيتي أو أي ممثلٍ آخر للمكتبة في تلك المنطقة مجدداً. أومأتُ برأسي وانحنيتُ وشكرته على كرمه.

— «هكذا ببساطة؟»

لا توجد لغةٌ أعرفُها تملكُ كلماتٍ تصفُه.

حاولت إيرين أن تبدو غير مبالية:

— «كما قلتُ، لقد أثني على ذوقي الأدبي.»

بعد ساعة، كانت إيرين تغلق أزرار سترةٍ وتنورةٍ طويلة، بينما جلس كاي خارج غرفة الملابس على كرسي متهالك يقرأ الملفات. متجر الملابس الرخيص الذي أرشدهما إليه دومينيك كان رخيصاً حقاً، رخيصاً جداً، ولم يكن هناك ما يمكن قوله عنه سوى أنه رخيص. إذا كانا سيخترقان المجتمع الراقي، فسيحتاجان لملابس أفضل، ولأزياء لا تعتمد على المعاطف الثقيلة.

اشتكى كاي:

— «هذه القوائم لا معنى لها. إنها تقول الشيء ذاته على كلا جانبي الصفحة.»

بالطبع، كان ينظر إلى صفحات مفردات «اللغة». وبما أنه لم يكن أمين مكتبة، فسيراها بلغته الأم بدلاً من «اللغة».

قالت إيرين:

— «أجل، ستبدو لك كذلك. هل يجب أن أتفاجأ بأنك تحاول قراءتها؟»

رتبت خط عنق بلوزتها بحيث تظهر كشكشتها فوق ياقة سترتها، وفتحت باب غرفة الملابس لتنضم إليه.

قال كاي بابتهاج:

— «لا يمكنكِ لومي على المحاولة.» وتفرس فيها من أعلى لأسفل. «هل ستضعين خصلة الشعر المستعارة؟ معظم النساء اللواتي رأيناهن حتى الآن يطوّلن شعرهن أكثر منكِ.»

نظرت إيرين بفتور إلى قطعة الشعر المستعارة المهترئة التي رقدت على الطاولة كأنها سنجاب داكن أجرب. وقالت مقررة:

– «ارتداء ذلك الشيء سيسبب مشاكل أكثر مما يحلها. سأكون مناهضة للموضة. لنكن ممتنين فقط لأن المشدات (Corsets) لم تعد من الملابس المطلوبة.»

رفع كاي حاجبه وسأل:

– «ولماذا يجب أن أكون أنا ممتناً؟»

قالت إيرين ببرود:

– «لأنك لن تضطر للتعامل معي بينما أرتدي واحداً. الآن، أعطني ملخصاً عما قرأتَه للتو. فكر في الأمر على أنه——»

وقع تحطمٌ من الشارع، وصوتُ صراخ. التفتت لتنظر نحو النافذة. كانت رياحٌ عاتية تهب، محولةً الضباب في الخارج إلى طرحاتٍ رمادية طويلة، تمزق السماء كالمخالب.

سأل كاي:

– «على أنه؟»

ونهض بقفزة واحدة أنيقة، متخذاً وضعيةً هادئة من التعالي وعدم التشتت.

قالت إيرين:

– «الكارثة الوشيكة لها الأولوية على الاختبار الميداني. لنرَ ما يحدث في الخارج.»

الفصل الرابع

كان كاي أول مَن نزل الدرج وخرج إلى الشارع، وسرعان ما توقف متصلباً في مكانه، وراح يرمق السماء ببلاهة كبقية المارة في الشارع. أما إيرين، التي كانت تتبعه بخطوة، فقد رفعت بصرها هي الأخرى.

خمسة مناطيد كانت تعلَق في السماء الضبابية، ومراوحها تشقُّ عباب السحب. ورغم أنها جميعاً كانت تحمل الشعار ذاته باللونين الأزرق الداكن والأحمر، إلا أن واحداً منها كان أضخم بكثير من السفن التي اتخذت مواقعها حوله. كان هذا المنطاد تحديداً يجرُّ خلفه أشرطةً ذهبية براقة —— ومبتذلة نوعاً ما —— ويستعرض درعاً ملكياً على جانبه.

أجهدت إيرين عينيها، لكنها لم تستطع تمييز التفاصيل، فتمتمت قائلة:

— «كاي، هل يمكنك رؤية التصميم المرسوم على تلك السفينة الهوائية؟»

رفع كاي يده ليحمي عينيه، وراح يحدق بتركيز:

— «هناك عقابٌ في أعلى اليسار، باللونين الأسود والأبيض على خلفية ذهبية. وفي أعلى اليمين تاجٌ أخضر فوق خطوط مائلة سوداء وذهبية. أسفل اليسار درعٌ منقسمٌ عمودياً باللونين الأحمر والأبيض. وأسفل اليمين كائنٌ يشبه "الهاربي"، بالأسود والأبيض على خلفية ذهبية أيضاً. وفي القاع تماماً يوجد بوقُ صيد، يتوسطه درعٌ صغير منقسمٌ أفقياً بالأحمر والذهب.»

قطبت إيرين حاجبيها، وهي تحاول استحضار معلوماتها عن علم الأنساب والشعارات. لقد زارت أماكن كانت فيها هذه الأمور غاية في الأهمية، ولا بد أن تصميماً مزدحماً كهذا قد مرَّ بذاكرتها.. آه، أجل، هذا هو.

قالت ببطء:

— «يبدو.. يبدو أنه شعار جمهورية ليختنشتاين.»

قال كاي بذهول:

— «ظننتُ أنها غير موجودة.»

فانتهره بائع صحف كان يجلس على مقعد متهالك بجانب صحفه ولوحةٍ درامية مكتوب عليها: *«القاتل يتربص بلندن»*:

— «بالطبع موجودة! أليسوا هم أفضل بناة مناطيد في العالم؟»

قالت إيرين:

— «أنا آسفة حقاً؛ صديقي قادمٌ من كندا ولا يعرف الكثير عن أوروبا.»

أومأ العجوز برأسه كأن التفسير كان منطقياً تماماً:

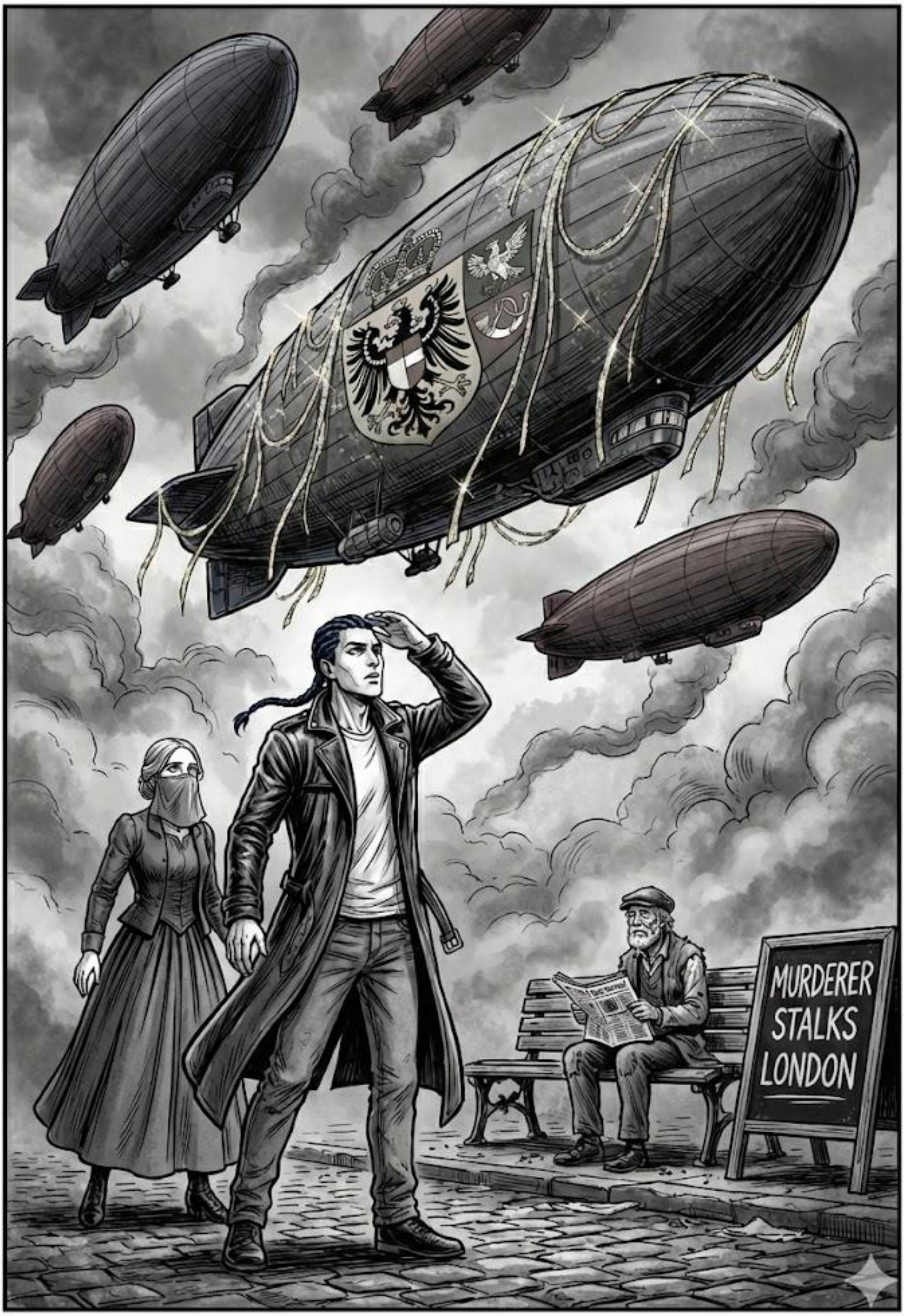
— «أوه، حسناً إذن. هل تودين شراء صحيفة يا عزيزتي؟ فيها كل الأخبار عن مقتل اللورد ويندهام البشع.»

وجهت إيرين حديثها لـ كاي:

— «ادفع للرجل يا كاي.»

ثم التقطت إحدى الصحف؛ كانت من ورقٍ خشن ونحيف، وحبرها الأسود الكثيف يهدد بتلطيخ قفازاتها.

ناول كاي الرجل بعضاً من عملات دومينيك المعدنية وسأل:


MURDERER
STALKS
LONDON

– «هل ألقوا القبض على أحد بعد؟»

– «كلا..» مال العجوز للأمام ونقر على جانب أنفه، وهو يرمق المناطيد بنظرة خاطفة. «لكن أتعرفان ماذا يقولون؟»

خمنت إيرين وهي تشير بالصحيفة الملفوفة نحو المناطيد في الأعلى:

– «يقولون إن لـ ليختنشتاين يداً في الأمر؟»

– «حسناً.. أقصد، الأمر منطقي، أليس كذلك؟ ظهورهم بهذا الشكل بعد وقت قصير من مقتل اللورد.. ويقولون إن سفيرهم كان صديقاً للورد ويندهام. صديقاً "مقرباً جداً"، إن كنتِ تفهمين قصدي.» غمز العجوز بعينه وتابع: «ويقولون أيضاً إنه كان غريمه اللدود، وأنهما كانا،» توقف ليتفحص الصفحة الأولى من صحيفته، «يحيكان الدسائس لبعضهما باستمرار وبطريقة شيطانية.»

سألت إيرين:

– «وهل السفير مصاص دماء هو الآخر؟»

فقد فكرت في نفسها أنه سيكون من غير اللائق تماماً استخدام كاي كطُعم إذا كانت أذواق السفير تميل لهذا الاتجاه. «هذا هو نوع الأمور التي قد تفعلها برادامانت،» هكذا ذكرت نفسها.

– «كلا.. أين كنتِ تعيشين يا عزيزتي؟ لا، إنه من "الفاي"، أرأيتِ؟ يضطر دائماً لجعل الفنانين يرسمون صوره في الصحف، لأن آلات التصوير تلك لا تعمل معه، ولا حتى تلك الأشياء التي يصنعها العباقرة.»

قالت إيرين:

– «من الفاي..»

وشعرت ببرودة تقبض قلبها. كانت هذه أخباراً سيئة.

الفوضى تعشق —— إن كان العشق هو الكلمة المناسبة —— أن تتجسد في عالمٍ يمكنها فيه استغلال القوانين غير المنطقية. ومصاصو الدماء والمستذئبون كانوا عرضةً للفوضى بشكلٍ خاص؛ فمن الناحية المنطقية الصرفة، لماذا ينفر المستذئب من الفضة؟ أو مصاص الدماء من الثوم، أو الأرز اللزج، أو دزينة من الأشياء الأخرى؟ أما بالنسبة لسبب نهوض مصاصي الدماء بعد ثلاثة أيام من الموت، أو معظم قصة دراكولا.. على أي حال، النقطة هي أن الفوضى تستخدم المخلوقات التي تطيع القوانين غير المنطقية بطريقة منطقية. وكان الفاي —— أو "الفاى" أو "اليوكاي" مهما اختلفت أسماؤهم —— من بين وكلائها المفضلين. بعضهم كان عبارة عن قطع حية من الفوضى، تسللت عرضاً إلى عوالم مختلفة واتخذت شكلاً من أحلام البشر وقصصهم.

إذا كان "الفاي" يتجسدون في هذا العالم ويحظون بقبول الناس، فعليها أن تعرف ذلك. كان دومينيك قد ذكر في ملحوظة في الإيجاز أن ليختنشتاين «بوابة فوضى محتملة» لكنه لم يدخل في التفاصيل. تمنت لو فعل؛ فربما تكون ليختنشتاين هي مركز كل الفوضى في هذا العالم. وهذا يجعل أي عملاء يعملون من ليختنشتاين موضع شبهة بشكل خاص.

قالت بحزم، وهي تبتعد بضع خطوات عن مسمع العجوز وتشير لـ كاي بالصحيفة:

— «سنفترق هنا. أريدك أن تكتشف كل ما يمكن عن سفير ليختنشتاين، وسفارته، ومدى تورطه في الوضع الحالي. أما أنا فسأتحرى منزل ويندهام. سنلتقي في الفندق بـ ميدان راسل —— في الثامنة مساءً كأقصى حد. ابحث عن وسيلة لإيصال رسالة لي هناك إذا تأخرت.»

قال كاي ببطء:

— «مهلاً، هل سترسلينني هكذا ببساطة؟»

قالت إيرين بصرامة، محاولةً تجاهل شعورٍ طفيف بالقلق:

— «بالطبع. لقد كنتَ كفؤاً بالفعل حين جندتكَ "المكتبة". لن يفيد أياً منا أن أبقيك تحت سيطرتي طوال الوقت.»

فكرت في سرها : *كما أن ذلك سيصيبني بالجنون إذا اضطررت للعمل باستمرار وشخصٌ يراقبني.*

تابعت قائلة:

— «نحتاج للمعلومات بأسرع وقت ممكن. أنا أعتمد عليك، فهل لديك أي مشكلة في هذا؟»

نظر إليها للحظة، ثم وضع قبضته اليمنى على كتفه الأيسر وانحنى لها انحناءة رسمية:

— «يمكنكِ الاعتماد عليَّ للقيام بنصيبي من العمل.»

ابتسمت له قائلة:

— «ممتاز. أراك إذن بعد بضع ساعات.»

بادلها الابتسامة، وبدا وجهه دافئاً بشكل مفاجئ للحظة، ثم استدار وانطلق بنشاط في الشارع، وقد استعدَّ للعمل.

لم تعرفه إلا منذ ساعات قليلة، لكن كان هناك شيءٌ فيه يوحي بالثقة. وعليها أن تعترف بأن الطريقة التي قال بها إنه سيقوم بـ «نصيبه» من العمل كانت متزنة جداً؛ لا محاولة منه للقيام بنصيبها أيضاً، ولا محاولة منه للتملص..

هل بدأت تحبه حقاً؟ لن يكون ذلك صعباً؛ فـ كاي شخصٌ يُحَب، وستستمتع بمشاركة مهمة مع شخصٍ تحبه. سيكون ذلك تغييراً لطيفاً.

أرخت إيرين نقابها جزئياً فوق وجهها لتحمي فمها وأنفها من الدخان والبخار في الجو. معظم النساء في الشارع كنَّ يرتدين النقاب فوق الأجزاء السفلية من وجوههن أيضاً، وتراوحت بين غلالات حريرية رقيقة للميسورات ولفائف قطنية أو كتانية سميكة للفقيرات. أما الرجال فكانوا يرفعون أوشحتهم فوق أفواههم. تساءلت عما يفعله هؤلاء في فصل الصيف.

تصفحت الصفحة الأولى من الصحيفة، حيث قرأت:

«**آخر التطورات في قضية مقتل ويندهام.. مراسلنا يفيد بأن الشرطة أحرزت تقدماً كبيراً وتتوقع القيام باعتقال في أي لحظة.**»

إذن، فالاحتمال الأكبر هو أن الشرطة لا تزال في حيرة من أمرها. جيد؛ فمن الصعب استعادة الوثيقة المنشودة من مخفر الشرطة إذا نجحوا في القبض على لصة المنازل وحبسها.

لفت إيرين الصحيفة وهي تمسح الشارع ببصرها. كانت سيارات الأجرة المحلية سوداء وصغيرة، وتبدو كمزيج بين عربات "هانسوم" القديمة والسيارات الكهربائية. ببعض التلويح المصمم نجحت في استيقاف إحداها، وطلبت من السائق نقلها إلى محطة مترو أنفاق «هايد بارك كورنر»، التي تبعد بضعة شوارع عن سكن اللورد ويندهام.

كان سكن اللورد ويندهام في شارع فخم، بواجهات رخامية ومزاريب نظيفة، وهو أمر غير معتاد في لندن الملطخة بالأقذار. كان المكان مظلماً ومهجوراً، على عكس المنازل على كلا الجانبين التي كانت مضاءة بالفعل في غبش ما بعد الظهيرة. بخبرةٍ متمرسة، شقت إيرين طريقها نحو مدخل الخدم في الخلف.

كان مغلقاً.

ألقَت نظرة خاطفة خلفها. ورغم أن هذا الزقاق الخلفي كان أكثر نشاطاً بكثير من الشارع الأمامي الواسع، إلا أن أحداً لم يكن يراها —— أو الأهم من ذلك —— يسمعها في تلك اللحظة. وضعت شفتيها بالقرب من القفل وأمرت بـ «اللغة»:

— «يا قفل باب مدخل الخدم، الموصد والمغلق، افتح الآن!»

اهتزت تروس القفل وانفتحت بنقرة قوية مُرضية. اهتز الباب وانفتح المزلاج، مما سمح له بالتأرجح نحو ممر مظلم.

سارت إيرين عبر ممرات الخدم وصولاً إلى الجزء الرئيسي من المنزل. كانت آثار تفتيش الشرطة واضحة؛ أدراج لا تزال مفتوحة، أكوام من الكتان والملابس الملقاة في كل مكان، وآثار أحذية طينية على السجاد القرمزي الفاخر. لم يتم ترتيب المكان أيضاً بعد «التوقف الإضطراري» لحفل العشاء؛ فالأطباق والكؤوس القذرة كانت مكدسة في أكوام أو ملقاة على الطاولات المصقولة، ومنفضات السجائر كانت طافحة بأعقاب السيجار والسجائر.

رغم بحثها بفضولٍ مشوب بالرعب، لم تجد أي غرف تعذيب سرية أو غرفاً تحتوي على أجهزة مصاصي دماء غريبة. وجدت فقط أن الكتب المعروضة بوضوح في كل غرفة قد مُسح عنها الغبار، لكن كعوبها كانت بكرية لم تُطوَ قط. كانت الكتب بها ذلك الطابع الحزين للأدب الذي يُعرض للتباهي فقط دون أن يُقرأ أبداً.

كان أمراً محبطاً للغاية.

كان مكتب ويندهام غرفةً واسعة بها الكثير من اللوحات الفنية الزائفة؛ دزينة كاملة من صور النساء في تنانير الباليه. الستائر القرمزية

السميكة تماشت مع السجاد القرمزي الكثيف والألواح الخشبية الداكنة. كانت خطواتها صامتة.

كان المكتب البلوطي الثقيل خالياً من الأوراق، وجميع أدراجه مغلقة. يمكنها فتحها لاحقاً إذا اضطرت لذلك. كان هناك خدشٌ عميق يشوه سطح المكتب، ربما نتج عن عملية قطع رأس ويندهام. بقع الدماء تغلغلت في الخشب، منسكبةً من خط القطع نحو الخارج، ولم تظن أنها ستزول أبداً. الكرسي الكبير خلف المكتب — من الأبنوس بوسائد جلدية سوداء، يا له من ذوقٍ مبتذل — كان قد دُفع بعيداً في وقت ما. أُعيد وضعه في مكانه، لكنه بوضوح ظل ملقىً لفترة كافية ليترك أثراً في السجاد الوثير.

الدماء تغلغلت في السجاد أيضاً، لكنها كانت بالكاد مرئية، بلون بني أغمق قليلاً وسط اللون القرمزي الغني الكثيف.

قررت إيرين أن خزانة العرض الزجاجية في الزاوية هي التي كانت تحوي كتاب "غريم". فمن ناحية، كانت الخزانة محكمة الإغلاق بكل أنواع الأقفال والمزاليج والإنذارات المعقدة. ومن ناحية أخرى، كانت الآن فارغة.

استدارت إيرين بتفكير وهي تمسح الغرفة ببصرها. كان ويندهام من نوع الرجال الذين يحتاجون لخزنة، وأي مكان أفضل لحفظها من مكتبه الخاص؟ كانت مستعدة للمراهنة على ذلك، والآن كل ما عليها فعله هو محاولة العثور عليها.

كما هو متوقع، كانت أكبر اللوحات الزائفة تخفي الخزنة. أزاحت اللوحة وفحصت الباب الحديدي الثقيل. قفل مركب (Combination lock). حسناً، يمكنها دائماً فتحه بـ «اللغة»، ولكن..

سمعت وقع خطوات سريعة تقترب من السلالم الرئيسية. لا بد أنه رجل؛ فالمرأة لا تمشي بمثل هذه الخطى الواسعة، ليس بهذه التنانير. لكن لم يكن من المفترض وجود أحد في المنزل! ربما لصٌّ آخر؟ يا له من توقيت مذهل.

أخفت الخزنة بسرعة، وانسحبت خلف إحدى الستائر السميكة. لم تكن تخشى أن يكتشف أمرها بين طياتها الكثيفة، بل كانت تخشى الاختناق فقط.

انفتح الباب بصرير ثقيل؛ ومن الواضح أن الدخيل لم يكلف نفسه عناء الحذر. انتظرت حتى سمعت صوت إزاحة اللوحة قبل أن تختلس النظر بحذر من حافة الستارة.

كان الرجل يعطيها ظهره. كان فوق متوسط الطول، بكتفين عريضتين وخصر نحيل. شعره الشاحب، بلونٍ يقع في مكان ما بين الفضي واللافندر، كان مربوطاً للخلف في ذيلٍ قصير يستقر بأناقة فوق سترته ذات القصة المثالية. بنطاله كان هو الآخر محكم القصة، يلتف بأناقة حول جسده. كان يرتدي زياً رسمياً كاملاً للزيارات، لو لم يكن مضيفه قد قُتل لتوّه. قبعته العالية كانت مائلة بلامبالاة لجانب واحد، وكان يرتدي قفازات من جلد الماعز الرمادي الشاحب.

مدَّ يده ليدير مقبض الخزنة برقة، ثم سحب أصابعه بسرعة مع "فحيح" غاضب. انتشرت في الجو رائحة خفيفة للحم محترق، تسللت حتى من خلال قفازاته.

أرخت إيرين الستارة لتعود لمكانها، وراحت تفكر. من الواضح أن هناك في تحالف اللورد ويندهام مع «الفاي» أكثر مما تراه العين، إذا كان قد حرص على أن تُصنع خزنته من "الحديد البارد" (Cold Iron)، وهو المعدن الذي لا يقوى عليه الفاي. هذا يدعم نظرية «الدسائس

الشيطانية» التي ذكرتها الصحيفة، ويتفق تماماً مع ما تعرفه عن الفاي؛ فهم يعشقون العلاقات المعقدة، ولا يهمهم إن كانوا محبوبين أو مكروهين، طالما أن الطرف الآخر يكنُّ لهم مشاعر قوية. مشاعر قوية كافية، مثلاً، لتركيب خزنة مضادة تماماً للجان. ولو خُيرت قبل ساعات، لما كان الوقوع في مكتب مصاص دماء ميت مع جني غاضب ضمن خياراتها.

ثم، وبشكل أكثر إثارة للقلق، سمعته يشم الهواء. لم تكن تلك الشمة البلغمية لشخص مصاب بنزلة برد، بل كانت شمةً جائعة، تذوقاً للهواء.

قال، وصوته يعلق في الجو كالبخور:

– «أوه.. اخرجي، اخرجي أيتها الفأرة الصغيرة. أم عليَّ أن آتي للبحث عنكِ؟»

أخذت إيرين نفساً عميقاً، ورسمت على وجهها تعبيراً ينمُّ عن عدم الاهتمام المهذب، وأزاحت الستارة:

– «سفير ليختنشتاين، على ما أظن؟»

كان وجهه بجمال جسده ذاته، لكن عينيه كانتا مشقوقتين كعيني قطة وبلون ذهبي خالص. قال، بنبرةٍ ناعمة كالعسل:

– «يا للروعة، أنتِ محققة تماماً. ولكن أي نوع من الفئران الصغيرة يختبئ خلف الستائر؟ هل أنتِ مبتزة أيتها الفأرة الصغيرة؟ جاسوسة؟ محققة؟ أم جرذٌ صغير خلف الستار، ينتظر أن يُطعن؟»

انتهزت الفرصة لتقديم هويتها المزيفة:

— «أنا صحفية هنا للتحقيق في مقتل اللورد ويندهام يا سيدي. كنتُ آمل إجراء مقابلة معك، ولم أكن أجرؤ على الأمل في لقائك بهذه السرعة. لو سمحت لي بسؤالك عن رأيك في الموقف..»

انزلق خطوة نحوها:

— «أي صحيفة تمثلين؟»

قالت:

— «صحيفة التايمز.»

فهناك صحيفة بهذا الاسم في كل عالم موازي زارته تقريباً.

— «وكيف عرفتِ أني سآتي إلى هنا، أيتها الفأرة الصغيرة الجميلة؟»

كان هناك شيءٌ مفترس للغاية في وجهه الآن.

قالت بسرعة وهي تمد يدها داخل حقيبتها:

— «حسناً، بالطبع لم تكن لديَّ أدنى فكرة. كانت مفاجأة تامة أن ألتقي بك هنا يا سيدي. لكني أفترض أنه ليس من المستغرب، عند سماعك بخبر وفاته، أن تسرع بطبيعة الحال إلى منزله بقصد تقديم تعازيك لـــــ»

أمسكت يده بمعصمها:

— «لا مسدسات أيتها الفأرة الصغيرة. لا أظن أننا نريد قدوم الشرطة. لا، كل شيء سيمر بهدوء ولطف، وأنتِ ستخبرينني بالضبط عما يحدث هنا..»

كان بإمكانها أن تكذب عليه. كان بإمكانها أن تحاول مقاومته. أو كان بإمكانها ببساطة إبعاد تلك اليد الباردة، الأنيقة، ذات القفاز الفاخر عن معصمها.

قالت، والغضب يتسلل لصوتها:

— «ارفع يدك عني يا سيدي، وإلا ستندم.»

توقف قليلاً:

— «أنتِ واثقة جداً من نفسكِ.»

ولأول مرة ظهر في صوته نبرة أخرى غير الخبث أو الرضا الذاتي؛ ربما لمحة من عدم اليقين.

— «أتساءل.. هل أنتِ ربما أكثر مما تبدين عليه؟»

أجابت إيرين: «ألسنا جميعاً كذلك؟»

— «وهل هناك مَن يدعمكِ؟»

— «شخصٌ لا ترغب في معاداته.»

لقد عرفت الآن مكمن شكوكه. لم تقابل من قبل إلا جاناً من رتبٍ أدنى، لكنهم عملياً يمثلون تعريف «الشخص الملتوي لدرجة أنه قد يسقط إذا حاول المشي في خط مستقيم». وهذا الرجل يفكر بلغة المؤامرات والعملاء، وهي تجيد لعب هذه اللعبة كما يجيدها أي شخص آخر.

تابعت قائلة:

— «لكني لا أستطيع إعطاء أسماء، ولا حتى لسفير. ولكن ما يمكنني تقديمه ربما هو قدرٌ من التعاون.»

أفلت معصمها ورفع حاجبه برقة: «أنتِ تثيرين اهتمامي.»

فهمت لغته تلك؛ كانت تصلها رسالة واضحة بأنه قد يجدها مفيدة، ولا علاقة لـ "الاهتمام" بالأمر. بدلاً من ذلك، أومأت نحو الخزنة:

— «ربما نبحث كلانا عن الشيء ذاته يا سيدي.»



أومأ برأسه مرة واحدة بحدة: «ربما. حسناً، افتحيها.»

— «هل تملك الرقم السري للقفل يا سيدي؟»

أملى عليها قائمة من الأرقام بينما كانت تعمل على آلية الخزنة. إذن الحديد هو وحده ما منعه من الدخول. تساءلت عما كان سيفعله لو لم تكن هنا؛ ربما سحر أو أجبر عابر سبيل من الشارع، أو أحضر عميلاً بشرياً لاحقاً.

لامست أصابعه المغطاة بالجلد قفاها، فارتجفت. وهي تفكر : *إنه يحتاج إليكِ في هذه اللحظة، لن يحاول فعل شيء حتى يحصل على ما يبحث عنه، وأفضل وسيلة للتعامل معه هي إعطاؤه شيئاً أكثر إثارة لينقض عليه..*

فحَّ من خلفها مقترباً جداً: «افتحيها.»

فتحت إيرين باب الخزنة وابتعدت بضع خطوات عن الجني، وشعرت بجوارحها بتركيزه ينتقل منها إلى محتويات الخزنة.

كانت هناك عدة رزم من الأوراق ملقاة بنظام داخل التجويف الحديدي الكبير. وفوقها كانت هناك بطاقة صغيرة، منقوش عليها قناع ذهبي، وموقعة باسم بيلفيغور.

فحَّ الجني، واشتدت قبضة يديه حتى سمعت إيرين قفازاته تتمزق. التفت نحوها، ووجهه يغلي غضباً.

قولها «لا تلُمني» أو «ليس خطئي» كان سيعني اعترافاً بكونها ضحية. لذا، وبأقصى ما يمكنها من هدوء —— متمنية لو كانت هناك مسافة أكبر بينهما، بل متمنية لو كانت المسافة أميالاً —— قالت:

— «هذا لا يعقل. إذا كانت بيلفيغور هي من سرقت الكتاب، وأرادت التباهي بذلك، فلماذا تترك بطاقتها هنا داخل الخزنة وليس في الخارج على المكتب؟»

رمش بعينيه مرة، وبدا وكأنه يتراجع خطوة بذهنه:

— «بالفعل.. الكتاب هو المهم هنا. واصلي الكلام أيتها الفأرة الصغيرة. أخبريني بما تعرفين، وما ترين هنا. أخبريني بما تعرفين عن الكتاب. اشرحي لي الأمر. اجعلي لنفسكِ قيمة عندي.»

خمنت إيرين قائلة، فقد كانت نظرية جيدة كغيرها، وربما تكون حقيقية؛ فهي تحتاج لمزيد من البيانات، والسفير يبدو باحثاً عن الكتاب أيضاً، فلماذا لا يوجد غيره؟ ربما يمكنها استغلال ذلك.

تابعت:

— «ربما كان هناك مجرمان. ولم تكن بيلفيغور بالضرورة تلاحق الكتاب، ربما كانت تلاحق شيئاً احتفظ به اللورد ويندهام في خزنته. ماذا لو كان الشخص —— أو الأشخاص —— الذين سرقوا الكتاب والذين قتلوا اللورد ويندهام مختلفين تماماً؟ ماذا لو كانوا ينتظرون هنا في المكتب بينما كان هو يقيم الحفلة في الطابق السفلي؟»

مشيت لتنظر للخزانة الزجاجية حيث كان الكتاب:

— «لا يمكنني الجزم إن كانوا قد أخذوا الكتاب أولاً ثم قتلوه، أم العكس.» بالطبع لا يمكنها الجزم، فهي تستنتج كل هذا في التو واللحظة، أو بدقة أكثر، تخمن بعشوائية.

— «لكننا نعرف أنهم قطعوا رأسه على المكتب. ثم خرجوا عبر المنزل وتركوا رأسه على السياج خارج الباب الأمامي.»

قاطعها متسائلاً: «لماذا لا يكون الخروج من النافذة؟»

– «النافذة لا تُفتح.» لقد لمحت المزلاج وهي تختبئ؛ لقد كان ملحوماً. «لا بد أنه كان أحد احتياطات اللورد ويندهام. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك حفلة، وكان من السهل جداً المشي عبر المنزل والخروج من الباب الأمامي إذا أخفوا الرأس وبدوا كضيوف أو خدم.»

– «همم.» التفت وأشار بإصبعه إليها: «وبيلفيغور؟»

– «إذا هربت بالتقاط حبل من منطاد عابر، فلا بد أنها صعدت من السطح.»

أومأ برأسه: «والآن نقطة حاسمة أيتها الفأرة الصغيرة. لن أسألكِ عن أسماء أشخاص، ولكن إذا لم تخبريني لصالح أي جماعة تعملين، فسأكون مضطراً بأسف لـ.. أوه حقاً، لماذا ألطف الأمور؟ لن أكون آسفاً على الإطلاق.» كانت ابتسامته حادة كالنصل.

كانت إيرين متأكدة نوعاً ما أنها تستطيع استخدام «اللغة» ضده قبل أن يصل إليها، أو ببساطة تضرب باب الخزنة في وجهه، لكن «نوعاً ما» لم تكن كافية. حاولت استذكار ملف دومينيك، الذي أورد قائمة بأشهر الجمعيات السرية.

قالت بتململ، متظاهرة بأن الكلمات تُنتزع منها انتزاعاً:

– «أعمل لصالح "كاتدرائية العقل" يا سيدي.»

كانت تلك واحدة من الجماعات الأكثر حياداً، والمهتمة بالتقدم العلمي العام أكثر من اهتمامها بذبح الوحوش أو تهديد البشرية.

أومأ برأسه كمن أكد فرضية لديه:

– «جيد جداً. والآن أيتها الفأرة الصغيرة، لديَّ عرضٌ لكِ. أو بالأحرى، لأسيادكِ. كلانا يريد المخطوطة، وسنحصل عليها بشكل

أسرع إذا تعاونا. يمكن ترتيب الحصول على نسخة. يمكن عقد صفقة. هل توافقين؟»

ما أرادت إيرين قوله حقاً هو أنها تكره نعتها بـ «الفأرة الصغيرة»؛ فهي ليست بهذا الصغر، طولها خمس أقدام وتسع بوصات، وهو طول مثالي للمرأة في معظم العوالم. جانياً كان أم لا، هذا الرجل وغدٌ متغطرس، مهين، ومستفز، ولو استطاعت لجعلته يركض في ماراثون أمام قطار قادم.

لكن ما قالته هو: «نعم يا سيدي.» وأطرقت ببصرها بخضوع.

فـالفاي معتادون جداً على اتخاذ وضعيات الدراما العالية لدرجة أنهم يتوقعونها من البشر، ويسرُّهم دائماً أن يجدوا توقعاتهم في محلها. إنهم يفكرون في كل شيء بلغة القصص، ويرون أنفسهم الأبطال. إنهم يلعبون أدواراً —— لا، بل يعيشون أدواراً، ويرون العالم من حولهم كفيلمٍ سينمائي في مخيلتهم هم أبطاله. هو يريدها أن تكون عميلة وديعة، حسناً، ستلعب الدور من أجله، وتستخدمه لإنجاز المهمة، وتحاول تجاهل نبض الغضب المشتعل وقرحة المعدة الوشيكة.

ابتسم لها. هذه المرة كانت ابتسامة إغواء أكثر منها تكشيراً غاضباً. كانت دافئة لدرجة أنها كادت تبادله الابتسامة، لولا معرفتها كم كانت مجرد قناع. كانت جذابة، توحي بطريقةٍ ما بالظلمة وضوء الشموع والقرب، وبأنفاسٍ متلاحقة، ويدٍ دافئة في يدها، وضغطٍ على جسدها..

— «فتاة جيدة. انتظري لحظة.»

مشى نحو المكتب، وبدأ يفتح الأدراج، باحثاً فيها عن ورق وقلم وحبر.

— «أين كان يضعها.. آه، نعم.»

وضع ورقة فوق الدماء الجافة، وفتح زجاجة حبر أرجواني، وغمس ريشةً فيها، وكتب ملحوظة سريعة.

— «هاكِ. سنقيم حفلة راقصة في السفارة غداً. إليكِ دعوة خاصة. أحضري معكِ صديقاً، أو حتى حبيباً. ابحثي عني هناك وأخبريني بما يقوله أسيادكِ عن عرضي الصغير. وتذكري..»

ترك الجملة معلقة في الجو. فقالت إيرين ممتثلةً: «نعم يا سيدي؟»

— «تذكري أني سأكون سيداً أفضل لكِ من "كاتدرائية العقل".»

كان هناك وهجٌ يحيط به، هالةٌ من الحضور، وكأن الضوء الذي يسقط عليه يأتي من مكان آخر، مكان أكثر جمالاً وخصوصية. عيناه كانتا ذهباً خالصاً، مهدئةً، فاتنة، وشاملة. حتى بؤبؤ العين المشقوق بدا الآن أكثر طبيعية مما يمكن لعيون البشر أن تكون عليه أبداً. خطا للأمام ووضع يديه على كتفيها، جاذباً إياها نحوه.

— «سأكون كل شيء بالنسبة لكِ أيتها الصغيرة. سأحميكِ وأظللكِ. ستكونين معشوقتي، حبيبتي الخاصة، حلوتي، مدللتي، جميلتي، وبهجة قلبي.»

كانت تفوح منه رائحة التوابل والعسل. شعرت ببرودة يديه عبر قفازاته الممزقة وقماش ملابسها.

تمتم وشفتيه قريبتان من شفتيها: «قولي إنكِ ستكونين لي.»

فجأة، اندلع ألمٌ حاد في الوشم المرسوم على ظهر إيرين، فابتعدت عنه بعنف وهي تلهث طلباً للهواء. خطا خطوة نحوها، لكنها رفعت يدها فتوقف.

بصقت الكلمات قائلة:

— «أنا أنتمي،» *للمكتبة*، «لـ كاتدرائية العقل. إغوائي لأخون أسيادي لن يقنعهم بعقد تحالف.»

— «أوه، حسناً.» رفع أصابعه إلى شفتيه وأرسل لها قبلة في الهواء. «شعرتُ برغبة في المحاولة. سأراكِ غداً أيتها الفأرة الصغيرة. لا تنسي، وإلا سآتي للبحث عنكِ.»

استدار على عقبه ومشى نحو الخزنة، وجمع الأوراق وبطاقة الزيارة. رأت الحذر الذي توخاه لكي لا يلمس المعدن البارد.

قال بلامبالاة وهو يغادر: «مجرد مراسلاتنا الخاصة يا عزيزتي. حول "كتب المكتبة". لا شيء يهمكِ.»

عضت إيرين لسانها بقوة حتى آلمها، محاولةً إبقاء وجهها فاتراً بفضول. ربما استخدم كلمة «المكتبة» بشكل عابر، ولا يشك فيها بالضرورة. أو ربما كان يتحدث فقط ليُبقي انتباهها منصباً عليه لا على أي شيء آخر..

بدأ جنون الارتياب يهمس في عقلها. فبعض الفاي يعرفون أمر «المكتبة»، الفاي الأقوياء منهم. فهل هذا الجني تحديداً بهذا القدر من القوة؟

انغلق الباب خلفه بعنف.

لقد كانت على وشك الاستسلام. لقد كان أكثر مما توقعت، بكل المقاييس. لولا رباطها بـ «المكتبة»، لربما لم تكن لتستطيع المقاومة في الوقت المناسب. وماذا كان سيحدث حينها؟ جعلها التفكير ترتجف حرفياً. كانت هناك حالات أخرى لأمناء مكتبة ضاعوا لصالح الفوضى، وقصصهم لم تكن تبعث على الاطمئنان، والحالات غير المسجلة كانت

أسوأ. وهناك قصة الرعب التي يعرفها كل أمين مكتبة، عن الرجل الذي خان «المكتبة» وباعها، ولم يُقبض عليه أبداً ولا يزال طليقاً هناك——

غرزت أظافرها في راحتها وهي تجبر نفسها على الاعتدال والرصانة. مشيت لتنظر للوثيقة على المكتب. كانت عبارة عن دعوة دخول بسيطة لسفارة ليختنشتاين، ليلة غد، لحفل راقص كبير.

كانت موقعة باسم: سيلفر.

الفصل الخامس

– «لقد اكتشفتُ كل شيء،» قال كاي وهو يقطع رغيفاً صغيراً إلى نصفين. «يا للهول، هذه زبدة حقيقية. رائع.»

علّقت إيرين:

– «نحن محظوظون لأنها ليست مجمدة بالتبريد الصناعي مع مكملاتٍ كيميائية إضافية.»

لقد واجها صعوبةً في العثور على مطعمٍ لا يروّج لنفسه بوصفه «حديثاً كلياً وخاصاً جداً»، ومجهزاً بأحدث الأجهزة العلمية لحفظ الطعام وتحسينه وطهيه. أما الحالة الصحية لمرتادي المطعم بعد الوجبة، فلم تكن موضوعاً للذكر.

قال كاي:

– «إنه تغييرٌ لطيف.» ثم وضع السكين بين قطعتي الرغيف المدهونتين بالزبدة. «حسناً، أتبدئين أنتِ أم أبدأ أنا؟»

كان كاي يتفجر حماساً ليخبرها بكل ما توصل إليه في تحريه. لم تستطع إيرين إلا أن تتساءل عن مدى "التحفظ" الذي كان يتسم به كمجرمٍ في عالمه الموازي قبل انضمامه إلى «المكتبة». أجبرته على الصمتً حتى أحضر النادل نبيذهما وانسحب إلى الظلال المتوارية خلف ستائر المطعم، وحاولت ألا تبدو مستمتعةً جداً بالموقف؛ فمن الواضح أن خمس سنواتٍ من الدراسة القسرية قد تركت لديه طاقةً فائضة تكفي لإضاءة معظم شوارع لندن.

قالت إيرين:

— «أنت أولاً. أعطني تفصيلاً كاملاً.»

— «حسناً. أولاً وقبل كل شيء، تُعدُّ جمهورية ليختنشتاين قوةً عظمى في هذا العالم؛ فهم يصنعون أفضل المناطيد، والجميع يعرف ذلك. كان بائع الصحف محقاً. وهم يبيعون المعلومات، لكنهم لا يفرطون في أسرارهم الكبرى.»

سألت إيرين:

— «ألا يوجد تجسسٌ صناعي؟ ولا محاولاتٌ للهندسة العكسية للتكنولوجيا أو غزو دولٍ أخرى؟»

أخذ كاي رشفةً من نبيذه وقال:

— «آه، هناك سببٌ لذلك. يا للهول، هذا النبيذ ليس سيئاً بالنسبة لمكانٍ صغير ورخيص كهذا.»

أومأت إيرين برأسها وتابعت:

— «إذن، ما هو السبب؟»

— «"الفاي" —— أو الجان —— يبعدونهم. إنهم يحمون الدولة بأكملها جيداً ليغطوا على أفعالهم الخاصة، وهذا يحجب الجواسيس الصناعيين والقوميين أيضاً. هل تذكرين ما قيل عن أن السفير هو أحد أفراد "الفاي"؟»

طبق كاي شفتيه للحظة في إيماءةٍ تنمُّ عن اشمئزازٍ صريح.

— «ليس هو وحده؛ فهناك الكثير منهم في ليختنشتاين. إنهم يتكاثرون هناك، أو يتناسلون، أو شيئاً من هذا القبيل. إنها بؤرةٌ لقذارتهم. والسكان المحليون يتسامحون معهم؛ فقد تم شراؤهم بالحليّ الرخيصة والفتنة البراقة.»

قطبت إيرين حاجبيها؛ فلا يبدو أن كاي سيكون سعيداً بذهابهما إلى حفل السفارة ليلة غد. قالت بحياد وهي ترتشف من نبيذها:

– «أفهم من كلامك إذن أنه من الطبيعي جداً وجود "الفاي" ضمن طاقم سفارة ليختنشتاين؟»

أومأ كاي برأسه:

– «بل إنهم مشهورون بذلك. كان مراسلو الصحف يحاولون إجراء مقابلاتٍ عند بوابات السفارة. وقال أحدهم إن الدول الأخرى التي تتعامل معً تلك البلاد باتت تحمل تمائم من "الحديد البارد" الآن.. لقد وصل الأمر إلى هذا الحد من السوء.»

قالت إيرين:

– «من الجيد معرفة أن ذلك يجدي نفعاً. هذا بافتراض أنه يجدي فعلاً، أليس كذلك؟»

– «حسناً، لن يحملوها ما لم تكن تجدي،» قال كاي، ثم صمت لبرهة وتابع: «إلا إذا.. إلا إذا كان "الفاي" يتظاهرون بتأثرهم بالحديد لمجرد إيقاع ضحاياهم في شعورٍ زائف بالأمان.»

وافقت إيرين بأسف:

– «هذا محتملٌ أيضاً.»

رفعت يدها لتسكته مع وصول النادل بحسائهما، وظلا صامتين حتى غادر الرجل. قالت وهي تتناول ملعقتها:

– «حسناً، واصل حديثك.»

قال كاي وهو يشرع في تناول حسائه:

– «السفير الحالي يشغل منصبه منذ ثمانين عاماً. اسمه سيلفر، أو بالأحرى، يناديه الناس بـ سيلفر. يبدو أنه لا أحد يعرف اسمه الحقيقي خارج ليختنشتاين، إن كان أحدٌ يعرفه أصلاً. ورغم أن حقيقة كون اسمه مجهولاً تُعدُّ بحد ذاتها معلومةً تستحق الذكر عنه..» تنهد وتابع: «يا لـ "الفاي". قال المراسل الذي كنتُ أتحدث إليه إن شكل السفير لم يتغير أبداً طوال الثمانين عاماً الماضية، باستثناء تحديث خزانة ملابسه. لديه سمعةٌ نمطية جداً بالنسبة لـ "الفاي": مغوٍ، متغطرس، محبٌّ للحفلات، ويرعى الفنانين.»

فكرت إيرين في الأمر ثم سألت:

– «هل يرعى المهندسين؟»

أجاب كاي:

– «لم يذكر المراسل ذلك. لماذا؟»

هزت إيرين كتفيها:

– «بدا لي الأمر ذا صلة، بما أننا قيل لنا إن هذا العالم الموازي يفضل التكنولوجيا، وبما أن اقتصاد ليختنشتاين يعتمد على السفن الهوائية. بالمناسبة، أنت تعرف الكثير عن "الفاي".»

بدا كاي وكأنه يفكر في البصق على الأرض:

– «تلك المخلوقات.. كان لدينا شيءٌ يشبهها في العالم الموازي الذي جئتُ منه. لصوصٌ متغلغلون، ومبذرون، ومدمرون؛ يتسللون إلى المجتمع ويمزقونه شر ممزق. إنهم يزعزعون استقرار الواقع. إنهم أدوات الفوضى، بل هم الفوضى ذاتها. لا يمكنكِ أن تتوقعي مني أن أقبل بأشياء كهذه.»

قالت إيرين:

— «اسمع، اهدأ قليلاً وتناول حساءك. أنا أتفق معك في أنهم خبثاء، لكننا لسنا هنا في حملةٍ لاجتثاثهم. تذكر المهمة.»

لقد اندهشت من حدته؛ فهي تفوق ما تتوقعه من متدرب، لكن لا بد أن خبرةً شخصية تكمن خلف ذلك. تساءلت في نفسها عن مدى "شخصية" تلك الخبرة؛ هل تورط مع أحدهم؟ أم فقد صديقاً أو حبيبةً بسببهم؟

تابعت قائلة:

— «مهمتنا هي الحصول على النص، ثم يمكننا الخروج من هنا فوراً.»

حدق بها كاي للحظة، ثم أطرق ببصره وقال بنبرةٍ رسمية مفاجئة:

— «أعتذر عن سلوكي غير اللائق. أنتِ رئيسة هذه المهمة بالطبع. أردتُ فقط التعبير عن مشاعري تجاه هذا الموضوع؛ مشاعري القوية للغاية.»

حاولت إيرين التفكير في ردٍ لا يبدو استخفافاً به. لقد لاحظت كيف يغير أنماط حديثه مجدداً؛ من العامية إلى الرسمية وبالعكس. تساءلت إن كان قد لاحظ ذلك بنفسه، ربما هو تأثير «المكتبة» مقارنةً بحياته السابقة المحفوفة بالمخاطر.

نحت تلك الأفكار جانباً وبذلت قصارى جهدها لتبتسم:

— «لا بأس، حقاً. لستَ الوحيد الذي واجه مشاكل مع الفوضى. لكن لا يمكننا تقييم كيفية التعامل مع الموقف حتى تكتمل الصورة لدينا. من فضلك، أخبرني المزيد عن ليختنشتاين والسفارة.»

أعاد كاي ابتسامةً باهتة، لكنها كانت نابعةً من شعورٍ بالواجب لا المتعة.

— «حسناً، كما كنتُ سأقول، يبدو أن تفشي "الفاي" في ليختنشتاين يساعد في إبعاد الدول المجاورة؛ ربما لأنهم غير متأكدين مما يمكن لـ "الفاى" فعله، أو ربما يخشون تمدد "الفاى" إلى بلادهم. ليختنشتاين هي ثمرةٌ يشتهي الكثيرون قطفها من غصنها وغرس أسنانهم فيها، لولا ذلك الخوف.»

رفعت إيرين حاجبيها.

قال كاي وهو يلوّح بملعقته:

— «حسناً، تشبيهٌ درامي، لكن ألم تلاحظي مدى التوازن والتوازن المضاد في هذا العالم بأكمله؟ إذا نظرتِ إلى ليختنشتاين، ستجدين "علماء مجانين" في كل مكان. الناس الذين استجوبتُهم لمّحوا إلى نوعٍ من سباق العلماء المجانين. أعلم أنني مجرد متدرب، لكن من المؤكدً أن تأثير العلم هناك لا يمكن أن يكون إلا لموازنة قدر الفوضى الذي يجلبه "الفاى" إلى الطاولة، خاصةً في ليختنشتاين نفسها.»

افترضت إيرين:

— «أو ربما "الفاى" هم مَن يحكون قصصاً عن العلم، أو يتورطون في قصصٍ علمية. أو ربما تلعب ليختنشتاين دور بلجيكا في هذا العالم الموازي. والدي قام ذات مرة بالتحقق من حال بلجيكا في أكبر قدرٍ ممكن من العوالم الموازية التي عثر عليها؛ ويبدو أنها دائماً ما تُغزى، أو تقع فريسةً للنيازك، أو تُصاب بفطرياتٍ فضائية أو ما شابه.. ولا تنظر الآن، لكن شخصاً ما دخل للتو وهو يحدق فينا.»

قال كاي وهو يميل بملعقته في محاولةٍ فاشلة لالتقاط انعكاسٍ للغرفة خلفه:

— «لا بد أنه ينظر إليكِ أنتِ. افعلي شيئاً غريباً وانظري إن كان سيبدي رد فعل.»

قالت إيرين باختصار:

— «إنه قادمٌ نحونا.»

كان يبدو بكل تفاصيله أرستقراطياً ثرياً؛ من القبعة العالية إلى العباءة المبطنة بالحرير وصولاً إلى العصا ذات الرأس الفضي (التي اشتبهت في كونها عصا يخفى بداخلها نصلٌ حاد). كانت عيناه مثبتتين على كاي.

همست إيرين:

— «بسرعة، هل فعلتَ أي شيءٍ كان يجب أن تخبرني به؟»

— «مطلقاً.» استدار كاي ليتبع نظرات إيرين. «همم، انتظري. لقد رأيتُه في السفارة.»

قال الرجل وهو يرفع قبعته العالية منحياً لـ كاي انحناءةً صغيرة، ثم انحناءةً ثانوية لـ إيرين:

— «كما رأيتُك أنا، يا سيدي. هل يمكنني الانضمام إليكما على هذه الطاولة؟»

ألقى كاي نظرةً خاطفة على إيرين، فأومأت برأسها قليلاً. التفت مجدداً إلى الرجل وقال:

— «بالطبع، رغم أنني لا أظن أننا قد تعارفنا؟»

جاء النادل مسرعاً بكرسي إضافي، ثم انسحب بعد أن أخذ قبعة الرجل وعباءته.

جلس الرجل ومال للأمام، مشبكاً أصابعه:

– «أثقُ أنني أستطيع التحدث بحرية أمام رفيقتك؟» أومأ نحو إيرين. «فبعضُ ما يجب أن أقوله قد لا يكون مناسباً لمسامع الجنس اللطيف.»

نظر كاي إلى إيرين للحظة. ترددت إيرين، ثم نظرت إلى صحنها بطريقةٍ وديعة؛ فقد اضطرت للعب هذا الدور من قبل، وإن كان عليها الاعتراف بأنها لم تفعل ذلك أثناء تدريب متدربٍ مبتدئ في الوقت ذاته.

قالت إيرين لـ كاي بنبرة السكرتيرة:

– «أرجوكَ دعني أبقى يا سيدي. سأقوم ببساطة بتدوين الملحوظات كالمعتاد.»

أومأ لها كاي بنبرةٍ استعلائية، ثم التفت مجدداً نحو ضيفهما:

– «أؤكد لك أن الآنسة —— » تعثر قليلاً —— «آنسة وينترز هنا جديرةٌ بالثقة تماماً، وهي رفيقةٌ أعتز بها. يمكنك التحدث بحرية أمامها. ومع ذلك، يهمني أن أعرف طبيعة الموضوع الذي تقترح مناقشته.»

كان جزءٌ من عقل إيرين مندهشاً من لباقة كاي المفاجئة في الحديث؛ فقد تحول مجدداً إلى تلك الرسمية المفرطة التي لاحظتها سابقاً. ورغم أنها تستطيع إدارة مثل هذه التحولات اللغوية بسهولة بحكم خبرتها في مختلف العوالم الموازية، إلا أنها لم تظن أنه سيكون قادراً على ذلك. أمرٌ غريبٌ تلو الآخر يأتي من هذا الفتى الذي يدعي أنه من عالمٍ موازٍ يعجُّ بالآلات وكان فيه مجرماً صغيراً. كانت ترغب بشدة في التحدث مع كوبيليا بشأن هذا الأمر. أما الجزء الآخر من عقلها، فقد تساءل لماذا أطلق عليها اسم «وينترز» وما المرجعية الثقافية وراء ذلك.

راقبت ضيفهما من تحت رموشها؛ كان قد استرخى قليلاً الآن، واتكأ بظهره على الكرسي. كان يتمتع بملامح حادة جداً، وأنفٍ بارز،

وعينين غائرتين يحيطهما الظل، وعظام وجنتين عاليتين، وأصابع طويلة رقيقة. كان المثال المثالي للبطل الرئيسي في أنواعٍ معينة من روايات التحري. في الواقع، تساءلت إن كان كذلك بالفعلً..

قال الغريب:

— «حسناً جداً. اسمحوا لي أن أعرفكم بنفسي. اسمي بيريغرين فيل، إيرل ليدز الخامس عشر.»

أومأ كاي برأسه قليلاً:

— «كاي سترونغروك، في خدمتك. هل لي أن أسأل عن طبيعة عملك؟»

رفع النادل أطباق الحساء وأحضر الوجبة الرئيسية لـ إيرين وكاي. كما أحضر كأساً إضافية للزائر، وملأها دون أن يُطلب منه، قبل أن ينسحب مجدداً. سمح هذا الانقطاع لـ إيرين بأن تعض لسانها وتمتنع عن ركل كاي تحت الطاولة؛ فقد نجحت للتو في استنتاج المصدر الذي يستقي منه أسماءه المستعارة. «سترونغروك» أي روشفور. و«وينترز» أي ميلادي دي وينتر[٥]. سيكون عليها أن تشرح له لماذا يُعدُّ استقاء الأسماء المستعارة من المصادر الأدبية فكرةً سيئة؛ فإذا كان الطرف الآخر قد قرأ الكتاب، فإن ذلك يمنحه الكثير من المعلومات، وسيبدأ في البحث عن الفرسان الثلاثة المحتملين أو المتلاعبين الغامضين الذين يشبهون ريشيليو في الخفاء.

رغم أنها اضطرت للاعتراف بأن تشبيهها بـ "ميلادي دي وينتر" له جانبٌ يداعب الغرور.

قال إيرل ليدز:

---

[٥] سترونغروك، وميلادي دي وينتر: شخصيات أدبية شهيرة من رواية «الفرسان الثلاثة» لألكسندر دوما

— «لقد راقبتُك بعد ظهر اليوم يا سيد سترونغروك. كنتَ خارج سفارة ليختنشتاين. وصلتَ بينما كانوا يفرغون حمولة مناطيدهم. راقبتَ مراسلي الصحف ثم استجوبتَهم بعد ذلك.»

قال كاي، وكانت نبرة التهديد واضحةً في صوته:

— «يبدو أن لوردك قد أولى اهتماماً كبيراً لتحركاتي أيها الإيرل.»

أمال إيرل ليدز يده وقال:

— «ناديني بـ فيل من فضلك. ففي النهاية، هذا اجتماعٌ خاصٌّ تماماً، وبصفتي غير الرسمية.»

رفع كاي حاجبه وهو يقطع شريحة اللحم: «أوه؟»

قال فيل وهو يبتسم قليلاً: «بالفعل.»

وفي تلك اللحظة تحديداً، تذكرت إيرين أين رأت وجهه من قبل. لقد تصفحت بعض الصحف في وقتٍ سابق لتأخذ انطباعاً سريعاً عن الديناميكيات السياسية والزمنية الحاليةً. كان فيل في الصفحة الثالثة من إحداها؛ مصوراً من جانبه وهو يشيح بوجهه، ومن الواضح أنه لم يكن يرغب في التقاط الصورة. وكان التعليق تحتها: «*المحقق الشهير يتشاور مع المتحف البريطاني*.»

واصلت إيرين تناول الطعام وهي تفكر بحدة. إذا كان رفيقهم بالفعل محققاً شهيراً يحقق في أمر سفارة ليختنشتاين ويعمل مع المتحف البريطاني —— فإما أنهم محظوظون بشكلٍ غير متوقع، أو أنهم في ورطةٍ خطيرةٍ جداً.

قال كاي:

— «حسناً.. وبعيداً عن حقيقة أنني لم أرَ أي أثرٍ لملاحقتك لي..»

قال فيل بسلاسة:

— «ذلك، يا سيدي، هو ما يجب أن تتوقعه حين ألاحقك أنا.»

غصَّ كاي بنبيذه قليلاً وقال:

— «عذراً. ولكن لماذا إذن كنت تلاحقني يا سيدي؟ ما الذي كان مثيراً للاهتمام في نشاطاتي؟»

ضاقت ابتسامة فيل أكثر:

— «يا سيد سترونغروك، الحقيقة هي أن نشاطاتك كانت مرآةً لنشاطاتي. أشك في أننا نحقق في الموضوع ذاته. وبصراحة يا سيدي، إذا كنا نطارِد الأرنب ذاته، فأنا أفضل ألا تثيره فتتسبب في خسارة كلينا له.»

رمق كاي إيرين بنظرةٍ خطفتها عيناه. قرأت فيها، بوضوح كضوء النهار، توسلاً يائساً لطلب المساعدة. تمتم قائلاً: «همم..» وكأنه غارقٌ في التأمل.

شهقت إيرين. ربما كانت شهقةً مسرحيةً بعض الشيء، لكنها أملت ألا تكون مبالغاً فيها. وقالت:

— «سيد سترونغروك! تحقيقنا خاصٌّ تماماً! حتى لو كان لورد—— أقصد، حتى لو كان السيد فيل محققاً خاصاً شهيراً، فقد نكون نبحث في أمورٍ مختلفة كلياً!»

أملت أن تكون تلك الجملة قد أوصلت رسالة «نحن بحاجة لمزيد من المعلومات» بشكلٍ كافٍ.

ربَّت كاي على يدها مهدئاً وقال:

— «رفيقتي محقة يا سيد فيل. نحن نعمل في ظروفٍ من السرية التامة.»

قال فيل برصانة، ولم يبدُ عليه الانزعاج أبداً:

— «وأنا كذلك يا سيدي. وأي افتراضاتٍ طفيفة قد أضعها عنكما هي ببساطة نتيجةٌ لأي شيء كشفتما عنه لي بنفسكما، لا نتيجة أي تحقيقاتٍ من جانبي.»

رفع كاي حاجبيه وقال، وقبل لحظةٍ واحدة من أن تتمكن إيرين من ركل كاحله:

— «لكننا لم نكشف لك عن شيء.»

قال فيل:

— «اغفر لي حين أقول إن من الواضح أنكما غرباء عن لندن.» راح يدير كأسه في يده، متأملاً إياها بزهوٍ فاتن. «أنا لا أتحدث فقط عن حاجة السيد سترونغروك لتفقد لافتات الشوارع عند مغادرة سفارة ليختنشتاين. فكلاكما لا يملك لكنة سكان لندن الأصليين، ولأكون صادقاً، لا أستطيع أن أضع كلاً منكما ضمن الجزر البريطانية.» قطب حاجبيه قليلاً وتابع: «وهذا أمرٌ غير معتاد. فالآنسة وينترز قد تملك أثراً من "الفظاظة الجرمانية" في أفعالها — ربما نتيجة مربيةٍ أو مدرسةٍ داخلية في سنٍ تتشكل فيه الشخصية؟ أما السيد سترونغروك، فلديه لكنة وسلوك يميزان عائلاتٍ نبيلة معينة في شنغهاي. ورغم أن أياً من هذه الأمور بحد ذاته ليس غريباً في لندن، إلا أنكما ترتديان ملابس توحي باختيارٍ متسرع من مزودٍ من الدرجة الثانية. قفازات الآنسة وينترز على سبيل المثال.»

نظرت إيرين إلى قفازاتها الملقاة بجانب أدوات المائدة، عاجزةً عن مقاومة الدافع. كانت تعلم أنها لا تتناسب مع فستانها، لكن لم يكن هناك خيارات كثيرة في المتجر.

قال فيل:

— «بالضبط. فامرأةٌ مهتمة بمظهرها كآنسة وينترز لن ترتكب مثل هذا الخطأ البدائي في الملبس. وبالمثل، حذاء السيد سترونغروك —— » سحب كاي قدميه أكثر تحت الكرسي —— «من الواضح أن مَن ارتداه قبله كان رجلاً اعتاد ركل الجانب الأيمن من مقدمة قدمه بكرسيه، لكن السيد سترونغروك نفسه لا يفعل ذلك. ولو كنتما في لندن منذ فترة، وتجريان استفسارات حول اللورد ويندهام وسفارة ليختنشتاين، فأنا أؤكد لكما أنني كنتُ سأعرف بذلك.»

فتح كاي فمه، وأدركت إيرين أنه على وشك أن يقول شيئاً من قبيل: «وكيف عرفتَ أنني سألتُ عن اللورد ويندهام؟» يبدو أنه لم يتعلم أبداً القاعدة الأولى في علم الأسئلة الاستفزازية: الزم الصمت. هذه المرة نجحت في ركله تحت الطاولة، فأغلق فمه مجدداً.

قال فيل وقد بدا راضياً: «همم.. تبادلُ المعلومات قد يكون مفيداً جداً. ولكن من ناحيةٍ أخرى، كما قالت الآنسة وينترز، قد نكون نبحث في أمورٍ مختلفة كلياً. أعتقد أننا وصلنا إلى النقطة التي نقرر فيها ما إذا كنا سنثق ببعضنا البعض أم لا.»

قال كاي وهو يحاول استعادة رصانته: «يبدو الأمر كذلك. هل تود المزيد من النبيذ؟»

أجاب فيل: «شكراً لك.» ومدَّ كأسه ليملأها.

ساد الصمت لبضع دقائق. راحت إيرين تقلب استراتيجياتٍ مختلفة في عقلها؛ وللأسف، معظمها كان يتطلب مغادرة فيل للطاولة لفترةٍ وجيزة حتى تتمكن من التحدث بجدية مع كاي، وهو أمرٌ بدا مستبعد الحدوث. لقد كانت معجبةً بمهارات الملاحظة لدى الرجل، وفي الوقت ذاته قلقةً منها للغاية؛ فهذا النوع من الذكاء رائعٌ في الشخصيات الخيالية، لكنه في الواقع يهدد بجعل مهمتهم أكثر صعوبة.

ولحسن الحظ، قُطع هذا الموقف بصراخٍ وأصواتِ تحطمٍ عالية آتية من الشارع. ترك المرتادون سكاكينهم وشوكاتهم والتفتوا نحو الباب. وقف رجلان على أقدامهما، ولا تزال كؤوس النبيذ في أيديهما.

رمش كاي لـ إيرين رمشةً خفيفة، ثم التفت إلى فيل:

— «هل تعتقد أننا يجب أن نستطلع الأمر يا سيدي؟»

هتف فيل وهو ينهض: «بالطبع!» التقط عصاه، وراح يوازنها بلامبالاة في يده اليسرى. «سيدتي، تفضلي بالبقاء هنا. سيد سترونغروك، إذا تكرمت بمرافقتي —— » وانطلق نحو الباب.

همس كاي لـ إيرين: «ماذا أفعل؟»

همست إيرين:

— «ابقَ معه. أنا سأتأخر قليلاً. اكتشف ما يحدث. كن حذراً، إنه محقق.»

تمتم كاي: «لقد أدركتُ ذلك الجزء.» لكنه أظهر حماساً جامحاً وهو يركض خلف فيل، توقاً للحركة.

نظرت إيرين حولها بينما يركض الرجلان بعيداً. لم يكن هناك مَن يتسلل من الظلال لمحاولة اختطافها بينما انتباههما مشتت. جيد. التقطت حقيبتها وتبعتهم.

كانت منطقة الاستقبال في المطعم تحتوي على نوافذ زجاجية كبيرة توفر رؤيةً مريحة للشارع في الخارج. كان المكان في حالة فوضى تامة. «حريشة» (أم أربعة وأربعين) ميكانيكية عملاقة —— حسناً، نوعٌ من الحشرات المقسمة ذات الأرجل المتعددة، فلم تكن إيرين ستقف هناك لتعدها جميعاً —— كانت تعيث فساداً في الزقاق الضيق في الخارج.

لمحت عربةً متضررة بشدة وعدة نوافذ محطمة. لم تكن هناك مساحةٌ كافية للحريشة للمناورة، ناهيك عن الالتفاف، وكانت تتمايل بضع خطواتٍ للأمام ثم بضع خطواتٍ للخلف بينما كانت قرون استشعارها الأمامية تبحث عن شيءٍ أو شخصٍ ما. كان الزيت ينضح من شقوقها، بينما ينفث البخار من رأسها ممتزجاً بالضباب المحيط. لاحظت أن شخصين قد أصيبا بالفعل، وكان المارة يصرخون ويركضون في كل الاتجاهات، ثم يتوقفون طبعاً عند مسافةٍ آمنة نظرياً ليشاهدوا ما ستفعله بعد ذلك.

كان كاي وفيل يقفان عند الباب، يقيّمان الموقف. على الأقل، بدا فيل وكأنه يقيمه، أما كاي فكان يبدو مذهولاً فحسب.

سأل كاي: «كيف بحق الجحيم مرت تلك الشيء عبر الشوارع؟»

شمَّ فيل الهواء وقال:

— «من المرجح أنها صعدت من المجاري؛ فقد كان برنامج التجديد الأخير هبةً من السماء للمجرمين في جميع أنحاء لندن.»

دوى صوت المخلوق المتردد في الشارع: «فيل! استعد لمواجهة مصيرك!»

قال فيل بابتهاج: «آه، إنها من أجلي.»

بدا كاي وكأنه يشعر بالإهانة، فقال: «ربما اختلط الأمر عليها؛ فربما هي من أجلي.»

أجاب فيل: «لا، لا، أؤكد لك أنها من أجلي. ولكن هل تمانع في مراقبة الجزء الخلفي بينما أشغل أنا المقدمة؟ أحياناً يكون لديهم "ومضات حرارية" عالية الانبعاث تقع هناك.»

قال كاي: «بالطبع، لا مشكلة.»

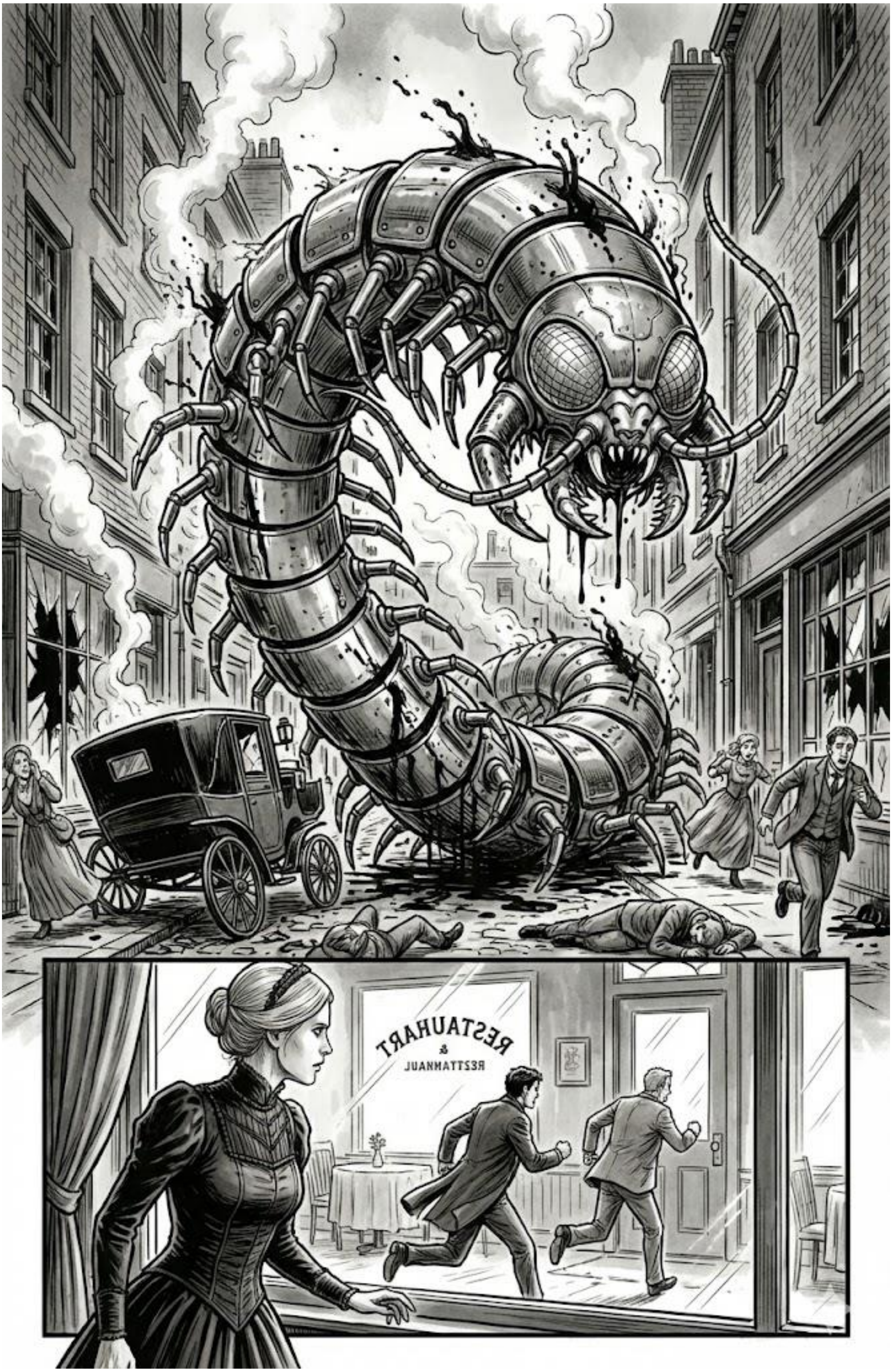
اتكأت إيرين على الجدار وحاولت ألا تتنهد. ربما كان فيل شخصاً ذا مبادئ، إذا كان عدوه مستعداً للمخاطرة بأرواح الأبرياء لمطاردته. هذا بافتراض أنه لم يفتعل المشهد بأكمله طبعاً — لكنه كان مجرد تشتيتٍ آخر. كيف يُفترض بها بحق السماء أن تدير تحقيقاً مع هذه الانقطاعات المستمرة؟

ركض الرجلان إلى الشارع؛ فيل إلى اليمين نحو رأس المخلوق، وكاي إلى اليسار نحو مؤخرته. احتارت إيرين أيهما تتبع؛ فـ كاي تحت حمايتها، لكن تتبع فيل قد يكون أكثر إفادة.

حُسم الأمر بالنسبة لها حين تراجعت الحريشة بسرعة إلى الخلف، ومخالبها المعدنية تخمش الرصيف وهي تتمايل متراجعة. ظهر رأسها: نموذجٌ فولاذي وحشي من الفكوك القارضة وعينين زجاجيتين ضخمتين متعددة الأوجه، كبيرة بما يكفي ليجلس فيها رجل، والبخار ينفث في دفعاتٍ سميكة صاخبة على كلا الجانبين. وقف فيل أمامها، وسيفه مجردٌ من عصاه ويتوهج بالكهرباء. في كل مرةٍ تخفض فيها الحريشة رأسها لمحاولة عضه، كان يتصدى لها، وتتطاير الشرارات لتفحَّ فوق الرصيف والجدران.

بسرعةٍ مذهلة، اندفع للأمام بين الفكوك الطاحنة، وقفز فوق الجزء الرئيسي من رأس الحريشة، متوازناً هناك للحظة. رفع نصله، وأنزله بقوة في إحدى عيني المخلوق.

توهجت الكهرباء في عمودٍ ضخمٍ من الشرارات. أطلقت الحريشة صرخة "فحيح"، وتخبطت على طول جسمها، فارتطم جزءٌ بالذي يليه، والبخار يتدفق من جميع الفتحات. انفتح بابٌ معدني أسفل المخلوق،



وتدحرج منه رجلٌ يرتدي بزة عمل سوداء ملطخة بالزيوت، وهو يسعل ويبصق.

قفز فيل من فوق الرأس، وهبط وسط عباءته المتطايرة. وجه سيفه نحو الرجل وقال: «تحدث يا سيدي، وإلا——»

عند تلك النقطة، تشتت انتباه إيرين بسبب شخصٍ يحاول انتزاع حقيبتها من تحت ذراعها. التفتت لترى أحد النادلين —— لا، لم يكن أحد النادلين. كان رجلاً يرتدي ملابس السهرة، وقد ألقى منديلاً على ذراعه على عجل متظاهراً بأنه نادل. كانت ساعته باهظة الثمن لدرجة لا تليق بنادل، وشاربه الرمادي مهذبٌ أكثر مما ينبغي. ولاحظت في وضوح تلك اللحظة أن يده اليمنى بها خطوط حروق كهربائية رقيقة تمتد من المفاصل إلى المعصم.

جذب الحقيبة مجدداً. أفلتت إيرين الحقيبة مع الإبقاء على قبضتها على الحزام، تاركةً إياه يجذبها. انخفضت في وضعية "شبه القرفصاء"، متوازنةً على كعبها الأيسر، ثم أخرجت ساقها اليمنى في دورانٍ واسع ومستقيم. أصابت الضربة توازنه فسقط على الأرض وهو يلعن.

اعتدلت مجدداً بسلاسة، جاذبةً حقيبتها نحو جسدها، والتقطت أحد كراسي المطعم الهشة. كان الكرسي ذو جودة مشكوك فيها، وحين حاول خصمها النهوض، تحطم الكرسي تماماً حين ارتطم بجسده.

ترنح إلى الخلف. التقطت كرسياً آخر.

في الخارج، وقعت انفجاراتٌ أخرى. وفي الداخل، كان الناس يلهثون ويشيرون إليها وإلى "النادل المزيف".

حاولت إيرين تقرير ما إذا كان من الأهم الحفاظ على غطائها كسكرتيرة أنثوية عاجزة، أم ضرب سارق الحقائب على رأسه بالكرسي

وأخذه سجيناً. ففي النهاية، ليس من المؤكد تورطه في أي مؤامراتٍ أكبر، وقد يكون مجرد لصٍ تافه..

.. لِيذهب الأمر للجحيم. أنزلت الكرسي على رأسه، فسقط للخلف ككيس بطاطس.

أسقطت ما تبقى من الكرسي، ووضعت يدها الحرة على صدرها وهي تلهث بشدة.

قالت وهي تشهق: «أنا.. لقد جئتُ إلى هنا في عطلة، وهذا الرجل، هذا اللص يحاول خطف حقيبتي، ولا أحد يحاول مساعدتي. لا يوجد شخصٌ واحد هبَّ للدفاع عن امرأةٍ عاجزة..»

قال فيل الذي عاد إلى المطعم وهو يغمد سيفه: «آنسة وينترز العزيزة، أنا آسفٌ جداً. يؤسفني حقاً أنكِ تعرضتِ لاعتداءٍ على يد بعض الرعاع——»

نظر إلى وجه الرجل الملقى على الأرض، ورمش بعينيه: «أفهم من هذا أن هذا الرجل اعتدى عليكِ؟»

قالت إيرين وهي تنتحب قليلاً: «لقد حاول خطف حقيبتي. أنا.. لقد تصرفتُ ببساطة بدافع الغريزة——»

نقر فيل بأصابعه، فاستجاب نادلان: «أنتما، خذا هذا الرجل إلى أقرب سجنٍ فوراً.»

من الجيد أن يكون المرء إيرلاً ومحققاً شهيراً. ذكرت إيرين نفسها بشيءٍ من الحسرة.

دخل كاي إلى المطعم وهو ينفض الرماد والغبار عن سترته.

— «حسناً، يبدو أن هذا—— إيرين! أقصد، آنسة وينترز! ماذا حدث؟»

نظر بحذر من إيرين إلى فيل، ثم عاد لنظر لـ إيرين مجدداً، متسائلاً بوضوح إن كان الأمر برُمّته نوعاً من التشتيت.

أشارت إيرين بإصبعها إلى الرجل الذي كان النادلان يجرانه بعيداً: «ذلك الشخص حاول الاستيلاء على حقيبتي. فقاومتُه.»

قال فيل وهو يخفض صوته: «أقترح أن نعود إلى طاولتنا فوراً. هذا لا يؤكد إلا شكوكي.»

بعد خمس دقائق، كانوا جالسين حول الطاولة مجدداً. شريحة اللحم بردت، لكن النبيذ كان لا يزال قابلاً للشرب. عاد الضجيج العام للمحادثات إلى مستواه السابق. اندهشت إيرين من السرعة التي بدا بها الناس قد نسوا هجوم الحريشة؛ مما يعني أن مثل هذه الأمور كانت شائعة، وهو ليس بالخاطر المطمئن.

قال فيل: «اغفرا لي تحفظي السابق. وشكراً لك على مساعدتك يا سيد سترونغروك. لكن هذا الهجوم من اللص على الآنسة وينترز لا يثبت إلا ما شككتُ فيه.»

سأل كاي وهو يلتفت نحو فيل: «وما هو ذلك الذي شككت فيه؟»

أحست إيرين أنه مستاءٌ قليلاً لأنها لم تسأله عن سلوكه الباسل تجاه ذيل الحريشة. فدونت ملحوظة في نفسها لتعرف التفاصيل الكاملة في وقت ما — حين لا يكون هناك جهة اتصال ثمينة مشغولة بمشاركة معلوماتٍ مفيدة.

قال فيل وهو يميل للأمام: «لقد تم رصد تحرياتكما حول "الفاى". لقد لاحظتُ أسئلتك في السفارة يا سيد سترونغروك. والآن، يحاول رجلٌ أعرفُ أنه عميلٌ لـ "الفاى" سرقة حقيبة يد الآنسة وينترز. فهل أكون مخطئاً إذا شككتُ بوجود رابط؟»

ألقى كاي نظرةً مذعورة على إيرين. فأومأت له برأسها قليلاً.

قال كاي بحزم: «لستَ مخطئاً يا سيدي. هناك رابط.»

هتف فيل وهو ينظر بينهما: «لقد ظننتُ ذلك! في هذه الحالة، نحن نحقق في الموضوع ذاته —— وإن كان ذلك من اتجاهاتٍ مختلفة ربما. أنا أيضاً مهتمٌ بأمر "الفاى" يا سيد سترونغروك. وبالسرقاتً الأخيرة للمواد الغامضة. وبـ بيلفيغور.»

شهقت إيرين: «بيلفيغور؟ لصة المنازل الغامضة؟»

قطب فيل حاجبيه وقال: «بالفعل. لديَّ شكوكٌ حول هويتها. والأكثر من ذلك، أعتقد أن كل هذه الأمور مرتبطة ببعضها البعض. ورغم أنكما زوار لمدينتنا..» ترك الجملة معلقة، كأنه يتوقع اعتراضاً على استنتاجاته، ثم تابع: «رغم أنكما لم تمكثا هنا طويلاً، إلا أن الصحف كانت صريحة بشأن السرقات. بالكاد يمكنك فتح صحيفة دون رؤية عنوانٍ رئيسي جديد. دعوني أكن صريحاً: هل هذا هو موضوع تحقيقكما؟»

تلاقت عينا إيرين وكاي، فأومأت له إيماءةً طفيفة جداً. شكت في أن فيل سيلحظ ذلك، لكنها أملت أن يفسره كأنه "اقتراح" وليس "أمراً" كما كان في الحقيقة.

قال كاي: «أنت على حق.»

— «إذن أقترح أن نوحد جهودنا. إليك بطاقتي.»

أخرج حافظة بطاقات فضية، واختار منها واحدة، ودفعها عبر الطاولة نحو كاي.

— «أرجو أن تزورني صباح غد، حيث يمكننا التحدث بخصوصيةٍ أكبر. ورفيقتُك مرحبٌ بها أيضاً بالطبع.»

ألقى على إيرين إيماءةً جافة، جعلتها تتساءل عن مقدار ما خمنه فعلاً.

— «شكراً لكما على وقتكما ومساعدتكما.»

نهض فيل، فنهض كاي وإيرين أيضاً. حدث ارتباكٌ سريع بين الانحناءات، ثم انطلق فيل مبتعداً، والنادل يسرع خلفه بقبعته وعباءته.

جلس كاي وإيرين مجدداً.

قال كاي: «أنا آسف. لم ألحظ ملاحقته لي من قبل على الإطلاق.»

قالت إيرين: «لا تقلق. أظن أنه نادراً ما يتم رصده. لكني أعتقد أنه قد يكون حليف مفيد جداً.»

ابتهج كاي وسأل: «إذن لقد حالفنا الحظ؟»

قالت إيرين: «يحدث ذلك من وقتٍ لآخر. والآن، أكمل نبيذك وأخبرني عن الحريشة.»

كانت قد بدأت بالفعل في إعداد قائمةٍ بالأمور التي تحتاج لسؤال كاي عنها لاحقاً، في خصوصية. لكن في الوقت الحالي، ستكفيها "الحريشة".

الفصل السادس

— «حسناً،» قالت إيرين وهما يفرغان من شرب القهوة. «علينا أن نفترض أن غطاءنا قد انكشف.»

سألها كاي:

— «أبسبب فيل؟»

قالت إيرين وهي تميل فنجانها، محدقةً في الثمالة:

— «كلا. بل بسبب ذلك الرجل الذي حاول خطف حقيبتي؛ فإذا كان يعمل لصالح "الفاي"، فلا يمكنني إلا أن أظن أنه رآني في منزل اللورد ويندهام. وإذا كان الأمر كذلك، فهو يعرف وجهي، ومن المرجح أنه يعرف الفندق الذي أقيم فيه، والآن بات يعرفك أنت أيضاً. علينا أن نقطع أثرنا.»

قال كاي:

— «لكن كل أشيائنا في غرفة الفندق! كل الملابس التي اشتريناها——»

— «وكم اشتريتَ منها؟»

حاول كاي أن يلاقي نظراتها، لكن عينيه زاغتا نحو فنجان قهوته، وقال بنبرة غير مقنعة:

— «كنتُ أعدُّ عدة هويات محتملة، تحسباً لاضطرارنا للتحرك بين طبقات اجتماعية مختلفة.»

ربتت إيرين على يده قائلة:

– «لا تقلق. في هذه الحالة، سيتأكدون من عودتنا، وبذلك تكون قد استنزفتَ بعض مواردهم في مراقبة المكان.»

تنهد كاي.

قالت إيرين بحزم:

– «إذن، سنتبع الإجراءات القياسية.»

كانت هذه الإجراءات تُدرّس في «المكتبة» جنباً إلى جنب مع اللغات والبحث، لكن ممارستها داخل حدود «المكتبة» كانت صعبة. ومع ذلك، فإن خبرة كاي الشخصية تعني أنه يجيد هذا النوع من الأمور.

تابعت قائلة:

– «سنغادر من هنا بشكل منفصل؛ سأخرج أنا أولاً لأجذب انتباه أي مراقب واضح. قد لا يملكون سوى مراقب واحد. اذهب أنت إلى غرفة الفندق، واجمع أوراقنا ومخزوننا النقدي، ثم غادر عبر المخرج الخلفي للفندق. ابذل قصارى جهدك لتضليل أي ملاحقين. وقابلني أمام..» توقفت تفكر، ثم تفقدت ساعتها الميكانيكية الجديدة؛ فلا فائدة من ارتداء ساعة إلكترونية بينما قد تضطر لأخذها إلى «المكتبة». «أمام محطة مترو "هولبورن" في تمام الساعة الحادية عشرة. يفترض أن يكون المكان مزدحماً بما يكفي لتضليل أي مراقبين. يا للسوء، لستُ متأكدة أبداً ما إذا كنتُ أفضل العوالم التي اخترعت ما يعادل الهواتف المحمولة أم لا.»

قال كاي:

– «كانت ستجعل التواصل أسهل.»

قالت إيرين:

— «لكنها كانت ستجعل تتبعنا أسهل أيضاً، وستمنح قوةً إضافية لمن يحاول اللحاق بنا. حسناً، هل أنت موافق على هذه التعليمات؟»

أومأ كاي برأسه وسأل:

— «ماذا أفعل إذا لم تظهري في "هولبورن"؟»

أجابت إيرين:

— «اتصل بـ دومينيك؛ وسيوصلك هو بـ كوبيليا، وهي ستقرر ما يجب فعله تالياً. لكني لا أتوقع أن يكون ذلك ضرورياً.»

أومأ كاي برأسه. التقط فنجان قهوته، وأماله بحزن وهو ينظر إلى البقايا في قاعه.

— «لا نبلي بلاءً حسناً حتى الآن، أليس كذلك؟»

رمشت إيرين بعينيها وقالت:

— «ماذا؟ من أين أتيتَ بهذه الفكرة؟»

— «حسناً، الكتاب سُرق، والأعداء يتتبعوننا، واضطررنا للتخلي عن قاعدتنا——»

قاطعتها إيرين:

— «أخرج هذا الكلام من رأسك فوراً. هل كنتَ تتوقع أن نتمكن من الدخول بكل بساطة ونلتقط الكتاب؟»

هز كاي كتفيه:

— «لقد تشكلت لديَّ فكرةٌ مفادها أن الأمر سيكون مناسباً لمهمة يشارك فيها مبتدئ مثلي.»

مالت إيرين للأمام فوق كرسيها وقالت:

— «النقطة الأولى: "المكتبة" لا تملك أبداً فائضاً من الأشخاص لتمنح المبتدئين مهمات "سهلة". لا تتوقع أبداً أن تكون المهمة سهلة. النقطة الثانية: نعم، المخطوطة سُرقت، لكن لدينا بالفعل عدة خيوط لنتبعها، بما في ذلك موعد لمقابلة محقق شهير كمحققي الروايات.» جعلتها الفكرة تبتسم؛ فربما تتحقق الأمنيات أحياناً. «النقطة الثالثة: إنها ليست قاعدة، بل غرفة فندق. النقطة الرابعة: حقيقة أننا مُلاحقون هي خيطٌ بحد ذاتها، وتعني أننا يمكننا استخدامهم للبحث عكسياً حتى نجد الكتاب. والنقطة الخامسة: لدينا دعوة لحضور حفل راقص في سفارة ليختنشتاين، وهو أمرٌ يُفترض أن يكون مثيراً جداً للاهتمام.»

تصلب جسد كاي وسأل:

— «لدينا ماذا؟»

قالت إيرين وهي تنهض وتجمع حقيبتها:

— «أراك في "هولبورن".»

بالفعل، كان هناك شخصٌ ينتظر خارج المطعم. رصدته بينما كانت تتفقد هندامها في واجهة أحد المتاجر؛ فقد جعل وهج مصابيح الشوارع الشعاعية الواجهات مرايا أفضل من قطعة الزجاج المليئة بالبقع في غرفة الفندق. خسارة طفيفة. كان المراقب رجلاً يبدو عادياً، يرتدي قبعة "بولر" رخيصة ومعطفاً طويلاً تهرأت ياقاته ومرفقاه. كما لم يكن بارعاً جداً في التخفي. ربما كانت تلك مهمة زميله الذي حاول خطف حقيبتها.

عند زاوية الشارع التالية، نجحت في اختلاس نظرة للخلف بينما كانت تنتظر عبور الطريق، ورأته يهمس في يديه المضمومتين. فتحهما، فخرج شيءٌ يطنُّ، دار حول رأسه قبل أن ينطلق للأعلى بقعقعة أجنحة ميكانيكية.

بعد شارعين، كان من الواضح جداً أنه قد حصل على تعزيزات. توقفت لتفقد قبعتها في زجاج واجهة متجر آخر، ولمحته مجدداً وهو يشير بوضوح لثلاثة وافدين جدد ويومئ في اتجاهها.

غرزت إيرين دبوس القبعة في مكانه بقسوة، وفكرت في أفضل طريقة لتضليلهم. كانت هذه الـ لندن مخططة مثل معظم مدن الـ لندن الأخرى، وهي الآن على أطراف منطقة «سوهو». سيكون من السهل تضليل الملاحقين هناك، لكن امرأة بمفردها ستجذب نوعاً خاطئاً من الانتباه، وقد يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لتخليص نفسها دون لفت الأنظار. قد ينجح متجر كبير، لكن إذا كانوا يملكون ذرة عقل، فسيضعون مراقبين عند المداخل والمخارج قبل البحث عنها في الداخل. كما أنهم الآن أربعة على الأقل، وقد يكون هناك آخرون لم ترصدهم بعد. مترو الأنفاق خيارٌ محتمل، لكنها لم تستكشفه بعد. ورغم أن الحشود قد تسمح لها بالاختباء، إلا أنها ستكون أيضاً غطاءً مثالياً لـ «حادث» مدبّر أو عملية اختطاف. كانت قد قطعت نصف الطريق نحو «بيكاديللي» الآن، لذا كان عليها أن تبدأ في الالتفاف والعودة إذا أرادت مقابلة كاي في «هولبورن» في الحادية عشرة بسلام.

همم.. مهلاً. منطقة «كوفنت غاردن» عادةً ما تحوي سوقاً من نوعٍ ما في معظم عوالم لندن الموازية، سواء كان لبيع الزهور أو التحف أو مجرد مصيدة للسياح. حتى لو لم يكن هناك الكثير من الأكشاك المفتوحة في هذا الوقت من الليل، فسيظل المكان مزدحماً بما يكفي لتضليل ملاحقيها. هذا سيفي بالغرض.

كان يجب على إيرين أن تتوقع ذلك: سوق «كوفنت غاردن» كان استعراضاً تكنولوجياً باذخاً. أكشاكٌ تتأرجح على سيقان قابلة للطي وتنشر أشعة الضوء من مصابيح الأثير المتدلية. الممر بينها كان متاهة

دائمة التغير؛ إذ كان كل كشك يناور للحصول على مساحة أكبر مستخدماً أقدامه الآلية، وهو يقفز ويصطدم بالأكشاك المجاورة له. وكما هو الحال في مناطق «كوفنت غاردن» التي رأتها في أماكن أخرى، كانت هناك عدة ساحات مفتوحة، ومنطقة مركزية بسقف زجاجي عالٍ وعدة صفوف من المتاجر الدائمة. أضافت المقاهي الرصيف تدفقات خاصة من المتسوقين إلى المنطقة، وكانت نفثات منتظمة من البخار تنطلق من فتحات المجاري والبالوعات.

انطلقت بسرعة وهي تدخل وسط الحشد، قبل أن يتمكن الرجال الذين يلاحقونها من الاقتراب أكثر. ثم تركت نفسها تنجرف في دوامة من المتفرجين الذين يدورون حول عرض لـ «أجهزة استنزاف الدماء الميكانيكية». (قررت أن الإبر الفولاذية الصغيرة الواخزة لم تكن منفرة بحد ذاتها، لكن الملمس الزيتي للمطهرات التي تدهن نفسها تلقائياً جعل الأمر برمته شنيعاً بشكل لا يوصف؛ كان هناك شيءٌ مقزز في الطريقة التي يلمع بها الجهاز تحت الوهج الكهربائي).

كان هناك نساء بقدر الرجال، لكن الفرق الحقيقي كان بين من اشتبهت في كونهم حرفيين ومهندسين حقيقيين وبين البقية. الأوائل كانوا يحملون حقائب معدات أنيقة تحت أذرعهم أو مربوطة بسلاسل في معاصمهم. أما الآخرون فكانوا يشملون المتجولين الباحثين عن صفقات مثيرة، أو أبناء الطبقة الراقية الذين جاءوا للتسكع، أو المتفرجين المفتونين. كانت النساء يرتدين الأوشحة أو النقاب ضد الضباب المشبع بالسخام، تماماً كما فعلت إيرين، مما يخفي كل شيء من أفواههن حتى وجوههن بالكامل. والعديد من الرجال لفوا أوشحة حول الأجزاء السفلية من وجوههم بطريقة مماثلة. أعطى ذلك المكان

شعوراً مريباً جداً، يشبه سوقاً للصوص المصارف في العصر الفيكتوري، متجراً غامضاً لأناس غامضين.

بالقرب منها، كانت أكشاك السوق الصاخبة تروّج لدفاتر ملاحظات محمولة مع أطقم أدوات لاصقة، ولمحت ساعات جيب مزودة بأشعة الليزر (كادت تشتري واحدة لـ كاي). ثم كانت هناك آلات «كونستراكتا ـ كيت» الآلية، تليها كعكات الدونات المقلية الطازجة وأطقم الوشم الذاتي (فقط أضف الحبر!)، ثم أوشحة مزودة بوحدات تدفئة محمولة، ثم——

أصابها الألم كضربة سوط عبر ظهرها، مما ألقاها على ركبتيها فوق الرصيف القذر. شعرت بكل بوصة من وشم «المكتبة» يحترق، شعرت به مرسوماً فوق ظهرها بوضوح كأنها تراه. ارتجف العالم من حولها. تذوقت مرارة في فمها، وصارعت كي لا تتقيأ.

الكلمات كانت في كل مكان. استطاعت رؤيتها على منصات الصحف، تطفو عبر البياض لتزحف فوق الورق. استطاعت رؤيتها على غلاف الرواية الورقية التي دسها الرجل الذي أمامها في جيبه، وعلى الإعلانات المطبوعة ببدائية والتي ترفرف من كل كشك، وعلى الإيصالات التي كانت المرأة عن يسارها تتفحصها. لقد طبعت الكلمات نفسها على كل شيء مقروء في دائرة تتسع من حولها.

«احذري ألبريتش!!»

كان الناس يصرخون ويتفرقون في مفاجأة وذعر، ملقين باللوم على المهندسين وأصحاب الأكشاك بسبب نوع من الآثار الجانبية التجريبية (وفكرت إيرين في زاوية مشتتة من عقلها، أن ما يقوله هذا عن هذا المكان هو أمرٌ لا يحتمل التفكير فيه). في بعض الحالات، كان المتسوقون يهزون الأشياء المتأثرة على أمل أن تسقط الكلمات عنها. يا

له من أمل بائس. لم تكن إيرين من قبل ضحية لرسالة عاجلة من «المكتبة»، لكنها علمت أن الكلمات ستظل محفورة بشكل دائم. لقد كان فعلاً صادماً يُرتكب في حق الوسائط المطبوعة، ولهذا السبب كان يُدّخر فقط للأغراض الأكثر إلحاحاً. استطاع عامة الناس قراءتها، لكن على الأقل لن يعرف أحدٌ معنى الكلمات.

إذا كان ألبريتش متورطاً في هذا، فإن التحذير كان بلا شك يائساً وضرورياً.

استجمعت قواها بجهد جعل أسنانها تصطك، وألقت نظرة خاطفة خلف كتفها لتتفقد الرجال الذين كانوا يلاحقونها. سحقاً. لقد كانوا يقتربون بسرعة. لا بد أنهم قرروا القبض عليها الآن بدلاً من المخاطرة بفقدان أثرها.

سمحت إيرين لنفسها بابتسامة شريرة. أيزعجون عميلة للمكتبة؟ يضايقونها وهي قد تلقت لتوّها رسالة عاجلة؟ يقفون في طريقها؟ أوه، سيندمون على ذلك.

انتظرت لنصف دقيقة لاهثة حتى انغلق نمط الأكشاك المتحركة خلفها، مما سدَّ الطريق على ملاحقيها. ستفتح مجدداً في لحظة طبعاً..

بصقت بـ «اللغة»، بصوت عالٍ بما يكفي ليصل صداه:

— «**أيتها السيقان الآلية في الأكشاك المتحركة، تعطلي وتوقفي، الزمي مكانكِ واثبتي!**»

قال الرجل الذي بجانبها:

— «عفواً؟ هل كنتِ تحدثينني——»

انقطع كلامه عندما بدأت الأكشاك المتحركة، في دائرة تتسع ضمن نطاق صوت إيرين، تتوقف بترنّح، وصارت سيقانها المفصلية صلبة

فجأة وتوقفت حيث هي. اندلع ارتباك مفاجئ وصادم في حركة الناس والأكشاك، كان أكثر دراماتيكية من حادثة الطباعة السابقة. الأشخاص الذين كانوا يستعدون للانعطاف يميناً وجدوا أنفسهم فجأة مضطرين للانعطاف يساراً. تمايلت أكوام البضائع على حواف الأكشاك وكادت تسقط — وفي حالات كثيرة سقطت بالفعل — مما زاد من الجلبة العامة.

قبل أن يتمكن أي شخص من الوصول لاستنتاجات محرجة حول مركز الدائرة، اندفعت إيرين للأمام وشقت طريقها بالمرفقين متجاوزةً مجموعات المتسوقين المتذمرين. استطاعت سماع صرير التروس والروافع وهي تصارع السيقان الميكانيكية المتمردة. جرفها سيل الناس للأمام خارج زقاقها المسدود، تاركةً ملاحقيها محاصرين خلف حاجز من الأكشاك المتجمدة (وآملت أن يكونوا قد دُهسوا تحت أقدام المتسوقين الغاضبين). توجهت إيرين نحو أقرب فتحة في متاهة الطاولات، ومن هناك إلى زقاق. وبعد قليل من إعادة ترتيب النقاب والسترة، خرجت إلى الشارع الرئيسي مجدداً — عائدةً وملتفةً نحو محطة «هولبورن». دون أن يتبعها أحدٌ هذه المرة.

مع كل خطوة، كانت حقيقة الرسالة القادمة من «المكتبة» تغوص بعمق أكبر في أحشائها. «احذروا ألبريتش. احذروا ألبريتش. احذروا ألبريتش.» لم تكن بحاجة لهذا. حقاً لم تكن بحاجة لهذا. كانت بالفعل في خضم مهمة معقدة، ومعها متدرب عليها التعامل معه فوق كل شيء. لقد أعطت كاي ملخصاً متفائلاً لرفع معنوياته، لكن هذا لم يكن يعني أن أي شيء سيكون سهلاً.

والآن هذا.

كان ألبريتش شخصيةً خرجت من رحم الكوابيس. لقد كان أمين المكتبة الوحيد الذي خان «المكتبة»، وأفلت بفعلته ولا يزال طليقاً في مكانٍ ما. اسمه الحقيقي ضاع منذ زمن طويل، ولم يتبقَّ في الذاكرة سوى اسمه الذي اختاره كأمين مكتبة. لقد باع نفسه للفوضى. خان أمناء المكتبة الآخرين الذين كانوا يعملون معه. ولا يزال حياً. بطريقة ما، وبالرغم من العمر والزمن ومرور السنين التي قد تصيب أي أمين مكتبة يعيش خارج «المكتبة»، إلا أنه كان لا يزال حياً.

وجدت إيرين نفسها ترتجف. لفت شالها بإحكام أكبر حول كتفيها، وحاولت كبح أفكارها عن الانجراف في سلسلة من الصور السوداوية غير المبررة. أفكارٌ حمقاء. فليس الأمر وكأن ألبريتش يقتفي أثرها في هذه اللحظة بالذات.. أم تراه يفعل؟

الرسالة القادمة من «المكتبة» لا يمكن أن تكون مزورة. لا بد أن أحد كبار أمناء المكتبة قد أرسلها، ومن المرجح أنها كوبيليا. لم تكن لتُرسل إلا إذا كانت الأمور عاجلة، مما يعني أن عليها افتراض أن ألبريتش موجود في المنطقة. هذا هو السيناريو الأسوأ.

أطالت النظر خلفها في واجهة أحد المتاجر. لا يبدو أن أحداً يلاحقها.

كانت بحاجة للتحدث مع دومينيك بشكل عاجل، لكن «المكتبة البريطانية» ستكون مغلقة في هذا الوقت من الليل. سيكون هو في منزله — وعنوانه موجود في مكانٍ ما ضمن الأوراق التي يحرسها كاي. سيكون الأمر أسهل صباح الغد. في الوقت الحالي، كان عليها وعلى كاي العثور على فندق جديد والتخفي.

أرادت إيرين أن تتخفى بعمقٍ شديد. أرادت أن تتخفى لدرجةٍ تتطلب جرافة آلية تعمل بالبخار لاستخراجها من هناك. كان عليها أيضاً

أن تقرر مقدار ما ستخبر به كاي. فمن الخطير جداً تركه في الظلام، ناهيك عن أن ذلك غير عادل، ولكنها في الوقت نفسه لم تكن تريد إخافته. ففي النهاية، انظروا كم هي خائفة هي نفسها. شخصٌ واحد مذعور كان يكفي تماماً، واثنان سيكونان مبالغة.

ربما يكون جاهلاً لدرجة لا يدرك معها مدى سوء الوضع. ربما لم يسمع قصص الرعب التي تداولها الآخرون في الزوايا الهادئة حول بعض الأشياء التي فعلها ألبريتش.

وربما، قررت إيرين وهي تقترب من محطة مترو «هولبورن» وترى كاي يتسكع تحت مصباح الشارع، أن تطير الخنازير في السماء — وهو ما سيعني على الأقل توفر لحمٍ مقددٍ للإفطار. حسناً. الفندق أولاً. التوضيحات الدرامية لاحقاً.

الفصل السابع

— «لا أريد أن أتذمّر أو ما شابه،» قال كاي، «ولكننا نتحصّن حاليًا في فندقٍ رخيص.»

وافقتْه إيرين الرأي وهي تجلس وتشرع في خلع حذائها ذي الأزرار، مطلقةً زفرة ارتياحٍ عميقة.

— «هذا المكان ليس رخيصًا فحسب، بل هو قذر!» أشار كاي بيده إلى ورق الجدران الأصفر المهترئ، والنافذة التي تكسوها لطخات القذارة، وغطاء السرير ذي النسيج البالي، والمرآة الشاحبة فوق الخزانة المتهالكة. «لا يمكنكِ أن تتوقعي منا حقًا أن——»

قاطعته إيرين بحزم:

— «كاي، لقد أفسدَك الدلال. ماذا حلّ بخلفيتك الإجرامية والمفيدة؟ أين ذهب ذلك العدّاء المحترف الذي يجوب الشوارع ويستطيع التعامل مع هذه الظروف؟ هل لَيَّنَتْك السنوات الخمس في المكتبة إلى هذا الحد؟»

نظر كاي حوله، وتقلّص أنفه اشمئزازًا، ثم قال أخيرًا:

— «نعم، لقد فعلت.» جلس على حافة السرير تمامًا. «هل هذا التخفي العميق ضروري حقًا؟ ألا يمكننا، كما تعلمين، أن نختبئ في أفخم فندقٍ في المدينة وندّعي أننا كنديون؟»

ردّت إيرين وهي تنزع حذاءها الأول وتشرع في الثاني:

— «لا. إنه تخفٍّ عميق. أريدنا في هذه اللحظة بعيدين عن أي أثر. سننظف أنفسنا غدًا ونبحث عن مكانٍ أرقى.»

— «هل هناك خطبٌ ما؟»

نزعت إيرين فردة الحذاء الثانية وهي تتأوّه تعبًا:

— «أووف.» كان عليها أن تخبره؛ فليس من الأمان تركه غارقًا في جهله. اعترفت ببطء: «هناك مشكلة محتملة، لا أدري إن كانت ملحّة في هذه اللحظة.»

اكتفى كاي بالنظر إليها.

— «تلقيتُ رسالة عاجلة من المكتبة.» كانت الكلمات التالية صعبة النطق، والأصعب منها هو الحفاظ على نبرة هادئة ورزينة. «لقد حذرتني المكتبة من ألبريتش. يمكنك أن تسكب لي القليل من ذلك البراندي الآن.»

توقفت يد كاي في منتصف الطريق نحو زجاجة البراندي، التي كانت مدرجة في قائمة إيرين للمؤن الأساسية. قال ببطء:

— «تمهلي، حين تقولين ألبريتش، هل تقصدين ذلك الذي يُفترض به أن يكون...» صمت ولم يكمل الجملة، تاركًا إياها معلّقة في الهواء. ولاحظت إيرين بضيقٍ أنه لم يسكب لها البراندي بعد.

قالت إيرين:

— «لا، لا أقصد ذاك الذي "يُفترض به أن يكون". بل أقصد ذاك الذي "هو كائنٌ بالفعل". لستُ أزعم أنني التقيته قط، ومع قليلٍ من الحظ لن نضطر لذلك، وهذا مجرد إجراء وقائي.» هكذا تمنّت، ثم أردفت: «والآن، هل يمكنني الحصول على ذاك البراندي؟»

— «هل هو حقيقي؟» سأل كاي، وما زال البراندي في زجاجته.

– «إنه مسجل في سجلات المكتبة. كيف لا يكون حقيقيًا؟»

بدا الذهول على وجه كاي:

– «ربما كان شخصية خيالية؟»

كزّت إيرين على أسنانها وقالت:

– «كلا. لقد وُسم رسميًا للمكتبة، وخضع للمراسم والطقوس وكل شيء. لهذا السبب لا يمكنه العودة إلى هناك؛ فالمكتبة ستدرك وجوده فورًا. لكن هذا يثبت أنه حقيقي، وأنه ليس مجرد أسطورة حضارية مثل تلك الحكاية عن الأنابيب ووحش المجسات.» كانت تلك واحدة من القصص الشائعة حين كانت هي متدربة؛ كان المنطق يقول إنه إذا كانت غرف المكتبة متصلة بشبكة سباكة، فلا بد من وجود صهريج مركزي مظلم يعيش فيه وحش ضخم ذو مجسات يقتات على أمناء المكتبات القدامى. وبالطبع، كانت السلطات العليا تتكتم على الأمر... لقد قضت هي والمتدربون الآخرون ساعات طويلة يطرقون الأنابيب محاولين تمرير رسائل أو العثور على أي أثر للمجسات. أنهت كلامها قائلة: «البراندي؟»

تذكّر كاي أخيرًا أن ينهض ويفتح الزجاجة. سكب ربع بوصة فقط في كوب صيني مهشم وقدّمه لها.

قالت إيرين: «شكراً»، وتجرعته دفعة واحدة، ثم مدّت الكوب ليملأه ثانية: «أكثر قليلًا هذه المرة، من فضلك.»

حدق بها كاي:

– «هل أنتِ متأكدة أنكِ بخير؟»

— «لقد كانت أمسية حافلة،» قالت إيرين، «وسأقضي الساعات القليلة القادمة في دراسة قوائم "اللغة" المحلية التي أعطانا إياها دومينيك. يمكنك أنت أن تنال قسطًا من النوم.»

— «ولكن يجب أن نخبر دومينيك فورًا! فوجود ألبريتش هنا يثبت مدى أهمية الكتاب! وعلينا تحذير دومينيك——»

— «وكيف ذلك؟» سألت إيرين. لقد قررت منذ زمن أن "الاستجواب السقراطي" فكرة سديدة، لأنه أولاً يدفع الطلاب للتفكير بأنفسهم، وثانيًا قد يأتون بأفكار لم تخطر ببالها، وثالثًا يمنحها وقتًا للتفكير بينما يحاولون هم إيجاد الأجوبة.

— «يمكننا الذهاب إلى المكتبة البريطانية — آه، مهلاً. لن تكون مفتوحة في هذا الوقت من الليل.»

— «بالفعل،» وافقت إيرين، «وهو أمر سيكون مزعجًا إن احتجنا للتسلل إلى هناك مجددًا للعودة إلى المكتبة. كما أنه لم يعطنا عنوان منزله.» كان ينبغي أن يكون في تلك الأوراق التي سلّمها لهما، لكنه لم يكن موجودًا. وأشار صوتٌ خفيّ في مؤخرة عقلها إلى أن هذا كان إهمالاً من جانب دومينيك، إهمالاً يقترب من حد التقصير الصارخ في الواجب في موقعٍ خطرٍ كهذا؛ فقد تحتاج لمساعدته بشكل عاجل.

قال كاي بانتصار:

— «يمكننا استخدام "اللغة" للاتصال به.»

فكرت إيرين في الأمر وقالت:

— «يمكنني صنع كيانٍ اصطناعي وإرساله لتحذيره، لكنه سيحتاج للارتحال والبحث عنه.»

قال كاي:

— «سحر.»

أجابت إيرين:

— «ليس هذا مجالي. هل أنت بارع فيه؟»

قال كاي بتواضع:

— «يمكنني تسخير بعض الأرواح. لكني لم أملك الوقت للتعرف بنفسي لأي من الأرواح المحلية هنا. ولا أود تجربة ذلك إلا إذا لم يتبقَّ أمامنا خيار آخر.»

أومأت إيرين برأسها:

— «لقد قال دومينيك إنها قد تكون خطرة. لذا سنذهب إلى المكتبة البريطانية في الصباح لنتحدث مع دومينيك شخصيًا. لا بد أن المكتبة قد أطلعته على المستجدات على أي حال، تمامًا كما فعلت معي. لسنا نتركه في خطر؛ فهذا ليس فيلم رعبٍ رديئًا.» وابتسمت ابتسامة تأمل أن تكون مطمئنة.

— «أوه،» قال كاي. ثم نظر إلى الحقيبة الصغيرة بجانب الباب التي تحتوي على الوثائق، وقال بنبرة تفتقر للعفوية: «إذًا، هل يمكنكِ إطلاعي على بعض كلمات "اللغة" هناك؟»

— «يمكنني ذلك، لكنه لن يفيدك بشيء.» وضعت إيرين الكوب. «لن يختلف الأمر عما هو عليه داخل المكتبة. ستظل تبدو لك ككلام عادي لا أكثر.»

— «هل كان الأمر مؤلمًا؟»

رمشت إيرين بعينيها لتغير الموضوع المفاجئ:

— «أي أمر؟»

— «الحصول على وسم المكتبة.» ارتمى كاي على السرير الذي صرّ تحته. «إذا كان ذلك هو السبيل الوحيد لفهم "اللغة".»

— «نعم، ونعم.» وبما أن كاي لم يبدِ نيةً لإحضار الحقيبة إليها، نهضت إيرين ومشت لتجلبها بنفسها. «انظر، عليك أن تنام. لا فائدة من بقائنا مستيقظين طوال الليل.»

انقلب كاي على بطنه، مسندًا ذقنه على يديه، ونظر إليها قائلاً بنبرة فيها شيء من الهدوء والمداعبة:

— «إيرين، حين تقولين "نوم"، هل تعنين حقًا مجرد النوم؟»

نظرت إليه إيرين والحقيبة في يدها، ورفعت حاجبيها بحدة:

— «نعم، أعني حقًا مجرد النوم.»

— «لكن، أنا وأنتِ — نحن نتشارك مساحة ضيقة إلى حد ما، ألا تظنين ذلك؟»

قالت إيرين باختصار:

— «كلا. ولكن الأمر لا يهم على أي حال.»

— «ولكن...»

— «انظر،» قاطعته قبل أن تراوده أي أفكار حول النهوض وضمّها أو ما شابه. «كاي، أنا معجبة بك، وأنت وسيم للغاية، وآمل أن نظل صديقين جيدين، لكنك لست من النوع الذي يستهويني.»

قال: «أوه.»

عادت وجلست وفتحت الحقيبة، وبدأت تتصفح الأوراق بداخلها.

سألها كاي بأمل:

— «وما هو النوع الذي يستهويكِ؟»

رفعت إيرين بصرها لتجده قد خلع ربطة عنقه، وفك أزرار قميصه، مظهرًا مثلثًا من صدره العضلي الأملس الشاحب. استطاعت أن تتخيل ملمسه تحت أناملها.

ابتلعت ريقها وقالت:

– «هل علينا حقًا خوض هذا النقاش؟»

– «أنا لا أحاول مجرد التملق،» قال كاي بنبرة شابَها الضيق الآن. «لكنني معجب بكِ، وأعتقد أنكِ ذكية ولبقة وساحرة، وأكنّ لكِ الكثير من الاحترام.»

فركت إيرين جبينها بظهر يدها؛ لقد بدأ الصداع يداهمها. «انظر، أنا أقدر تهذيبك في هذا الأمر، وأقدر كونك ساحرًا للغاية، وأتمنى لو كان بإمكاني أن أكون أكثر لطفًا في رفضك. لكن اليوم كان طويلاً، ولا يزال لدي عمل لأنجزه، وأنت لست من النوع الذي يستهويني حقًا. وقبل أن يتمادى هذا الأمر، فإن نوعي المفضل هو الرجل الغامض، الخطر، والساحر، ذو الأخلاق المشكوك فيها. ونعم، لقد تسبب هذا في فضيحة "اللصة المتسلقة" التي ذُكرت سابقًا، والتي كانت مخجلة للغاية آنذاك، وما زالت. وأيضًا، دعني أوضح لك تمامًا أنك إذا كررت هذا الكلام فسوف أسلخ جلدك حيًا. أتفهم؟»

نظر إليها كاي بعينين واسعتين يملؤهما الخذلان:

– «كان سيسعدني أن أكون شريكك، حقًا. وأنتِ أيضًا كنتِ ستستمتعين.»

– «اسمح لي أن أعلمك بأنني شريكة بارعة للغاية،» قالت إيرين بنبرة فيها شيء من التعالي. «لقد ارتحلتُ عبر مئات العوالم البديلة

وجربتُ شركاء من ثقافات مختلفة. ولو أخذتُك إلى الفراش، فمن المؤكد أنك لن تشتكي.»

رمقها كاي بنظرة عميقة أخرى من عينيه الداكنتين الغارقتين.

تنهدت قائلة:

— «ولكن الآن، لدينا كتاب لنعثر عليه، وعليّ أن أدرس، وأنت بحاجة للنوم. من فضلك؟»

في النهاية فعل ما طلبته، فتمكنت من العمل بسلام، ولم يقطع هدوءها سوى بعض الأفكار الجانبية العابرة عن العروض المغرية والعضلات المتناسقة.

بعد ساعتين، وكان كاي قد غط في نومٍ عميق، وضعت إيرين أوراقها وفركت صدغيها المتألمين. لقد حفظت للتو اثني عشر ظرفاً مختلفاً لوصف حركة المنطاد، وخمس عشرة صفة لأنواع الضباب الدخاني. كانت تستحق استراحة.

لكن لسوء الحظ، جاء التفكير مرافقًا للاستراحة.

كان معروفًا عن ألبريتش أنه متحالف مع بعض "الفاي" (الجان)؛ فقد لجأ إليهم حين تمرد أول مرة. والآن يُشاع أنه يتلاعب بفصائلهم المختلفة ببراعة عازف مجنون على أورغن أنبوبي. التقارير القليلة الممزقة التي تمتلكها المكتبة عنه — على الأقل تلك المتاحة لصغار الموظفين مثلها — تشير إلى أنه يسعى وراء الخلود.

حدقت في الأوراق دون أن تراها حقًا. الخلود. كانت المكتبة تمنح نوعًا فعالاً من الخلود، أو على الأقل حياة مستمرة حتى يملّ الشخص المعني منها. فطالما ظل منتسب المكتبة الذي يحمل وسمها داخل أسوارها، فإنه لا يهرم. أما في العوالم المتعددة، فالمرء يشيخ، لكن داخل

المكتبة يتوقف الزمن. لقد قضت هي نفسها سنوات في المكتبة أثناء تدريبها، واكتسبت سنوات من الخبرة لا تظهر على ملامحها بشكل واضح، ربما في عينيها أحيانًا، لكنها حاولت ألا تفكر في ذلك.

هذا هو السبب في نظام التسلسل الهرمي في المكتبة؛ فأمناء المكتبة الناشئون يعملون في العوالم المتباعدة طالما لديهم سنوات يضحون بها، وبمجرد أن يتقدموا في العمر، ينسحبون للعمل داخل المكتبة للمدة التي يختارونها، مع القيام برحلات نادرة للخارج عند الضرورة. هؤلاء هم أشخاص مثل كوبيليا وكوستشي، يقضون أيامهم في الغرف اللامتناهية، متمكنين أخيرًا من إنجاز أبحاثهم بشكل صحيح. بعض الأمناء يعيشون ويعيشون، حتى يقرروا أنهم اكتفوا، أو يخرجون إلى العوالم البديلة لينهوا أيامهم في مكانٍ يحبونه. وتتكفل المكتبة بالتكاليف مهما كانت باهظة أو غريبة، على أساس أن «لا شيء يغلو على من أفنوا حياتهم في خدمة المكتبة». وبالطبع، كان أمناء المكتبات العجائز هم من يصوتون على تمويل مثل هذه الأمور...

لم تكن إيرين لتفكر في هذا الآن؛ فلا يزال أمامها سنوات من العمل الميداني. بل عقود. لديها مهام لتنجزها، وأشخاص لتقابلهم. لكن هناك ألبريتش. لقد غادر المكتبة منذ خمسمائة عام. لا يمكن أن يكون لا يزال على قيد الحياة بالوسائل المعتادة في المكتبة. لا بد أنه عقد صفقة ما مع "الفاي"، تلك المخلوقات التي تُعرّف بالمستحيل. أدب الرعب والخيال المبتذل يقدم نصف دزينة من الأفكار البشعة حول كيفية بقاء ألبريتش موجودًا، رغم أن بعضها قد لا يُعتبر "حياة" بمعناها الحقيقي.

وماذا يريد أن يفعل بهذا الوجود المستمر؟ تستطيع المكتبة استخدام الكتب الفريدة لربط نفسها بعوالم بديلة معينة. ولكن ماذا يمكن لشخص آخر — شخص من خارج المكتبة — أن يفعل بتلك

الكتب الرابطة؟ لم يكن هذا مجالاً يُشجّع أمناء المكتبة الصغار على التكهن فيه. أفضل إجابة خطرت ببالها حاليًا هي: شيء سيئ.

فما الذي قد يعنيه الأمر لو استطاع ألبريتش التأثير على عوالم بأكملها بمجرد امتلاكه لنصوص مفتاحية معينة...؟

فكرت إيرين بجدية في كأسٍ آخر من البراندي. الأمور بدأت تزداد تعقيداً؛ رغبة برادامانت في الاستيلاء على المهمة، تورط "الفاي"، ألبريتش... ثم هناك كاي.

نظرت إلى جسده النائم. لم يكن يصدر شخيرًا. كان كاي يتنفس بنعومة وانتظام، كأنه إعلان تجاري لوسائد مريحة للغاية. وقد نجح في النوم بوضعية قد تضطرها لمسح جبينه أو إيقاظه بقبلة. أما عن تحول شخصيته السابق من "صعلوك شوارع" إلى "شبه أرستقراطي" — فقد تعامل مع ذلك المحقق كجنتلمان نبيل. واهتمامه الحالي بالملابس والإغواء والمغامرة لا يتناسب حقًا مع الشاب الذي قدّم نفسه لها بصفته أحدث طلاب كوبيليا. هناك خطبٌ ما. ولا بد أن كوبيليا قد لاحظت ذلك بنفسها.

أدركت إيرين أنها كانت تنقر بأصبعها على الأوراق، فتوقفت عن ذلك عمداً. العادات خطيرة؛ فقد تؤدي بك إلى الهلاك.

هل كان اهتمام برادامانت بـكاي مريبًا؟

كان لـإيرين تاريخها الخاص مع برادامانت، وهو تاريخ لن تناقشه بالتأكيد أمام كاي، أو خلفه، أو في أي مكان قد ينتهي به الأمر لسماعه. تلك المرأة أفعى سامة. لا، هذا ظلم للأفاعي. لقد كانت إيرين تلميذة برادامانت ذات يوم، وهي تعرف تمامًا ما يعنيه ذلك: أن تُستخدم كطعمٍ حي، وأن يفوتها أي فضل للنجاح ولكن تنال كل اللوم عند الفشل. ثم

تقضي سنوات في محاولة ترميم مؤهلاتها البحثية بعد اللطخة التي أصابت سجلها بسبب رفضها لعرض أمينة مكتبة أقدم للذهاب في مهمة أخرى.

بجهدٍ جهيد، منعت نفسها من النقر على الأوراق مجددًا.

كانت الساعة الثالثة فجرًا؛ استطاعت سماع أجراس الكنائس البعيدة ودقات الساعات تتردد عبر الضباب في الخارج. ساعة أخرى من الدراسة، ثم ستنام ويقوم كاي بالحراسة. لقد بلغت من الارتياب مبلغًا يجعلها ترغب في وجود حارس، مهما كان مستبعدًا أن يعثر عليها ألبريتش أو غيره هنا.

الارتياب هو أحد العادات القليلة التي تستحق الحفاظ عليها.

في الثامنة من صباح اليوم التالي، فُتحت أبواب المجمع الذي يضم المتحف البريطاني والمكتبة البريطانية. انضمت إيرين وكاي إلى الحشود المتجهة للداخل. لحسن الحظ، لم يكن أحد في مزاج يسمح بالحديث في تلك الساعة المبكرة؛ ظل الناس مثبتين أنظارهم في أحذيتهم، أو يحدقون في الفراغ، أو يغرقون بضراوة في دفاتر ملاحظاتهم.

كان قسم المخطوطات الكلاسيكية مفتوحًا، لكن مكتب دومينيك أوبري كان مغلقًا. كان الباب مقفلاً، بمزلاج، وربما مصفداً بحديد من الداخل بقدر ما تستطيع إيرين أن تجزم. لم تتذكر رؤية قضيب حديدي حين كانت بالداخل، لكنها ربما فاتها ذلك.

— «هل أفتح القفل؟» سأل كاي بينما كانا (للمرة الثالثة) يعتدلان في وقفتهما بعد التحديق في القفل، محاولين بكل جهدهما التظاهر بأنهما طالبان متفائلان، في الوقت المناسب تماماً للابتسام للموظفين المارين.

— «سأفعل أنا،» قالت إيرين. «قد يكون قد وضع نوعًا من "التحصينات" ضد كسر الأقفال المادي أو السحري، لكنه لا يستطيع التحصن ضد "اللغة".» توقفت قليلاً وأردفت: «تراجع للخلف.»

— «أوه؟» قال كاي منفذًا ما طُلب منه.

— «حسنًا، التحصينات شيء، والفخاخ والإنذارات شيء آخر.» تجاهلت تعبير الفزع المفاجئ على وجه كاي (حقًا، عليه أن يكون ممتنًا، فهو يتلقى تعليمًا ممتازًا) وجثت بسرعة على ركبة واحدة. هناك، أخبرت الباب بـ"اللغة" أن كل الأختام والمزاليج عليه قد انحلّت، وكل الأقفال والمربعات قد فُتحت، وكل التحصينات قد زالت.

انفتح الباب بهدوء حين وضعت يدها على المقبض. أشارت لـكاي بالدخول بسرعة خلفها، وأغلقت الباب وراءه.

كانت الغرفة تمامًا كما كانت بالأمس. دخل ضوء شمس الصباح الباكر باهتًا عبر النوافذ، مخنوقًا بالضباب في الخارج، ولمع فوق أوراق الذهب وخزائن العرض الزجاجية. أما باب المكتبة نفسه فقد كان مؤمّنًا بواسطة سلسلة وقفل، تمر السلسلة عبر مقبض الباب وحلقة معدنية مثبتة في الحائط. سيكون من غير المجدي منع أي شخص قادم من الجانب الآخر، حيث ستسود قوة المكتبة، لكنه كان فعالاً بما يكفي لمنع الناس من المحاولة من هذا الجانب.

قال كاي بقلق:

— «إيرين.»

— «نعم؟»

— «إذا كان الباب المؤدي للخارج موصداً من هذا الجانب، وإذا كان باب المكتبة مقفلاً بسلسلة من هذا الجانب أيضًا، فكيف غادر أي شخص الغرفة؟»

— «نقطة جيدة،» قالت إيرين مشجعةً عادات التفكير المفيدة. «لا بد من وجود باب سري هنا في مكانٍ ما. أو أنه غادر عن طريق السحر.»

— «هل يمكنكِ استخدام "اللغة" للعثور على الباب السري؟»

جلست إيرين على الكرسي خلف المكتب. كان بوضوح الكرسي الشخصي لـدومينيك أوبري. استجاب الكرسي لثقلها بسهولة الاستخدام الطويل مع صرير واحد رشيق، وفاحت منه رائحة التبغ والقهوة. «ليس تمامًا. امتحان ميداني؛ أخبرني لماذا.»

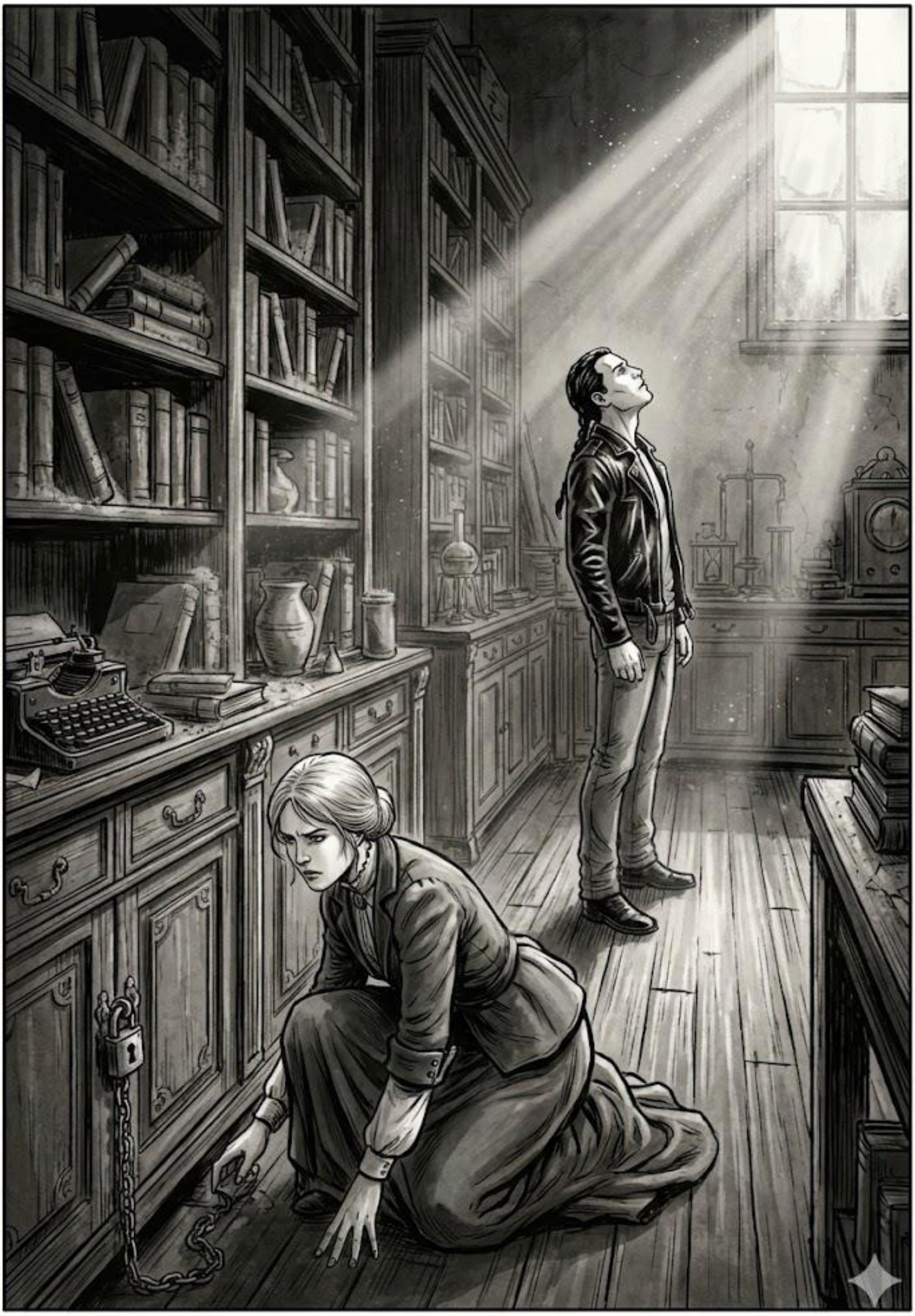
— «أوه، هذا ليس عدلاً...» بدأ كاي، ثم نظر إلى تعبير وجهها وصمت ليفكر. قال بعد لحظة: «حسنًا، أعتقد أنني عرفت السبب. كل شيء في نطاق "اللغة" يتفاعل معها ما لم يحدد الأمر أو الجملة خلاف ذلك، صح؟ لذا إذا أمرتِ كل شيء في النطاق أن يفتح...»

أومأت إيرين برأسها:

— «عندها سأفتح خزائن العرض، والأدراج، والخزائن الممتدة على طول الحائط هناك، وقفل باب المكتبة، ومن المحتمل جداً حقيبة يدي ومحفظتك والنوافذ بينما نحن في خضم الأمر. إنه اقتراح معقول، لكنه لن يجدي نفعًا إلا إذا لم يتبقَّ أمامنا أي خيار آخر. والآن أخبرني لماذا لن أستخدم السحر.»

فكر كاي ثم هز كتفيه:

— «لأن دومينيك ربما وضع تحصينات على أي باب سري سوف تنفجر حين تستخدمين السحر للكشف عنها؟»



— «في الحقيقة، لا.» أسندت إيرين مرفقيها على المكتب. «السبب هو أنني سيئة في السحر.»

— «ماذا؟ ولكن يمكن لأي شخص القيام بالسحر!»

رفعت حاجبيها.

قال كاي:

— «لا بد أنك تمازحينني. السحر هو واحد من أبسط المهارات. حتى أخي — أخي الأصغر كان يستطيع تسخير الأرواح البسيطة واستحضار العناصر. لا تقولي لي أنك...» انقطعت كلماته في منتصف الجملة، وبدت عليه نظرة القلق كمن أَدرك أنه قال شيئًا خاطئًا.

لاحظت إيرين ذلك أيضًا. «أخوك الأصغر،» كررت الكلمات بنعومة.

— «إيرين، أنا—»

— «"لو كان لدي عائلة"، هذا ما قلته لي سابقًا.» تذكرت محادثتهما في المكتبة؛ فنسيان الأمور هو آخر ما قد يفعله أمين مكتبة مدرب تدريبًا كاملاً. الذكريات لا تقل أهمية عن الكتب، وتكاد تضاهي أهمية الفهرسة الصحيحة. «كاي، لقد كنت تكذب عليّ بشأن بعض الأمور، وتخفي أخرى. أنا أعلم ذلك، وأنت تعلمه أيضًا.» تمنت لو كان بإمكانها تمرير يدها في شعرها كما كان يفعل هو الآن، لكنها أمينة المكتبة الأكبر، وهو تلميذها، ولا يمكنها تحمل إظهار الضعف. يجب أن تظل مسيطرة. كانت معجبة به، وهي في الحقيقة لا يعجبها الكثير من الناس، ولم تكن تريد اتهامه. لم تكن تريد... أن تبعده عنها. «هل تريد التحدث عن الأمر؟»

اعتدل في وقفته ووقف أمامها، فبدا فجأة طويلاً جداً ومع ذلك هشاً بشكلٍ ما. قال:

— «لا أستطيع.»

— «تستطيع،» صححت له إيرين. «لكنك لا تريد ذلك كما يبدو.»

— «إيرين.» ابتلع ريقه. «أقسم لكِ أن الأمر لا علاقة له بالوضع الحالي. باسمي وشرفي ونَسبي، أقسم لكِ.»

كان الرد البديهي هو "بقدر ما تعلم"، لكن ذلك كان سيهون من كفاحه الواضح وصدقه. وإيرين كانت متأكدة من صدقه. وبالطبع، لم يكن ذلك يعني بالضرورة أنه على حق، أو أنه ليس أحمق.

تنهدت قائلة:

— «أنا أقبل كلمتك، ولن أطلب المزيد إلا إذا فرض الوضع الحالي خلاف ذلك. ولكن سيتعين علي إخبار كوبيليا بهذا يا كاي. لا يمكنني كتمان الأمر.»

— «كنت أتوقع ذلك،» قال كاي. رفع عينيه لينظر بنبل إلى الحائط المقابل. «كنت أعلم أنكِ ستبلغين عن الأمر، بما أن——»

— «بافتراض أنها لا تعرف بالفعل،» قالت إيرين بتفكر.

ارتبك كاي: «لا يمكنها ذلك،» قالها بنبرة توحي بالأمل اليائس أكثر من القناعة الحقيقية.

— «إذا استطعتُ أنا ملاحظة شيء غريب في يومين، فمن المرجح أنها لاحظته في خمس سنوات.» وقفت إيرين وربتت على كتف كاي. «استرخِ. والآن لنعثر على هذا الباب السري. سأفحص الخزائن على هذا الحائط، وأنت افحص الرفوف على ذلك الحائط.»

استطاعت سماع تمتمة كاي خلفها بينما كانت تمشي لتفحص صفوف الخزائن. كانت مليئة بصفحات مثبتة بعناية، وشظايا فخارية، وأقلام حبر، وريش للكتابة، وآلات كاتبة، وقطع وأجزاء أخرى لم تُنفض عنها الأغبرة منذ عامين على الأقل. كانت الأقفال على الخزائن جيدة، لكن الخشب كان جافًا وهشًا. أي لص جاد (مثلها، في أكثر من مناسبة) كان ببساطة سيحطم الإطار أو يقطع الزجاج بدلاً من محاولة فتح القفل.

عطس كاي.

— «هل وجدتَ شيئًا؟» نادت عليه دون أن تكلف نفسها عناء الالتفات والنظر.

— «غبار فقط،» قال، وعطس ثانية.

جثت إيرين على يديها وركبتيها لتفحص الحافة السفلية للخزائن، بحثًا عن آثار تدل على أنها حُركت. إذا لم يصل بها هذا إلى نتيجة، فستنسى أمر السرية وتفتش أدراج مكتب دومينيك. لم تكن تتوقع منه حقًا أن يحتفظ بأي شيء يدينه أو يهمها هناك، لكنه قد يعطيهما على الأقل عنوان منزله. وإذا فشل ذلك، فبإمكانها هي وكاي مراجعة إدارة المكتبة البريطانية. وإذا فشل ذلك——

عطس كاي مرة أخرى.

— «إذا كان هناك كل هذا الغبار،» نادته، «فإن أي أبواب سرية يجب أن تكون واضحة تمامًا.»

— «ليس مجرد غبار،» قال كاي. خطا خطوة. توقف. خطا خطوة أخرى. «هناك شيء في هذه الغرفة رائحته غريبة.»

تخلت إيرين عن الخزائن، ونهضت واقفةً وهي تنفض تنورتها. «ما هو؟»

استنشق كاي الهواء: «لستُ متأكداً. رائحة توابل. ملوحة. في مكانٍ ما هنا...» تجول على طول رفوف الكتب وهو يشم ثانية.

تبعته وهي مفتونة بهذا النهج الجديد للعثور على الأبواب السرية.

— «وجدته!» انحنى كاي وأشار إلى خزانة صغيرة في نهاية الرفوف. كان فوقها كومة من ستة مجلدات من كتاب "الروض العاطر في نزهة الخاطر[٦] ملخّصًا للناشئة"، لكن باب الخزانة نفسه كان متاحًا، وإن كان مقفلاً.

— «دعني أرى.» جثت إيرين على ركبتيها ثانية لتفحصها. «همم. تبدو كخزانة عادية. هل هناك شيء غريب في القفل؟»

— «ليس مما أراه،» أجاب كاي منضمًا إليها على مستوى الأرض. «هل تريدين فتحها أم أفعل أنا؟»

— «أوه، اسمح لي.» انحنت إيرين وأمرت القفل بالانفتاح بـ"اللغة".

لم ينفتح باب الخزانة.

— «هذا مثير للاهتمام،» قالت.

— «كيف لا ينفتح؟» سأل كاي.

— «التفسير الأسهل هو أنه محكم الإغلاق بطريقة أخرى، علاوة على القفل،» شرحت إيرين. «شيء غير واضح، لذا لم أكن أعلم بوجوده لأمره بالانفتاح. أو من ناحية أخرى... كنت تقول إنك تشم شيئًا. من أي جانب من الخزانة تبدو الرائحة أقوى؟»

---

[٦] هو كتاب حقيقي من الأدب العربي يعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي، ألفه الشيخ محمد بن محمد النفزاوي في تونس بين حوالي ١٤١٠ و١٤٣٤ م. يُعرف بالاسم الإنجليزي *The Perfumed Garden of Sensual Delight*.

ألقى عليها كاي نظرة توحي بأنه ليس هنا ليقوم بدور "الشمّام" نيابة عنها، لكنه امتثل بعد لحظة. «من هذا الجانب،» قال وهو ينقر على اللوحة اليمنى للخزانة.

— «حسنًا.» تحركت إيرين لتموضّعٍ يتيح لها رؤية أفضل، ثم ضغطت بحذر على الزوايا والتصميم المرصّع. «همم. نعم. كما ظننت. متى لا يكون الباب بابًا؟»

اكتفى كاي بالنظر إليها.

— «حين يكون،» قالت إيرين بانتصار، «زائفًا. هاك.» ضغطت على الزوايا العلوية في آنٍ واحد، فانفتح جانب الخزانة بالكامل على مفصلة مخفية. «هناك. والآن...» كادت أن تكمل كلامها، لكن رائحة خل نفاذة صدمتها، فارتدت للخلف على ركبتيها وهي تهوّي الهواء أمام أنفها.

— «رائحة خام قوية،» قال كاي. «هل هذه طريقة المكتبة في حفظ الوثائق؟»

— «ليس مما سمعت به قط.» استعادت إيرين سيطرتها على نفسها، وسحبت محتويات الخزانة. كانت جرة جنائزية (كانوبية) واحدة على الطراز المصري القديم. «دعنا نرَ ما في داخلها.»

— «هل يجدر بنا ذلك؟» سأل كاي.

— «كاي،» قالت إيرين بلطف. «لو أراد دومينيك حقًا إبقاء هذا سرًا عنا، لما أخفاه ثم تأخر عن العمل وهو يعلم أننا سنبحث حولنا.»

— «فقط للمعلومات المحضة،» قال كاي، «هل كل أمناء المكتبات هكذا تجاه الأمور الخاصة؟»

لم تشرف إيرين سؤاله بإجابة. فضلاً عن ذلك، سيتعلم بشكل أفضل. إن مهمة أمين المكتبة في البحث عن الكتب لصالح المكتبة

تتحول بعد بضع سنوات إلى رغبة ملحة لمعرفة كل ما يدور حوله. لم يكن فضولاً شخصيًا حتى؛ بل كان مجرد حاجة بسيطة، مجردة، وغير قابلة للسيطرة للمعرفة. المرء يتصالح مع ذلك. رفعت الغطاء المصمم على شكل رأس ابن آوى للجرة الجنائزية. وقالت: «هناك شيء بالداخل.»

نسي كاي وازعه الأخلاقي وانحنى مقتربًا: «ما هو؟»

— «نوع من الجلد.» شمرت إيرين عن أكمامها وسحبته للخارج. كان أكبر مما يبدو عليه، مادة رقيقة رقيقة مع أطراف طويلة متدلية. هزته لتأخذ فكرة عن طوله وشكله الكاملين، ثم تسمرت في مكانها والهلع يتملكها. وخلفها أحست بجمود كاي وصدمته.

كان جلدًا بشريًا كاملاً، قطعة واحدة، مع شق واحد يبدأ من الذقن وصولاً إلى ما تحت البطن.

لقد كان جلد دومينيك أوبري.

الفصل الثامن

تراجع كاي وهو يطلق فحيحًا مكتومًا، رافعًا يديه أمامه كالمخالب. كان الجلد ملقىً هناك على الأرض، خائرًا ولزجًا، يلطخ الألواح المصقولة ببقع الخل.

ابتلعت إيرين ريقها، متشبثةً برائحة الخل لتدفع عنها غثيانها المتصاعد. بدت ملامح دومينيك أوبري مختلفة تمامًا في هذه الحالة؛ كان الوجه المسطح قابلاً للتمييز، لكنه افتقر إلى الهيئة والروح والدفء الودود الذي كان ينبض به بالأمس فقط.

سأل كاي بحدة:

— «أهو مجرد زيف؟»

قلبته إيرين على الجهة الأخرى. كان وسم المكتبة يمتد عبر الظهر في نسيج معقد من الزخارف. كان الأمر لا يقبل الشك؛ فلا يمكن تزييف "اللغة"، حتى لو حاول أحدهم محاكاتها. شعرتْ بالوسم فوق كتفيها يختلج في نوعٍ من التعاطف المؤلم. قالت بتبلد:

— «كلا، إنه حقيقي. لكن ليس من الممكن لبشرٍ أن يسلخ جلده هكذا... أعني، قد يكون من الممكن نظريًا نزع الجلد إذا أخذنا في الاعتبار بعض النصوص الخيالية الأكثر جموحًا، لكن لا يمكن للمرء أن ينزع وسم المكتبة ويبقى على قيد الحياة.»

قال كاي:

— «ألبريتش.»

لم تحتج إيرين لسؤاله عما يقصده، فوافقتْه الرأي قائلة:

— «هذا ممكن بالتأكيد، بل ومرجح. لكن هناك "الفاي" أيضًا الذين يجب وضعهم في الحسبان، وقد تكون هناك فصائل أخرى تعمل في الخفاء. حسنًا، علينا التبليغ عن هذا.»

تنهد كاي بعمقٍ من أثر الارتياح:

— «كنتُ أخشى أن تقولي إن علينا التحقيق في الأمر بأنفسنا.»

ردت إيرين بنبرة عملية:

— «لا تكن سخيفًا. قد نجمع القصص الخيالية، لكننا لسنا ملزمين بتقليد أكثر أجزائها غباءً.» ثم فكرت في سرها: *ولنأمل ألا نؤمر بالتحقيق في هذه المعمعة دون دعم على أي حال*. تابعت قائلة: «الأهم أولاً؛ سنخفي هذا الشيء مجددًا، ثم سأفتح الباب المؤدي إلى المكتبة.»

في تلك اللحظة، بدأ مقبض الباب الخارجي يدور.

لم تجد إيرين وقتًا للتفكير سوى بعبارة: *ولكني متأكدة من أنني أقفلته!* سارعت بدفع الجلد والجرة خلف إحدى طاولات العرض، ثم وقفت لتحجبها أكثر بثنيات تنورتها.

تمكن كاي من خطو خطوتين نحو الباب قبل أن ينفتح على مصراعيه.

وقفت هناك شابة ممشوقة القوام، تحتضن بعض الكتب إلى صدرها، ونظرت إليهما بتعجب.

سارعت إيرين بالقول:

— «أنا آسفة حقًا، السيد أوبري لم يصل بعد. هل يمكننا مساعدتكِ؟»

حدقت المرأة فيهما بذهول وقالت ببطء:

— «عفوًا؟ مَن أنتما؟» كان شعرها البني معقودًا بإهمال خلف رأسها وملطخًا بالغبار، كما كانت هناك آثار من الغبار والرماد على تنورتها وسترتها الرماديتين.

اخترعت إيرين كذبة سريعة:

— «فرقة الوقاية لإبادة الحشرات. نحن نفحص جميع الغرف بحثًا عن علامات الإصابة بالحشرات. أخبريني يا آنسة...» وتوقفت تدعوها لإكمال اسمها.

قالت المرأة:

— «تود. ريبيكا تود. لقد أخبرني أن آتي هذا الصباح بخصوص مخطوطة "لاميا".» ثم عدلت قبضتها على كتبها.

قالت إيرين:

— «يُفترض أن يصل قريبًا. أنا في غاية الأسف، لكني لا أستطيع أن أطلب منكِ الانتظار بالداخل لأننا بحاجة لاستخدام بعض المواد الكيميائية الخطرة أثناء فحصنا لوجود حشرات "السمك الفضي". هل تمانعين الانتظار في الممر بالخارج؟ سننتهي بعد دقيقة.»

قالت الآنسة تود باستعداد: «بالطبع. إذا وصل السيد أوبري وأنتما لا تزالان تجريان الفحوصات، فسأخبره.»

— «شكراً لكِ،» قالت إيرين بابتسامة، وانتظرت حتى خرجت الآنسة تود بسلام قَبل أن تتنفس الصعداء.

تمتم كاي: «حشرات السمك الفضي؟»

— «اششِ،» قالت إيرين. «سنخرج من هنا قبل أن تدرك الأمر.» جثت على ركبتيها مجددًا، متجنبةً بركة الخل التي بدأت تتسع،

وحشرت الجلد بسرعة داخل الجرة. «تبًا، أحتاج لغسل يديّ. في الواقع، سآخذ هذا معنا. ربما تعرف كوبيليا أو غيرها معنى هذا.» ثم ناولت الجرة لـكاي قائلة: «أمسك هذه.»

قال وهو يأخذها باشمئزاز: «أهذا ضروري؟»

— «أحتاج لفتح الباب.» مشت إيرين نحو باب المكتبة. تذكرت رؤية السلسلة في المرة السابقة، لكنها ظنت أنها لم تكن مستخدمة آنذاك، وربما تحررت بسبب رحلتهما عبر الباب. كان من الواضح أنها للزينة أكثر من كونها عائقًا حقيقيًا، ويُفترض أن الغرض منها هو ثني الغرباء عن استخدامه. وبالطبع، يمكن لأي شخص مثل إيرين أن يستخدم "اللغة" ببساطة.

وضعت يدها على القفل وقالت:

— «**أيتهـــا السلـــسلـــة، انفتحـــي**.»

لم ينفجر القفل، بل انحلّ بقوة مباغتة. تفتح مثل زهرة الأقحوان ثم أطبق على كفها، وانتشر فوق جلدها كطبقة من المعدن المتوهج ببياضٍ لافح. لكن الأمر كان يتجاوز مجرد الحرارة؛ فمن خلال الألم الحادّ، استشعرت إيرين خبثًا نشطًا وإرادة متعمدة. وخلف كل ذلك، وبينما كانت تكاد تفقد وعيها، لمحت بصيصًا من الضياء تلاشى في النهاية إلى ظلامٍ دامس.

كان كاي يقول: «إيرين!» لكنها كانت قد سقطت على ركبتيها، ولم يعد في رأسها متسع لاستيعاب كلماته أو ملامح وجهه، أو أي شيء سوى الألم المستعر الذي انطلق من يدها ليصعق ذراعها بالكامل.

— «إيرين!»

اشتعل الوسم فوق ظهرها بالحياة، مقاوماً تلقائياً قوى الفوضى الغازية المرتبطة بالقفل. بات "النظام" و"الفوضى" يتصارعان الآن للسيطرة على جسدها. وقد فات الأوان لإدراك أن هذا كان فخًا نُصب خصيصًا لمن يستخدم "اللغة"، رغم أن الأمر بدا واضحًا تمامًا الآن بعد فوات الأوان.

استنشقت رائحة شيء يحترق؛ كان ذلك ثوبها، فالقماش سريع الاشتعال.

لهثت قائلة: «حررني!» لو استطاعت فقط كسر الرابط المادي الذي يربطها بالقفل، أو القوى التي تمده بالطاقة، فقد يكون ذلك كافيًا لاستعادة سيطرتها وتطهير نفسها.

أطبق كاي يده حول معصمها وسحبها بقوة، متجنبًا لمس القفل نفسه.

كان القفل ملتصقًا بيدها؛ لم تستطع حتى زحزحة قبضتها عنه، فقد تشنجت أصابعها حول ما تبقى منه في تقلصٍ لم تستطع كسره. ومن خلال العذاب، أدركت أن هذا فخٌ تغذيه "الفوضى". إن أي إنسان عادي، غير مرتبط بـالمكتبة بختم، كان ليتحول بالفعل إلى شيءٍ على حافة المستحيل، أو لكان قد دُفع به إلى حالة من الوجود لا يمكن أن تستمر في هذا العالم البديل، فيُباد تمامًا. ورغم ذلك، فإن الإنسان العادي ما كان ليُفعّل الفخ أصلاً...

شعرت بقبضتها ترتخي.

في هذه اللحظة، كان ختم المكتبة يحميها، لكن ذلك لن يدوم؛ فالقوتان المتصارعتان ستحرقانها كفتيلٍ ضعيف إن لم تستطع كسر الاتصال بطريقة ما.

صرخ كاي في أذنها: «إيرين! هل يمكنني إدخالكِ إلى المكتبة؟ هل سيساعد ذلك؟»

هزت رأسها بجهد ولهثت: «كلا.» لا يمكنها دخول المكتبة وهي في هذه الحالة. «أنا ملوثة... لا أستطيع...» حاولت تذكر أي تعاليم تغطي هذا الموقف، لكنها لم تتذكر سوى ما يُسمى "مبدأ سمكة بابل"، وهو ما لم يكن مفيداً. كان الألم يمزقها، يمزقها...

ثم خطر لها الحل. ولكن إن لم يكن باب المكتبة هو مصدر طاقة الفخ، فهي هالكة لا محالة. صرخت: «اكسر رابطي بالباب... اكسر السلسلة!»

قال كاي: «حسناً،» وجذب السلسلة بقوة، محاولاً انتزاع الحلقة التي تبدو واهية والمثبتة في الحائط بقوة عضلاته. تزحزحت قليلاً لكن ليس بما يكفي، فاستلّ سكيناً من كمه وحاول فتح الحلقات عنوة. انكسرت إحدى الحلقات بفرقعة مفاجئة، بعد أن أضعفتها القوى المتدفقة نحو القفل. عندها انطلقت السلسلة حرة، فانتزعها مما تبقى من القفل الأصلي.

بزوال السلسلة، انكسرت دائرة الطاقة، وانفتح القفل بـ "تكة" ليسقط من يد إيرين على الأرض. ظلت إيرين جاثية هناك، تتنفس في شهقات عميقة ونحيب مكتوم، غير قادرة على النظر إلى يدها بعد لترى حجم الضرر الذي حل بها.

سألها كاي: «إيرين؟ ما هذا بحق الجحيم؟ هل أنتِ بخير؟ كيف تمكنتِ من تحريرها؟»

رفعت بصرها إليه؛ كانت رؤيتها مشوشة قليلاً، وربما كان هذا هو السبب في أنه بدا كأنه يترنح. حاولت الشرح قائلة: «لقد كان فخًا... مُعدًا

ليتفاعل مع "اللغة" ويلتصق بالمستخدم، مستخدمًا باب المكتبة كمصدر للطاقة. لهذا توقف عن العمل حين كسرتَ السلسلة. لقد كان موفرًا جداً للطاقة.» ثم شعرت بطنين في أذنيها: «كاي؟ هل تسمع شيئًا؟ هل هي حشرات السمك الفضي؟»

قال كاي وهو يجثو على ركبة واحدة بجانبها: «إيرين، هل أنتِ بخير؟»

نظرت إيرين إلى يدها؛ كانت حمراء تمامًا عبر الأصابع وصولاً إلى الكف. قالت بإدراكٍ عميق: «أوه. كاي، أعتقد أنني...» كان الطنين يزداد صخبًا. «أعتقد أن عليّ الاستلقاء قليلاً.»

— «إيرين!»

انزلق العالم من حولها، وشعرت به يتلقفها بينما غرق كل شيء في السواد.

حين عادت الأضواء للسطوع مجددًا، فعلت ذلك ببطء وتشوش، عبر غشاوة من الدخان وتدفق لروائح غريبة. كانت مسندة بزاوية غريبة، وقد وُضعت تنورتها بعناية لتخفي كاحليها. كان ظهر الأريكة يضغط على كتفيها ورأسها مائلٌ إلى جانب واحد، ولا تزال القبعة مثبتة في شعرها. أحدهم وضع وسادة تحت وجنتها؛ كانت محشوة بشعر الخيل، وكانت توخزها.

من تحت أهدابها، استطاعت تمييز غرفة فُرض عليها نظام صارم من قِبل شخصٍ يؤمن بصنع أكوام كبيرة من الأشياء: كتب، وثائق، ملابس، أوانٍ زجاجية. كانت هناك "صائدة أحلام" مصنوعة من أسلاك متداخلة في خطوط "ليساجو" من السلك والآبنوس تدور عند النافذة، وتتحرك ببطء مع نسمات الهواء والضباب. كانت الجدران أيضًا مكتظة

بالكتب، وأحدهم علق لوحات ورسومات أمامها، وكدّس أشياء صغيرة فوق الرفوف. كان المكان يعجّ بـ... بالأشياء. تعجبت كيف وجدوا متسعًا لها على الأريكة.

خفّ الألم في يدها الآن؛ كان أحدهم قد لطخها بشيء رطب ولفها بضمادات، وبدت كجسم غريب ملقىً في حجرها. حركت أصبعاً واحداً وهي تكتم صرخة، وسرّها أنها استجابت للحركة.

نادى كاي من خلفها بصوتٍ مرتفع جدًا:

— «إيرين! هل استيقظتِ؟»

همست قائلة:

— «نعم، ولكن من فضلك لا تصرخ.» اعتدلت في جلستها وأسقطت وسادة شعر الخيل على الأرض. «آسفة. أين نحن؟»

تقدم بيريغرين فيل قائلاً:

— «في غرفي. لقد أحضركِ السيد سترونغروك إلى هنا منذ ساعة. آنسة وينترز، لقد كنتِ ضحية اعتداء مروع. هل تشعرين أنكِ بخير بما يكفي للتحدث؟»

وضعت إيرين يدها السليمة على رأسها وقالت:

— «أنا آسفة حقًا. لدي صداع مروع.» ولم تكن تكذب تمامًا، «ولا أدري ما الذي يحدث. آخر ما أتذكره هو لمس مقبض الباب الذي كان مفخخًا...»

قال كاي موضحاً:

— «لقد كانت نوعًا من الصدمة الكهربائية. لم أعرف ماذا أفعل؛ أردتُ الوصول إلى مكانٍ آمن بينما نفكر في خطوتنا التالية يا إيرين.

الشخص الوحيد الذي كنتُ متأكدًا من إمكانية الوثوق به هو إيرل ليدز هنا——»

قاطعه فيل:

— «من فضلك، نادني بـ فيل. اللقب ليس مهمًا. المهم الآن هو تحديد مكان واعتقال الأَوغاد الذين نصبوا هذا الفخ القاتل.»

قالت إيرين:

— «حسنًا، أنا...» حاولت التفكير فيما ستقوله بعد ذلك. «أنا...»

رفع فيل يده بآمرًا:

— «لا تقولي المزيد. أنا أدرك أن السيد سترونغروك هنا هو تابعكِ.»

قالت إيرين: «أوه.»

تابع فيل:

— «لقد كان الأمر واضحًا كالشمس؛ إشاراتكِ له في المطعم، وقدرتكِ على تدبير أموركِ في القتال، وعدم رغبته في التحدث بينما كنتِ فاقدة للوعي — كل هذا جعل من الجلي تمامًا أنكِ أنتِ الآمرة في هذه المهمة. آنسة وينترز، أدرك أن لديكِ أجندتكِ الخاصة، لكني أطلب منكِ — بل أناشدكِ — أن تثقي بي. أؤمن بأن أهدافنا متطابقة، وأعتقد أننا يمكننا مساعدة بعضنا البعض.»

قالت إيرين وهي تترك الجملة معلقة بدلالة:

— «إذًا فقد أخبرك كاي...» لم يكن هذا ما أرادته؛ فهذا الرجل غريب تمامًا عنها. ورغم مهاراته المثيرة للإعجاب، وكونه يجسد شخصية النبيل — لذا يُفترض أن يفهم مبادئ "نبل الأخلاق" جيدًا — إلا أن المخاطرة تظل قائمة. هناك دائمًا مخاطرة، وكان من المفترض أن تكون هي "المُحرّكة" للأحداث لا "المُحرَّكة" بها.

كانت يدها تؤلمها وتشتت تفكيرها.

قال فيل، وهز كاي رأسه موافقًا:

— «لم يخبرني بشيء. لقد ظهر في عربة عند عتبة بيتي وأنتِ مغشيٌ عليكِ بين ذراعيه، وطلب المأوى حتى تستفيقي.»

مسحت إيرين خصلات شعرها المتدلية عن جبهتها. لم تكن بحاجة للتظاهر بالألم أو الحيرة. قالت: «لا أظن أننا الوحيدون الذين يحتفظون بأسرار هنا يا سيد فيل. الهجوم عليك ليلة أمس كان موقوتًا بدقة شديدة أكثر من أن يكون مجرد مصادفة.» كان هذا مجرد تخمين من جانبها، لكنه أصاب الهدف؛ إذ اختلجت جفناه قليلاً. نظرت إليه وتابعت: «أعتقد أن هناك ما هو أكثر من مجرد جريمة طمع بسيطة خلف كل هذا — القتل، سرقة الكتاب، بلفيغور. حين التقينا ليلة أمس، أشرتَ إلى "سرقات لمواد". هذا ليس الكتاب الوحيد الذي فُقد، أليس كذلك؟»

ارتمى فيل في كرسي آخر وقال:

— «أنتِ على حق يا آنسة وينترز. أوه، اجلس، اجلس يا سترونغروك. بصراحة، أحتاج لأشخاص يمكنني الوثوق بهم. "أهل الفاي" لديهم اتصالات في كل طبقات المجتمع، وأعدائي لديهم أكثر من ذلك. أنتما غريبان في لندن، ورغم أنه لا توجد روابط ظاهرة بينكما وبين "الفاي"، إلا أنه لا يوجد من يزكيكما أو يتحدث لصالحكما. قد يكون لدي أسباب للاعتقاد بأنكما جديران بالثقة...» قطب حاجبيه ثم تابع: «كلا، لنترك هذا للمحظة. سأشرح دوري في هذه القضية، ثم ربما تشرحان دوركما.»

نظرت إيرين إلى يدها. تمنت لو كان بإمكانها نزع الضمادات لترى مدى سوء الأمر — بالتأكيد ليست إصابة دائمة؟ كانت تلك الرغبة الملعونة التي تأتي مع أي إصابة، الرغبة في رؤية كيف "تبدو" في كل دقيقة، كما لو أنها ستتمكن فعلاً من رؤيتها وهي تتحسن أو تسوء. وماذا لو ساءت؟ ماذا لو شوهت نفسها مدى الحياة؟ لم تكن تطيق فكرة أن تكون عاجزة... لكن التحقيق في الأمر كان سيقطع تدفق اعترافات فيل، وهي بحاجة لمعلوماته. قالت بنعومة وهي ترفع بصرها عن يدها وتحاول منع نفسها من العبث بالضمادات: «من فضلك، استمر.»

شبك فيل أصابعه وقال:

— «حين قدمتُ نفسي كـ إيرل ليدز، كان ذلك دقيقًا بما يكفي، لكنه ليس لقبًا أحب استخدامه كثيرًا. إن الارتباطات المظلمة لمدينة "ليدز" ولقب الإيرل فيها تعود إلى عهد الملك إدوارد في القرن الرابع عشر. لقد انقطعت صلتي بعائلتي تحت — تحت ظروف غير سارة إلى حد ما، ولا أرغب في أي صلة أخرى بهم. والدي متوفى، ولا يمكن حرماني من الميراث، لكنني بالمقابل لا أهتم بأراضي العائلة وممتلكاتها وأسرارها.»

سأل كاي:

— «ألهذا السبب تعيش في لندن؟»

سرقت إيرين نظرة إليه؛ كان يميل للأمام بتعبير ينم عن اهتمام شديد، لكن كانت هناك خطوط واضحة من عدم الرضا على وجهه، وزمّ فمه في تكشيرة تكاد تكون توبيخية.

أومأ فيل برأسه وقال:

— «عائلتي لا ترغب في رؤيتي، ولا أنا أرغب في رؤيتهم. يأملون ألا أتزوج لكي ينتقل اللقب إلى أخي أكويلا. ومع ذلك، تلقيتُ قبل أسبوع

رسالة من...» تردد للحظة ثم تابع بكلمات خرجت بصعوبة: «من والدتي. كانت ترغب في إبلاغي عن سرقة حدثت، وتطلب مني، بصفتي محققًا إن لم يكن بصفتي ابنًا...» صمت للحظة، محدقًا في أصابعه كما لو كانت ملطخة بشكلٍ ما. «تطلب مني التحقيق في الأمر لأجلها.»

سألت إيرين بلباقة:

— «وما هو موضوع السرقة؟»

قال فيل:

— «كتاب. لقد كان يوميات عائلية — أي ليس عملاً مطبوعًا، بل مجموعة من الملاحظات والدراسات المكتوبة بخط اليد، ومراجع عن الأعشاب وقصص الجنيات.»

قال كاي ببطء: «قصص الجنيات.»

أومأ فيل برأسه:

— «ستدركان الآن سبب اهتمامي بمقتل اللورد ويندهام واختفاء كتابه. إذا أخذنا ذلك بالاقتران مع بعض السرقات الأخرى التي حدثت، فإنه يشير إلى ذروة الأحداث. لم تتضمن أي من السرقات الأخرى جريمة قتل. أما بخصوص الانفجار الذي وقع ليلة أمس أسفل "الأوبرا"——»

قالت إيرين وهي تعتدل في جلستها: «ماذا؟»

قال فيل:

— «آه، لم تقرآ صحيفة الصباح بعد. الحادث يحمل سمات أنشطة الجمعيات السرية. انهار عدد من الأقبية، لكن يبدو أن الأساسات لم تتضرر. لم تطلب الشرطة مساعدتي بعد——» واستطاعت إيرين سماع

عبارة "حتي الآن" غير المنطوقة، «لذا لا يمكنني سوى الاكتفاء بالتقارير العامة.»

سأل كاي:

— «ولكن ما الذي يجعلك تعتقد أن هذا مرتبط بالسرقات؟»

قال فيل: «أمران؛ أولاً التوقيت؛ فقد وقع في الليلة ذاتها التي وصلت فيها المناطيد في قافلة من "ليختنشتاين". لا أعتقد أنني بحاجة لتذكيركما بذلك.» رفع بصره عن تأمل أصابعه وتابع: «وثانيًا...» تردد مرة أخرى قبل أن يكمل:

— «كانت عائلتي متورطة مع جمعية معينة، ويعتقدون أنها مرتبطة بفقدان كتابهم. المجموعة ذاتها كانت تجتمع أسفل "الأوبرا".»

علقت إيرين قائلة:

— «أنت حريص جداً على عدم تسمية تلك الجمعية يا سيد فيل.»

قال فيل: «بالفعل أنا كذلك.»

سألته مستكشفة:

— «هل هم مرتبطون بـ "أهل الفاي"؟»

ضحك فيل ضحكة قصيرة مفاجئة:

— «عزيزتي الآنسة وينترز! أريني جمعية واحدة ليست مرتبطة بـ "أهل الفاي". أظن أنه يمكنكِ القول إنهم ليسوا أكثر ارتباطًا بهم من معظم الجمعيات الأخرى.»

تابعت قائلة: «وارتباطها بـ "ليختنشتاين"؟»

— «آه، هنا نصل إلى جوهر المشكلة.» قطب فيل حاجبيه وقال:

— «كان ينبغي عليّ ربما تقديم الشاي لكما. أعتذر، فأنا دائمًا ما أنسى هذه الأمور. ولكن على أي حال، وبناءً على ما سمعتُه، فإن فصيل "أهل الفاي" في "ليختنشتاين" ليسوا تابعين بالتأكيد لـ... حسنًا، دعنا نسميها "الجمعية". لذا فإن وصول السفير، قبيل استهداف "الجمعية" بهذه الطريقة، هو أمر لافت للنظر في توقيته.»

سأل كاي:

— «أتظن أنه هو من تسبب في الانفجار؟ أم الجمعية؟ أم كانوا هم المستهدفين من الانفجار؟»

لوح فيل بيده وقال:

— «ممكن. ممكن بالتأكيد. ومن المؤكد أن الأمر يستحق المزيد من التحقيق. والآن، آنسة وينترز، سيد سترونغروك، بما أنني قمت بدوري وأخبرتكما لماذا أنا متورط في كل هذا، أطلب منكما أن تفعلا الشيء نفسه.» مال للأمام في كرسيه، وعيناه غائرتان، وتساءلت إيرين كم من كلامه كان مجرد "خداع" مصاغ بدقة. ثقي بي. لقد أخبرتكم بكل شيء. حقًا فعلت. الآن جاء دوركم. تابع قائلاً: «إذا أردنا التقدم، فلا بد من وجود نوعٍ من الثقة من كلا الجانبين.»

رفعت إيرين يدها السليمة قبل أن يتمكن كاي من الكلام وقالت:

— «قبل ذلك يا سيد فيل، أود إجابة على سؤال واحد إضافي.»

قال فيل: «في حدود المعقول، أنا تحت تصرفكِ.»

سألته: «لماذا تشعر أنه يمكنك الوثوق بنا؟» بالتأكيد كانت تود التعاون معه، فهذا سيسهل الأمور كثيرًا، بل قد يجعل النجاح في هذه المهمة ممكنًا بعد أن كان مستبعدًا. لكنه قد يكون فخًا أيضًا.

بل ربما يكون هو نفسه ألبريتش؛ فكيف لها أن تعرف؟ مجرد الفكرة جعلتها تبتلع ريقها بمرارة، وجعل يدها المضمودة تنبض بالألم ثانية.

أجاب فيل:

— «هذا سؤال عادل. سأكون صادقًا معكِ؛ لدي بعض "المواهب" الموروثة من عائلتي. إحداها — حسنًا، ليست تنبؤًا بالضبط، بل هي قدرة على استشعار متى سيكون شيءٌ ما ذا أهمية في مستقبلي. لقد استخدمتُها لصالحي في عدد من قضاياي، رغم أني لا أناقشها مع العامة. حين قابلتُ السيد سترونغروك أول أمس، عرفتُ بطريقة أخشى أنني لا أستطيع وصفها لكِ، أنه سيكون مرتبطًا بي بشكل وثيق في المستقبل القريب. وقد ساورني الشعور ذاته عند لقائكِ يا آنسة وينترز. وبناءً على تقييمي لشخصيتكما، اخترتُ أن أفترض أنكما ستكونان حليفين لي لا عدوين. وآمل ألا تخيبا ظني.»

رمقت إيرين كاي بنظرة سريعة، فهز كتفيه بحياد. لم يكن الأمر بيده على أي حال؛ فهذه ليست ديمقراطية وهو ليس شريكًا مكافئًا. القرار والمخاطر واحتمالات الكارثة كانت كلها تقع على عاتقها هي.

بدت قصة فيل متماسكة ومنطقية، وهو أكثر مما يتوقعه المرء عادة من الأحداث. والأهم من ذلك، ساور إيرين شعور بأنها تستطيع الوثوق به. كانت "تريد" الوثوق به. (ألا ينبغي لهذا في حد ذاته أن يثير ريبتها؟) كما أنه ما من قاعدة تلزمهم بإخباره بكل شيء. وهذه ليست سوى مهمة واحدة في النهاية؛ يمكنهم ترك هذا العالم البديل بأكمله خلفهم، ولن يجد وسيلة لاتباعهم، ولن تكون هناك أي تداعيات لاحقًا. وفضلاً عن ذلك — لو كان هو ألبريتش، لكانوا الآن في عداد الموتى، تمامًا مثل دومينيك أوبري.

حسمت أمرها، ومالت للأمام لتمد يدها السليمة قائلة:

— «سيد فيل، أنا ممتنة لما قلته. أعتقد أنه يمكننا التعاون.»

ابتسم فيل لفترة وجيزة وصافح يدها: «شكراً لكِ. إذًا ربما تخبرانني عن أنفسكما؟»

نظرت إيرين إلى كاي ثم قالت:

— «لقد أوضحتَ بالفعل أنك تؤمن بأننا لسنا إنجليزيين.»

قال فيل بحدة: «بالتأكيد لستم كذلك. ولستم كنديين أيضًا.»

قالت إيرين: «آه،» وسارعت بصياغة جملتها التالية: «نحن ممثلان لـ... "جمعية". وآمل أن تفهم سبب عدم تسميتها.»

كانت ابتسامة فيل مريرة قليلاً:

— «إذا كان بإمكانكِ تزكية نواياها الحسنة، فسيكون ذلك كافيًا.»

قالت إيرين بتدقيق شديد:

— «يمكنني تزكية عدم تدخلها. نحن نسعى وراء شيء واحد: الكتاب الذي سُرق من منزل اللورد ويندهام. لقد وصلنا إلى هنا بنية شرائه،» — *حسنًا، كان هذا أحد الخيارات* — «لنكتشف فقط أن الرجل، أحم، مصاص الدماء، قد قُتل والكتاب سُرق. الآن نريد استعادته. إذا تمكنا معًا من اكتشاف الحقيقة خلف سرقات الكتب وجريمة القتل والانفجار، فمن المؤكد أن تلك ستكون أفضل النهايات الممكنة.» وفكرت في سرها أن المكتبة قد تهتم بتلك الكتب الأخرى أيضًا، باستثناء كتاب عائلة فيل؛ فذلك يمكنهم إعادته وسيقدر هو ذلك.

أشار فيل إلى يد إيرين المضمودة وسأل: «وعدوكما؟»

قالت إيرين:

— «ليس لدينا سوى عدو اسمه. ألبريتش.» ومن المفترض أن إعطاء الاسم آمنٌ بما يكفي.

هز فيل رأسه وقال: «لا أعرف أحدًا في لندن بهذا الاسم. ولكن في الوقت الحالي، نعم؛ أعتقد أنه يمكننا العمل معًا.»

قال كاي: «معذرة،» فالتفتت إيرين لتنظر إليه؛ كان من الجلي أنه يتمالك نفسه بجهد جهيد. «هل يمكنني التحدث مع الآنسة وينترز على انفراد للحظة؟»

قال فيل وهو ينهض من كرسيه:

— «بالتأكيد. سأطلب إحضار بعض الشاي. أعني — جمعيتكما تشرب الشاي، أليس كذلك؟»

قالت إيرين: «دائمًا.»

الفصل التاسع

— «هذه فكرة سابقة لأوانها وفاشلة،» قال كاي بمجرد أن أُغلق الباب خلف فيل.

قالت إيرين وهي تشرع في نزع ضمادتها بتمهّل:

— «أنا أسمعك، وأصغي إليك باهتمام، وإذا صرختُ فجأة، فاعلم أن ذلك لأن حال يدي أسوأ مما ظننت. أكمل ما كنت تقول.»

— «لماذا تثقين به؟» تساءل كاي بحدة.

لم ترفع إيرين بصرها عن الضمادات الملفوفة بإحكام وهي تجيبه:

— «أنا لا أثق به. ليس ثقةً مطلقة على الأقل. لكنني أعتقد أنه صادق بشأن عائلته وبشأن "موهبته". ولستُ متأكدة من أنه يثق بنا هو الآخر.»

تابع كاي:

— «وهذا أمر آخر؛ كيف يمكننا بحق الخالق الوثوق بشخصٍ يغدر بأهله؟»

تركت إيرين الضمادات ونظرت إليه؛ كان قد أحكم قبضتيه في حجره بقوة جعلت عظام يده تبرز بوضوح، وظهرت العروق الزرقاء على معصمه من الداخل، جليةً تحت جلده الشاحب للغاية.

قالت: «نحن لا نعرف القصة كاملة. لا ندري ما الذي فعلوه ليدفعوه إلى الرحيل. إذا——»

قاطعها كاي وهو يكاد يصرخ:

— «لكنه هجرهم!» ثم تمالك نفسه بجهد، ونهض ليقف أمام إيرين. «لقد اعترف بذلك بلسانه. لو كان يختلف معهم حقًا، لكان عليه البقاء معهم ومحاولة تغييرهم من الداخل. أما أن يتركهم هكذا، أن يدير ظهره لهم، أن يعصي والديه... كيف يمكن تبرير ذلك بأي حال؟»

نظرت إيرين إلى يدها مجددًا، جزئيًا لتفكر، وجزئيًا لكيلا يرى كاي تعبير وجهها. ألا يدرك كم يكشف من أسرار نفسه بهذا الكلام؟ أم أنه لا يبالي؟ كان ذلك النوع من الوضوح، بطريقته الخاصة... مَسْكرًا. قالت بصوتٍ هادئ أثار دهشتها:

— «أنا لا أكاد أرى والديّ أبدًا.»

جثا كاي على ركبتيه، ناظرًا في وجهها:

— «لكنكِ لم تتحديهما ولم تهجريهما. لقد اتبعتِ تقاليدهما؛ فقد كانا أميني مكتبة وأنتِ كذلك. أنا لا أقول إن عليه أن يحب عائلته، ليس إذا كانوا أشرارًا حقًا، لكن لم يكن عليه الرحيل. لا يمكنكِ الوثوق برجلٍ يفعل ذلك.»

قالت إيرين: «أنا لا أقول إن علينا الوثوق به، بل أقول إننا بحاجة للعمل معه.» شعرت ببرودةٍ تسري في أوصالها، ولم تكن تدري إن كان ذلك بسبب يدها، أم بسبب الصدمة السابقة، أم بسبب كلماتها هي. «في سبيل خدمة المكتبة، قد أضع يدي في يد قتلة، أو لصوص، أو ثوار، أو خونة، أو أي شخصٍ يمنحني ما أحتاجه. هل تفهمني يا كاي؟ هذا أمرٌ جوهري.» ثم مدت يدها غير المصابة لتلمس جانب وجهه. «أنا موسومة لـ المكتبة. يمكنني اتخاذ قراراتي الخاصة إلى حدٍ ما — ولكن في نهاية المطاف، استعادة الكتاب الذي تريده المكتبة هو واجبي وشرفي، وهذا كل ما في الأمر.»

تساءل كاي بحدة:

— «هل اضطررتِ يومًا للاختيار بين المكتبة وشرفكِ؟»

أجابته بابتسامة مريرة:

— «كاي، المكتبة "هي" شرفي. وإذا ما وسمتَ نفسك بها، فستصبح شرفك أنت أيضًا. ولكنك أخبرتني مسبقًا أنه ليس لديك عائلة على قيد الحياة، أليس كذلك؟ لذا فهو خيار لن تضطر لخوضه أبدًا.»

لم يرتجف كاي عند سماع ذلك، بل اكتفى برمقها بنظرة غاضبة:

— «أنتِ تخلطين الأمور. لا بد من وجود طريقة للعثور على كتابنا لا تتضمن التحالف مع كائنٍ عديم الشرف وخائنٍ لعائلته كهذا. إيرين، أرجوكِ، لننسحب الآن ونرفض عرضه. نحن لسنا بحاجة لهذا النوع من المساعدة.»

حاولت إيرين إيجاد وسيلة لتُفهمه الأمر. ربما كانت مجردةً أكثر من اللازم في محاولتها لجعله يستوعب هذه الحالة الخاصة — ولكن، تبا لكل شيء، سيتعين عليه مواجهة خيارات أخلاقية صعبة يومًا ما، إن كان يريد حقًا أن يكون أمين مكتبة، وإن قُدّر له البقاء.

قالت: «بعيدًا عن مسألة شرفه الشخصي، وضعنا ليس جيدًا. دومينيك أوبري قُتل. وهناك عدو في المدينة، قد يكون ألبيريش، وربما آخرون أيضًا. نحن معزولون عن أي تراجع مباشر، ورغم أني قد أتمكن من فتح طريق للعودة——»

قاطعها كاي: «قد؟ ماذا تعنين بكلمة "قد"؟»

رفعت إيرين يدها المضمودة:

— «أعني أني قد أكون "ملوثة بالفوضى". أحتاج للتأكد من ذلك. يُفترض أن يتحسن الأمر خلال أيام قليلة، لكني في هذه اللحظة قد لا

أتمكن من فتح ممر إلى المكتبة. فهي ستمنع دخولي كما تمنع دخول أي شيء تلوّث بالفوضى. لذا، ليس لدينا طريق هربٍ ميسّر.»

قال كاي وهو يعض على شفتيه: «أوه.»

في الحقيقة، كانت هي نفسها أقل ثقةً بكثير مما أبدت بشأن المدة التي قد يستغرقها الأمر قبل أن تتمكن من دخول المكتبة ثانية. لم يحدث لها هذا من قبل؛ كانت تعرف النظرية، لكن هذه أول حالة تلوث فعلية تواجهها. مجرد التفكير في الأمر أصابها بالغثيان. كانت تتوق للهدوء والسكينة وفرصةٍ لتفحص يدها حقًا، بالإضافة إلى مكتبة صغيرة تُجري فيها بعض الاختبارات.

لكن لسوء الحظ، كان ما تملكه هنا والآن هو تابعٌ قلقٌ وشديد التمسك بالمبادئ وعليها طمأنته. ليس من شيم القائد أن ينهار باكيًا على كتف مرؤوسه معترفًا بحيرته، بل وليس من شيم القائد حتى أن يوحي بأنهم في وضعٍ لا يُحسد عليه وأن عليهم الامتنان لأي حليفٍ يجدونه. وظيفة القائد هي إظهار التمكن والسيطرة على الموقف، مع تشجيع المرؤوسين على تطوير مهارات اتخاذ القرار؛ بافتراض أنهم سيتخذون القرارات الصحيحة بالطبع.

حقًا، قيادة الفريق هي أسوأ وظيفة على الإطلاق.

بدأت هذه المهمة تصبح واحدة من أكثر المهام التي كرهتها إيرين، بما في ذلك تلك المهمة مع الأقزام الأشرار تحت بلجيكا (ما خطب بلجيكا؟)، وتلك التي تطلبت شحن عربة محملة بألواح الكهرمان المنحوتة عبر روسيا، وحتى مهمة "اللصة المتسلقة".

قالت عارضةً عرضاً:

«هل سيساعدك الأمر لو اكتشفنا المزيد عن عائلته؟ إذا وجدنا أنهم ليسوا بالسوء الذي يصفه، يمكننا حينها إعادة تقييم مدى وثوقنا به.»

هز كاي رأسه بحسم: «هذا لا يغير من الأمر شيئًا. يجب أن نرفض عرضه للمساعدة.»

قالت إيرين بصوتٍ خفيض: «هذا الخيار ليس مطروحًا.»

تبادلا النظرات للحظة؛ انكمشت شفتا كاي، وبرق الغضب الداكن في عينيه وهو يقف هناك شاخصًا إليها. في تلك اللحظة، بدا فيه شيءٌ غير بشري تقريبًا، شيءٌ أكثر ضراوة — ربما أكثر بدائية. لأول مرة، ظنت أنه قد يعصي أوامرها حقًا.

في النهاية، كان هو من خفض بصره أولاً وقال: «سمعًا وطاعة،» لكن عبارة ولكني لا أوافق على هذا كانت تتردد في صمت الجملة دون حاجة للنطق بها.

لقد قابلت إيرين أمناء مكتبة آخرين حاولوا إدارة مرؤوسيهم باستخدام أساليب الإغواء السطحية؛ برادامانت على سبيل المثال. لم يعجبها ذلك قط، ولن تحاول الآن تلطيف الأمر لـ كاي باللين أو برمش عينيها له. سألته: «هل أحضرتَ أمتعتنا حين أخرجتني من المكتبة البريطانية؟»

أجاب كاي بتصلب: «نعم، أحضرتُ حقيبة وثائقكِ والجرة التي بها... الجلد.»

— «أنا معجبة بك،» قالت إيرين. «لا بد أن التعامل معهما ومعي في آنٍ واحد كان أمرًا عسيرًا.»

هز كاي كتفيه، لكنها شعرت أنه كان مسرورًا بمديحها. «وجدتُ حقيبة سفر كبيرة في الغرفة، وتمكنتُ من وضع الجرة وحقيبة وثائقكِ بداخلها. هل نخبر فيل عنهما؟»

قالت إيرين بسرعة:

— «كلا. هذا أمرٌ لا يحتاج لمعرفته. هل حدث أي شيء آخر وأنت تخرجني من هناك؟ ملاحقة، هجمات، أو ما شابه؟»

قال كاي بزهو: «لا شيء يستحق الذكر. لففتُ وجهكِ بوشاحكِ وأسندتكِ على كتفي ولففتُ ذراعي حول خصركِ، وقدتكِ وأنا أوبخكِ بصوتٍ مسموع على إكثاركِ من شرب "الجين" ليلة أمس. لم يلتفت إلينا أحد مرتين.»

علقت إيرين بتهكم: «تفكير سديد وسريع. أحسنت صنعًا. لقد اخترت مكانًا جيدًا للاختباء.»

تمتم كاي بنبرة أقل حنقًا من ذي قبل: «لو كنتُ أعرف حينها ما أعرفه الآن...»

— «لقد فعلتَ أفضل ما يمكنك فعله بناءً على المعلومات التي كانت لديك،» قالت إيرين، وعادت تنزع الضمادة مرة أخرى.

سألها كاي: «هل أنتِ متأكدة أن هذا آمن؟ ألا تخشين أن يتلوث الجرح؟»

— «أريد فقط أن أرى مدى سوء الأمر...» سقطت قطعة من الضمادة لتكشف عن طبقة من الشاش المنقوع بالمرهم. ظهرت أجزاء من الجلد المسلوخ عند الحواف، حمراء ونازفة. سرى نبض ألم في يدها، فكتمت إيرين صرختها. قالت من بين أسنانها المصطكة: «حسنًا. من الذي اعتنى بهذا؟»

قال كاي:

— «أنا. لقد نزع ذلك الفخ الجلد عن يدكِ ببراعة كما لو كان... كما لو كان قفازًا يُخلع.» جثا على ركبته وأمسك يدها بين يديه، ولفّ الضمادة حولها مجددًا. «أعطاني فيل بعض المطهرات والضمادات، وقد ألقيتُ عليها بعض تعاويذ الشفاء، لكن حاولي ألا تستخدميها كثيرًا.» كانت لمسته حذرة ودقيقة، وكانت أصابعه جافة ودافئة حين لامست معصمها. «في الأحوال العادية، كنتُ سأقول إن بإمكانكِ نزع الضمادات خلال يومين، لكني لا أدري ما تفعله "الفوضى".»

قالت إيرين بثقة:

— «يمكنني التأكد من ذلك بسهولة. هذه الغرفة بها ما يكفي من الكتب لأحاول إثبات "الرنين الأساسي".»

التفت كاي ليرى الجدران المكتظة بالرفوف:

— «ألا تحتاجين للتواجد في مكتبة حقيقية لفعل ذلك؟»

هزت إيرين كتفيها، ثم تأوهت من الألم حين التوت يدها في قبضة كاي. «آسفة،» قالتها وهو يرمقها بنظرة استنكار. «ليس تمامًا. أحتاج لمكتبة حقيقية لفتح ممر، لكن غرفة واحدة مليئة بالكتب تكفي لأؤكد روابطي. وبالطبع، يجب أن يكون هناك الكثير من الكتب...» ابتسمت للحظة وهي تتذكر رائحة السيلولويد القديم والهواء الخالي من الغبار. «في الواقع، أي مخزن كبير للمعرفة أو القصص يمكن أن يفي بالغرض. لقد فعلتُ ذلك مرة في قسم لتخزين الأفلام، أرشيف لبرامج تلفزيونية قديمة؛ لم يكن هناك كتاب واحد، بل بكرات أفلام وبيانات حاسوبية، لكن التشابه في الغاية والوظيفة كان كافيًا.»

قال كاي وهو يميل للأمام بلهفة: «هيا، افعليها إذًا.»

— «حسنًا.» كانت إيرين تشعر بالقلق الآن بعد أن حانت اللحظة. لقد تحدثت بطلاقة عن التلوث، وبينما كانت تعرف النظرية — سيزول أثره، فقط كوني عاقلة وتجنبي المزيد من التعرض له وابتعدي عن المكتبة حتى تطهري تمامًا — إلا أنها لم تختبر ذلك بنفسها قط. قالت له: «قد ترغب في الابتعاد عن الجدران.»

أشار كاي قائلاً: «أنا لستُ قريبًا منها أصلاً.»

— «أوه. صحيح. حسنًا.» ابتلعت ريقها ثم أردفت: «على بركة الله.»

أخذت نفسًا عميقًا، وبللت شفتيها الجافتين، واستحضرت المكتبة باسمها وبرتبتها كأمينة مكتبة، ناطقةً بكلمات "اللغة" التي تصفها. وعلى عكس الأسماء أو أجزاء الكلام الأخرى، فإن الكلمات التي تصف المكتبة أو "اللغة" نفسها كانت من بين الأجزاء القليلة في "اللغة" التي لا تتغير أبدًا.

فجأة، اشتعلت الضمادات التي تغطي يدها لهبًا. اهتزت الرفوف على الجدران وأنّت، وتلوت يمنةً ويسرة مصدرةً صريرًا كأشجار حية في عاصفة شتوية، وتساقطت الكتب لترتطم بالأرض. أما الصحف الملقاة جانبًا وأكوام الملاحظات فقد حفت وتحركت، زاحفةً على الأرض ببطء، وتلوت بعيداً عنها كفراشات مهشمة. واهتز قلم الحبر على المكتب وتدحرج فوق المفكرة المفتوحة التي كان متزنًا فوقها، تاركًا خلفه خطًا من الحبر الداكن المبلل.

اندفع فيل للداخل وهو يحمل صينية شاي مطلية بالمينا صرخاً: «ما هذا بحق الجحيم! ماذا تظنين أنكِ فاعلة——»

قاطعه كاي بحدة وهو يخطف إبريق الحليب الأزرق والأبيض من فوق الصينية: «عذرًا!» ثم أمسك بمعصم إيرين بيده الأخرى، وحشر يدها المضمودة المشتعلة داخل الإبريق، بلهبها وكل شيء.

تعالى صوت فحيح وتصاعدت غمامة من البخار، وانطفأت النار في يدها.

قالت إيرين وهي تحاول استعادة أنفاسها المستقرة: «شكراً لك.» كانت يدها تؤلمها وكأن دبابير قد لسعتها بالكامل ثم تُركت لتلفحها الشمس. «أنا آسفة حقًا بشأن الحليب، لكني أشرب الشاي سادة على أي حال...» كانت تدرك أنها تهذي، لكن كان عليها قول شيء لمحاولة شرح ما جرى، وفضلاً عن ذلك، كانت يدها تمزقها ألمًا.

صاح فيل بهلع وهو ينظر حول الغرفة:

— «كتبي! ملاحظاتي! أشيائي!» وقف هناك والصينية ترتجف بين يديه، يرمقها بنظرة غاضبة عارمة: «آنسة وينترز، تفضلي بشرح ما حدث فورًا!»

فكرت إيرين في عدة خيارات؛ فكرت في التظاهر بالإغماء، وفكرت في الادعاء بأنه هجوم سحري، وفكرت في مجرد التخلي عن فيل والخروج من الباب. كما فكرت بشيء من الندم في شعورها لو كانت كتبها هي الملقاة على الأرض. أخيرًا قالت:

— «أنا آسفة يا سيد فيل. كنتُ أجرب شيئًا ما وفشل الأمر.»

وضع فيل صينيته على أقرب قطعة طاولة خالية بارتطام ورنين مسموعين، وقال ببرود: «شيءٌ ما... فشل؟»

— «نعم،» قالت إيرين وهي تسحب يدها من الإبريق، واللبن يقطر منها. «أنا في غاية الأسف.»

نقر فيل بأصابعه على سطح الصينية وسأل:

— «هل لي أن أسأل عما إذا كان هناك "شيءٌ ما" سيفشل مرة أخرى في المستقبل القريب؟»

قالت إيرين برجاء: «أظن أن هذا مستبعد جدًا. أنا حقًا آسفة للغاية. هل يمكنني الحصول على ضمادات نظيفة من فضلك؟»

حدق بها فيل بصمت.

تدخل كاي قائلاً: «لم أرها تفعل ذلك من قبل. لقد كان حادثًا عارضًا.»

وافقت إيرين الرأي: «مجرد حادث. أنا حقًا في غاية الأسف.»

قال فيل بحنق: «لا شك في ذلك. حسنًا، سأحضر الضمادات.»

ثم صفق الباب خلفه وهو يغادر الغرفة.

تساءل كاي بحدة: «ما معنى ذلك؟ الكتب! الأوراق!»

قالت إيرين بسرعة وهدوء: «معناه أني ملوثة بالفعل. لا يمكننا دخول المكتبة حتى أتطهر، ولا يمكنني استخدام "اللغة" بشكل موثوق.»

حدق بها كاي مذهولاً: «أنتِ هادئة بشكل غريب حيال هذا الأمر.»

— «أن تشتعل النار في يدك فهذا يجعلك ترى الأمور بمنظور مختلف...» قالت إيرين. أي كلمات ستفي بالغرض، أي شيء يمنعها من الذعر؛ فلا يمكنها تحمل تبعات الذعر الآن. إنها ملوثة بالفوضى، مريضة بها، ولا يسعها سوى الأمل بأنها على حق وأن الأثر سيزول بمرور الوقت. أما الآن، فعليها أن تتماسك وتتولى القيادة. «... أجد أن الألم يشتت انتباهي عن القلق.»

ظل كاي ينظر إليها لبضع ثوانٍ أخرى، ثم التفت ليرمق الباب بنظرة غاضبة: «لا أصدق أن فيل انطلت عليه تلك الحجة.»

قالت إيرين: «أود أن أقول إن هذا دليل قاطع على أنه يحتاج لمساعدتنا بشدة.»

عاد فيل وهو يحمل وعاء ماء وبعض الضمادات، وقال: «لستُ في وضع يسمح لي بالانتقاد، ولكن إشعال النار في العضو المصاب ليس شكلاً معتادًا من أشكال العلاج لجرح اليد؛ رغم أني سمعتُ أن الحليب غني بالكالسيوم.»

رمقه كاي بنظرة استياء: «هل تشكك في أفعال الآنسة وينترز يا سيد؟»

— «أوه، كلا، كلا،» قال فيل. «سأكتفي بقضاء النصف ساعة القادمة في جمع الكتب التي تناثرت لسببٍ ما في أرجاء غرفتي، وسأترككما تعتنيان بيدها. إلا إذا كان لدى السيدة ما تضيفه.»

قالت إيرين:

— «في الحقيقة، لدي ما أضيفه. لكني سأفعله بينما يعتني كاي بيدي، إذا لم تمانع.» لحسن الحظ، منحها التحديق في يدها عذرًا لعدم النظر إلى فيل؛ فهي تعلم أنها لا بد محمرة الوجه خجلاً. من بين كل الأشياء الغبية والسخيفة التي قد تحدث، لم يكن هذا الموقف ليثير إعجابه أبدًا.

أطلق كاي زفرة، ثم جلس بجانبها وبدأ في نزع الضمادات المبللة: «تفضلي، ما الذي يدور في خلدكِ؟» كانت عبارة "بعيدًا عن عجزكِ عن الاتصال بالمكتبة" تتجلى بوضوح خلف كلماته.

قالت إيرين وهي تضغط على يدها الحرة: «أعتقد أننا جميعًا متفقون على أن سفارة "ليختنشتاين" متورطة في — آوه، احذر — هذا.»

قال كاي بنبرة روتينية أكثر منها اعتذارًا صادقًا: «آسف. اثبتي.»

قال فيل وهو يجمع كتابين من الأرض وينفض الغبار عن غلافيهما بحنان: «أنا أوافقكِ الرأي، خاصة بالنظر إلى أن اللورد سيلفر قدم عرضًا باهظًا جدًا عن طريق وكيل لشراء ذلك الكتاب حين كان يُعرض في المزاد. أمرٌ مثير للاهتمام، ألا تظنين ذلك؟»

أومأت إيرين برأسها؛ كان ذلك مثيرًا للاهتمام فعلاً. «إذًا أقترح أن نحضر حفل السفارة الليلة،» قالت بحزم.

صاح كاي بهلع:

— «ماذا؟ الاختلاط بـ... أعني، هل أنتِ جادة؟ هل تدركين الخطر الذي سنعرض أنفسنا له؟»

علّق فيل قائلاً:

— «السيد سترونغروك يبالغ في تقدير الموقف، لكن الأمر مستحيل على أي حال. أتفق معكِ في أن الأمر يستحق التحقيق، لكن لسوء الحظ لن نتمكن من الدخول؛ فالدخول يقتصر على حاملي الدعوات فقط، وحتى لو تمكنتُ أنا من الدخول متنكرًا، فلستُ متأكدًا من قدرة أي منكما على فعل ذلك.»

تدخل كاي قائلاً: «أوافق على أن "أهل الفاي" هم المرجح وقوفهم وراء الأمر، ولكن لا بد من وجود طريقة أفضل للتحقيق معهم؛ بما أن هذه الطريقة لن تنجح.»

قالت إيرين: «كلا. بل ستنجح. لأن لدي دعوة.»

هتف فيل: «ممتاز!»

وأضافت: «وسأحتاج لثوبٍ جديد.»

تساءل كاي من بين أسنان مصطكة: «ويد جديدة أيضًا؟»

تمكنت إيرين من التقاط نظرة عينيه وقالت: «ثق بي.»

— «أوه، أنا أثق بكِ،» قال كاي. «كل ما في الأمر أني أرى أن هذه واحدة من أكثر الخطط تهورًا وحمقًا وتعريضًا للروح للخطر سمعتُ بها منذ——» ثم صمت وأردف: «لا يهم. أنا تحت أوامركِ. ولكن من الأفضل أن تكون تلك الدعوة لثلاثة أشخاص.»

قالت إيرين بهدوء وهي تحاول الحفاظ على رصانتها وكل ما لا تشعر به في تلك اللحظة: «ستفي بالغرض.»

الفصل العاشر

وقفت إيرين بعيدًا تراقب كاي وهو يقف عند مائدة الطعام؛ كان ثمة شيءٌ ساحر في ذلك التفاني المحض والتركيز العميق الذي منحه للكافيار، وكأنَّ حضوره يرتقي بحباته السوداء الصغيرة إلى مصافِّ المقدسات، بل والأشياء الإلهية. كانت انحناءة معصمه وهو يغرفه فوق مثلث من الخبز المحمص غايةً في الأناقة والبراعة. وبالطبع، كانت هناك أسبابٌ أخرى للمراقبة؛ فبفضل توصيات فيل في اختيار الملابس، كانت إيرين ترتدي ثوبًا محتشمًا بلونٍ أخضر داكنٍ جميل، أما كاي... فكان شأنًا آخر.

لقد نجح كاي في ارتداء ملابس السهرة بأسلوبٍ شخصيٍ فريد جعل إيرين تبذل جهدًا مضنيًا لقمع مشاعر الغيرة — ولتخنق رغبةً لم تكتمل في أعماقها بأنها لو كانت قد قبلت عرضه ليلة البارحة. لم يكن من شأنها أن كاي يفيضُ بتلك الهالة من القوة المتأصلة، أو يجمع بين أناقة النبلاء ومسحةٍ مؤثرةٍ من الصعلكة الراقية..

دفعها ذلك إلى التفكير؛ ففي المرة الأولى التي رأته فيها، كان يرتدي سترةً جلديةً وسروال جينز، مع مسحةٍ من تمرد الشباب لتناسب مظهره. ولكن بمجرد أن استقر بهما المقام هنا، غيّر أسلوبه ولغته ببراعةٍ تفوق أمهر الجواسيس — ولم تكن تلك الفكرة مريحةً لها على الإطلاق — وانخرط في تهذيبٍ مرحٍ نجح بالتأكيد في استمالتها. وفي الحفل، طوّر من سمته مرةً أخرى دون لحظةِ ترددٍ واحدة. ارتشفَت رشفةً من كأس النبيذ الذي تحمله في يدها اليسرى؛ كان نبيذًا أبيضَ جافًا، ملائمًا لبوفيه المأكولات البحرية العامر.

كانت لا تزال توقن بصدقه؛ فذلك الحماس — وذلك العرض المبهج والقوي الذي قدمه لنفسه تلك الليلة — وحتى عدم رغبته في قبول ما كان يعتقد أنه مسار عملٍ محفوفٍ بالمخاطر، كل ذلك كان يبدو حقيقيًا وصادقًا في عينيها. أيًا كان، ومهما كان، فقد كان مخلصًا وكان في صفها.

لم يكن ليكون «أمين مكتبة» كامل الأهلية؛ إذ لم يكن ليرغب في مشاركتها الغرفة لو كان مضطرًا لإخفاء وسم المكتبة الإلزامي. فذلك الوسم — كما تعلم إيرين من تجربتها الشخصية — هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن لمساحيق التجميل مواراته. ولم تكن تعتقد أنه من مخلوقات «الفوضى»؛ فنفوره من كل ما يمت بصلةٍ إلى «الفاي» (الجنيات) بدا حقيقيًا للغاية. ربما كان روحًا من أرواح الطبيعة؟ لكن مما قرأته، فإن الأرواح غير البشرية لا تحب في الواقع اتخاذ الهيئة البشرية كثيرًا. ثم مرةً أخرى، كان هناك بديلٌ واحدٌ جوهري. حدقت في رأس كاي من الخلف وفكرت في كل ما تعرفه عن التنانين، وتمنت لو كانت تعرف أكثر.

فهناك تنانين، في نهاية المطاف، تبدو مثل — حسنًا — مثل التنانين. وهناك تنانين يمكنها اتخاذ هيئةٍ بشريةٍ جزئية. لقد التقت بواحدٍ منهم، وشعرت بكبرياءٍ سامٍ لدرجة أنه لم يكن يدرك ذاته، وكان يتسمُ بالرشاقة بشكلٍ ما. كان هناك شعورٌ بكيانٍ منفصل، وبالتأكيد غير بشري. لم تشعر بهذا مع كاي، باستثناء تمتعه بالوقار. كما أن كاي بدا بشريًا تمامًا؛ وسيمًا لدرجةٍ غير معقولة، ولكنه بشريٌ كليًا. ومع ذلك، قيل لها إن التنانين يمكنها اتخاذ هذا الشكل أيضًا إذا أرادت ذلك. شعرت إيرين بموجةٍ من الغضب تتصاعد في صدرها عند فكرة أن كوبيليا لا بد أنها

كانت تعلم — إن كان هذا صحيحًا. فلماذا لم تتحدث؟ ولماذا كانت برادامانت تريده؟

قال صوتٌ من خلفها:

— «فأرتي الصغيرة، على ما أظن. كم هو لطفٌ منكِ أن تأتي.»

تمالكت إيرين أعصابها بما يكفي حتى لا ينسكب نبيذها، بالكاد فعلت ذلك. لم تكن مستغرقةً في مراقبة تلميذها لدرجة أن تنسى مراقبة الحشد، لكنها ببساطة لم تره قادمًا. التفتَت وانحنت في تحيةٍ رسمية، ملقيةً نظرةً سريعةً على وجهه قبل أن تغض بصرها.

قالت:

— «اللورد سيلفر.»

لم تكن تدري إن كان يستحق هذا اللقب أم لا، لكنه سيُسره على الأرجح. كان يرتدي ملابس رسمية مثل كاي، مع وسامٍ عسكري غير محدد على صدره، وشعره الشاحب ينسدل بحريةٍ فوق كتفيه.

تابعت قائلة:

— «شكرًا لك على دعوتك الكريمة.»

قال بنبرةٍ غلب عليها المرح لا التهديد:

— «إنكِ تختارين أكثر الأشخاص إثارةً للاهتمام لمرافقتكِ، لكني أقدر ذلك. لو فكرتُ في الأمر، لكنتُ قد دعوتُ ليدز بنفسي.»

قالت إيرين:

— «لم أكن أدرك أنك على مثل هذه العلاقة به، يا سيدي.»

قال بابتسامةٍ غامضة ارتسمت على شفتيه:

— «لستُ كذلك. بالتأكيد لستُ كذلك.»

اعتدلت إيرين في وقفتها بعد التحية وقالت بنبرةٍ محايدة:

— «يبدو أن الحفل ناجحٌ للغاية.»

ألقى سيلفر نظرةً في أرجاء القاعة بابتسامةِ مالكٍ واثق، ثم تناول طبقًا من البوفيه وملأه بعفويةٍ بحفنةٍ من رقائق عجينٍ الباتيه بسلطعون البحر، وقدمه لها.

قال:

— «آمل ذلك؛ فقد دعوتُ علية القوم من اللوردات، والسيدات، والمؤلفين، والسفراء، والماجنين، وسارقي القبور، والمنحرفين، والسحرة، والمحظيات، والعلماء المختلين، وصنّاع الدمى. وبالطبع، بعض الشخصيات الاجتماعية البريئة، لكني في الغالب أتلقى رسائل رفضٍ مهذبةٍ من آبائهم — أو دعواتٍ للجَلد.»

قالت إيرين:

— «دعوات؟»

— «رسائل تعرض جَلدي أمام النادي الذي أنتسب إليه إذا ما تجرأتُ حتى على الاقتراب من بناتهم..»

ابتلعت إيرين ريقها بتوتر. أكانت هذه دعابة؟ وهل يجدر بها حتى أن تلمس رقائق السلطعون تلك؟

قالت:

— «قد يسمي البعض ذلك تهديداً، يا سيدي.»

نظر إليها والدهشةُ الحقيقية تطل من عينيه وقال:

— «تهديد؟ وما الذي يدفعكِ لظن ذلك بحق السماء؟»

لم تستطع إجبار نفسها على النظر في عينيه وهي تجيبه. فإذا كان هذا مثالاً لذوق «الفاي»، فهي لن تتمادى في الأمر أكثر من ذلك.

قالت:

— «لا بد أنهم أناسٌ ذوو أفقٍ محدودٍ للغاية، يا سيدي. بكل وضوح.»

ربت على كتفها بحنان. كانت قفازاته من جلد الماعز الأبيض الناعم تلامس بشرتها، وكان بإمكانها الشعور بحرارة جسده من خلالها. كانت تلك الحركة ومضةً عابرةً للقوة، كما قد يُظهر القرش زعنفته، أكثر من كونها محاولةً متعمدةً لإغوائها أو سحرها، لكنها شعرت بها على أي حال.

كان كاي لا يزال هناك عند ركن الكافيار، لكنه كان يراقبها بعينين ضيقتين، حادتين كعيني أفعى. هزت رأسها حركةً خفيفةً للغاية، تحذره من الاقتراب.

بدا فيل يشعر بالملل، وكان يتحدث في الجانب الآخر من القاعة مع رجلٍ أحدب يضع نظارةً مفردةً ذات إطارٍ نحاسي فوق عينه اليمنى. كانت القاعة فسيحةً بما يكفي لاستيعاب نحو مائة وخمسين شخصًا بـأريحية، مع طاولات بوفيه موزعةٍ على الجوانب ونادلين يتنقلون في صمت. عُلّقت سيوفٌ ورماحٌ مذهلة على الجدران كزينةٍ براقة، وتعلوها رايات ليختنشتاين. وفي الزاوية، كانت فرقة رباعي وتري تعزف مقطوعةً خفيفةً وهادئة. كان للقاعة برمتها وقعٌ غير مريح، نوعٌ من الضيق والكآبة يشبه أجواء الصوبات الزجاجية، رغم أن درجة الحرارة كانت طبيعيةً تمامًا. تساءلت إيرين عما إذا كان كل الحاضرين يخفون أسرارًا، شيئًا يؤثر على كل كلمةٍ وفعلٍ يصدر عنهم.

حتى أنا، فكرت بمرارةٍ لا تخلو من سخرية.

ضغط سيلفر على كتفها مرةً أخرى وقال بسلاسة:

— «سأعود. لا تذهبي بعيدًا.»

وبين غمضة عينٍ وانتباهتها، كان قد اختفى.

وضعت إيرين كأسها قبل أن تُغرى بشرب المزيد من النبيذ. لا بد من وجود طريقةٍ لـاستدراج اللصة "بيلفيغور"، أو أياً كان من قتل مصاص الدماء واستولى على الكتاب. وإذا كان هذا الحفل مكتظًا بالمشتبه بهم من وجهاء المجتمع كما كانت تتوقع، فسيكون المكان المثالي لجمع المعلومات.

وبعد عدة محادثات ونحو خمس عشرة دقيقة، وصلت إلى السفير الأوروبي — وهو رجلٌ رقيق الملامح يفوقها طولًا برأسٍ كامل. كان يرتدي نوعًا من الزي المراسمي مع أساور ذهبية تزن أكثر من ثوبها بالكامل. تساءلت كيف أقنعه سيلفر بالزيارة.

كذبت بـمنتهى الإخلاص قائلة:

— «كما ترى، أنا أكتب مقالاً عن الشخصيات الهامة في العالم الأدبي. كنتُ أنوي إجراء مقابلةٍ مع اللورد ويندهام، ولكن وفاته المأساوية..» تركت صوتها يتلاشى بأسىً مصطنع.

تساءل السفير:

— «لم أكن أعلم أن اللورد ويندهام كان شخصيةً أدبية؟»

— «حسنًا، ليس بصفته كاتبًا، ولكنه يبدو أنه كان على درايةٍ وثيقةٍ بالروائيين الصاعدين. سمعتُ أنه كان بمثابة راعٍ لبعضهم.»

قال السفير بتفهم:

— «آه، لم أكن أعرف سوى عن مجموعته من الكتب.»

بما أن إيرين قد اخترعت قصة رعايته للكتّاب الجدد بالكامل، لم تتفاجأ. واتفقت معه قائلة:

— «لقد كانت مجموعةً رائعة. وكان دائمًا كريمًا في جعل الكتب متاحةً للخبراء الآخرين في هذا المجال. ليس مثل بعض عشاق الكتب الذين يكتنزون كل شيء ثم يتباهون به في الخفاء.»

بدى على السفير ملامح الريبة، ثم انحنى للأمام قائلاً بصوتٍ خفيض:

— «يتردد المرء في ذكر مساوئ الموتى، لكنني أعتقد أن هذا يمنح الرجل تقديرًا أكثر مما يستحق. كان يميلُ إلى التباهي. تلك طبيعتهم، كما تعلمين. مصاصو الدماء؛ لا يمكنهم مقاومة ذلك. لقد عرفتُ بعضًا منهم كانوا لطيفين للغاية، بالطبع.» أضاف ذلك على عجل.

وافقت إيرين بسرعةٍ ودون معنى:

— «أوه، بالطبع. لكنني أعتقد أنك على حق، يا صاحب السعادة. إنهم فخورون جداً بـميزاتهم.»

قال السفير بـاستحسان:

— «بالضبط. يسعدني أن مضيفنا لم يحضر أيًا منهم هنا الليلة. إنهم يطالبون دائمًا بأن يتم توفير احتياجاتهم بطريقةٍ ملفتةٍ للنظر — الدماء، والأوردة المفتوحة، وكل ذلك الهراء. إن ذلك يعيق المحادثة البسيطة.»

أومأت إيرين برأسها، وهي تكتم انزعاجها لأن سيلفر لم يدعُ أيًا منهم. كانت تود فرصةً لاستجواب القليل منهم. في الواقع، لماذا لم يدعُهم سيلفر إذا كان يستمتع بصحبتهم؟ أو حتى لو كان على خلافٍ

معهم؟ مما قاله سيلفر عن قائمة الضيوف، فإن دعوة نصف دزينة من مصاصي الدماء المعادين بدت وكأنها الشيء الذي قد يفعله تمامًا.

قالت:

— «هذا يجعل الأمور أبسط للجميع.»

قال السفير وهو يتناول كأسًا جديدًا من النبيذ من نادلٍ مار:

— «كما أننا نُعفى من المتظاهرين المناهضين لـرياضات الدم. ولكن إذا كنتِ مراسلة، فمن المحتمل أنكِ أجريتِ مقابلاتٍ مع بعضهم بالفعل!» أطلقَ ضحكةً عميقةً رنانة.

قالت إيرين بـدبلوماسية:

— «أحب أن أعتقد أن هناك ما يقال في كلا الجانبين. ولكن بخصوص تفاخر اللورد ويندهام.. أوه، أعتذر منك.»

كان فيل يسيرُ باتجاههما، وبدت على حركته عجلةٌ طفيفة.

قالت:

— «إذا سمحت لي للحظة، يا صاحب السعادة..»

قال السفير:

— «بالطبع. بخصوص تلك المقابلة لاحقًا——»

— «سأتصل بموظفي سفارتك، يا سيدي.» قالت إيرين ذلك وانسحبت مع انحناءةٍ مهذبةٍ أخرى.

اقتادها فيل عائدًا إلى مائدة البوفيه (ألن تبتعد عنها أبدًا؟) وتظاهر بـإحضار بعض المقبلات لها.

تمتم قائلاً:

– «آنستي وينترز، علينا أن نكون حذرين. أخبرني أحد معارفي أن هناك هجومًا سيقع هنا، في سفارة ليختنشتاين، هذا المساء.»

كتمت إيرين تنهيدةً ضجرة. كم عدد الفصائل المتورطة في هذا الأمر؟ كيف يُفترض بها أن تجري تحقيقًا عقلانيًا مع هذا النوع من التدخل؟

تساءلت في همس:

– «من سيقوم بالهجوم؟ وهل يمكننا استخدامه كوسيلةٍ تشتيتٍ لتفتيش السفارة؟»

نظر إليها فيل من تحت حاجبين مقطبين وقال:

– «آنستي وينترز، هذا اقتراحٌ إجراميٌ للغاية.»

قالت وهي تذكر نفسها بأنه محققٌ خاص:

– «لكنه اقتراحٌ عمليٌ جدًا.» ورغم قوله، لم يبدُ عليه الاستياء الشديد. ربما كانت حقيقة أنها هي من اقترحت ذلك، وليس هو، هي ما أجبره على إدانة الفكرة.

– «همم.» وضع المزيد من السلمون في طبقها. بهذا المعدل، ستصاب بعسر هضم.

تابع قائلاً:

– «إجابةً على سؤالك الأول، المهاجمون هم أخوية الحديد. إنهم مشهورون بعدائهم لـ«الفاي»، لذا لن يكون هذا غريبًا عليهم.»

سألت:

– «هل تعتقد أن الأمر يستحق إخطار موظفي السفارة؟»

هز فيل رأسه وقال:

– «سيكونون متوقعين لـشيءٍ كهذا بالفعل. لقد تحققتُ مسبقًا، ولديهم كل الاحتياطات المعتادة – مدافع مضادة للمناطيد، والتمويهات السحرية، وكل شيء. لكن كوني حذرة، آنستي وينترز. والآن، إذا سمحتِ لي، يجب أن أتحدث إلى تلك السيدة التي دخلت للتو.»

كانت السيدة المعنية محجوبةً حاليًا خلف سربٍ من المعجبين الرجال، لذا راقبت إيرين فيل وهو يشق طريقه عبر قاعة الرقص، وحاولت إخفاء طبقها المكدس خلف وعاءٍ من الحساء.

قال كاي من خلف كتفها:

– «ثمة شيءٌ ما يحدث.»

كادت إيرين أن تسكب الحساء، وقالت من بين أسنانٍ مشدودة:

– «حقًا؟»

قال كاي:

– «بكل تأكيد. دعيني أحضر لكِ بعض فطائر البلينيس.» تناول طبقًا جديدًا وبدأ في وضع المزيد من الطعام عليه. «عليكِ أن تأكلي أكثر؛ فذلك سيساعد في عملية الشفاء.»

قالت إيرين وهي تراقب بقلقٍ متزايد وهو يغرف شيئًا يحتوي على لحم السلطعون:

– «أحتاج أيضًا أن أكون قادرةً على المشي دون أن أسقط أرضًا. أو الرقص.»

اقترب كاي قليلاً وتمتم:

– «هل اكتشفتِ أي شيءٍ بعد؟»

فكرت إيرين في الحقائق التي جمعتها حتى الآن وقالت:

– «أعتقد أن سيلفر ينتظر شيئًا ما. أو شخصًا ما. يبدو متوترًا، لكنه منشغلٌ بأصحاب المقامات الرفيعة.» كان بإمكانها رؤيته في الجانب الآخر من القاعة، يتحدث إلى امرأتين فاتنتين بملابس سوداء كانتا تتكئان على أكتاف بعضهما البعض، وقد بدتا في حالة سكرٍ بالفعل.

تابعت قائلة:

– «لقد تحدثتُ إلى عددٍ من الأشخاص الآخرين. يبدو من الغريب أن سيلفر لم يدعُ أي مصاصي دماء آخرين الليلة. أتساءل عما إذا كان الهجوم على ويندهام معاديًا لمصاصي الدماء وليس لـ«الفاي»، وأود أن أسأل فيل بضعة أسئلة أخرى حول عائلته وما إذا كان لديهم أي صلاتٍ بمصاصي الدماء. أوه، وفيل يعتقد أن هناك هجومًا سيقع على السفارة من قِبل جمعيةٍ معاديةٍ لـ«الفاي» تُدعى أخوية الحديد، و– أوه، كاي، أرجوك لا تضع القشدة الحامضة.»

قال كاي بحزم:

– «تحتاجين إليها لإحداثِ تباينٍ مثالي مع فطائر البلينيس.»

سألت إيرين:

– «هل اكتشفتَ أنت أي شيء؟»

قال كاي ببطء:

– «لا شيء مؤكد. وفي الواقع، لم أحاول حقًا التحدث إلى أي من لـ«الفاي» الآخرين هنا. لا أعتقد أنهم سيخبروننا بأي شيءٍ مفيد.»

وافقت إيرين بهدوء:

– «أتفهم ذلك. ولكن هل عرفتَ أي شيءٍ من أي شخصٍ آخر؟»

قال كاي وهو يلقي نظرةً لليسار:

– «تلك السيدة في الزاوية.» كانت المرأة المعنية مسنة، تضع مساحيق تجميل حمراء كثيفة، وتكاد تختفي تحت شعرٍ مستعار أبيض ضخم، وترتدي ثوبًا من الساتان المخطط بـالأبيض والأسود مشدودًا بـمشدٍ قوي. «إنها واسعة الاطلاع. وهي تنتمي فعليًا إلى العالم الأدبي، وليستْ مجرد مدعيةٍ مثل ويندهام.»

سألت إيرين:

– «ما اسمها؟»

قال كاي:

– «الآنسة أولغا ريتروجريد. الآنسة أولغا ريتروجريد الكبرى. لقد قالت ذلك عدة مرات.»

تساءلت إيرين عن شكل الآنسة ريتروجريد الصغرى وهي تتحرك نحوها:

– «عليك أن تُعرفنا بها. ما هي مهنتها؟»

قال كاي بنبرةٍ خاليةٍ من التعبير:

– «سيدةُ لذاتٍ متقاعدة.»

قالت إيرين بمرح:

– «حسنًا، على الأقل لن تفترض أنني أبحث عن عمل. أوه، كاي، لا تنظر إليّ هكذا – »

انفرج الحشدُ فجأة، واستطاعت إيرين أخيرًا رؤية من دخل القاعة للتو.

لقد كانت برادامانت.

كانت آيةً في الكمال، كصورةٍ فوتوغرافيةٍ بالأبيض والأسود، وعنقها النحيل يرتزُّ فوق طيات الحرير الرمادي الداكن لـصدر ثوبها كأنها بجعة، وذيل فستانها يتماوج بـأناقةٍ انسيابيةٍ كالسائل.

قطب كاي جبينه عندما توقفت إيرين في منتصف جملتها، ثم اتبع نظرتها وهمس:

— «ماذا؟ هي؟ هنا؟ كيف؟»

قالت إيرين من بين أسنانها:

— «أربعة أسئلة وجيهة للغاية. يا إلهي، إنها ترتدي ثوب وورث. لا بد أن يكون من تصميم وورث.»

التفت كاي ليحدق في إيرين وسأل:

— «ما علاقة الثوب بالأمر؟ هل هو فعالٌ بشكلٍ خاص في إخفاء الأسلحة أو شيء من هذا القبيل؟»

بصقت إيرين الكلمات:

— «لا! إنه ببساطة واحدٌ من أفضل الفساتين من تصميم واحدٍ من أفضل صانعي الملابس في تلك الحقبة، أو ما يعادلها في هذا العالم البديل. يا للسماء، لا تكتفي بالدخول إلى هنا لـمحاولة سرقة مهمتي مني فحسب، بل تملك الجرأة لفعل ذلك وهي ترتدي شيئًا يصرخ بـ «أنا هنا، انظروا إليّ جميعًا». أعني، هل أتجولُ أنا لـجمعِ أزياء من العوالم البديلة لمجرد أن أكون الشخص الأكثر أناقةً في الحفَل؟»

قال كاي:

— «إيرين، إنكِ تمسكين ذراعي بقوةٍ شديدة.»

كان على إيرين أن تمنع نفسها من صرير أسنانها، وتمتمت:

— «من المفترض أن يتسم أمين المكتبة بـالدهاء. إنجاز المهمة دون أن يُلاحظه أحد —— أوه، معذرة.» رفعت يدها عن ساعد كاي وراقبته وهو يسوي تجاعيد كم سترته بـاستياء. «إمّم..» شعرت بـوجهها يتورد خجلاً. «أعتذر.» ما أرادت فعله هو الصراخ بـ «كيف تجرؤ!» حتى تهتز الثريات، لكنها لم تستطع.

قال كاي:

— «ربما لديها معلوماتٌ هامة وأرادت التحدث إليكِ.»

— «ولكن كيف عرفت أننا هنا؟ أو — انتظر.» قطبت إيرين جبينها. «دومينيك أوبري كان يمكنه إخبارها — هل دخلت هذا العالم قبل وفاته؟»

قال كاي ببطء، مكملاً فكرة إيرين:

— «أو هل كانت لها علاقةٌ بـموته؟»

صمتت إيرين للحظةٍ طويلة، تقلب الاحتمالات في رأسها. وقالت أخيرًا:

— «هذا أمرٌ لا يمكن تصوره. لن أصدق ذلك عنها.»

وفي تلك اللحظة، تحرك الحشد مرةً أخرى، والتفتت برادامانت برأسها. نظرت عبر قاعة الرقص، وللحظةٍ التقت أعينهما. وفي تلك اللحظة، رأت إيرين شيئًا في وجه برادامانت لم تتوقع رؤيته؛ الصدمة.

تمتمت:

— «لم تكن تتوقع وجودنا هنا.»

استعادت برادامانت توازنها على الفور تقريبًا، والتفتت بعيدًا بهزةٍ محتقرةٍ لكتفها لتولي اهتمامها للرجل الذي بجانبها؛ وهو رجلٌ نحيلٌ

أشيب الشعر في الثمانينيات من عمره، صدره مرصعٌ بالأوسمة والنياشين العسكرية لدرجةٍ تجعل المرء يتساءل كيف لا يسقط أرضًا من ثقلها.

قالت إيرين لـ كاي وهي ترسم على وجهها ما تأمل أن يكون ابتسامةً لطيفة:

— «لماذا لا تعرفني على الآنسة أولغا ريتروجريد.» ستكتشف ما يحدث، وهذه المرة لن تكون حصان طروادة لـ برادامانت، ولا طعمًا أو أداةً في يدها.

ليس هذه المرة. ليس مجددًا.

قال كاي وهو ينظر إلى برادامانت من فوق كتف إيرين:

— «حسنًا. ولكن ماذا تفعل هنا؟ أعلم أنها قالت إنها تريد المهمة..» تهلل وجهه عندما خطرت له فكرة واضحة. «إذا كانت هي الأقدم رتبةً منكِ، فربما حصلت الآن على إذنٍ لـتتعاونا في المهمة. سيجعل ذلك الأمور أبسط مع تلوث الفوضى.»

قالت إيرين ببطء لتعطي نفسها فرصةً للتفكير وإيجاد مبررٍ لعدم صحة هذا الاحتمال؛ فهي لم تكن متأكدة من أنها ستتمكن من الطاعة جسديًا إذا كان الأمر كذلك، فكراهيتها للمرأة الأخرى كانت متأصلةً في أعماقها.

تابعت بحذر:

— «لو كان الأمر كذلك، لكانت تحمل نوعًا من رموز المكتبة، ولأظهرته لي. لم تحاول حتى العثور عليّ بعد، لذا أنا متشككة.»

قال كاي وهو يلمس يدها لفترةٍ وجيزة بـطمأنة:

— «أنا أثق بكِ. أنا حقًا أثق بكِ يا إيرين. وأتمنى لو تخبرينني لماذا لا تثقين بها.»

كان بإمكانها أن تقول: «هذا أمرٌ خاص»، لكن شيئًا ما في داخلها جعلها تشعر أنه يستحق منها إجابةً أفضل من ذلك. وبدلاً من ذلك قالت:

— «إنه أمرٌ شخصي، وإذا كنت تريد حقًا أن تعرف، فسأخبرك لاحقًا. هذا لا يجعلها أسوأ كأمينةِ مكتبة، بل كإنسانةٍ بالنسبة لي فقط. ولكن لاحقًا، اتفقنا؟»

أومأ كاي برأسه، ثم وصلا إلى هناك.

قال كاي:

— «الآنسة ريتروجريد؟ هل تسمحين لي بتقديم صديقتي، الآنسة وينترز؟»

انحنت إيرين تحيةً خفيفة وقالت:

— «الآنسة ريتروجريد، إنه لمن دواعي سروري أن ألتقي بكِ.»

قالت المرأة المسنة:

— «ولِي أيضًا يا عزيزتي.» ومن مسافةٍ قريبة، كان وجهها عبارة عن طبقاتٍ من مساحيق التجميل والطلاء الأبيض وشامات التجميل الاصطناعية. لقد كانت تستحق جائزةً على دقتها في إخفاء التجاعيد، إن لم يكن على البراعة الفنية في القيام بذلك. قد يكون فستانها قديم الطراز ومشدودًا بقوة، لكن القماش كان عالي الجودة، والماس في أصابعها بدا حقيقيًا. «أفهمُ أنكِ لستِ من هذه الأنحاء.»

لا بد أن كاي قد أخبرها بقصة الغطاء الكندي.

وافقت إيرين:

— «أوه لا، لكني أعمل كمراسلةٍ مستقلة في الوقت الحالي——»

قاطعتها الآنسة ريتروجريد قائلة:

— «أوه، لا لستِ كذلك.»

أطبقت إيرين فمها قبل أن ينفتح على مصراعيه من الذهول، وقالت على عجل:

— «أعتذر؟»

قالت الآنسة ريتروجريد:

— «يا عزيزتي، لقد جعلتُ من عملي معرفة جميع أعضاء السلطة الرابعة في لندن. ما كنتُ لأفوت فتاةً تبدو ذكيةً مثلكِ.»

كانت إيرين تود أن تلقي بـنظرةٍ مسمومةٍ على كاي، من نوعية «في أي ورطةٍ أوقعتني ولماذا لم تخبرني المزيد عن هذه المرأة»، لكن ذلك كان ليكون بمثابة خيانةٍ واضحة.

قالت بسرعة:

— «أنا جديدةٌ تمامًا على الساحة.»

قالت الآنسة ريتروجريد:

— «لقد كنتُ أراقب سيلفر.» انحنت للأمام مع صرير مشدها المصنوع من عظم الحوت، وتركزت عيناها الصغيرتان في محجريهما المظللين بشدة. «لقد تحدث إليكِ. وأودُّ أن أعرف لماذا.»

شكت إيرين في أن تمثيل دور البريئة لن يجدي نفعًا هنا. شعرت بـذراع كاي يتوتر تحت يدها، منتظرًا (كما تأمل) لـتخبره بأي اتجاهٍ يجب أن يتصرف.

قالت أخيرًا وهي تمحو أي أثرٍ للمرح من وجهها:

— «أخشى أن ذلك يعتمدُ على سبب رغبتكِ في المعرفة.»

قالت الآنسة ريتروجريد وهي تفرك إحدى خواتمها الماسية بإبهامها بـإيحاء:

— «يمكنني أن أجعل الأمر يستحق عناءكِ.»

رفعت إيرين حاجبها. كان هناك نوعٌ من الضجيج في الممر بالخارج، صوت ارتطام وتحطم، لكنها لم تشح بـبصرها عن المرأة العجوز. إذا كانت أخوية الحديد، أو أي شخصٍ آخر، يهاجمون السفارة، فنأمل أن يتعامل شخصٌ آخر مع الأمر.

قالت المرأة بـتذمر:

— «أوه، حسنًا. كان ذلك فظًا، أعترفُ بذلك. دعونا ندخل في صلب الموضوع. اجلسي يا شابة. واجعلي حارسكِ الشخصي — لستُ غبيةً أيها الشاب — اجعلي حارسكِ الشخصي يحضر لنا بعض النبيذ. وعندها يمكننا مناقشة الأمور——»

وفي تلك اللحظة، اقتحمت التماسيحُ القاعة.

الفصل الحادي عشر

لم يسبق لـ إيرين أن رأت التماسيح إلا في حدائق الحيوان، وكانت تذكرها ككائناتٍ خاملة، تشبه جذوع الأشجار الهامدة، وهي تتكئ فوق التشكيلات الصخرية الإسمنتية أو تغط في سباتٍ عميقٍ وسط البرك الموحلة.

لكن تلك الوحوش التي اقتحمت القاعة الآن كانت تتحرك بسرعةٍ تثير الرعب في النفوس؛ فإذا كانت تشبه الجذوع، فهي جذوعٌ تتقاذفها مياه نهرٍ هائجٍ في ذروة فيضانه. كان طول بعضها يصل إلى خمسة عشر قدمًا، تفتح أشداقها وتطبقها وهي تهرع إلى الأمام في نهم. انقضّ أحدها بفكّيه على ساقِ نادلٍ ودار بجسده جانبيًا، فتعالت صرخةُ الرجل وسقط صريعًا، بينما انفصلت ساقه بين أنياب التمساح كأنها جناح دجاجةٍ انتُزع من مكانه، لتنثر الدماء فوق الأرضية المصقولة. وفي قلب تلك المعمعة، وقبل أن يشتد زحام الحشود، لمحت إيرين أجهزةً معدنيةً مثبتةً ببراغي في جماجمها، وصفائح حديديةٍ مشدودة فوق مخالبها.

كان الضيوف والنادلون يصرخون وهم يتدافعون نحو الأبواب الأخرى، بينما استمرت التماسيح في التدفق من المدخل الرئيسي. أطلق قلةٌ من الضيوف النار من أسلحةٍ كانوا يخفونها؛ خليطٌ من المسدسات والمدافع الشعاعية، لكن الغالبية كانت تبحثُ عن مفرٍّ فحسب. كانت رائحة الدماء النفاذة التي تشبه صدأ النحاس تعبق في الأثير، وتتصاعد فوق مزيج العطور وأبخرة الطعام.

صرخ سيلفر وهو يقفزُ فوق طاولةٍ قريبة، واضعًا قدميه بزهوٍ فوق زينةٍ تتوسطها أطباق المحار:

– «لا تجزعوا! إنّ قوى بني جنسي ستسحقُ هذه المخلوقات وتُعيدها إلى الأوحال التي زحفت منها..»

تراكيب لغوية مذهلة في وقت الأزمات، لم تتمالك إيرين نفسها من ملاحظة ذلك.

تابع صائحًا:

– «انظروا!»

رفع سيلفر يده، فاندلعت النيرانُ حول أصابعه في مشهدٍ درامي، ثم انطلقت لتضرب التماسيح كسياطٍ برتقاليةٍ ملتهبة. لكنها سرعان ما خمدت بـهسيسٍ واهن؛ إذ لا توجد كلمةٌ أخرى لوصف ذلك. تلاشت ألسنة اللهب وانطفأت كأنما صُبَّ عليها ماءٌ بارد، تاركةً التماسيح تواصل زمجرتها وتقدمها دون رادع.

لعن سيلفر قائلًا بحنق:

– «سحقًا! لقد صُفِّحت بالحديد البارد! جونسون! أحضر بندقية صيد الفيلة!»

بقدر ما كانت إيرين ستستمتع بمشاهدة ما سيحدث لاحقًا، إلا أن الفرار من القاعة قبل أن تُسحق تحت أقدام الحشود أو تلتهمها التماسيح بدا فكرةً أفضل بكثير.

قالت لـ كاي بحدة:

– «بسرعة! ساعد الآنسة ريتروجريد..»

قالت المرأة المسنة وهي تنهض واقفة:

– «الآنسة ريتروجريد الكبرى، إذا سمحتِ يا شابة. كنتُ أعلم أنه كان عليّ إحضار مسدسي معي.»

تعرضوا للدفع والاصطدام، لكن كانت لا تزال هناك مساحةٌ كافيةٌ للتحرك بحرية ما داموا ملاصقين للجدران.

سأل كاي:

– «هل يتكررُ هذا الأمر كثيرًا في هذه الحفلات؟»

بدا وكأنه نصف مسحورٍ بهذه الفوضى، ونصف مرعوبٍ منها. كان هناك ما يكفي من النادلون والمدعوين الهاربين بصرخاتهم ليشغلوا التماسيح عن الوصول إليهم لبضع دقائق على الأقل. نأمل أن تتمكن برادامانت من رعاية نفسها.

طقطقت الآنسة ريتروجريد الكبرى بلسانها قائلة:

– «يجب على المرء أن يعرف ما يتوقعه في حفلةٍ يقيمها اللورد سيلفر. والآن – ما الذي يحدث هناك؟»

كانت محاولة الفرار الجماعي ترتدُّ على أعقابها؛ إذ عاد الناس يركضون نحو القاعة مرةً أخرى. وفوق هذا الصخب، استطاعت إيرين سماع صراخٍ حول إغلاق الأبواب الخارجية.

علق كاي قائلًا:

– «هذا الأمر تفوحُ منه رائحةُ التخطيط.»

قالت إيرين:

– «إنه كذلك. هل هي أخوية الحديد؟»

استنكرت الآنسة ريتروجريد الكبرى قائلة:

– «رائحتهم الكريهة تفضحهم. هل لاحظتِ الحديد البارد فوق مخالب التماسيح؟ إنها أسهل طريقةٍ لصدِّ سحر «الفاي». أخشى أننا لا يمكننا توقع أي شيءٍ من اللورد سيلفر الليلة.»

سأل كاي وهو يلقي نظرةً فاحصةً على الأسلحة المعلقة فوق الجدار:

– «ألن يحاول مرؤوسوه إنقاذه؟»

هزت الآنسة ريتروجريد الكبرى كتفها المزركش وقالت:

– «قد يفعل ذلك اثنان منهم، لكني أكاد أجزم أن البقية يفكرون في الترقية، لذا سيحرصون على عدم إنقاذ أحدٍ إلا بعد فوات الأوان. هل يمتلكُ أيٌّ منكما مهارةً في التعامل مع التماسيح؟ هل يعلمون تدريب التماسيح في كندا؟»

قالت إيرين وهي تتقدم للأمام:

– «دعوني أجرّب شيئًا ما.»

التفت تمساحٌ برأسه وجزئه العلوي، وركزت إحدى عينيه الدوّارتين عليها.

ابتلعت إيرين ريقها. لم يكن هذا هو الوقت المناسب للاستسلام للخوف الذي يغلي في أحشائها، ولا للوقوف والتفكير في أن كل ما تعرفه عن التماسيح استقته من كتابات روديارد كيبلينج. (أم تُراها كانت تماسيح النيل؟). لقد آن الأوان لتتذكر أنها «أمينة مكتبة»، وأنها تتحمل مسؤولية حماية كاي.

قمعت رغبتها في عقد أصابعها تفاؤلًا، ورفعت يدها مشيرةً إلى أقرب تمساح، وأمرته بـ «اللغة» أن توثق أرجله وتتسمر في مكانه.

كاد الأمر أن ينجح.



كانت الكلماتُ واضحةً في فمها، لكن شيئًا ما في الأثير، أو لا يزال عالقًا في جسدها، حرّفها وأخرجها عن تركيزها. شعرت بـالندوب في يدها تُفتحُ ثانيةً تحت الضمادات، ورأت آثار اللون القرمزي تبدأ في التسرب عبر قفازها.

تسمّرت أرجل التمساح؛ نجح هذا القدر من الأمر. لكنه حدق فيها بنظرةٍ زاحفةٍ من الكراهية الباردة وهو ينزلقُ فوق الأرضية المصقولة، منطلقًا نحوها مباشرةً كقذيفةٍ محملةٍ بالقدر بفكين ضخمين (يزدادان ضخامةً بمرور الثواني).

كان هناك شيءٌ مغناطيسيٌ في هذين الفكين؛ كان عليها أن تفر، لكن المشهد جمدها حتى ظنت أنها قادرةٌ على إحصاء كل سنٍّ من تلك الأسنان المقتربة.

قال كاي:

— «تبًّا!»

التقطها من خصرها ببراعة، وقذف بها فوق أقرب طاولة. تمكنت إيرين من تدارك نفسها بيدها السليمة، وجذبت أطراف ثوبها بعيدًا عن وعاء حساءٍ يتصاعد منه البخار، بينما مرّ التمساح منزلقًا من تحت الطاولة. تموّج غطاء المائدة الأبيض كالأمواج حين غاص الوحش تحته من جانب وخرج من الآخر، مواصلًا انزلاقه فوق الأرضية شديدة الصقالة حتى اصطدم بمقدمة أنفه بالجدار. استلقى هناك، يفتح فمه ويطبقه، ويتقلب من جانب إلى آخر، بينما كان ذيله يخبط الأرض بعنف، وقد عجزت أرجله —— على ما يبدو —— عن الانثناء.

أخبرت إيرين كاي قائلة:

— «أخشى أن الأمر لا يعمل كما ينبغي.»

- «حسنًا، هذا واضحٌ كعين الشمس!» مدّ كاي ذراعه للآنسة ريتروجريد الكبرى قائلًا: «سيدتي، هلا تفضلتِ بالصعود فوق الطاولة؟»

تساءلت المرأة بحدة:

- «وماذا تنوي أنت فعله أيها الشاب؟»

كان بإمكان إيرين أن تخمن ما يصبو إليه كاي؛ كان ذلك جليًا في استقامة كتفيه وتوتر ملامحه. إنّ من أهم أركان القيادة ألا تُصدر أوامر لن تُطاع، هكذا ذكّرت نفسها.

قالت:

- «أنزل سيفًا من فوق الجدار يا كاي. ابحث عن فيل، وساعده إن كان بحاجةٍ إليك. افعل ما بوسعك لإنهاء هذه المعمعة، وسأتدبر أنا أمري.»

رفع كاي رأسه، واشتعلت في عينيه غبطةٌ محفوفة بالخطر، وسأل:

- «هل تعنين ذلك حقًا؟»

قالت إيرين ببرود:

- «أنا قادرةٌ تمامًا على البقاء بعيدًا عن طريق بضعة تماسيح.» وخاصةً إذا بقيت فوق الطاولة، لكنها رأت أن إضافة هذه الجملة ستفسد هيبة الموقف. تابعت: «لا أظنها تجيد التسلق.»

- «آمل ذلك.» ضربت الآنسة ريتروجريد الكبرى كتف كاي قائلة: «سأقبل مساعدتك أيها الشاب. وأنتما الاثنان، ستخبراني لاحقًا لِمَ تدّعيان أنكما من كندا.»

وضع كاي إحدى يديه تحت مرفق الآنسة الكبرى، وانحنى ليضع الأخرى تحت حذائها، ثم رفعها فوق الطاولة بجهدٍ لا يكاد يُذكر. وعدها قائلًا: «لاحقًا»، ثم انطلق راكضًا. كان يتجه نحو رايةٍ متدلية، تتأرجح

بإغراءٍ بالقرب من زوجٍ من السيوف المزخرفة المعلقة على ارتفاع ثمانية أقدام.

وفي أنحاء الغرفة، رأت إيرين رجالًا ونساءً آخرين يتسلقون الطاولات، وقد تحطم بعضها تحت وطأة الزحام. كان من حسن حظهم أن قلةً من الناس بقيت في زاويتهم، لذا كانت الطاولات شاغرةً نسبيًا. يبدو أن هذا العالم البديل لم يكن من تلك العوالم التي تفرض فيها الإمبراطورية البريطانية تقاليد «النساء والأطفال أولًا»؛ بل كان الحال هنا هو «البقاء للأقوى»، والهلاك لمن تخلّف أمام أنياب التماسيح.

من موقعها المرتفع، أجالت بصرها في الأرجاء حتى أبصرت برادامانت أخيرًا. كانت تتأرجح بلياقةٍ رياضية لتقفز فوق طاولةٍ خالية، وقذفت بطبقٍ من محار بلح البحر في أشداق تمساحٍ كان يطاردها، كل ذلك في حركةٍ واحدةٍ رشيقة. توقف التمساح، يزمجر ويهز رأسه، بينما قامت برادامانت بتسوية أطراف ثوبها وأخذت تتلفت حولها.

التقت عينا إيرين وعينا برادامانت. للحظة، تبادلتا النظرات عبر القاعة، ثم شاحت برادامانت بوجهها بهزةٍ من رأسها وابتسامةٍ فاترة. أخذت تتفحص الحشد، باحثةً بوضوحٍ عن شخصٍ آخر. ابتلعت إيرين مرارتها. هل لا تزال مهووسةً بـ برادامانت لدرجة أن تبحث عنها أولًا وتتأكد من سلامتها؟ إنّ الاهتمام بسلامة زميلةٍ في «المكتبة» له حدود.

وأين فيل؟ بوخزةٍ من الذنب، بحثت عنه وسط الزحام حتى وقعت عيناها عليه أخيرًا. كان محاصرًا في زاويةٍ من قِبل تمساحين، ويدافع عن نفسه بصينيةٍ فضية بأفضل ما يمكنه. بالطبع، كان عليه أن يترك عصاه السيف عند الباب. لم يبدُ الموقف مبشرًا على الإطلاق.

التفتت إيرين تبحث عن كاي وصرخت:

— «كاي! ساعد فيل! هناك في الزاوية!»

وبحكم تقطيب حاجبيه، بدا أن كاي يرى معاناة فيل بوضوحٍ أكبر منها. شبك ساقيه حول الراية، ومدّ كلتا يديه ليمسك بمقبضي السيفين، ثم أفلت الراية ببساطة. انتُزِع السيفان من حواملهما بصريرٍ معدنيّ حاد، وسقط كاي من ارتفاع ثمانية أقدام نحو الأرض، ليلتفّ في الهواء برشاقة ويهبط على قدميه.

صرخ بصوتٍ جهوريّ غطى على عويل الحشود:

— «فيل! إليك هذا!»

تراجع الناس من حوله عند صرخته، فقذف بأحد النصلين في قوسٍ عالٍ عبر الهواء؛ دار السيف فوق الرؤوس بوميضٍ من الفولاذ. اختطفه فيل من الهواء، وقد كانت القذفة موزونةً بدقةٍ متناهية ليرتطم المقبض بيده مباشرة. وبضربةٍ واحدةٍ شرسة، شطر الجهاز المعدني المثبت فوق جمجمة تمساحٍ كان يهمّ بالانقضاض عليه.

تنفست إيرين الصعداء، ولم تكن تدرك أنها كانت تحبس أنفاسها. يبدو أن كلا من كاي وفيل يمتلكان ردود فعل قتالية حادة لم تكن قد قدرتها حق قدرها من قبل. بدت تصفية «أُم أربعة وأربعين» الآلية العملاقة أمرًا بسيطًا بالمقارنة مع هذا المشهد.

هتف كاي بشيءٍ بلهجةٍ صينية لم تعرفها إيرين —— ربما كانت صرخة حربٍ أو لعنة —— واقتحم القتال. طعن أحد التماسيح، فأطبق فكيه بضربة سيفٍ واحدة قبل أن يتمكن الوحش من نهش نادلٍ مسكين.

تسللت إيرين بحذرٍ على طول الطاولة، محاولةً التفكير في خطة. لم تكن التماسيح تُبدي أي اهتمامٍ بأكوام الطعام المتناثرة على الأرض. ومع أنها ليست خبيرةً في علم نفس الزواحف، إلا أن الحيوانات عادةً ما

تميل نحو الوجبات السهلة والمتوفرة بدلًا من مطاردة ضيوف مسلحين، سواء كانت في حالة سعارٍ غذائيّ أم لا. لذا، ربما كانت تلك الأجهزة المعدنية الطنّانة المثبتة فوق رؤوسها هي ما يتحكم في سلوكها —— وهي نظريةٌ بدت مؤكدةً بعد مراقبة ما حدث مع التمساح الذي هاجم فيل.

فالتمساح الذي جُرّد من جهازه المعدني بيد فيل قد تراجع، وأخذ يتجول الآن في المكان بترنحٍ ودهشة. كان ذلك أمرًا واعدًا. فلو تمكنوا من تجريد جميع التماسيح من أجهزتها، فسيكون لديهم.. حسنًا، سيكون لديهم قطيعٌ من التماسيح العادية. ليس هذا بالكثير، لكنه أفضل من الوضع الحالي. خاصةً وأن سحر «الفاي» واستخدام «اللغة» لم ينفعا. أما برادامانت..

ركضت إيرين على طول طاولتها، ممسكةً بأطراف ثوبها. كانت تفصلها عن برادامانت طاولةٌ ومساحةٌ من الأرض تعج بالتماسيح. لم تكن الطاولة هي المشكلة، بل تلك البقعة من الأرض —— وهناك، كان الناس يموتون.

لم يمهلها الوقت للتفكير؛ كان الطريق خاليًا عن يسارها، وخاليًا عن يمينها.

صاح رجلٌ مسنٌ من خلفها بنبرةٍ متلعثمة:

— «ابقِ هنا! تبًّا لكِ يا فتاة، لا تُقدِمي على الانتحار! انتظري دقيقةً واحدة وستصل الشرطة..»

لا، لم يكن بوسعها الانتظار. حاولت أن تجد مسوغًا لاندفاعها، فكل ذلك الصراخ وإطلاق النار وأصوات تمزق اللحم لم تكن تهم مهمتها في الحصول على الكتاب —— أو واجبها كـ «أمينة مكتبة». كان بإمكانها البقاء في مكانها. لكنها وبينما كانت تحاول عزل الضوضاء غير

المهمة، وجدت نفسها قد بدأت الفعل بالفعل. التفتت بعيدًا عن الرجل وهبطت إلى الأرض، راكضةً نحو الطاولة الأخرى.

كان ثمة رجلٌ ملقىً تحتها، يتخبط وسط طيات غطاء مائدةٍ أبيض سقط معه. كان ينزف بغزارة، وهذا يعني أنه لا يزال على قيد الحياة.

رفعت إيرين نفسها فوق الطاولة، وهي تدرك بغصةٍ أن ثوبها قد تلطخ بالدماء وسمك السلمون. نادت بأعلى صوتها ليصل فوق الضجيج:

— «برادامانت!»

جاءت برادامانت تتهادى فوق الطاولة، وهي تزيح الرجال والنساء من طريقها بقوة حضورها فحسب. كان شعرها لا يزال مثاليًا، ولم يتلطخ ثوبها إلا عند أطرافه البعيدة.

قالت:

— «أرجو أن يكون لديكِ شيءٌ مفيدٌ لتقوليه.»

كظمت إيرين غيظها وقالت:

— «عندي ذلك. لديّ فكرة، لكني أواجه مشاكل مع «اللغة». أحتاج مساعدتكِ.»

للحظة، تساءلت عما إذا كانت برادامانت ستضع شروطًا لهذه المساعدة، لكن الأخرى لم تتردد كثيرًا وسألت:

— «ما الذي يخطر ببالكِ؟»

أشارت إيرين للأعلى، نحو الثريا — تلك الثريا الكهربائية الضخمة والأنيقة. وقالت:

— «الأجهزة التي فوق رؤوس التماسيح محددةٌ ومنفصلة. استخدمي «اللغة» لـاستنزال الكهرباء إليها. حتى لو لم تقتلها، فسوف تُعطل أنظمة التحكم فيها.»

أمالت برادامانت رأسها لتتبع إشارة إيرين، وقالت بـحياد:

— «قد يقتل ذلك أيضًا بعض الضيوف إذا كانوا ملامسين لها.»

لم تفكر إيرين في ذلك. لم يستغرق الأمر سوى لحظة لتتخيل فيل أو كاي ونصلاهما منغرسان في تمساح. صرخت بها:

— «لذا كوني دقيقةً في لغتكِ! أم تريدينني أن أختار لكِ المفردات؟»

تأففت برادامانت وقالت بـكبرياء:

— «لا أظن أنني سأحتاج لمساعدتكِ في هذا المسعى.» أوحت نبرتها بأن افتقار إيرين التام للكفاءة سيجعل أي مساعدةٍ منها بلا قيمة.

كان يجدر بـ إيرين أن تتركها لعملها، لكن فكرةً مفاجئة طرأت لها، فسألت:

— «متى عبرتِ من «المكتبة»؟»

أعلنت برادامانت:

— «ليس لدينا وقتٌ لهذا النقاش. تراجعي واتركيني أعمل.»

تراجعت إيرين وأخذت تتفحص الحشد بينما تستعد برادامانت. كان من السهل تمييز سيلفر؛ فقد عثر على رمح مزخرف وانشغل بغرسه في أحد التماسيح من الحلق حتى الذيل. أما فيلٌ وكاي فكانا يقاتلان ظهرًا لظهر، محاصرين بنصف دزينة من التماسيح. لم يكن أي شخصٍ آخر مستهدفًا بهذا العنف. لم تتذكر شيئًا من ملاحظات دومينيك أوبريٍ عن «أخوية الحديد». كان من الواضح تمامًا أنهم معادون لـ«الفاي»، بدليل تصفيح تماسيحهم بالحديد البارد وتوقيت هجومهم هذا. لكنها

لم تكن تظن أن ذلك يجعلهم معادين لـ فيل. بل العكس تمامًا؛ فمن الواضح أن فيل لا يكنّ مودةً خاصة لـ«الفاي»، وحضوره هنا كان بصفةٍ ندّية لـ سيلفر لا ودّية. هل كانت التماسيح تُوجّه بشكلٍ خاص؟ أم أنها تهاجم ببساطة أولئك الذين يبدون أكبر قدرٍ من المقاومة؟

التفتت إيرين نحو برادامانت بينما كانت الأخيرة تطلق سلسلةً من الأوامر الحازمة بـ «اللغة». ولحسن الحظ، كان الناس من حولها منشغلين بالتماسيح لدرجةٍ منعتهم من إعارة انتباههم لما تقول.

ارتجفت الثريا في مكانها، ثم تحطمت، وأخذت المنشورات الزجاجية ترن وتنفجر في سحبٍ من الغبار البلوري. انبعثت الكهرباء في أقواسٍ مرئية من الصواعق، مستهدفةً الملحقات الإلكترونية للتماسيح. اختلجت الزواحف وتخبطت، وراحت ذيولها تمسح المكان في منحنياتٍ واسعة، بينما كانت أشداقها تفتح وتغلق على الهواء الخالي.

راقبت إيرين بـارتياح بينما تفادى فيل وكاي التماسيح التي كانت تحاصرهما. وقالت لـ برادامانت:

— «أحسنتِ صنعًا.»

تأففت برادامانت، وأوحت ملامحها بأن عبارة «هذا طبيعي» هي أقل مما تستحقه. وقالت:

— «لا أفهمُ لِمَ لم تفعلي ذلك بنفسكِ.»

أجابت إيرين بـكراهية:

— «تلوث الفوضى. لقد تم تخريب باب «المكتبة» من هذا الجانب. نظن أن ألبريتش هو الفاعل——»

قاطعتها برادامانت وهي تمسك بكتفها، وقد شحب وجهها قليلًا:

— «انتظري. ألبريتش هنا؟»

قالت إيرين بـصراحة:

– «نعم. ألم يتم إخطاركِ؟»

كانت تعابير وجه برادامانت كافيةً كـردّ. وبدأت إيرين تربط الخيوط ببعضها متأخرةً.

– «أنتِ هنا دون إذن، أليس كذلك؟ جئتِ إلى هنا رغم أن هذا العالم يخضع للحجر الصحي ورغم أنها كانت مهمتي أنا..»

ردت برادامانت بـحدة:

– «لقد أنقذتكِ للتو أنتِ وتلميذكِ من أن تلتهمكما التماسيح. أنتِ مدينةٌ لي. أريد التفاصيل الدقيقة عن وجود ألبريتش هنا. الآن.»

تجاهلت إيرين الطلب، وسألت وهي تتأكد من وجود ما يكفي من الفوضى لتغطية حديثهما:

– «إذًا لِمَ جئتِ إلى هنا على أي حال؟ أقصد إلى هذه الحفلة، وليس فقط إلى هذا العالم البديل.» لم تكن هي وبرادامانت الوحيدتين اللتين بقيتا فوق الطاولات؛ فقد كان الكثيرون ينتظرون التأكد التام من موت التماسيح قبل الهبوط للأرض ثانيةً.

صمتت برادامانت للحظة. ربما كان هناك أثرٌ للخجل في عينيها، لكن إيرين لم تكن متأكدةً إن كان خجلًا من سرقة مهمة زميلة، أم مجرد إحراجٍ من اكتشاف أمرها. قالت أخيرًا:

– «كنتُ بحاجةٍ للتحقيق بشأن «أخوية الحديد».»

قالت إيرين وهي تهز رأسها نحو التماسيح بـسخرية:

– «تهانينا. لقد وجدتِهم. هل كان من المفترض أن يلتقوا بكِ هنا، أم أنها مجرد صدفةٍ سعيدة؟»

قالت برادامانت بـنبرةٍ هادئةٍ وخطيرة:

— «أنتِ وقحةٌ للغاية الليلة.»

— «أوه، ألا تظنين أن لديّ سببًا؟» كانت إيرين تملك من السيطرة ما يكفي لخفض صوتها، ولكن ليس ما يكفي لـكتم كلماتها. «إذا كان لكِ أي يد، أي يد على الإطلاق، في هذا الجنون الدموي——»

قالت برادامانت وعيناها تلمعان:

— «كنتُ أظن أن ألبريتش أهم من الضحايا المدنيين العرضيين. ألا يجب أن تطلعيني على ما لديكِ بخصوصه بدلًا من إضاعة الوقت في هؤلاء الناس؟»

كررت إيرين:

— «هل لكِ أي علاقة بهذا؟»

قالت برادامانت:

— «لا. إذا كان هذا يساعدكِ على الإجابة على سؤالي.»

نظرت إيرين نحو التماسيح المنازعة مرةً أخرى. لم تكن تثق بـ برادامانت، لكنها لم تستطع رفض تحذيرها. وقالت:

— «بالأمس تلقيتُ أمرًا بالحذر من ألبريتش، في اتصالٍ مباشرٍ من «المكتبة». وهذا الصباح ذهبتُ أنا وكاي للتحدث مع دومينيك أوبري عند نقطة دخولنا للمكتبة. لم نجده هناك، بل وجدنا جلده ملفوفًا في جرة خل، وفخ فوضى منصوبًا على باب المكتبة نفسه.»

رمشت برادامانت ببطء وسألت:

— «دومينيك أوبري مات؟ مات حقًا؟»

— «نعم. حسنًا، على الأرجح، نظرًا للبدائل المتاحة. متى وصلتِ إلى هنا؟ هل رأيته حين عبرتِ؟ إذا تمكنا من تحديد متى قتله ألبريتش وفخخ الباب——»

صاح أحدهم: «إيرين!» كان كاي وفيل قد وصلا إليهما فجأة. كان فيل يعاني من عدة جروح، أما كاي فكان محتفظًا بـأناقته وهدوئه. مدّ يديه لـ إيرين.

— «إذا كنتِ تودين المساعدة في النزول —— وبالطبع الآنسة برادامانت..»

قالت برادامانت بـنبرةٍ استحالت رقيقةً فجأة:

— «بالطبع.» وتجاوزت إيرين بحركةٍ دلالية من خصرها، ووضعت يديها في يد كاي، تاركةً إياه يساعدها على النزول.

ألقى كاي نظرةً استعطافية نحو إيرين من فوق كتف برادامانت؛ نظرةً تقول بـوضوحٍ أكثر من الكلمات: لم يكن بوسعي تركها تسقط وسط بقايا سمك الرِّنجة، أليس كذلك؟

تنهدت إيرين. رفعت ذقنها، وجلست على حافة الطاولة ثم قفزت منها لتقف على الأرض. لقد تضرر ثوبها على أي حال. وقالت بـبرود:

— «يسرني أنكما بخير، أيها السيدان.» شعرت بـنظرات فيل الفاحصة تترقبها هي وكاي وبرادامانت، وحاولت تجاهلها. لم يكن هناك أي سببٍ يجعلها تشعر بأي شيءٍ حيال هذا الموقف.

انفتحت الأبواب بـعنف. واقتحمت القاعة فرقةٌ من الرجال يرتدون زيًا عسكريًا، ببنادقهم المصوبة. كان يقودهم رجلٌ داكن البشرة بعمامةٍ وشارب، يتميز زيه بـوشاحٍ أخضر عريض. صوبوا أسلحتهم نحو

التماسيح، وبدأوا يغرقونها بالرصاص، متجاهلين حقيقة أن الزواحف المسكينة كانت بالكاد تتحرك الآن.

قال سيلفر من خلف كتف إيرين:

— «آه، لقد وصلت الشرطة أخيرًا. المفتش سينغ نشيطٌ كعادته.»
وأمسك بيد إيرين بين يديه وتابع: «فتاتي العزيزة، أنتِ جريحة.»

كانت إيرين تدرك أن كلا من كاي وفيل يحدقان في سيلفر بنظرةٍ فاترةٍ للغاية. تمنت لو كان لديها خمس دقائق فقط للحصول على بعض الإجابات منهما ومن برادامانت قبل ظهور سيلفر.

قالت بسرعة وهي تحاول سحب يدها من قبضته بحذر:

— «إنه مجرد خدش. يا سيدي، لا شك أن المفتش سينغ سيرغب في التحدث إليك..»

قال سيلفر وهو يثبت عينيه على برادامانت، بينما قبضته على يد إيرين تشتد بقوةٍ مؤلمة:

— «ويجب عليكِ تعريفي بصديقتكِ الجميلة.»

نظرت إيرين إلى برادامانت، فأومأت الأخيرة برأسها بموافقةٍ طفيفة، وارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ عذبة.

قالت إيرين برسمية:

— «اللورد سيلفر، هذه صديقتي برادامانت؛ لم يكن لديّ أدنى فكرة أنها ستكون في هذه الحفلة، ولكني بالطبع سعيدةٌ برؤيتها.» وآمل أن تتعثر وتسقط بوجهها في طبقٍ من بيض السلمون. وتابعت: «برادامانت، هذا هو اللورد سيلفر، أحد أسياد «الفاي» من ليختنشتاين، الذي يزور إنجلترا حاليًا——»

قاطعها سيلفر بسلاسة، تاركًا يد إيرين ليتقدم ويمسك بأصابع برادامانت الأنيقة:

– «ـــــوالذي كان سيأتي قبل ذلك بكثير، لو كان يعلم أن مثل هذا الجمال موجودٌ هنا. كيف أمكنني أن أفوت جوهرةً مثلكِ؟ أيتها السيدة العذبة، تفضلي عليّ وقولي إن لي شرف التعرف عليكِ عن قرب؟»

أدركت إيرين الفرصة حين رأتها تلوح أمامها. وبدأت في التسلل مبتعدةً بهدوء، بينما كان سيلفر يرفع يد برادامانت إلى شفتيه.

فجأة، انتفخ منخرا سيلفر. استنشق رائحة يد برادامانت، واصطبغت عيناه بلونٍ أصفر وحشيّ غير بشري تمامًا.

وبصق الكلمات:

– «أنا أعرفُ هذه الرائحة! بيلفيغور! لقد أوقعتُ بكِ أخيرًا!»

الفصل الثاني عشر

قالت برادامانت:

— «ماذا؟»

لكن نبرتها كانت خائنة؛ إذ بدت نبرة إنكارٍ واهية لا استنكارٍ ينمُّ عن عدم فهمٍ مطلق.

قال فيل بنبرةٍ مختلفة تمامًا وهو يتقدم خطوةً للأمام:

— «ماذا؟»

وقالت إيرين دون أملٍ كبير في أن يصدقها أحد:

— «مستحيل!»

قال سيلفر:

— «كنتُ سأتهمكِ أنتِ أيضًا يا فأرتي الصغيرة، لولا أنكِ كنتِ حاضرةً عندما فتحنا الخزنة، وأعلم أن دهشتكِ لم تقل عن دهشتي. عليكِ أن تسعدي لأني كشفتُ أحد أعدائنا؛ فهذه المرأة هي بيلفيغور، وهي المسؤولة عن سرقة كتابٍ نفيسٍ للغاية من اللورد ويندهام، وربما كانت وراء موته أيضًا. لقد عرفتُ رائحتها من البطاقة التي تركتها في خزنته. جونسون! سوطي!»

تقدم رجلٌ نحيف شاحب الوجه يرتدي الرمادي، وقدم سوطًا ملفوفًا إلى سيلفر.

قالت برادامانت بحزم:

— «هذا كله خطأٌ فادح. أطالبك بإطلاق سراحي فورًا.»

نظر إليها سيلفر بحدةٍ خطيرة، وتقلصت شفتاه لتكشفا عن أسنانٍ بيضاء بشكلٍ غير طبيعي، وقال:

— «بيلفيغور، ليس لديكِ أدنى فكرة عما أوقعتِ نفسكِ فيه. أعطني كلمتكِ بردِّ الكتاب إليّ، وسأفكر في تركِكِ ترحلين.. في الوقتَ الحالي على الأَقل.»

قالت إيرين بصوتٍ عالٍ:

— «صه! الشرطة تقترب. لا نريدهم أن يسمعوا شيئًا عن هذا..»

ارتجف الجميع والتفتوا ليروا المفتش ذا الوشاح الأخضر يسيرُ نحوهم بخطواتٍ وئيدة. كانت ملامحه تنطق بالتصميم، وكان في ابتسامته شيءٌ منَ الرضا يبعثُ على القلق.

همس فيل في أذن إيرين:

— «المفتش سينغ. نُقل من الإمبراطورية الهندية منذ شهرين ضمن برنامج تبادل ضباطٍ رسمي بين قوات الشرطة. لم يكن يطيق «الفاي» هناك، ولا يطيقهم هنا أيضًا. سينتهز أي فرصةٍ للنبش وراءهم.»

همست إيرين بدورها بهدوءٍ مماثل:

— «وهل نمانع ذلك؟»

كانت برادامانت تحاول انتزاع معصمها من قبضة سيلفر، وهي غير راغبةٍ بوضوح في استخدام «اللغة» أمامه، لكنه كان يحكم قبضته بجهدٍ لا يُذكر.

قال فيل وعيناه على برادامانت:

— «قد يعتمد ذلك على ما يمكننا تقديمه له.»

وبينما كان بإمكان إيرين التفكير في عدة طرقٍ لتخليص نفسها وكاي وبرادامانت من هذا المأزق، لم يكن من بينها ما يضمن بقاء فيل كجهة اتصالٍ موثوقة، ناهيك عن سيلفر. فملاحقة القانون لهم كمجرمين لن تزيد الأمور إلا تعقيداً. كما كانت بحاجةٍ لمعرفة ما يعرفه سيلفر عن الكتاب، وسبب رغبته في اقتنائه.

أشارت قائلة:

— «إذا كان سينغ يكره «الفاي»، فلن يقبل بتعريف اللورد سيلفر لها على أنها بيلفيغور. ربما نتمكن من الحصول على مزيدٍ من المعلومات منها لاحقًا إذا ساعدناها الآن.»

همس فيل بنظرةٍ باردة:

— «لقد قلتِ إنها صديقتكِ.»

كادت إيرين أن تبصق كلماتها من فرط الإحباط:

— «لم يكن من المفترض أن تكون هنا! ولم أكن أعرف شيئًا عن كونها هذه المجرمة.»

توقف المفتش وأمال رأسه قليلًا لـ سيلفر. لم تكن انحناءة، بل لم تكن انحناءةً بكل تأكيد، بل مجرد إيماءةٍ عابرة.

قال:

— «طاب مساؤك يا سيدي.» كانت لهجته واضحة، لكنها لهجة «أكسفورد» وليست بنجابية أو أيًا من اللهجات الهندية الأخرى التي تعرفها إيرين. تابع قائلًا: «أفهمُ أنك واجهت نوعًا من المشكلات الطفيفة هذا المساء.»

همسّ سيلفر بحنق:

— «مشكلة طفيفة؟» ثم استدار مشيرًا إلى التماسيح النافقة والجثث البشرية، وهو لا يزال ممسكًا بمعصم برادامانت بيده الأخرى. «وتسمي ذلك مشكلةً طفيفة؟»

قال المفتش سينغ ببرود:

— «بالنسبة لك يا سيدي. أنا متأكدٌ أنها كانت أكثر خطورةً بكثير على هؤلاء التعساء الذين وقعوا في شراكها، ورجالي يتعاملون مع الضحايا الآن. سأكون ممتنًا لو أطلعتني على ما حدث بالضبط.»

وبينما كان سيلفر يطلعه على التفاصيل بـأسلوبٍ ميلودرامي ولكنه دقيقٌ في جوهره، تنفست إيرين الصعداء في صمت؛ فـهو لم يرَ من تحكم في الكهرباء التي قضت على تهديد التماسيح. ولاحظت أن برادامانت قد استرخت قليلًا هي الأخرى.

ختم سيلفر حديثه قائلًا:

— «.. هذا كل شيء. يمكنك إخطاري عندما تتوفر لديك أي تفاصيل أخرى.» ثم أدار ظهره للمفتش.

قال المفتش سينغ:

— «في الواقع يا سيدي، نحن على علمٍ بهوية المعتدين.»

حدق الجميع فيه بذهول.

— «أخوية الحديد.» ثم قلب صفحةً أخرى في مفكرته، ودون ملحوظةً بـتعمدٍ قبل أن يتابع: «بالطبع يا سيدي، نحن مهتمون للغاية بـمعرفة سبب محاولتهم مهاجمة حفلتك بهذا الأسلوب.»

قالت برادامانت:

— «أوه، أظن أنني أستطيع الإجابة على ذلك.»

اتجهت الأنظارُ إليها.

أطرقت برأسها في حياءٍ مصطنع، وأرخت جفنيها، ثم أخذت نفسًا عميقًا لاهثًا جعل صدرها يعلو ويهبط بـطريقةٍ لم تكن رقيقةً ولا محتشمة.

قالت:

— «لقد كانوا يلاحقون كتابًا ظنوا أنه محفوظٌ هنا. في الواقع، أعتقد أن هذا الهجوم لم يكن سوى وسيلةِ تشتيت..»

اتسعت عينا سيلفر. قذف بـ برادامانت نحو ذراعي المفتش سينغ مع لعنةٍ مكتومة (فارتطمت به)، وركض نحو الباب، وجونسون يتبعه بخطوتين.

قال المفتش سينغ وهو يعيد برادامانت للوقوف على قدميها:

— «حسنًا، أخشى أنني يجب أن أطلب منكِ مرافقتي إلى المركز يا سيدتي. لدينا بضعة أسئلة.»

فركت برادامانت يدها التي سحقها سيلفر، حيث بدت آثار أصابعه قرمزيةً فوق بشرتها الشاحبة.

قالت:

— «هل تسمح لي بكلمةٍ جانبية مع صديقتي إيرين أيها المفتش؟ إن كنتَ بـهذا اللطف؟»

قال المفتش سينغ:

— «بالطبع يا سيدتي.» ولكنه لم يتراجع ولو خطوةً واحدة.

أمسكت برادامانت بيد إيرين غير المضممدة بين يديها قبل أن تبدي الأخيرة أي رد فعل. وقالت بسرعة خاطفة بـ «اللغة»، وبصوتٍ خفيض:

— «**أُوثِقُ نفسي باسمي، وبقسمي، وبعهدي**، أنني إذا وجدتُ الكتاب فسأحضره إليكِ قبل العودة إلى المكتبة، وأنني سأستشيركِ غدًا صباحًا، إن كنتُ حرةً في فعل ذلك، بشأن ما سنفعله لاحقًا.»

ثم عادت للإنجليزية ولكنها أبقت صوتها منخفضًا:

— «لكن في الوقت الحالي، أحتاج منكِ أن تفعلي شيئًا بخصوص ذلك «الفاي».»

تصلب المفتش سينغ وهو يحدق فيهما من تحت حاجبين كثيفين داكنين. حسنًا، هذا طبيعي؛ فبالنسبة له، بدا الأمر كما لو كانت برادامانت تتحدث بلغته الأم ولهجته الخاصة. حاولت إيرين قمع شعورها بالشماتة تجاه اضطرار برادامانت لشرح ذلك لاحقًا، مع كل شيءٍ آخر.

قالت بالإنجليزية:

— «بالطبع. سأراكِ حينها. أرجوكِ كوني حذرة.»

ومع ذلك، فقد قيّدت برادامانت نفسها بـ قَسَم «اللغة»، ولا يمكنها نقض ذلك. ربما تستطيع التهرب من الروح الدقيقة للقسم —— وبالفعل، استطاعت إيرين التفكير في عدة طرقٍ للالتفاف عليه، أولها أن «إحضار الكتاب إليكِ» لا يعني بالضرورة «إعطاءكِ الكتاب» —— لكن حتى مع ذلك، فإن هذا القسم جعل الكتاب أقرب بكثيرٍ مما هو عليه

الآن. وبصراحةٍ تامة، كانت إيرين مرهقةً لدرجةٍ لم تعد تهتم معها بـهذه التفاصيل؛ فالقَسَم يكفي في الوقت الراهن.

أومأت برادامانت برأسها، والتفتت للمفتش سينغ قائلة:

— «أنا تحت تصرفك يا سيدي.»

اقترح فيل:

— «ربما يجدر بنا نحن أيضًا التفكير في الرحيل. إلا إذا كنتِ ترغبين في مناقشة الأمور أكثر مع اللورد سيلفر، آنستي وينترز؟»

فكرت إيرين في اضطرارها لشرح الأمور لـ سيلفر.. في اضطرارها لـشرح أي شيءٍ لـ سيلفر.

وافقت بحماس:

— «يا لها من فكرةٍ ممتازة! كاي، ما لم تكن تذكر شيئًا لم ننجزه بعد، فهذا هو الوقت المناسب للمغادرة.»

مسح كاي سيفه بجزءٍ نظيف من غطاء المائدة، ووضعه فوق الطاولة.

وقال:

— «أنا تحت تصرفكِ تمامًا. إلى أين سنذهب؟»

حينها تذكرت إيرين أنهم لا يملكون غرفًا في أي فندق. رائع، أمرٌ آخر يجب ترتيبه.

لا بد أن معالم الفزع قد ارتسمت على وجهها، فتدخل فيل بـشبهِ ابتسامة قائلًا:

— «اسمحوا لي أن أعرض عليكم استضافتي في غرفي لهذه الليلة، آنستي وينترز. لديّ بضع غرف نوم إضافية —— وعلاوةً على ذلك، سيسمح هذا لـصديقتكِ والمفتشٍ سينغ بالعثور عليكِ في الصباح.»

أومأ المفتش سينغ برأسه، فعدلت إيرين تقديرها لـعلاقته بـ فيل بضع درجات؛ فـمن الواضح أن الرجلين معتادان على العمل معًا. كان عليها أن تضع ذلك في الحسبان.

حاولت أن تتذكر أين تقع «الهند» بالضبط في تاريخ هذا العالم البديل. لقد أصبحت شريكًا تجاريًا مستقلًا لبريطانيا العظمى بدلًا من كونها مستعمرة (ليس بسبب نقصٍ في الروح الاستعمارية لدى بريطانيا للأسف)، ولا يزال بين الإمبراطوريتين روابط وثيقة. وهذا يفسر لهجة سينغ.

تقدم كاي وعرض على إيرين ذراعه. أمسكت بها، وشعرت فجأةً بثقل التعب وبالفوضى المحيطة بها. كان الهواء مثقلاً برائحة الدماء. جثثٌ بشرية متناثرة على الأرض جنباً إلى جنب مع جثث التماسيح —— أطرافٌ ممزقة، وجذوعٌ مخضبة، ووجوهٌ تصرخُ في صمتِ الموت. كان بعض الرجال والنساء لا يزالون ينتحبون في الزوايا. وآخرون يخرجون من القاعة وهم يتحدثون إلى الشرطة، أو يكتفون بالشرب. قلةٌ فقط من الطاولات كانت لا تزال قائمة؛ بينما تحطمت الأخريات أو انهارت تحت وطأة الناس الذين تزاحموا فوقها. الأرضية الجميلة نُدبت بالمخالب والطلقات النارية، ونُقعت بالدماء.

لقد كان هناك الكثير من الدماء.

قال كاي بـصوتٍ رقيق:

— «هل أنتِ بخير؟»

ربما كان هناك وقتٌ تقول فيه إيرين: «لا، لستُ بخير»، وتغمض عينيها لبضع دقائق فقط. لكنه ليس الآن، وبالتأكيد ليس أمام برادامانت. ابتلعت ريقها، وحاولت ألا تستنشق الهواء أكثر مما تستطيع.

وقالت باقتضاب:

– «سأتدبر أمري. شكرًا لك.»

قال فيل وهو يضع رداءها فوق كتفيها:

– «رداؤكِ، آنستي وينترز.» لا بد أنها كانت مشتتةً بشكلٍ خطير، إذ أحضره دون أن تلاحظ. دونت ملحوظةً في ذهنها لتكون أكثر حذرًا، وأضافتها إلى قائمة الملحوظات الأخرى: أن تكون أكثر دقة، وأكثر انتباهًا، وأقل حساسية، وأقل ميلاً للانكماش والبكاء على كتف أحدهم.

طرق المفتش سينغ حذاءه بعضهما البعض، وانحنى نصف انحناءة، ثم انصرف مع برادامانت، وبقي على مسافةِ نصف قدمٍ دقيقةٍ منها. لم تلتفت برادامانت إلى الوراء وهي تتبعه.

في الخارج، وعلى درجات سفارة ليختنشتاين، كان هناك حشدٌ من المصورين والمراسلين والفضوليين. حتى إن بائعي المتجولين كانوا يبيعون الكستناء المحمصة والكعك والفول السوداني المحلى. امتزجت رائحتهم مع رائحة ثوب إيرين الملطخ بالدماء، فكافحت كي لا تتقيأ.

سأل كاي:

– «هل رأيتِ الآنسة ريتروجريد الكبرى وهي تغادر؟»

هزت إيرين رأسها قائلة:

– «رأيتها حيةً في النهاية، لكني لم أرَ خروجها. أفترضُ أنها قد تكون مفيدة.. إن كانت تعرف شيئًا.»

توقف فيل فجأة، ونظر إليها قائلًا:

– «الآنسة ريتروجريد الكبرى؟ الآنسة أولغا ريتروجريد؟»

– «تلك هي السيدة المعنية. هل هناك شيءٌ يجب أن نعرفه عنها يا سيدي؟»

قال فيل:

– «فقط إنها أكبر مبتزةٍ في الأوساط الاجتماعية في لندن. السيدة مشهورةٌ للغاية بمعرفتها للأشياء. والمؤسف أن ما تعرفه نادرًا ما يكون في مصلحة أي شخصٍ غيرها. أما بخصوص معرفتكِ بها..»

قالت إيرين على عجل:

– «كانت المرة الأولى التي نلتقي فيها.» لقد جعل تقوس شفة فيل رأيه في تلك السيدة واضحًا للغاية. «لقد أدركت أننا لسنا كنديين.»

تأفف فيل، واستدار ليستدعي عربةً.

همس كاي:

– «هل تظنين أننا سنواجه مشكلة؟»

أجابت إيرين بهدوءٍ مماثل:

– «نحن على الأرجح أقل الناس في تلك القاعة عُرضةً لمشكلةٍ معها. ففي نهاية المطاف، بماذا يمكنها أن تبتزنا؟»

ضحك كاي قائلًا:

– «صدقتِ.»

نادى فيل:

– «من هنا!» فقد استجابت إحدى العربات المنتشرة ليده المرفوعة. اضطروا لشق طريقهم بمرفقيهم عبر حواف الحشد، متفادين

المراسلين الذين يحملون مفكراتٍ وكاميرات. أسدل فيل الستارة على النافذة بمجرد انطلاقهم.

سألت إيرين:

— «هل تتوقع أن نكون مراقبين؟»

أجاب فيل:

— «يبدو ذلك مرجحًا يا آنسة وينترز. ودفاعًا عن نفسي، سأقول إنني لستُ مجهولًا لدى الجانب الإجرامي في لندن —— ولا هم مجهولون بالنسبة لي. ولكن بما أنني لم أحاول إخفاء هويتي، فبإمكاننا العودة إلى سكني مباشرة.»

أومأت إيرين برأسها، واستندت بظهرها إلى مقعدها. كانت مقصورة الركاب في العربة تحتوي على مقعدين عريضين مغطيين بالجلد يواجه أحدهما الآخر. كان هيكلها الأساسي مشابهًا لعربة «هانسوم» الكلاسيكية، لكنها كانت تعمل بالطاقة الكهربائية بدلًا من جر الخيول، ومبنيةً من المعدن بدلًا من الخشب. لقد ركبت عربات الهانسوم من قبل، وكان من الغريب أن تكون في شيءٍ يشبهها تمامًا دون أن تسمع وقع الحوافر.

قال فيل وهو ينحني للأمام، مسندًا مرفقيه على ركبتيه بينما اهتزت العربة عند انعطافها حول زاوية:

— «بخصوص صديقتكِ؛ هل تظنين أن اتهامات سيلفر بشأن هويتها صحيحة؟»

كانت إيرين تود أن تنظر في عينيه وتنكر ذلك دون تردد، لكنها بصدقٍ لم تظن أن ذلك سينطلي عليه. تساءلت عما قد يكون فيل قد

استنتجه عن برادامانت من مجرد لقائهما القصير. فهذا هو نوع الأشياء التي تتوقع منه فعلها.

قالت أخيرًا:

— «أتمنى لو كنتُ أعرف. لم أكن أظن أنها بقيت في لندن ——» أو في هذا العالم البديل «—— لفترةٍ كافية لتفعل شيئًا كهذا. ولا أستطيع التفكير في سببِ قيامها بذلك!»

قال فيل بصرامة:

— «إنه أسلوبٌ شائعٌ بما يكفي؛ القيام بسلسلةٍ من السرقات للتغطية على سرقةٍ واحدة. إذا كانت تخطط لسرقة ذلك الكتاب، فمن الممكن أيضًا أن تكون هي مرتكبة تلك السرقات المبكرة للتمويه على أهميته.»

فكرت إيرين في هذه الفكرة؛ بدت منطقيةً بشكلٍ مزعج. تساءلت بصوتٍ عالٍ:

— «ولكن لِمَ تحتاج برادامانت لإخفاء السرقة؟» ففي النهاية، كان بإمكانها مغادرة العالم البديل فور سرقة الكتاب. ولكن هل كانت تريد الكتاب لنفسها، أم كانت تبحث عنه للمكتبة؟ إنها هنا دون إذن.. تجمد الدم في عروق إيرين. هل يمكن أن تكون برادامانت قد خانت المكتبة؟

كان كاي يتابعها بتفكير:

— «ولكن إذا كانت تحاول إخفاء سرقتها عنا وعن السلطات أيضًا——»

قطب فيل جبينه، ورفع يده ليقاطع كاي:

— «لحظةً من فضلك، سيد سترونغروك. أيها السائق!» ثم طرق برأس عصاه على سقف العربة. «أيها السائق! لِمَ نسلكُ هذا الطريق؟»

سحبت إيرين ستارة النافذة. لم تستطع التعرف على المباني التي تمر في الخارج، لكنهم كانوا بـوضوح في شارعٍ رئيسي.

بدأت قائلة:

— «أعتقد أننا نسرع..» ثم صرخت بـفزع عندما اندلعت قوةٌ من الفوضى عبر النافذة. تمكنت من سحب أصابعها في الوقت المناسب قبل أن تلمسها. وعبر العربة، تراجع كاي بـفزع عن النافذة في جانبه، فـارتطم بـ فيل.

صاح فيل:

— «أيها السائق! ما الذي يحدث؟»

اهتزت العربة وهي تزيد من سرعتها مرةً أخرى. ونادى صوتٌ من الأعلى، مسموعٌ فوق قعقعة العجلات وصريف العربة:

— «*الاسم هو ألبريتش. أقترحُ عليك أن تسأل أصدقاءك عما يعنيه ذلك، سيد فيل.*»

أدركت إيرين أنها ربما شحبت تمامًا، لكنها كانت مشغولةً للغاية بـمحاولة منع نفسها من الارتجاف من الرعب المحض لـدرجة أنها لم تلتفت لـذلك كثيرًا. لم تكن تستطيع التعامل مع هذا.. لم تستطع.. يدها لا تزال مصابة.. هذا هو ألبريتش، ألبريتش نفسه، ذاك الذي طُرد من المكتبة؛ لا توجد وسيلةٌ تمكنها من مواجهته..

قال فيل لـ كاي:

— «استعد يا سيد كاي.» ثم ركل الباب بـقوةٍ كامنة كان ينبغي أن تفتحه بـعنف.

لكنه لم ينفتح. ظل البابُ ثابتًا في مكانه، وانحنت جدران العربة معه كما لو كانت جزءًا متصلًا من هيكلها. ارتد فيل إلى مقعده، مدفوعًا بـقوته الخاصة، وكتم لعنةً بـصعوبة.

نادى الصوتُ من الأعلى بـنبرةٍ هادئة:

— «*أخشى أنكم —— يا أمناء المكتبة —— أصبحتم تشكلون عائقًا.*»

كانت نبرةً رجولية، لاحظتها إيرين بـذلك الجزء من عقلها القادر على فعل شيءٍ آخر غير الارتجاف ومحاولة الاختباء. لم تكن هناك لهجةٌ مميزة؛ كانت دقيقة. ثمة شيءٌ في إيقاعها بدا مألوفًا بـشكلٍ غامض، كما لو أنها سمعت شخصًا آخر يتحدث بـنفس الطريقة. تابع قائلًا: «أنا بحاجةٍ لـذلك الكتاب لـمجموعتي الخاصة. من المؤسف أن أفقدك أنت أيضًا يا سيد فيل، لكني أضعُ حدًا لـطموحاتي عند التوقف لـإنزالك.»

صرخ شخصٌ ما في الشارع أمامهم وهو يقفزُ مبتعدًا عن طريق العربة المسرعة.

قال فيل بـبرود:

— «لا أظن ذلك.» وأدار عصاه في يديه، وحطم رأسها الفضي على النافذة.

تحمل الزجاجُ الضربة دون أن ينكسر أو حتى يتشقق.

قالت إيرين وهي تجبر الكلمات على الخروج، وتصرخُ تقريبًا فوق صوتِ قرع العجلات على الحجارة:

— «لقد ختم العربة. سحرُ فوضى؛ لقد ربطها بـطريقةٍ ما لـتكون كتلةً واحدة متماسكة، فلا يمكن لشيءٍ الدخول أو الخروج —— عليك أن تحطم العربة بالكامل لـتحطم جزءًا منها.»

قال الصوت:

– *«دقيقةٌ تمامًا. ومع ذلك، فهي ليست معزولةً عن الهواء ـــ أو الماء. مفارقةٌ منطقية أخشى أنكم لن تملكوا الوقت لتقديرها.»*

قال كاي بصوتٍ خفيضٍ لا يكاد يُسمع:

– «النهر.» وكان نفس العلم يلوح في عيني فيل.

راحت أفكار إيرين تتسابقُ داخل رأسها. لا بد من وجود شيءٍ يمكنني فعله؛ حتى لو كانت «اللغة» لا تعمل بشكلٍ موثوق، هل يمكنني استخدامها بما يكفي لإنقاذنا؟ ولكن العربة نفسها ملوثةٌ بالفوضى، وألبريتش أيضًا، فربما يبطل ذلك أي قوى للمكتبة على أي حال..

قال ألبريتش:

– *«وداعًا.»*

اهتزت العربةُ مرةً أخرى، وانطلقت في اندفاعةٍ أخيرة نحو النهر.

صاح فيل:

– «معًا! بوزننا الكافي يمكننا إجبارها على الانقلاب ـــ»

ألقى بنفسه ضد جانب العربة، وبعد لحظةٍ انضم إليه إيرين وكاي، يتصارعون معًا في المساحة الضيقة. مالت العربة، ثم استعادت توازنها، ثم مالت مرةً أخرى ـــ

هتف كاي بنشوة:

– «نعم!»

ـــ وانقلبت العربة لتسقط في أعماق النهر.



الفصل الثالث عشر

لم تغرق العربةُ في الماء بوقارٍ كبجعةٍ منازعة، بل ارتطمت بسطح النهر بـتحطمٍ مروعٍ قذف بـ إيرين نحو كاي، وكاي نحو فيل، وفيل نحو جدار العربة.

القوة تساوي الكتلة مضروبةً في العجلة، هكذا فكرت إيرين بدوار. كان يجدرُ بها التفكير في وسيلةٍ للنجاة، لكن أفكارها انكمشت كأرانب مذعورة؛ لم تكن ترغب في التفكير أبدًا.

تدهورت العربةُ وهي تبدأ في الغرق، وانقلبت مرارًا بينما كان النهرُ يتقاذفها. تشبث الثلاثةُ بـتلقائيةٍ بالمقابض والمقاعد، وحشروا أنفسهم في الزوايا حتى توقفت المركبةُ فجأةً وهي مائلةٌ على جانبها. غطت مياه «التايمز» السوداء النوافذ، ولم تقطع الضوء تمامًا، لكنها جعلت رؤيتهم لبعضهم البعض أمرًا بالغ الصعوبة.

قال فيل بـنبرةٍ يملؤها الثبات رغم صرير العربة وصوتِ تسرب الماء البطيء:

— «البروتوكول المعتاد في مثل هذه الحالات هو الانتظار حتى نغرق بالكامل، ثم فتح نافذةٍ لـمعادلةِ ضغط الماء، والسباحة نحو السطح.»

توقفت الكلماتُ في حلقها؛ كان عليها أن تشرح لـ فيل أمر ألبريتش. لقد باتت مدينةً له بـتفسيرات لأشياء كثيرة الآن. ولكن ما الجدوى إذا كان مصيرهم الموت؟.. حسنًا، الموتُ قد يُعفي المرء من عناء التبرير. ومع ذلك، كانت هناك طرقٌ أخرى لـتجنب هذا النوع من المواقف، وها

هي تتهربُ من الموضوع مرةً أخرى، بينما الماءُ يضغطُ عليهم، والموتُ يتربصُ بهم جميعًا..

إنه لا يريد موتنا فحسب، بل يريدنا أن نموت ببطءٍ وظلمةٍ وخوف. ليس الأمر مجرد رغبةٍ في إزاحتنا من طريقه لـيعمل دون إزعاج؛ بل هو حقدٌ محضٌ وخالص.

لقد تملكها الخوف؛ خوفٌ شديدٌ جعلها تنكمشُ في الزاوية، عاجزةً عن النطق، فضلًا عن الفعل. ولكن الآن، استيقظ في أعماقها شيءٌ آخر.

لن أسمح بهذا.

قالت إيرين وهي تجبرُ نفسها على الانحناء للأمام:

— «إذًا، ليس أمامنا إلا إيجادُ وسيلةٍ لـتحطيم هذا الختم. فما صنعه بشرٌ يمكن لـبشرٍ آخر أن ينقضه.»

بـمجرد نطقها لـهذه الكلمات، استشعرت إمكانية الحدوث، واستردت قوتها.

صاح كاي:

— «ولكنكِ لا تستطيعين لمس سحره! عندما أصابكِ من قبل، كاد أن يقتلكِ!»

تمنت لو كان لديها الوقت لـتفكيرٍ هادئٍ وتخطيطٍ دقيق. قالت وهي تنزع القفاز عن يدها المصابة وتوجه أصابعها نحو النافذة:

— «انتظر، لديّ فكرة.»

سأل فيل بـتوتر:

— «هل تتكرمين بـتوضيحها؟»

قالت إيرين:

— «لقد تعرضتُ لنفس القوى التي استخدمها هو منذ قليل.»
شعرت بالماء البارد يتسربُ إلى حذائها وجوربيها، ويتلوى حول كاحليها. «إذا تمكنتُ من تحديد تلك القوى وطردها، فمن شأن ذلك أن يكسر الختم، وعندها سنسبحُ خارجًا.»

— «حسنًا.» تراجع فيل بهدوءٍ في مقعده. ربما كان الضوءُ الخافت هو ما جعل إيرين تظنُ أنه يحاول الابتعاد عنها قدر الإمكان. ستسوي الأمور لاحقًا، وستشرحُ كل شيءٍ لاحقًا؛ أما الآن، فعليها فقط التأكد من وجود «لاحقًا» من الأساس.

ثبتت إيرين أصابعها على بُعدِ كسرٍ من البوصة من النافذة، وركزت بكل كيانها —— بعيدًا عن الماء والظلمة والرجلين اللذين معها في العربة —— وغاصت في عالمٍ تُصاغُ فيه الحقيقةُ بوساطة «اللغة».

كانت حقيقةُ الأمر أن ألبريتش يتحكمُ في قوى الفوضى ويستخدمها، ولذلك لا بد أن تكون تلك القوى منفصلةً وقابلةً للتحديد. لكنها لم تكن تملكُ كلماتٍ في «اللغة» لتلك القوى، وهي لا تستطيع التحكم إلا فيما يمكنها تسميته أو وصفه.

ومع ذلك، كان بإمكانها تسمية ووصف نفسها.

لم يكن هذا أمرًا يفعله «أمناء المكتبة» كثيرًا. فمن المؤكد أنه إذا كُسرت ذراعك اليسرى، بإمكانك محاولة قول: «عظمةُ زندي اليسرى ليست مكسورةً في الواقع بل هي سليمةٌ تمامًا»، وبينما قد تنصاعُ العظمةُ لقولك، ستظل عضلاتك ممزقةً والجرحُ مفتوحًا. وما لم تكن قادرًا على تسمية كل جزءٍ دقيقٍ يحتاجُ للتسمية، فستنتهي بك الحال بجرحٍ شبه ملتئمٍ يسببُ متاعبَ أكثر من تركه يلتئمُ بصورةٍ طبيعية. وبينما يتخصصُ بعض أمناء المكتبة في هذا المستوى من التفاصيل، لم تكن إيرين واحدةً منهم.

لكن الإنسان ـــ وخاصةً أمين المكتبة ـــ يمكن تسميته ووصفه بشكلٍ كليّ ككيانٍ واحد. فهي تحملُ وسم «المكتبة» على جسدها، واسمها مسجلٌ بـ «اللغة». فإذا تمكنت من فرض ذلك بقوةٍ وكفاية، فلن يتبقى مكانٌ لقوى الفوضى بداخلها، وعندها ستستطيع أخيرًا الوصول إلى كامل قواها كأمينةِ مكتبة.

لم تكن قد جربت هذا من قبل، ولكنها أيضًا لم تتعرض لتلوثٍ بهذا القدر. فوحده الموتُ الوشيك هو ما يضطرها للاعبث بتقنياتٍ نظريةٍ خطيرةٍ وغير مجربة، وإلا لكانت قد فكرت في هذا الأمر مسبقًا.

إن حياتي مليئةٌ بتجارب التعلم القاسية.

وقبل أن يدركها الوهن، صاغت الكلمات بشفتيها، بصوتٍ لا يكادُ يُسمع، متحدثةً بـ «اللغة»:

— «**أنا إيرين.. أنا أمينةُ مكتبة.. أنا خادمةُ المكتبة.**»

احترق وسمها فوق ظهرها وهي تفرضُ إرادتها، لكنها شعرت بانفصالٍ غريبٍ عن الألم، كما لو كان بإمكانها نفضه عنها وتجاهله. وفي لمحةٍ من البصيرة، أدركت أن فعل ذلك سيكون كارثيًا؛ فما كانت تشعرُ به هو الصراعُ بين تعريفها لذاتها وبين التلوث. لم يكن بإمكانها تجاهله، بل كان عليها احتواؤه.

ولكنه كان مؤلمًا. سمعت أنفاسها وهي تتقطع، وبدت نبرةُ صوتها غريبةً في أذنيها.

نادى كاي بصوتٍ قلق، وقد صار المكانُ مظلمًا لدرجةٍ منعته من رؤيتها:

— «إيرين؟»

وباندفاعةٍ عنيفة، تشبه التقيؤ بعد أكل طعامٍ فاسد، انطلقت قوةُ الفوضى من أعماقها. حاولت ألا تفكر في بوفيه تلك الليلة (السلمون، المحار، السلطعون، الحساء، الجمبري الصغير)، لكنها فشلت. انسكبت القوةُ من يدها، تغلي فوق أصابعها كموجاتٍ من الظلال التي تموجُ في الهواء ــــ ومثل أي كائنٍ حي، راحت تبحثُ عن مأوى، عن شيءٍ يشبهها.

قفزت تلك القوةُ نحو النافذة، عابرةً المساحة الضيقة من الهواء، وتغلغلت في الزجاج. لم تملك إيرين الوقت الكافي لتتساءل عما إذا كان عليها الابتعادُ عن النافذة، إذ تحطمت فجأة.

ولم تتحطم النافذةُ فحسب.

بل تفككت العربةُ بأكملها؛ أولًا النافذةُ التي تفتتت إلى شظايا زجاجية، ثم انفصلت أجزاءُ العربة عن بعضها البعض كنموذجٍ رديء الصنع. لم تكد تشعر بشظايا الزجاج في ذراعها قبل أن يرتطم بها الماءُ كضربةِ مطرقة. وبوضوحٍ مفاجئٍ وسط الظلام، رأت وجه كاي يبدو حازمًا بشكلٍ غريب، كانت شفتاه تتحركان، كان يقول شيئًا ما ــــ

مرت ثوانٍ من الذعر والتخبط قبل أن تدرك أنها بإمكانها التنفس.

كان الثلاثةُ ينجرفون معًا في قاع النهر، يحيطُ بهم تيارٌ متصلٌ وطويلٌ من الماء المظلم. كان تيارًا مرئيًا متموجًا داخل النهر، منفصلًا عن بقية المياه، بل وبدا أكثر نقاءً. كانت الحطام المتناثر للعربة قد اختفى بالفعل وسط طمي القاع، بعيدًا خلفهم. ومن الأعلى، ومن خلال سطح الماء، كانت مصابيح الشوارع تلمعُ ككراتٍ هازجةٍ من الأبيض والبرتقالي. كان كاي يطفو على بُعدِ بضع خطواتٍ أمامها وأمام فيل، متحركًا بنفس سرعتهم. كان يقول شيئًا ما، لكن مياه النهر ملأت أذنيها فلم تتمكن من سماعه.

أمسك فيل بكم ثوبها، وحرك شفتيه بما يعني على الأرجح: ما الذي يحدث يا آنسة وينترز؟

وعلى الجانب المشرق من الأمر، طمأنت إيرين نفسها بأنه لا بد وأنه يشعرُ بثباتٍ أكبر إذا عاد لمناداتها بـ «الآنسة وينترز». هزت كتفيها بوضوحٍ قدر المستطاع، وأومأت بهدوء، وحركت شفتيها قائلة:

— «كل شيءٍ تحت السيطرة.»

لم يبدُ على فيل أنه صدقها، وكان ذلك مؤسفًا، لأنها كانت واثقةً الآن من أن الأمور عادت بالفعل تحت السيطرة؛ على الأقل لدرجة أنهم لن يغرقوا.

لا، المشكلة الحقيقية كانت شيئًا آخر تمامًا. الآن تأكدت مما يكون عليه كاي حقًا. روحُ نهرٍ ربما كانت لتحول نفسها إلى ماءٍ لإنقاذهم، وروحُ طبيعةٍ من نوعٍ آخر ربما كانت لتستعطف النهر أو تقنعه بمساعدتهم، ولكن نوعًا واحدًا فقط من الكائنات هو من يملكُ إصدار الأوامر للنهر.

لقد كان كاي تنيناً. فما الذي يُفترضُ بها فعله حيال ذلك؟

وقد اختار أن يكشف عن حقيقته لإنقاذهم. ليس لإنقاذ نفسه، فمن المفترض أنه كان سيتمكنُ من النجاة بسهولةٍ بمفرده؛ بل لإنقاذهم هم: هي وفيل. كان ذلك التزامًا من جانب كاي جعلها تقلقُ عما إذا كانت ستتمكنُ من الوفاء به. لم تكن تحب الالتزامات تجاه الآخرين، فقد تصبحُ.. فوضوية.

انحرف التيارُ الهادرُ نحو الضفة البعيدة، ثم رفع الثلاثة خارج الماء، صاعدًا في قوسٍ من الماء المظلم. وُضعوا فوق الرصيف بخفةٍ تماثلُ خفة الخشب الطافي. كان هناك بضعةُ متسولين يتدفئون حول نارٍ

صغيرة، جلسوا يراقبون الثلاثة بذهولٍ بينما كان الماء يرتطمُ بالرصيف قبل أن ينحسر نحو النهر مرةً أخرى.

لا تزالُ دوامةٌ من النهر تحتفظُ بشكلها القائم، تنحني نحو المكان الذي يقف فيه كاي. لم تكن تشبه الثعبان تمامًا؛ فالرأس كان يحمل ملامح تشبه البشر وتشبه التنانين (نعم، هذا مجددًا). كان هناك أيضًا شيءٌ من ملامح الأسد، بشعرٍ مبللٍ مُدلىً بالأعشاب والقاذورات. كانت عيناه تلمعان بلونٍ أصفر كمصابيح الضباب، وتتوهجان تحت حاجبين كثيفين. كانت تلك الروح ملوثةً كالماء نفسه، وجسدها متشابكٌ بقطعٍ من القمامة وخيوطٍ طويلة من القذارة. كانت رائحة الزيت والأعشاب تلتصقُ بها، وتفوحُ بكثافةٍ على طول الرصيف.

واجهها كاي وأمال رأسه بإيماءةٍ صغيرةٍ ودقيقة، وقال بحزم:

— «خدمتُكِ مقبولة. عودي بشكري وشكر عائلتي.»

أحنت روحُ النهر رأسها في تموجٍ طويلٍ سرى على طول جسدها، ثم ارتفعت واصطدمت عائدةً بالنهر في رذاذٍ من الماء الأسود. كانت العينان هما آخر ما اختفى تحت سطح النهر، غابتا ببطءٍ بدلًا من مجرد الانغلاق، وظلتا مرئيتين للحظةٍ طويلة تحت الماء المظلم.

تقدم فيل خطوةً للأمام وسأل بصدمة:

— «ماذا كان هذا؟ ماذا فعلت؟ ما الذي جلبته إلى لندني يا هذا؟»

استدار كاي بزمجرة، واصطبغت عيناه بلونٍ أزرق غير بشري، شرسٍ وخطير كألسنةِ لهب الغاز، وقال:

— «ما كان ذلك يا سيدي، هو——»

— «كان تحت أوامري.» قالت إيرين وهي تقفُ بينهما. لم تكن لتسمح للأمر أن يتحول إلى عراكٍ وصراخ. وأكثر من ذلك، كانت

تستشعرُ شيئًا قديمًا وغاضبًا بداخل كاي؛ فالتنينُ الكامنُ تحت الجلد البشري صار الآن قريبًا جدًا من السطح. كان عليها تشتيتُ هذا الغضب الآن، ومنحه قنوات مألوفة ليعمل من خلالها، ومنح فيل هدفًا — هي نفسها — لا يستطيعُ الصراخ في وجهه دون أن يحطم قواعده الخاصة في العرف واللياقة. نظرت إلى فيل بحزم، رافضةً أن تُظهر له أي ذرةٍ من الخوف أو الرعب أو حتى التوتر.

تابعت قائلة:

— «لقد وعدتُك بمزيدٍ من المعلومات يا سيدي، وسوف تنالُها، ولكني أقترحُ أن نعود إلى سكَنك أولًا. لقد تصرف السيد سترونغروك بناءً على تعليماتي لحمايتنا وإنقاذنا جميعًا.» لقد كانت كذبةً صغيرةً نوعًا ما، بل مجرد نصف كذبة، لأن كاي كان يعلم بالتأكيد أنها كانت لتريد منه حمايتهم جميعًا. «وهذا ليس وقتًا للجدال، بينما نحن جميعًا نقاتلُ عدوًا أعظم.»

نظر إليها فيل للحظة، ثم أومأ لها برأسه إيماءةً صغيرة، كانت شبه مرآةٍ لتحية كاي لروح النهر. وقال:

— «حسنًا يا آنسة وينترز. سنعودُ إلى سكني. ليس أمامي إلا أن أضع ثقتي بكِ، كما فعلتُ من قبل.»

كان لتلك الكلمات وقعٌ مؤلم، كما أُريد لها بالتأكيد. ابتسمت إيرين بعذوبةٍ قدر استطاعتها، ثم التفتت إلى كاي وقالت بصوتٍ خفيض:

— «يمكننا التحدث لاحقًا، أو يمكننا التحدث الآن؛ ولكن في كلتا الحالتين، أنا أعرفُ ما أنت عليه، وهذا لا يهم.»

أجاب كاي بهدوءٍ مماثل، ولكنه كان أكثر فتكًا:

— «إنكِ تبالغين في تقدير نفسكِ كثيرًا، إذا كنتِ تعتقدين أن هذا لا يهم.»

كان هذا مختلفًا تمامًا عن التعامل مع فيل. فهناك كانت تحتاجُ لإخفاءِ خوفها لإقناعه بانتظار المعلومات؛ أما هنا، مع كاي، فقد كانت تحتاجُ لإظهار سيطرتها ورزانتها، وإلا —— كما شعرت في أعماقها —— فسوف تفقده لصالح طبيعته الحقيقية.

ولم تكن لتتحمل خسارته؛ فعليها مسؤوليةٌ تجاه «المكتبة»، ومسؤوليةٌ تجاهه هو.

سألته مباشرة:

— «هل لا تزال تلميذي؟ هل لا أزال مرشدتك؟» لم تطلب أكثر من ذلك؛ رباطُ الولاء، ورباطُ الثقة. وأي شيءٍ آخر هو أمرٌ عليهما تسويته لاحقًا.

نظر إليها، وكان ثمة شيءٌ غير بشريّ يغلي خلف عينيه. وسأل:

— «أو تظنين أنكِ بمقدوركِ إصدار الأوامر لي؟»

قالت بـ «اللغة»:

— «نعم.»

ظلت الكلمةُ تترددُ في الهواء بينهما. ثم أغمض كاي عينيه وفتحهما، وعادتا الآن للونهما البشري الأزرق، حادتين ولكن بلا غرابة.

وقال بشبهِ ابتسامة:

— «إذًا، أعتقدُ أنني لا أزالُ تحت أوامركِ.»

نادى فيل:

— «آنسة وينترز، سيد سترونغروك، من هنا!» كان قد سار إلى نهاية الرصيف حيث تبدأ المنازل، وتمكن بـطريقةٍ ما من استحضار عربة.

وبينما كانت إيرين تتبع كاي نحو العربة، وهي تجدُ صعوبةً في التعامل مع أطراف ثوبها ورداؤها المبتلين، لم يسعها إلا أن تلاحظ أن كاي كان جافًا تمامًا. لم يبدُ الأمر عادلًا، ولكنه كان شيئًا صغيرًا ومريحًا لـلتركيز عليه؛ بـإمكانها أن تشعر بـالضيق من شيءٍ بسيط، بدلًا من التخبط في الرعب مما واجهته لـلتو.

الفصل الرابع عشر

قال فيل:

– «سأكون ممتنًا لو تفضلتِ بتقديم ذلك التفسير يا آنسة وينترز.»

جاء ذلك وهو يعيد ملء فناجين الشاي الخاصة بهم.

لقد مضى وقتٌ في الاغتسال بالماء الساخن وتضميد الجراح. حتى كاي، الذي لم تمسه مياه «التايمز» القذرة، كان بحاجةٍ إلى تنظيف نفسه بعد تلك الجهود المضنية في حفل الاستقبال وما رافقها من دماء التماسيح. أما فيل وإيرين، فقد كانا غارقين في البلل والقذارة؛ حتى إن السائق ظل يبرطم بوضوحٍ عن ضرورة تنظيف عربته، حتى بعد أن نال إكراميةً سخيةً للغاية من فيل.

كانت إيرين لتسعد بالاسترخاء في الماء لساعاتٍ أخرى، لكنها لم تشعر بالأمان في ترك فيل وكاي وحدهما يتحدثان لفترةٍ طويلة؛ فمزاج كاي لا يزال متوترًا، وربما يطرح فيل سؤالًا أكثر خطورةً مما يدرك. وبشعورٍ من التضحية بالذات، جرّت نفسها خارج مغطس الاستحمام الذي خُصص لها، والتفت بالرداء المنزلي الثقيل المصنوع من الفانيلا الذي أعاره إياها فيل، ولفّت شعرها بمنشفةٍ على هيئة عمامة، ثم خرجت لتنضم إلى الآخرين في مكتب فيل لتناول الشاي وبدء الاستجواب.

لماذا يمتلك فيل رداءً نسائيًا إضافيًا في خزانة ثيابه؟

لم تسأل عن ذلك؛ ربما خصصه لضحايا الجرائم من النساء اللواتي تعرضن للبلل. ومع ذلك، لم تكن تعتقد أنه يخص امرأةً مقربةً منه؛ لسببٍ أول هو أنه لم يُستخدم بوضوحٍ منذ شهور، ولسببٍ ثانٍ هو أن أي

امرأةٍ تحاول إغواءه لن تختار رداءً من الفانيلا الثقيلة، ولسببٍ ثالث هو أن فيل لم يعرض عليها أي ملابس نسائية أخرى. كما أنه لم يعرها ذلك النوع من الانتباه الذي قد يبديه حتى أكثر الرجال تهذيبًا لامرأةٍ غارقةٍ في ملابس تقطر ماءً؛ بل سارع بدفعها نحو الحمام بحزمٍ يشبه حزم مديرة مدرستها الداخلية القديمة. لم تكن تريده أن يوليها ذلك النوع من الانتباه على أي حال..

ارتشفت إيرين شايها؛ حليبٌ وقطعتان من السكر، وهو ما يناسب الأشخاص الذين يعانون من الصدمة. وقالت وهي تحاول التفكير في أفضل طريقةٍ للشرح، أو الكذب إذا استعصى الأمر:

— «يجب أن أحذرك من أن الأمر قد يبدو، إمّم.. بعيد الاحتمال قليلًا.»

هز فيل كتفيه؛ كان يرتدي رداءً من الحرير الأحمر والأسود، وشعره لا يزال رطبًا، وقد سُرّح في مكانه ليلمع بدكانةٍ تحت ضوء المصابيح.

قال:

— «لا يمكنني الاعتراض حتى أسمع ما لديكِ.»

وسط تلك الفوضى، وجد متسعًا من الوقت لإعادة ترتيب كتبه بعد الفوضى التي أحدثتها إيرين فيها، فاستقرت أكوامٌ أنيقةٌ من الأدب المصنف جزئيًا حول كرسيه مثل أطفالٍ صبورين.

ارتشف كاي شايَه (بلا حليب، بلا سكر، أسود كمزاجه الجهم) وراقبهما؛ كانت لا تزال هناك تلك الهالة من الجفاء تحيط به. كان يرتدي ما بدا بوضوحٍ أنه ثاني أفضل أردية فيل —— نفس اللون والتصميم، لكنه مهترئٌ عند المرفقين وبه ثقوبُ حرقٍ صغيرة تشوه تطريز الأكمام. كانت شفتاه مزمومتين في خطوطٍ تنطق بالعناد.

بدأت إيرين قائلة:

— «أنا والسيد سترونغروك وكلاء لـمكتبة. وغالبًا ما تُعرف باسم المكتبة الخفية بين من سمعوا عنها، لأنها محجوبةٌ عن معظم الأعين.»

أقرّ فيل قائلًا:

— «اسمٌ منطقيٌ بما يكفي. أين يقع مقرها؟ لا أظنُّ أنها في لندن.»

ولم يكلف نفسه عناء إضافة: لأني لم أسمع بها قط.

قالت إيرين:

— «آه، هنا يأتي الجزء الذي يصعب تصديقه. هل أنت ملمٌّ بـمفهوم العوالم البديلة؟»

وضع فيل كأسه، وبدت نظرته فاحصةً أكثر منها مكذبة.

قال:

— «لقد طرح هذه النظرية بعض الفلاسفة والعلماء ذوي الميول الميتافيزيقية. وبينما لا أؤمن بها بالضرورة، إلا أنني أعترفُ بأن لها سحرًا خاصًا من القناعة الذاتية. أي ـــ إذا صح التعبير ـــ من «المنطقي» أن تكون نقاط التحول الفاصلة في التاريخ قد خلقت عوالم بديلة كانت الأمور فيها لـتجري بـشكلٍ مختلف.»

أومأت إيرين برأسها؛ فـتلك الطريقة في النظر للأمر تفي بالغرض حاليًا. وقالت:

— «أنا والسيد سترونغروك وكلاء لـمكتبةٍ توجدُ بين العوالم البديلة. ومهمتنا هي جمع الكتب لـلمكتبة من كل تلك العوالم، لـحفظها.» ثم ألقت نظرةً ذات مغزى على أرفف كتبه المزدحمة. «لا بد أنك تقرّ ـــ كقارئٍ نهمٍ مثلي ـــ بأن هذا أيضًا «منطقي».»

— «إمّم.. إن حجتكِ قد تستميلُ أي محبٍّ للكتب يا آنسة وينترز. فـهل أفهمُ من ذلك أنكِ هنا في سبيل الحصول على كتابٍ بعينه؟»

أومأت إيرين مرةً أخرى وقالت:

— «نسخةُ «حكايات غريم» التي كانت بحوزة اللورد ويندهام قبل وفاته. ولكن يبدو أننا لسنا الوحيدين الذين نسعى خلفها.»

تردد فيل لـلحظةٍ طويلة ثم قال:

— «حسنًا، يمكنني افتراضُ وجود مكتبةٍ عابرةٍ للأبعاد تطارد الكتب النادرة. ويمكنني قبول امتلاك وكلاء تلك المكتبة لـقوىً غير عادية.» ثم ألقى نظرةً على كاي. «بمجرد أن يقبل المرءُ المفهوم الأساسي كـأمرٍ ممكن، تصبح أحداث اليوم —— حسنًا —— ليست غامضةً تمامًا. لديّ الكثير من الأسئلة، لكن ثمة استفسارٌ واحدٌ يثير فضولي بـشكلٍ خاص، وأثقُ في أنكِ ستعطينني إجابةً شافيةً له: لِمَ تبحثون عن «حكايات غريم»؟ لِمَ لا تبحثون عن أحدث الاكتشافات العلمية؟»

ابتسمت إيرين؛ فهذا الجزءُ كان دائمًا يبعثُ الدفء في أعماقها. انحنت للأمام بدورها، ووضعت كأسها.

وقالت:

— «سيد فيل، بينما توجدُ كل العوالم البديلة، وبينما قد تختلف قوانينها الميتافيزيقية، إلا أن قوانينها الفيزيائية واحدة. فالحديدُ هو الحديد، والراديومُ هو الراديوم، والبارودُ هو البارود؛ وإذا أسقطتَ شيئًا، فـسوف يسقطُ وفقًا لقانون الجاذبية. الاكتشافات العلمية هي نفسها عبر العوالم، وبينما هي مهمةٌ بلا شك، إلا أننا لا نقدرها كما نقدر الأعمال الإبداعية. قد يكون هناك مائةُ أخٍ من «يعقوب وويلهلم غريم» في مائة

عالمٍ مختلف، وفي كل مرةٍ قد يكونون قد كتبوا مجموعةً مختلفةً من الحكايات الخرافية. وهنا يكمنُ اهتمامنا.»

رمش فيل بعينيه وقال:

— «ولكن في هذه الحالة، يمكنكم استيراد الاكتشافات من عوالم أخرى! يمكنكم جلبُ ما هو أكثر من مجرد القصص الخيالية —— تقنياتٌ جديدة، وعجائبُ علميةٌ حديثة. أليس لديكم تصورٌ للخير الذي يمكنكم تقديمه لتلك ——» ثم تذكر نفسه واستدرك «—— العوالم البديلة الافتراضية؟»

قال كاي وهو يحدق في شايه:

— «لن ينجح الأمر.»

قالت إيرين بصبر:

— «ما يحاول زميلي قوله هو أنه، رغم محاولتنا لذلك سابقًا، أولًا: لا تهتم المكتبةُ بجعل أمرها علنيًا. وثانيًا: لا يمكننا إدخال موادٍ لا توجدُ لها بنيةٌ تحتيةٌ تدعمها. وهذا ما سيحدث لو حاولنا جلب اكتشافاتٍ لا يدعمها علمكم الحالي، ونتيجةً لذلك لن يترسخ الاكتشاف؛ بل سيُعتبرُ مزيفًا في وقتٍ قصير. وفكر أيضًا، ما المخاطر التي قد تواجه شخصًا يحاول إدخالَ معرفةٍ علميةٍ جديدةٍ تمامًا على هذا العالم؟ على هذا البلد؟»

أومأ فيل ببطء، وبدت ملامحه مريرة. قال:

— «أفهمُ وجهة نظركِ.» لكن نبرته لم تكن توحي بالاقتناع التام.

تابعت إيرين وهي تشعر بقليلٍ من الحرج لاضطرارها لتوضيح ذلك:

— «وأخيرًا، كلُّ من ارتبط بـالمكتبة بـوسمها هم أشخاصٌ اختاروا هذا النمط من الحياة لأنهم أحبوا الكتب. لا أحد منا أراد إنقاذ العوالم. أقصد، ليس الأمرُ أننا نعترضُ على إنقاذ العوالم..» هزت كتفيها وهي تتناول كأس الشاي مرةً أخرى. «نحن نريد الكتب. نحن نحب الكتب. نحن نعيشُ مع الكتب. أما الشخص الذي ينضمُّ لـلمكتبة لـمجرد محاولةِ استخدامها لـنفع عالمه الخاص.. حسنًا، أفترضُ أن هذا أمرٌ أخلاقي، ولكنه ليس غاية المكتبة.»

سأل فيل:

— «إذًا، ما هي غاية المكتبة؟»

أجابت إيرين بـحزم:

— «حفظ الكتب.» كانت الكلماتُ تخرجُ بـتلقائيةٍ لدرجة أنها لم تكن بحاجةٍ لـتفكير؛ فقد أمضت حياتها كلها مع هذه الفكرة. ومع ذلك، لم يسبق لها أن شعرت بـخوائها من قبل. أجبرت نفسها على التركيز على التبرير المألوف. «حفظ الأعمال الإبداعية. وبمرور الوقت، إذا فقد العالم البديل نُسخته الأصلية، يمكننا إعطاؤه نُسخًا بديلة، لكي لا تضيع. وفي غضون ذلك، المكتبةُ موجودةٌ وتصمدُ أمام الزمن.»

سأل فيل:

— «إذًا، لِمَ تمرد ألبريتش؟»

ابتلعت إيرين ريقها؛ لم تتوقع أن يصل إلى هذه النقطة بـهذه السرعة. القليل الذي كانت تعرفه عن ألبريتش كان سيئًا بما يكفي لـتكون سعيدةً بـاعتباره مجرد أسطورة. لم تكن ترغب في التفكير فيه كـشخصٍ حقيقي بـدوافع مرعبة. ثم رمشت بـعينيها وسألت:

— «لحظة، كيف عرفتَ ذلك؟»

لوح فيل بيده بلا مبالاة قائلًا:

— «الأمر بسيط؛ فالرجل بوضوح فارٌّ من منظمتكم الخاصة. وبالنظر لما أعرفه عنها منكِ، فإن دوافعه المحتملة إما منفعةٌ شخصية، أو أنه يمتلكُ مبادئ كبرى تتعارضُ مع مهمتكم المعلنة —— وهي حفظ الكتب وعدم التدخل في شؤون العوالم الأخرى. ولكن لو كان الأمرُ يتعلق بمنفعةٍ شخصية، فلِمَ يتكبدُ عناء مطاردة واغتيال أمناء المكتبة الآخرين؟ لو أراد المال أو الشهرة أو المغامرة، فمن المفترض ألا يعترض أمناء المكتبة طريقه، ما لم يعق بحثهم عن كتبٍ معينة. وأيُّ كتابٍ قد يكون بهذه الأهمية له لو كان يسعى وراء الربح الشخصي؟ لذا ربما يمتلكُ خطةً أكبر، تتطلبُ عدم تدخلكم. وهذا يتطلبُ أن يكون مدفوعًا بسلطةٍ شخصية أو يمتلكُ هدفًا يعتقدُ أنه أهم من بحث مكتبتكم عن الكتب. وردُّ فعلكِ يؤكد هذا —— وإلا فلماذا يشعرُ وكلاء المكتبة بمثل هذا الرعب تجاه وكيلٍ متمردٍ واحد؟»

ذكرت إيرين نفسها بمرارة ألا تستهين بـ فيل مرةً أخرى. كما تجاهلت كاي، الذي كان يداعبُ أصابعه في حجره بهالةٍ من اللامبالاة المتبجحة.

حسنًا، أفترضُ أنني يجب أن أكون سعيدةً لتحسن مزاجه.

قالت بتردد:

— «رحل ألبريتش من المكتبة منذ فترةٍ طويلة. وأنا أفتقرُ لتصريحِ الاطلاع على المعلومات الكاملة حول سبب رحيله.» أو أي معلوماتٍ تتجاوزُ الحد الأدنى الضروري.

— «إذًا —— هذا الـ ألبريتش يشكلُ تهديدًا مستمرًا. هل تقاطعت طرقه بطرقكِ من قبل؟»

هزت إيرين رأسها قائلة:

– «لا، والحمد لله. كنتُ قد سمعتُ عنه بالطبع، الجميعُ يسمعون عنه—»

تدخل كاي بـنبرةٍ لم تكن مفيدةً تمامًا:

– «حتى أنا سمعتُ عنه.»

قالت إيرين قبل أن يطلب فيل توضيحًا لـتلك الجملة:

– «كاي هو تلميذي ومساعدي. وأعلم أن فكرة وجود أمين مكتبةٍ متمردٍ وشرير قد تبدو كـنوعٍ من الإشاعات. ذلك النوع من الإشاعات التي يتم تناقلها عبر السنين لـتخويف المبتدئين. ولكن كانت هناك قصصٌ عن أشياء تحدث لـأشخاصٍ نعرفهم حقًا.»

سأل فيل:

– «أشياء؟»

أجابت إيرين بـصراحة:

– «أناسٌ يموتون.. وتُرسلُ قطعٌ منهم إلى المكتبة.»

انتفض كاي وبدأ يقول: «أكان ذلك سبب ما جرى لـ دومينيك—»، ثم صمت متأخرًا بـلحظة.

قالت إيرين:

– «لا أدري.» ثم التفتت لـ فيل مرةً أخرى. «ما يحاول كاي قوله هو أن أمين المكتبة الذي كان من المفترض أن يكون متمركزًا هنا، في هذا العالم البديل، قد قُتل بـوضوحٍ وجُرِّد من جلده. لقد اكتشفنا ذلك قبل أن أقع في الفخ الذي ذكرتُه — فخٌ نُصب بـاستخدام قوى الفوضى.

وهذه القوى هي شيءٌ يستخدمه ألبريتش.» لم تستطع كتم نبرةِ الاشمئزاز في صوتها.

أومأ فيل برأسه وقال:

— «إذًا، الفوضى.. هل هذا ما نطلقُ عليه «السحر»؟»

حاولت إيرين التفكير في كيفية شرح ذلك. كانت تخطط لتجاوز هذا الجزء قدر الإمكان، نظرًا لكراهية فيل الواضحة للسحر.

قالت بدبلوماسية:

— «ليس بالضبط. وفقًا لنموذجنا الكوني ——» كانت تلك عبارةً لبقة لتجنب قول "هذه هي حقيقة الأمور" «—— هناك قوى نظام وقوى فوضى فاعلة في كل العوالم. وأحيانًا تتخذُ شكلًا ماديًا، وتظهرُ ككيانات —— أو تجسيداتٍ للنظام أو الاضطراب إن شئت. قوى النظام تدعمُ العقل والقوانين الطبيعية، أما قوى الفوضى فتدعمُ المستحيل والأشياء غير العقلانية أو المضطربة بشكلٍ صارخ. على سبيل المثال، التنانين هي قوى نظام، و«الفاي» يدعمون الفوضى. الحقيقة ضد الخيال، إن شئت القول.»

تصلب فيل ككلب صيدٍ شمّ رائحة فريسة وسأل:

— «إذًا، اللورد سيلفر هو أحدُ داعمي الفوضى نفسها؟»

أومأت إيرين برأسها وقالت:

— «هذا العالم البديل متأثرٌ بقوةٍ بالفوضى. وسيلفر هو بالتأكيد أحدُ كائنات «الفاي» الصغرى، الذين ينحصرون عادةً داخل عالم بديلٍ واحد. لا أدري إن كان من الكبار، ولكني آمل بصدقٍ ألا يكون كذلك؛ فمثل هذه المخلوقات تمتلكُ حتى القدرة على التنقل بين العوالم.

ولكن لا علاقة لهم بـالمكتبة.» أرادت توضيح هذا تمامًا. «نحن لا نختلطُ بهم.»

قال فيل بـجفاء:

— «باستثناء عند الحصول على دعوات الحفلات.»

قالت إيرين بـحزم:

— «أريد ذلك الكتاب. ويبدو أنه يريده أيضًا، وكذلك ألبريتش. أحتاجُ لـمعرفة من يملكه. لو كان لدى سيلفر أو ألبريتش الكتاب بالفعل، لـما كانوا يبحثون عنه. وبمجرد حصولي عليه، سأغادرُ أنا والسيد سترونغروك هذا العالم، ولن نضطر لـإزعاجك مرةً أخرى.»

أومأ فيل قائلًا:

— «حسنًا.» مرةً أخرى، كان هناك شعورٌ بأن المواجهة قد أُجلت حتى يمتلكُ ذخيرةً كافية. ربما أراد تقديمها لـلعدالة هي الأخرى، أو ربما أراد ببساطة زيارة المكتبة. تابع قائلًا: «إذًا، أخبريني، متى قُتل أمينُ المكتبة المتمركزُ هنا، وأين، وكيف؟»

أطرقت إيرين بـنظرةٍ لـ كاي وقالت:

— «حسنًا، لا بد أن ذلك حدث في وقتٍ ما بين بعد ظهر أمس وصباح اليوم، لأننا التقينا به أول مرة بعد ظهرٍ أمس عندما عبرنا من المكتبة الأم. المدخل يقعُ في المكتبة البريطانية.» أضافت ذلك بـترددٍ طفيف.

قال فيل بـتفكير:

— «حقًا؟»

تابعت إيرين:

– «وعندما عدنا هذا الصباح لـنتحدث معه..» صمتت، متمنيةً ألا تضطر لـلدخول في الجزء التالي. «آه، لدينا سببٌ لـافتراض أنه كان ميتًا بـحلول تلك اللحظة، ربما منذ عدة ساعات.»

سأل فيل:

– «لماذا؟ هل وجدتم جثته؟»

قالت إيرين:

– «وجدنا جلده.. في جرةِ خل.»

مدّكاي يده ولمس معصمها. كانت تعلمُ أنه من غير اللائق أن تُظهر الضعف، لكنها وجدت في ذلك تعزية.

استند فيل بـظهره على كرسيه وقال:

– «أرى ذلك. لا بد أن تلك كانت صدمةً كبيرةً لكِ يا آنسة وينترز.»

تذكرت إيرين الرائحة النفاذة، وانقبضت معدتها. وقالت:

– «نعم، لقد كانت كذلك. أنا آسفة، أخشى أنني أجدُ صعوبةً في أن أكون متجردةً كما ينبغي.» لقد كان الرجلُ ودودًا، ومساعدًا، ولطيفًا بـبساطة..

سألها فيل:

– «وأنتِ متأكدةٌ تمامًا من أنه كان الشخص الذي تتصلون به؟»

أومأت إيرين بـتردد؛ لم تكن تريد الاعتراف بـهذا الجزء لو كان بـإمكانها تجنبه. وقالت:

– «كلُّ أمناء المكتبة يحملون وسمًا على أجسادهم. يبدو كـوشمٍ بـالحبر الأسود، ولا يمكن إزالته.»

بدا بـوضوحٍ أن فيل يفكرُ في طلب رؤية وسمها، لكنه أومأ بـرأسه بعد ترددٍ لـلحظةٍ؛ فـربما كان عدم عرضها لرؤيته تلميحًا كافيًا لـه.

سأل:

— «وهل ـ إذا سمحتِ لي بـالصراحة ـ الفخُّ الذي نُصب كان لغرض قتلك؟»

كانت إيرين تحاول تجنب التفكير في الأمر؛ فـلديها الكثير من الطرق المثمرة لـإشغال عقلها عن طريقةٍ أخرى كادت أن تموت بها في اليومين الماضيين.

قالت:

— «نعم. لو لم يقطع السيد سترونغروك صلتي به، لـكان قد فعل بـالتأكيد. لـكان قد عجزني تمامًا وتركني بلا حولٍ ولا قوة. و..» قطبت جبينها، وشعر عقلها بـشيءٍ هام. «دعني أفكر؛ لا بدّ أن ألبريتش عرف أنني أنا من سألمس الباب، وليس السيد سترونغروك، لأنني وحدي من يمكنه دخول المكتبة. وحتى لو نجوت، لـكان يعلمُ أن تلوث الفوضى سيمنعني من دخول المكتبة. كما أنه سيكون مدركًا أن التلوث لن يدوم إلا لبضعة أيام.»

أومأ فيل، واشتعلت شرارةٌ في عينيه وقال بـدفءٍ أكثر مما أظهره في أي وقتٍ مضى:

— «هذا يبدو منطقيًا. لـنفترض أن ألبريتش الخاص بك هذا——»

قاطعت إيرين بـحدة:

— «ليس ألبريتش الخاص بي!»

تأفف فيل وقال:

— «ألبريتش إذًا. لـنفترض أنه توقع أن تكتمل خططه في غضون بضعة أيام، وعندها لن يهم إذا تواصلتِ مع المكتبة. وبما أنه كان لا يزال موجودًا اليوم، وبـوضعِ جريمة القتل في الاعتبار، فـلا يمكن لتلك الخطط أن تكون قد اكتَملت بعد. خاصةً وأنه كان لا يزال يحاول إبعادنا، أو بـالأحرى إبعادكِ أنتِ، من طريقه.»

قال كاي وهو يخرجُ من استغراقه الجهم في ذاته:

— «هذا يبدو معقولًا. ولكن، إذا لم يكن يملكُ الكتاب، ونحن لا نملكه، وبرادامانت لا تملكه، وسيلفر لا يملكه — وإذا كانت «أخوية الحديد» مسؤولةً عن التماسيح، فلا يزالون في وضع الهجوم، فـهم لا يملكون الكتاب أيضًا..» هز كتفيه وسأل: «من الذي يملكُ الكتاب إذًا؟»

تمتم فيل:

— «لا أحب استبعاد الجناة المحتملين دون دليلٍ قاطع. لكني لا أرى سببًا لـاهتمام «أخوية الحديد» بـكتابِ حكاياتٍ خرافية؛ فـهم يميلون أكثر نحو النماذج التكنولوجية. لو كان أحد دفاتر ليوناردو دافنشي المفقودة، لـكان الأمرُ مختلفًا تمامًا. فـإذا فكرنا في الأمر..» وصوب نظرةً نحو إيرين: «لِمَ قد يرغبُ ألبريتش الخاص بكِ في سرقة كتابِ حكاياتٍ خرافية؟ أمن باب النكاية؟»

قال كاي:

— «ربما هناك شيءٌ غير عادي في هذه النسخة بالذات من الكتاب. ربما هناك شيءٌ مخبأ في التجليد، أو رسالةٌ مشفرة..»

هزت إيرين رأسها قائلة:

— «لا أعتقد ذلك. السببُ الذي يجعلني أظن أن المكتبة تريده هو أنه قد يحتوي على شيءٍ لا تحتويه النُسخُ الأخرى من «حكايات غريم»

في العوالم الأخرى. أي: قصةٌ جديدة، أو عدة قصصٍ جديدة. فلا فائدة من جمعه لو كان مطابقًا لـما في العوالم الأخرى. ولكن إذا كان ألبريتش يريده؟ فأنا لا أعرف حتى ماذا يريد ألبريتش.»

أدركت أنها بدأت في التذمر، فأجبرت نفسها على التركيز.

تابعت:

— «لا يمكن أن يكون السببُ وجود صلةٍ هامة بين الكتاب وهذا العالم البديل؛ فهو ليس فريدًا بما يكفي لذلك. هناك الكثير من النُسخ الأخرى لـ «غريم» في الخارج. مثل هذه الصلة تتطلبُ كتابًا محددًا للغاية وله علاقةٌ بذلك العالم البديل.»

وخزتها يدها، فـفركتها بـتوتر، ثم حاولت التوقف قبل أن تزيد الأمر سوءًا. بالتأكيد لن توافق برادامانت على ما ستسمعه الآن. كما أن مرشدتها كوبيليا كانت لـتمنعها بلا شك من الإفصاح عن شكوكها.

ولكن كوبيليا لم تكن لـتتوقع أيًا من هذا.. أليس كذلك؟

قالت بـبطء:

— «أحيانًا تتسربُ معلوماتٌ عن المكتبة. ليس فقط في محادثات مثل هذه؛ فـأمناء المكتبة يُراقبون، أو يتحدثون أكثر مما ينبغي، أو ربماً يكون لـ «الفاي» يدٌ في الأمر. ليس هذا بالضبط ما تدربتُ عليه.» صمتت لـترجمة أفكارها إلى نظريةٍ تكون منطقيةً لـ فيل أيضًا. «وغالباً عندما يحدث هذا، تنتهي هذه المعلومات بـأن تُسجل في أعمالِ —— حسنًا —— أعمالِ خيال.»

رمش كاي بـجفنيه دون أن يتحرك وقال:

— «لقد سمعتُ شيئًا من هذا القبيل.»

أكدت تلك الجملةُ حقيقته بالنسبة لها؛ فالمتدربون لا يُخبَرون بهذا الأمر أبدًا، بل إن أمناء المكتبة المرتبطين تمامًا بالمكتبة هم من يحصلون حتى على أبسط التعليمات حوله. إيرين نفسها كانت أمينة مكتبةٍ كاملة، وإن كانت مبتدئة، ومع ذلك لم تحصل إلا على بضع تلميحات. إذا كان كاي قد «سمع شيئًا من هذا القبيل»، فلا بد أنه سمعه من تنانين أخرى، وليس من أمناء المكتبة.

قالت بنبرةٍ هادئة:

- «بالفعل. وإذا كان هناك سرٌّ يخص المكتبة في هذا الكتاب، فقد يفسرُ ذلك سبب حرص ألبريتش الشديد على الحصول عليه. وسيلفر أيضًا؛ فبعض «الفاي» يعرفون عن المكتبة، ويهتمون بأمرها. إذا اعتقد سيلفر أن الكتاب يحوي سرًا ما — حتى لو لمجرد أن الآخرين يحاولون الحصول عليه — فسيجعل ذلك الكتاب لا يُقاوم بالنسبة لشخصٍ مثله.»

قطب كاي جبينه وسأل:

- «ولكن إذا كان سرًا بهذه الضخامة، لِمَ يُرسلون — إمّم، اعذريني يا إيرين — لِمَ يُرسلون مجرد أمينة مكتبةٍ شابة للحصول عليه؟ لِمَ لا يُرسلون خبيرًا؟ أو عدة خبراء؟»

قال فيل بتفكير:

- «يمكن اعتبارُ ذلك في الواقع دعمًا لنظرية الآنسة وينترز؛ فلكي لا يجذبوا انتباه ألبريتش، قد يكون رؤساؤكِ قد اختاروا إرسال شخصٍ ليس لديه أدنى فكرة عن أهمية الكتاب. شخصٍ لن يُنظر إليه كخيارٍ واضح للمهمات الهامة.»

قررت إيرين أن هذا ليس الوقت المناسب لـإظهار ضيقها أو إبداء ملاحظاتٍ حادة حول مكانتها في المكتبة، خاصةً وأن فيل كان على حق.

تابعت قائلة:

— «ولكن لـسوء الحظ، اكتشف ألبريتش الأمر على أي حال. وبالتفكير في الأمر، فـإن هذا يفسرُ وجود برادامانت؛ فربما اعتقد أحدُ كبار أمناء المكتبة أنني لن أكون على قدر المهمة، فـقرر إرسالها.»

وأضافت بـجهد: «فهي تمتلكُ خبرةً أكثر مني، بعد كل شيء.»

ثم كان هناك كاي؛ مجرد متدربٍ في الظاهر، ولكنه في الحقيقة تنين. حسنًا، على الأرجح هو تنين. كانت بحاجةٍ لـحديثٍ خاص معه، فـهم ببساطة لم تسنح لهم الفرصة منذ حادثة النهر. لو كانت كوبيليا تعرف ذلك، فـإن تكليفه بـالمهمة كان دعماً أكثر أهميةً بكثير مما بدا عليه في الأصل.

أومأ فيل بـرأسه وسأل:

— «إذًا، إذا كانت زميلتكِ برادامانت —— اسمٌ حركيٌ آخر، كما أفترض؟»

أومأت إيرين بـرأسها وقالت:

— «كل اسمائنا كذلك.» كان الأمرُ أبسط من محاولة شرح اختيار أمناء المكتبة لـأسمائهم له.

— «حسنًا. وصلت زميلتكِ برادامانت إلى هنا قبلكِ، وانتحلت شخصية اللصة بيلفيغور. عملٌ ذكي؛ فلا بد أنها خططت لـإخفاء سرقتها لـهذا الكتاب المحدد وسط سرقاتِ كتبٍ أخرى. إبرةٌ في كومةِ قش، كما يقول المثل. هل تظنين أنها ستكون مستعدةً لـإعادة الكتب الأخرى؟»

فكرت إيرين في الأمر؛ نظريةُ فيل كانت منطقيةً للغاية، وكانت تسبقُ استنتاجاتها بخطوة. (كانت دائمًا تتساءل، أو حتى تحلم، كيف يكون العملُ حقًا مع المحققين العظماء، بدلًا من مجرد القراءة عنهم. لقد كان الأمرُ مزعجًا أكثر مما توقعت). كانت الاحتمالات تُشيرُ إلى أن برادامانت احتفظت بالكتب — ففي النهاية، لو نجحت مهمتها الخاصة، لكان بإمكانها التبرعُ بها للمكتبة أيضًا.

قالت:

— «يمكنني سؤالها؛ فالمهمةُ الحالية أهم بكثيرٍ من هذه الكتب الأخرى.»

تدخل كاي قائلًا:

— «ولكنها مهمتنا نحن!»

تنهدت إيرين؛ لقد تجاوز الوقتُ منتصف الليل بكثير، وكان يومًا حافلًا للغاية، وشعرت بتعبٍ يسري في عظامها.

وقالت:

— «انظر يا كاي. في الوقت الحالي، أهمُّ شيءٍ هو إبعاد ذلك الكتاب عن يد ألبريتش. إذا كان يريده، فمن الضروري ألا يحصل عليه. وثاني أهمِّ شيء هو إيصاله للمكتبة. أعترفُ بأن فشلي لن يبدو جيدًا في سجلي؛ ولكن في نهاية المطاف، لا يهمني إذا كنتُ أنا من سيحضره، أو أنت، أو حتى إذا أحضرته برادامانت ونالت كل الفضل وقضت السنوات العشر القادمة في تذكيري بذلك. وإذا كان ذلك يعني وعدها بالكتاب مقابل إعادة الكتب الأخرى لـ فيل، فسأفعلُ ذلك.»

قال كاي بتردد:

— «هذا نبيلٌ للغاية، ولكنه لا يحل مشكلتنا الأصلية؛ أين هو الكتاب؟»

قال فيل بحزم:

— «أعتقدُ أن هذا شيءٌ يمكننا اكتشافه عندما تحضر السيدة برادامانت لنستجوبها. لقد وافقت على المجيء لرؤيتك غدًا، أليس كذلك؟ وإذا لم يطلق سينغ سراحها، فبإمكاننا الذهابُ واستجوابها في السجن.»

أومأت إيرين برأسها، وكانت على وشك المتابعة عندما رفع فيل يده.

وقال:

— «شيءٌ آخر؛ عندما أشرتِ لـ «الصلات الهامة» و «الكتب المحددة لعالمٍ بديل» — هل تمانعين في التوسع في ذلك؟»

تبًا له! كانت إيرين تأملُ في تجاوز تلك النقطة دون الخوض في تفاصيل أخرى. وأدركت متأخرةً أنه ما كان عليها ذكرُ ذلك الجزء في المقام الأول؛ لقد كان غباءً منها.

قالت بتردد:

— «بعض الكتب لها صلةٌ هامة بالعالم البديل الذي تأتي منه؛ فهي تساعدُ في ربط المكتبة بذلك العالم. وهذا ليس أمرًا سيئًا في حد ذاته؛ فالمكتبةُ قوةُ استقرار، لذا فهي تساعدُ حتى في درء تأثيرات الفوضى مثل «الفاي».»

كان هذا نصف الحقيقة. أما النصف الآخر — وهو احتمال أن الكتب ذات الصلة الهامة بالعالم البديل قد تؤثر في ذلك العالم نفسه، بل وقد تغيره بطريقةٍ ما — فلم يكن سوى نظريةٍ في مستواها الوظيفي

في المكتبة. وهي نظريةٌ كانت ترغبُ بـتزايدٍ في البحث عنها بـمزيدٍ من التفصيل، ولكن لم يكن هناك وقتٌ لـذلك حاليًا. كما أنه كان شيئًا لن تخبر به فيل أبدًا. سمّها تشاؤمًا، لكن إيرين شكت في أنها لو أخبرته بـذلك، فـلن يتعاون معها في الحصول على الكتاب بـأي حالٍ من الأحوال؛ فـسيكون قلقًا للغاية بشأن ما قد يعنيه ذلك لـعالمه الخاص. ففي النهاية، قد أوضح أنه لا يثق بالضرورة في نوايا المكتبة.

انقضّ فيل على كلماتها قائلًا:

— «وعالمي؟ أيُّ الكتب هي «الهامة» هنا؟»

— «لا أدري يا سيدي.» رأت أن فيل يهمُّ بالاعتراض، فـهزت رأسها قائلة: «لا، أرجوك. صدقني يا سيد فيل. نحن لا نُخبَر بـهذا. إنهم لا يخبروننا. إنها معرفةٌ خطيرة.»

استند بـظهره على كرسيه، وبدت ملامحه جائعةً وغير راضية. وسأل:

— «ألا تشعرين بـالفضول أبدًا يا آنسة وينترز؟ ألا تريدين المعرفة؟»

أجابت بـاقتضاب:

— «أنت تشيرُ إلى أنني أملكُ نوعًا من الفضول الأكاديمي تجاه الأمر.» ومن زاوية عينها رأت كاي ينحني للأمام. تابعت: «لقد أخبرتُك بالفعل أن اهتمامنا ينصبُّ على الكتب. ليس..» بحثت عن كلماتٍ تعبرُ عن معناها بـقوةٍ كافية: «ليس في القوى الكبرى المغيرة لـلعالم.»

قال فيل بـجفاء:

— «نعم يا آنسة وينترز. هذا بالفعل ما أخبرتِني به.»

ضربها اتهامه الضمني بـالكذب، أو على الأقل بـالمراوغة، كـلطمةٍ على الوجه. وما زاد الطين بلة هو أنه كان محقًا في بعض الجوانب.

غضت بصرها ولم تستطع إجابته. والأسوأ من ذلك كله أنه لـأول مرةٍ منذ سنوات، بدت جملة «نحن نفعلُ هذا فقط لـحفظ الكتب» تافهة، وبدا اختيارُ عدم المعرفة صبيانيًا.

تابع فيل حديثه فوق رأسها المطرق:

— «ومع ذلك، قد تكون هناك أسبابٌ وجيهة لـعدم المعرفة. ربما خوفًا من أن يكتشف زميلكم ألبريتش هذا الأمر. وربما ببساطة يرفضُ كبارُ أعضاء هذه المكتبة إخباركِ، لو كانوا يعرفون هم أنفسهم. وربما ترفضين أنتِ ببساطة إخباري، من أجل سلامتكِ، أو سلامتي.» كانت نبرته رحيمةً بـتجرد، وشعرت بأنها لا تستحقُها. وأضاف: «لا بد أن الأمر محبطٌ للغاية يا آنسة وينترز. التساؤل.»

لم تستطع إجبار نفسها على النظر إليه، وقالت:

— «لو كان الأمرُ هامًا، لـأخبروني.»

أجاب فيل:

— «أو ربما هو أهمُّ من أن يُخبروكِ به؛ تمامًا كما هو الحال مع الاقتراح بـأن الكتاب يحتوي على معلوماتٍ سرية، وهو ما ناقشناه سابقًا. نحن نفتقرُ لـلمعلومات الكافية لـنعرفً على وجه اليقين أيهما أصح. ولكن ثمة أمرٌ واحدٌ مؤكد؛ لا يمكننا السماحُ لـهذا الكتاب بالوقوع في يد ألبريتش.»

سأل كاي بـتهلل:

— «هل تقبلُ ذلك؟»

قال فيل:

— «قد أكون متشككًا، لكني آملُ أنني لستُ غبيًا. ففي النهاية، قد أوضح موقفه تجاهي بـشكلٍ جليّ للغاية.»

تنفست إيرين الصعداء وقالت:

— «إذا لم يكن لديك اعتراض، فهناك شيءٌ آخر أودُّ القيام به قبل أن ننام.»

— «ما هو؟»

ابتسمت إيرين قليلًا؛ كان من الجيد أن تعرف أن هذا الأمر صار في مقدورها مرةً أخرى، بعد أن طردت تلوث الفوضى من جسدها، وأن فيل يثق بها بما يكفي ليفكر في الأمر. ساعدها ذلك على الشعور بقدرٍ أقل من الخزي تجاه نفسها.

قالت:

— «من الممكن ربطُ مساحةٍ مشابهة بشكلٍ مناسب بالمكتبة.» وأجالت بصرها في مكتب فيل مرةً أخرى. «من الناحية العملية، هذا يعني ضرورة وجود عددٍ معقولٍ من الكتب، أو نوعٍ آخر من وسائط التخزين. لن يُمكّننا هذا من العبور، ولكنه سيـ.. حسنًا، يمكنه أن يجعل هذه المنطقة نوعًا من ملحقات المكتبة، وهذا سيمنعُ مخلوقات الفوضى من الدخول. أو بشكلٍ أدق، سيمنعُ ألبريتش من القدرة على الدخول؛ لو أدرك أننا نجونا..»

— «آه، فكرةٌ جيدة. وهل سيتضمنُ هذا أي نوعٍ من «السحر»؟»

قالت إيرين بنبرةٍ تمنت أن تكون مطمئنة:

— «فقط القوة الفطرية للمكتبة نفسها.» لم تكن ترغب في الدخول في مسألة «اللغة» برمتها؛ فقد قالت بالفعل أكثر مما ينبغي لليلةٍ واحدة لشخصٍ غريب. «ربما لن تلاحظ أي شيءٍ على الإطلاق.»

سأل فيل:

— «لِمَ لم يفعل زميلكِ الذي قُتل هذا الأمر؟ أم تراه قد فعله؟»

أجابت إيرين:

— «لم يكن ليدوم.» لقد مرت بهذا في التدريب الأساسي. «المشكلة في إعلان منطقةٍ ما متوافقةٍ مع المكتبة هي أن ذلك لا يعمل إلا طالما لم يأخذ أحدٌ أي كتبٍ منها. سكنك سيكون آمنًا لأن لا أحد سيخرجُ أي كتبٍ من هنا هذا المساء. أما السيد أوبري فلم يكن ليستطيع فعل الشيء نفسه بـ المكتبة البريطانية؛ فالحماية كانت ستسقطُ في اللحظة التي يخرجُ فيها أحدهم كتابًا منها.»

— «آه.» استند فيل بظهره على كرسيه وقال: «حسنًا. يمكنكِ المباشرة يا آنسة وينترز.»

لم يستغرق الأمرُ طويلًا؛ فببساطة استحضرت المكتبة بـ «اللغة»، بأقصر طريقةٍ ممكنة يمكن القيام بها بسلاسةٍ دون إلحاقِ ضررٍ بالمتحدث أو المحيط. فكلما كان التعريفُ أكثر دقة، زاد الضررُ الذي قد يلحق بكل ما حوله من خلال هزِّ محيطه ليتوافق لغويًا مع التعريف. فإعلانُ اسم المكتبة غير المختصر —— وهو كلمةٌ واحدة —— من شأنه أن يزيل كل ما هو ليس مكتبة.

لذا استخدمت إيرين نصف دزينة من الجمل. شعرت بقوة التماسك عند حدوث التزامن، ومعها شعرت بقدرٍ أكبر من الراحة؛ شعرت بأنها استعادت السيطرة مرةً أخرى.

قال فيل وهو يفركُ جسر أنفه مقطبًا جبينه:

— «غريب.. ظننتُ أنني سأشعر بشيءٍ أكثر من ذلك.»

سألت إيرين بفضول:

— «بماذا شعرت؟»

– «نوعٌ من الصداع، يشبه الضغط المرتفع قبل العاصفة.» هز فيل كتفيه وأضاف: «ليس لديّ موهبةٌ لـمثل هذه الشعوذات. سببٌ آخر لـخلافي مع عائلتي.»

كانت إيرين على وشك القول: «ليست شعوذة»، لكنها قررت أن الأمر لا يستحق الجدال. كما شعرت بـفضولٍ شديد تجاه قطيعة فيل مع عائلته، لكن هذا لم يكن الوقت المناسب لـلتطفل.

كررت قائلة:

– «يجب أن يبقي ألبريتش في الخارج، وهذا هو الأمرُ الهام.»

– «ممتاز.» نفض فيل يديه ونهض واقفًا، مستعيدًا جديته مرةً أخرى. «إذًا، في الوقت الحالي، أقترحُ أن ننال جميعًا قسطًا من النوم؛ فمعلوماتُ السيدة برادامانت ضروريةٌ لـأي فرضياتٍ أخرى. إلا إذا كان بـإمكانكِ التواصلُ معها بـطريقةٍ غامضة ما؟» أضاف ذلك بـنبرةٍ ملؤها الأمل.

قالت إيرين:

– «أنا آسفة؛ لا أملكُ صلةً محددة يمكنني استخدامها لـلوصول إليها.»

اقترح فيل:

– «صلتُكِ بـالمكتبة؟ ألن يعمل ذلك بـمفرده، أو يمكن استخدامه كـنقطةِ تركيزٍ لـتعويذةٍ أخرى؟»

قال كاي:

– «لن ينجح ذلك؛ فـصلةُ المكتبة تكون بـالمكتبة وليس بـأمناء المكتبة الآخرين، وهي تفوقُ الشعوذات الصغرى. إيرين وبرادامانت في مأمنٍ من تمويهات «الفاي» والتعاويذ البسيطة لأنهما مرتبطان مباشرةً

بـقوةٍ أعظم. ومثل هذه التمويهات ستكون ضئيلةً كـضوء النجوم أمام ضوء الشمس.»

رفع فيل حاجبيه، ووجه اهتمامًا أكثر ودًا لـ كاي مما فعله منذ حادثة روح النهر، وسأل:

– «ولكن ليس أنت؟»

قال كاي وهو يبتسمُ بدوره وهو ينهض، ثم مدّ يده لـيساعد إيرين على النهوض:

– «لا أزالُ متدربًا؛ ففي الوقت الحالي لا أملكُ هذا النوع من الصلة. وما أملكه من قوى هي قواي الخاصة وقوى عائلتي.»

استفسر فيل بـنبرةٍ كانت دعوةً لـلتوسع في الموضوع:

– «عائلتُك؟»

قال كاي:

– «لديهم خلافٌ مؤقتٌ معي حول موضوع مستقبلي. آملُ أن أقنعهم بـوجهة نظري.»

شكت إيرين في أن هناك ما هو أكثر من ذلك. فـالتنانين ـ أو بالأحرى، التنينُ الوحيدُ الذي قابلته ـ بدت وكأنها تتغاضى عن المكتبة كـنوع من الغرابة البشرية؛ فـهي لا تبرزُ إلا لـذوقها المثير للإعجاب في الروايات الخيالية، وبالتأكيد لم تكن حياةً محتملة لـأحد أطفالهم. (أبناء؟ بيوض؟ صغار؟ لم تكن تملكُ مفرداتٍ لـهذا).

لقد صار من الواضح تمامًا الآن لِمَ ادعى كاي أن عائلته ماتت؛ فـهي تتفهمُ لِمَ كذب تلك الكذبة، بـالنظر لـلسر الأكبر. ما لم تكن تعرفه هو كيف سيحلُّ هذا الموقف، أو كيف ستحله المكتبةُ لـه.

ولكن مرةً أخرى، لو كانت كوبيليا تعرفُ حقيقة كاي، فربما كان هناك تنانينُ أخرى طليقةً في المكتبة. ربما كان هناك «تحالفٌ سري». ربما آوت أعماقُ المكتبة لفائفَ ضخمة من التنانين القديمة و..

.. وكانت ستدفعُ نفسها نحو البارانويا بـهذا المعدل.

قالت:

— «أوافقُ على أن النوم سيكون فكرةً جيدة.» مما جعل كلا من فيل وكاي يرمقانها بـنظراتِ ضيق؛ فـبإمكانهما عقدُ جلسةِ تقاربٍ في وقت آخر، أو بعد أن تذهب هي لـلنوم. قد تكون التنانينُ متحفظةً بـشكلٍ عامٍ، لكن هذا التنين بالذات بدا مائلًا لـأن يكون ودودًا، أو حتى عاطفيًا بـشكلٍ صريح، وربما حتى رومانسياً خالصاً. أما هي فـكانت أكثر تجردًا. تجردًا جزئيًا. لقد كان عقلها متعبًا لدرجة أن أفكارها كانت مضطربة جدا.

تابعت قائلة:

— «أكرهُ أن أثقل عليك بـطلبِ سريرٍ يا سيد فيل، ولكن..»

قال فيل وهو يستسلمُ بـلباقة:

— «بالطبع؛ السريرُ في الغرفة الإضافية قد جُهّز لـكِ بالفعل. وأخشى أن على السيد سترونغروك القناعة بـالأريكة هنا. لقد وضعت مدبرةُ منزلي بعض البطانيات، سأذهبُ لـإحضارها.»

بمجرد خروجه من الغرفة، التفت كاي لـإيرين وسأل:

— «حسنًا؟»

— «حسنًا ماذا؟»

عقد ذراعيه بـدفاعية، واعتدل في وقفته لـيظهر بكامل طوله، وقال:

– «توقعتُ أنكِ ستودين التحدث بـشأن.. حسنًا، أنتِ تعلمين. لا بد أنكِ قد خمنتِ.»

لقد فكرت في كيفية التعامل مع هذا الأمر؛ فقد قلبت عدة سيناريوهات في رأسها، ولم ينتهِ أيٌّ منها بدأ بـ «اشرح لِمَ أنت تنين» بـشكلٍ جيد. لقد كان فخورًا، وهي تعرفُ هذا الشعور جيدًا.

قالت:

– «لا. لن أسألك أي أسئلة.»

وقف كاي هناك كـتمثالٍ جميل (بـالرداء المنزلي المستعمل وذي الأكمام المهترئة)، يرمشُ بـعينيه نحوها. كان صوتُ المطر مسموعًا على النافذة لـعدة ثوانٍ قبل أن يتمكن من التحدث مرةً أخرى. وسأل:

– «لن تفعلي؟»

وضعت يدها غير المضممدة على معصمه وقالت:

– «ثقتي بك لم تتغير. أؤمنُ بـأنه لو كان الأمرُ هامًا، لو كان هامًا حقًا، لـكنتَ أخبرتني. لم تكن لـتخاطر بـالمهمة من أجل كبريائك الخاص. ولكن عندما يتعلقُ الأمر بـشؤونك الخاصة —— شؤونك وشؤون عائلتك —— فـأنا لا أنوي التطفل.»

ابتلع ريقَه وقال:

– «إيرين.. هذا نبيلٌ جدًا منكِ.»

قالت وهي تلتفتُ مبتعدة:

– «لا عليك.»

قال لـظهرها:

– «وهذا يجعلني أشعرُ بـخزيٍ شديد.»

آه، الشعور بالذنب. وهو ما كانت إيرين تشعرُ به بـالتأكيد في تلك اللحظة؛ بـسبب ما قالته وما لم تقله لـ فيل، وبسبب الطريقة التي تلاعبت بها بـ كاي. يمكنها أن تخبر نفسها بأنها تصرفت فقط بما كان ضروريًا في موقفٍ خطير، لكنها كانت تعلمُ تمام العلم أنه اعترف بـحقيقته لـإنقاذ حياتها، وهي لم تفعل سوى.. حسنًا، أصدرت له الأوامر وأقصرت علاقتهم إلي علاقة رئيسةٍ ومتدرب. كلُّ مشاعر العدالة الطبيعية بـداخلها شجعتها على الاعتراف لـه بـشيءٍ في المقابل، لكنها لم تكن متأكدةً مما يمكنها قوله.

والآن كان يعرضُ عليها فرصةً أخرى لـلتلاعب به. في بعض الظروف، كانت إيرين لـتُشجع شعوره بالذنب بـسعادةٍ على أملِ دفعه لـلبوح بـالتفاصيل الكاملة، لكن في خضمِّ مهمةٍ لم يكن هذا هو الوقت المناسب. فكرت: لستُ شخصًا طيبًا؛ لـتفكيري فقط في المهمة، وعدم الاكتراث لـمسؤولياتي تجاهه.

التفتت لـتنظر إليه وسألت:

— «ماذا تريدني أن أقول؟ أنا ممتنةٌ لأنك أنقذت حياتنا. شكرًا لك.»

أمرر يده عبر شعره وقال:

— «إنكِ تأخذين الأمر بـهدوءٍ مبالغٍ فيه. كان يجب أن تطالبي بـإجابات، أنَ تكوني غاضبة..»

أشارت بإصبعها نحوه وقالت:

— «ظننتُك قلتَ إنك تعرفني. انظر؛ حتى الآن —— حتى الآن اليوم فقط —— تعاملتُ مع اكتشاف جلدِ أمين مكتبةٍ رفيع المستوى، ومع الوقوع في فخ من طاقات الفوضى، ومع هجومٍ من التماسيح، ومع مواجهةٍ مع ألَبريتش نفسه، ومع محاولةٍ لـإغراقنا في التايمز. وتملكُ

الجرأة، والوقاحة، والجسارة المحضة..» بدأت نبرةُ صوتها ترتفع، ولم تعد تهتم كثيرًا في تلك اللحظة: «.. لـتتوقع مني أن أرفع يديّ في الهواء وأركض في دوائر صغيرة لـمجرد أنك صدف أن كنت تنيناً؟»

قام كاي بـإيماءاتِ تهدئةٍ يائسة بـيديه وقال:

— «ظننتُ أنكِ ستستجوبينني! كنتُ أحاول التفكير فيما سأخبركِ به!»

خفضت إيرين صوتها وقالت:

— «حسنًا، لن أستجوبك. لذا اهدأ. هل سيشعرك بـتحسنٍ لو وعدتُك بـأننا لاحقًا سنشربُ القهوة وسأطرحُ عليك الكثير من الأسئلة الشخصية؟» نعم، كانت تتطلعُ لـذلك، ستتطلعُ لـذلك حقًا.

فاجأها أنها كانت تتطلعُ لـذلك بالفعل.

تنهد وقال:

— «على الأقل سأملكُ ذلك لـأخشاه، كما أفترض.»

صوبت إيرين إليه نظرةً متعمدةً للغاية وسألت:

— «كاي، هل كنت تتطلعُ حقًا لـإخباري بكل شيء؟»

حاول كاي مواجهة عينيها بـطريقةٍ حازمة، لكنه اكتفى بالنظر فوق كتفها وتمتم:

— «ليس الأمرُ وكأنني فعلتُ هذا من قبل.»

قالت بـمعنىً عميق:

— «لاحقًا. أعدُك.»

التفتت لـترى فيل عند الباب وبحوزته مجموعةٌ من البطانيات. وسأل بـتهذيب:

- «هل أقاطعكما؟»

قالت إيرين بحزم:

- «أبدًا.» ومرت من جانبه بقدر ما تستطيع من الوقار. وبإمكانه هو وكاي البقاء للحديث طالما أرادا.

على أملِ ألا تظهر برادامانت بأي حالاتِ طوارئ إلا بعد الإفطار.

الفصل الخامس عشر

استيقظ كاي وفيل قبل إيرين، ودخلت لتجدهما يتشاركان طعام الإفطار. تلاشت جفوةُ الأمس وغابت غمامتها، وبدا أنهما يتحدثان بـودٍّ كافٍ الآن؛ إذ ظهرا مستمتعين بـنقاش السياسة — ذلك العائقُ الذي يقفُ في طريقِ كل الرجال الراشدين — والمهمات السابقة التي تولاها فيل — رغم خلوِّها من الكتبِ عادةً — والمنطاد، والطريقة المثلى للقضاءِ على الحريشِ العملاق.

أصدرت إيرين الأصوات المعتادة لـتحيةِ الصباح، وأكدت أنها نامت بـشكلٍ جيد، وشكرت مضيفها على سؤاله، وطلبت منه بـلطف تمرير مربى البرتقال وهي تأخذُ مقعدها. ثم أخذت تجرعُ القهوة كوبًا تلو الآخر حتى استعادت إنسانيتها، تاركةً الرجلين يستأنفان حديثهما. كانت يدها بـحالٍ أفضل بكثير، حتى وإن كانت لا تزالُ محاطةً بـالضمادات. انقشع مطرُ ليلةِ البارحة، وبدت السماءُ خارج النافذة — حسنًا — بدت صافيةً بـقدرِ ما هو متوقعٌ في ظلِّ الضبابِ الدخاني المستمر. كانت خيوطُ أشعةِ الشمسِ تتسللُ لـلأسفل، ولا شك أن الطيور كانت تغردُ في الريف. لم تكن الأمورُ بـتلك الدرجة من السوء.

وتساءلت في نفسها عما إذا كان بـإمكانها أن تحب هذا العالم البديل حقًا.

فجأةً، طُرق البابُ في الطابق السفلي، وتناهى لـلأسفلِ صوتُ وقعِ قدمين تسرعانِ صعودًا على الدرج.

قال فيل وهو ينفضُ فتات الخبزِ المحمصِ عن أصابعه بـمنديل، ويدفعُ جانبًا الملعقة والبيضة التي كان يستخدمهما لـتوضيحِ النقاط الدقيقة في التحكمِ بـالمنطاد:

— «آه! لا بد أنه سينغ. أنا أعرفُ وقعَ خطواته. ولا شك أن السيدة برادامانت معه.»

سارعت إيرين لـإعادةِ ملءِ كوبِ قهوتها وحاولت تجاهل شعورها بـالهلاكِ الوشيك. لقد كان صباحًا جميلًا بـشكلٍ لا يُصدق.

علقت قائلة:

— «لقد استيقظا مبكرين.»

قال فيل بـمرح:

— «أوه، سينغ مرحبٌ به دائمًا هنا لـتناول الإفطار، خاصةً عندما أعملُ في قضيةٍ يشاركُ فيها.»

ربما كان هذا هو السببُ الذي جعل سينغ يسمحُ لـ برادامانت بـلقائهم هنا، بدلًا من الاحتفاظِ بها في المركز. تساءلت إيرين بـشيءٍ من القلقِ عما إذا كان هناك أيُّ تواصلٍ بين فيل وسينغ ليلة البارحة بعد أن خلدت لـلنوم. انتصبت في جلستها وارتسمت على وجهها ابتسامةٌ عذبة عندما دخلت برادامانت ومعها سينغ. نجحت برادامانت بـطريقةٍ ما في ارتداءِ ثوبٍ صباحي رصين، يبدو أنيقًا وبكرًا بـلونٍ رمادي بـحوافٍ أرجوانية مع «جابوت» وسترة، وكانت تحملُ مظلةً تحت ذراعها. وخلفها، كان سينغ لا يزالُ بـالزيِّ نفسه الذي كان يرتديه ليلة البارحة، لكن شاربه ولحيته بديا في حالةٍ من التأنقِ والتهذيب. كان يحملُ حقيبةً سوداء مكتظةً بالأوراق، يبدو أنها شهدت تحقيقًا أو اثنين من قبل.

قال سينغ وهو يثبتُ عينيه على مائدةِ الإفطار:

— «آه!»

نهض فيل واقفًا وأمسك بـإبريقِ القهوة قائلًا:

— «عزيزي سينغ، يجب أن نتحدث لـلحظة. أيتها السيدات، سيد سترونغروك، نرجو أن تعذرونا. آنستي وينترز، تفضلي بـدعوةِ صديقتكِ لـتناولِ الإفطار. سنعودُ بعد قليل.» وبـخطوةٍ واحدة، جرَّ سينغ معه خارج الغرفة، مصطحبًا القهوة، وتاركًا برادامانت وحيدةً خلفهما.

نهض كاي واقفًا وقال بـعرضِ المساعدة:

— «هل تودين بعض الخبز المحمص؟»

— «بكل سرور.» طوت برادامانت أطرافَ ثوبها وجلست على الأريكة بـجانب إيرين. وسألت: «هل يميلُ مضيفنا عادةً إلى مثل هذه المواقف الدرامية؟»

أجابت إيرين، وشعورها بـالهلاكِ الوشيك يزدادُ سوءًا:

— «أعتقدُ أنه أراد شرحَ شيءٍ ما لـلمفتش سينغ.» مررت إليها الخبز المحمص والزبدة وتابعت: «إنهما صديقان قديمان، ولا شك أنهما أرادا مناقشةَ الأمور بـمعزلٍ عنا. هذا أمرٌ معقولٌ تمامًا.»

— «أوه، بالتأكيد.» نزعت برادامانت قفازاتها، وأمسكت بـسكين، ومسحت الزبدةَ فوق الخبز المحمص. «إذًا، ما الذي لدينا لنقوله لـبعضنا البعض بينما هما خارج الغرفة؟»

استعرضت إيرين قائمةَ اللغات في ذهنها ومدى ملاءمتها لـهذا العالم البديل. لم تكن تستبعدُ أن يكون فيل مصغيًا لـلمحادثة. كانت روسيا الإمبراطورية قد غزت الصين واليابان منذ فترةٍ في هذا العالم، لذا كانت الاحتمالاتُ تشيرُ إلى أن فيل لا يعرفُ اليابانية. ومع ذلك، كانت

برادامانت تعرفها، وبـالنظرِ لـكل الظروف، كانت تعتقدُ أن كاي يعرفها أيضًا.

قالت بـصراحةٍ وبـاللغة اليابانية:

– «لقد أطْلَعتُ فيل ليلة البارحة على أُسسِ المكتبة.»

تكسر الخبزُ المحمصُ وتفتت في يد برادامانت، وسألت بـحدة:

– «فعلتِ ماذا؟»

ردت إيرين على نظرةِ المرأة الأخرى الغاضبة قائلة:

– «لقد هاجمنا ألبريتش في طريق عودتنا إلى هنا.» وقررت استبعاد مشاركة كاي في الحكاية. «لقد حبسنا في عربةٍ وألقى بنا في النهر وتركنا لـنغرق. لقد هربنا، ولكن بعد ذلك اضطررتُ لـإعطاء فيل نوعًا من التفسير.»

الآن عرفت سبب الغثيان في أحشائها، وتلك الحيرة في عقلها؛ لقد كان رد الفعل العصبي نفسه الذي كانت تشعرُ به دائمًا عندما تقدمُ تقاريرها لـ برادامانت منذ عقود، عندما كانت تلميذةً وكانت برادامانت هي مرشدتها في الميدان. كان هذا، بـوضوح، شيئًا لا تزالُ بحاجةٍ لـتجاوزه، إن تمكنت من اكتشاف السبيل لـذلك.

لم تكن برادامانت من النوعِ الذي يصرُّ على الرسمياتِ بينما تقدمُ إيرين تقاريرها؛ بل كانتا تجلسانَ معًا أو في مواجهةِ بعضهما البعض، بـأكبرِ قدرٍ من الراحةِ الممكنة. وفي كل مرةٍ كانت إيرين تحاولُ فيها شرحَ شيءٍ ما، كانت تخطئ. دائمًا.

تأملت برادامانت الإجابة، وهي تبحثُ بـوضوحٍ عن الثغرات. وقالت:

— «كان بـإمكانكِ إعطاؤه قصةً عن جمعيةٍ سرية؛ هذا ما أخبرتُ به المفتش سينغ.»

كانت إيرين تهمُّ بـالرد بـالنفي مرةً أخرى، وقول شيءٍ من قبيل «لم أعتقد أن هذا سينجح» أو «لم أستطع التفكير في طريقةٍ لـجعله مقنعًا»، عندما شعرت بـعيني كاي عليها. كان يفهمُ بـوضوح ما تقولانه. كان ينظرُ إليها بـشيءٍ استغرق منها لحظةً لـتدركه؛ لقد كانت ثقة، وتوقعٌ بـأنها قادرةٌ على التعاملِ مع الأمور. وكان عليها أن تكون جديرةً بـتلك الثقة.

استجمعت شتاتَ نفسها، وأمسكت بـكوبِ قهوتها بـثبات، والتفتت لـتقابلَ عيني برادامانت. وقالت:

— «لقد اتخذتُ قرارًا ميدانيًا بـأن فيل سيكون أكثر فائدةً وتعاونًا إذا عرف الحقيقة —— حسنًا، جانبًا من الحقيقة. في هذا الزمان والمكان، لستُ وصيفةً تقدمُ رأيًا لـملك، بل أنا جنرالٌ في الميدان، ويُتوقعُ مني التعاملُ مع الأمور بـمجردِ وقوعها لـمصلحة المكتبة. فيل رجلٌ ذكيٌ للغاية، ومطلعٌ بـشكلٍ جيدٍ على الوضع الحالي، ومدربٌ على ملاحظةِ التناقضات. لقد أشار ألبريتّش بالفعل لـلمكتبة، واضطررتُ لـاستخدامِ قدراتي الخاصة لـلتحررِ من فخه.»

ومن زاويةِ عينها، رأت كاي يسترخي قليلًا، ويستندُ لـلخلف في كرسيه. تابعت قائلة:

— «إذا كنت أخبرته بقصة ناقصة لم تكن لـتثير سوى ريبة فيل. ولدينا ما يكفي من الأعداء في هذا الزمان والمكان بـالفعل.. يا بيلفيغور.»

تأففت برادامانت وقالت:

— «أفعالي كانت رد فعلٍ صالحًا لـلموقف.»

— «هل لا تزال الكتبُ بحوزتكِ؟»

ترددت برادامانت للحظة؛ فربما خمنت ما كانت إيرين بصددِ اقتراحه. وقالت:

— «نعم. بعضها من النوادر، كما تعلمين. وسوف يقدّرها أمناء المكتبة الآخرون.»

قالت إيرين بسخرية:

— «لا شك في ذلك؛ فطالما كان ذوقكِ رفيعًا. ولكن قد يكون من الضروري إعادة تلك الكتب المسروقة لأصحابها من أجلِ ضمانِ التعاون.»

وضعت برادامانت الخبزَ المحمصَ بتعمدٍ شديد، وحدقت في إيرين. وقالت:

— «أنتِ لا تملكين السلطةَ لتأمري بفعلِ مثل هذا الشيء. أم أنكِ تخططين لتسليمي لأصدقائكِ الجدد بدلًا من ذلك؟»

قالت إيرين:

— «لا تكوني سخيفة.» وحاولت تجاهل الصوت العقلي الذي أشار إلى أنها نعم، ستنجحُ بالتأكيد في إقناع فيل وسينغ بأنها في صفهما. كما كان بمقدور برادامانت الهروب بسهولةٍ من أي زنزانةِ سجنٍ على أي حال. تابعت قائلة:

— «أفترضُ أنكِ أُرسلتِ من قبلِ أحدِ رؤسائنا. لماذا؟»

أجابت برادامانت:

— «للعثورِ على كتابِ "غريم". ونعم، دعيني أطمئنكِ؛ لديَّ أوامرٌ من أحدِ رؤسائنا بهذا الشأن.»

حاولت إيرين ألا تظهر ارتياحها؛ فـ برادامانت لا تزالُ مواليةً لـلمكتبة. وهكذا تم استبعادُ عددٍ من الاحتمالات البغيضة. حتى لو كان هناك نوعٌ من النزاعِ الداخليِّ في المكتبة حول من يُفترضُ به إحضارُ هذا الكتاب الملعون، فعلى الأقل لا داعي لـلقلقِ من أن تكون برادامانت متآمرةً مع ألبريتش.

قالت:

— «من الممكن أن يكون هدفنا هو أحد تلك الكتب المرتبطة بـالعالم البديل بـأكمله. وحقيقة أن ألبريتش يسعى وراءه تظهر مدى أهميته. ولا يمكن أن تعلمي بـمهمتي إلا من شخصٍ ذي مكانةٍ رفيعة. ألا تجعل هذه العواملُ من العملِ معًا لـلعثورِ على الكتاب وإحضاره لـلمكتبة أولويةً مطلقة؟ أم أن لديكِ هدفًا آخر؟»

نفضت برادامانت الفتات عن أصابعها. كان الخبزُ المحمصُ يرقدُ في طبقها، وهو يبردُ بـبطء. وقالت:

— «بالتأكيد، الأولويةُ القصوى لديَّ هي إحضار الكتاب. لكني لا أرى سببًا لـرغبةِ ألبريتش في قتلكِ؛ فـليس الأمرُ وكأن الكتابَ بـحوزتكِ.»

تدخل كاي بـنبرةٍ رسميةٍ للغاية قائلًا:

— «وهل هو بـحوزتكِ أنتِ؟» لم تكن تلك رسميةَ المتدربِ تجاه الأقدمِ منه؛ بل كانت رسميةَ شخصٍ يملكُ السلطة في حدِّ ذاته، لـنظيرٍ له في تخصصٍ آخر.

ومن ملامحِ وجهه، أدرك ذلك متأخرًا بـلحظة.

لم تبدُ برادامانت ممانعة؛ بل منحته ابتسامةً رقيقة، وتساءلت إيرين عما إذا كان أيُّ شخصٍ لا يعرفها سيميزُ الحسابات التي تدورُ خلف عينيها. وقالت:

– «لو كان بحوزتي، لما كنتُ هنا الآن.»

قالت إيرين:

– «أعتقدُ أننا سنستفيدُ من عقدِ مجلسِ حرب، وإلا فمن المؤكد أننا سنُشنقُ جميعًا بشكلٍ منفصل.»

فكرت برادامانت في الأمر، وهي تنفضُ أصابعها مرارًا وتكرارًا حتى لم يعد يتبقى عليها أصغر فتات. وقالت أخيرًا:

– «سأوافقُ على هذا القدر.. في الوقت الحالي.»

أومأت إيرين برأسها، والتفتت نحو الباب، ونادت قائلة:

– «يمكنكما الدخول الآن، أيها السادة.» فلو كان الوضعُ معكوسًا، لكانت تتسمعُ هي الأخرى بالتأكيد.

فتح فيل الباب، وأمسكه ليدخل سينغ. بدا على الرجلين شيءٌ من الانزعاج، وكان سينغ أكثر انزعاجًا من فيل — ولكن بعد ذلك، ذكّرت إيرين نفسها بمن يدري ماذا كانت برادامانت تخبره ليلة البارحة؟ فثمة أشياءٌ قليلةٌ أسوأ من الاعتقادِ بأنك تعرفُ كل شيءٍ عن الأحداثِ السرية، ثم تكتشفُ أنك نُفحت بوجبةٍ دسمةٍ ومقنعةٍ من الأكاذيب.

احتل فيل كرسيَّه ذا المسندين مرةً أخرى. ونظر سينغ لـ كاي بطريقةٍ تشيرُ لأنه اعتاد الجلوس على الكرسي المريح الذي يجلسُ عليه كاي الآن، ثم سحب الكرسيَّ ذا الظهرِ المرتفع من بجانبِ المكتب. أزاح كومةً من الصحف، وجلس بنخرةِ استياء، وأخرج مفكرته وقلمه.

قال فيل وهو يشبكُ أصابعه:

— «لقد كنتُ أناقشُ الوضعَ مع المفتش سينغ هنا. وقد صار من الواضح تمامًا أننا جميعًا نسعى وراء الشيء نفسه. لقد تم استجوابُ عدة أعضاءٍ من «أخوية الحديد» ليلة البارحة —— بتعاونٍ من السيدة برادامانت ——» أومأ لـ برادامانت وتابع: «—— مما كشفَ عن بعضِ الحقائقِ المثيرةِ للاهتمام.»

قالت إيرين وهي تلقي نظرةً على كاي الذي بدا متلهفًا لسماعِ الأخبار:

— «هل لي أن أسأل عما وجدتموه؟»

نظر إليها المفتش سينغ بنفس الريبةِ والحذر اللذين يبديهما تجاه برادامانت. يا للمرح! سأل:

— «لعلكِ تذكرين الانفجارَ الذي وقع منذ ليلتين، تحت دار الأوبرا؟»

أجابت إيرين:

— «أخشى أنني لا أعرفُ سوى التفاصيل الأساسية للغاية عنه. هل كان له علاقةٌ بـ «أخوية الحديد»؟»

أومأ المفتش سينغ برأسه قائلًا:

— «لقد كان كذلك بالفعل يا سيدتي. لقد تصادف اجتماعهم هناك، ولسوء الحظ أدى الانفجارُ لمقتلِ عددٍ من أعضائهم البارزين.»

سأل كاي:

— «لسوء الحظ؟ بالتأكيد، إذا كان هؤلاء الناسُ مجرمين..»

هز المفتش سينغ رأسه قائلًا:

– «ردُّ فعلكَ مفهومٌ يا سيدي، لكن يجب أن تفهم أننا قد تغلغلنا في بعضِ هذه الجمعيات لـدرجةٍ معينة. نحن نعرفُ من يديرها يا سيد سترونغروك، ونعرفُ من المسؤول. ولدينا فكرةٌ عن الاتجاه الذي سيسلكونه في وقت الأزمات، حتى لو لم نتمكن من توجيه أي اتهاماتٍ ضدهم. في الوقت الحالي.» أضاف ذلك بـنبرةٍ من التهديد. وتابع قائلًا: «النتيجةُ السيئة لـهذا الأمر الصغير كانت أن امرأةً لا نعرفُ عنها الكثير تقودُ الجمعيةَ الآن. «المطرقة الكبرى»، على ما أعتقد أنهم يدعونها بـهذا الاسم. وهذه المرأة هي، دعنا نقل، رقمٌ مجهول. وأنا لا أحب الأرقام المجهولة يا سيد سترونغروك؛ فـهي لا تملأ مفكرتي ولا تذهبُ لـلسجن كما ينبغي.»

انحنت إيرين لـلأمام وسألت:

– «هل تقول أيها المفتش إن هذه «المطرقة الكبرى» مرتبطٌ بـأحداثِ ليلةِ البارحة في سفارة ليختنشتاين؟»

قال المفتش سينغ وهو يزمُّ شفتيه بـابتسامةٍ رقيقةٍ مرتابة:

– «لقد أصبتِ يا آنسة وينترز. والآن، بـناءً على ما أخبرني به السيد فيل هنا، أميلُ لـلتساؤل عما إذا كانت هذه المرأة مرتبطةً بـالشخص الذي تعرفونه بـاسم «ألبريتش». فـبالنظرِ لـأن أحد أهداف العرضِ الصغير ليلة البارحة، بـكل ما فيه من تماسيح، كان تفتيش غرف اللورد سيلفر بينما كان منشغلًا.»

قاطع فيل قائلًا:

– «بحثًا عن كتاب.»

أقرَّ المفتش سينغ قائلًا:

— «بالفعل، هذا ما أكده استجوابنا. بحثًا عن كتابٍ محددٍ للغاية. وهو الكتابُ نفسه الذي سرقه لـصٌّ معين من اللورد ويندهام مؤخرًا. أو هل يجب أن أقول، يُعتقدُ أنه سُرق؟» ألقى بـنظرةٍ لـ برادامانت. كان وجهه خاليًا من التعبير، لكن عينيه كانتا داكنتين وغاضبتين للغاية.

بدت برادامانت وكأنها تنكمشُ على نفسها. لو كان بـحوزتها منديل، لـكانت قد وضعته على عينيها بـلا شك وشهقت بـشجاعة. وفي المقابل، ارتعشت شفتُها السفلى وكانت عيناها واسعتين وصافيتين. وقالت:

— «إذا كانت إيرين قد أخبرتكم عن المكتبة، فـلا يوجدُ شيءٌ آخر يمكنني قوله. أنا أعترفُ أنني أخذتُ —» أُعجبت إيرين بـتجنبها الحذر لـكلمة "سرقتُ" «— بعض الكتب من أجل جعل اختفاء نسخةِ "غريم" يبدو غير هام. لكني بالتأكيد لم أقتل اللورد ويندهام. لماذا كنتُ سأرغبُ في قتله؟ أنا لم أعرف الرجلَ قط.»

رفعت إيرين يدها لـتجذبَ انتباه فيل وسينغ. وسألت:

— «هل تمانعان لو سألتُ برادامانت بضعة أسئلةٍ أيها السادة؟ لـأملأَ جزءًا من القصة من جانبي.»

قال فيل:

— «بالتأكيد يا آنسة وينترز.» ومنحها سينغ إيماءةً قصيرة.

التفتت إيرين لـ برادامانت وسألت:

— «لقد رأيتُ بطاقةً في خزنة ويندهام. كانت منقوشةً بـقناعٍ ذهبي وموقعةً بـاسم بيلفيغور. هل كانت تلك أنتِ؟»

تنهدت برادامانت وقالت:

– «نعم. كانت أنا. لقد حصلتُ على مخططاتِ المنزل من جهةِ اتصالٍ محلية..»

قاطعها فيل قائلًا:

– «هذا الشخص المدعو دومينيك أوبري؟»

نظرت برادامانت لـإيرين بـنظرةٍ تقول «أرى أنكِ قد كشفتِ كل أسرارنا المحلية»، ثم أومأت برأسها قائلة:

– «لقد كان هو وويندهام من المعارف لـفترةٍ من الوقت. أعتقدُ أن أوبري ربما كان غير حذرٍ بـالفعل فيما أخبر به ويندهام، ولكن هذه مشكلةٌ أخرى.» كانت الرسالةُ المبطنة هي: تماما كما فعلتِ أنتِ مع فيل. تابعت قائلة: «على أي حال، دخلتُ من السطح بينما كان ويندهام في حفلته في الطابق السفلي. كان من السهلِ نسبيًا تعطيلُ أجهزة الإنذار في خزانة العرض حيث كان يحتفظُ بـالكتاب ––»

تمتم سينغ:

– «أوه، أحقًا كان كذلك.»

تابعت برادامانت:

– «–– وبعد أن أخذتُ الكتاب، تركتُ البطاقة في الدولاب قبل أن أغادر، من السطح مرةً أخرى. لا أعرفُ لِمَ وُجدت في الخزنة.» وهزت كتفيها.

سأل سينغ:

– «في أي وقتٍ كان هذا؟»

أجابت برادامانت:

— «حوالي الحادية عشرة والنصف. كانت الحفلةُ في ذروتها في الطابق السفلي. لم أتوقع أن يصعدَ أيُّ شخصٍ لـمكتب ويندهام في ذلك الوقت.»

أومأ سينغ برأسه، والتفت لـإيرين قائلًا:

— «وفقًا لـخبراءِ الطب الشرعي لدينا، فقد قُتل اللورد ويندهام في وقتٍ ما بين منتصف الليل والساعة الواحدة صباحًا. من الصعب التحديدُ مع مصاصي الدماء، ولكن حقيقة العثور على رأسه فوق الأسوار في الخارج في الساعة الواحدة تمنحنا فكرةً عن الإطار الزمني.»

لم تكن إيرين متأكدةً مما إذا كان هذا يُفترضُ به أن يكون دعابةً أم لا. فقالت بـحياد:

— «أرى ذلك. إذًا في هذه الحالة، من الذي وضع البطاقة في الخزنة؟ اللورد ويندهام نفسه؟»

أقرَّ فيل قائلًا:

— «تبدو هذه هي الفرضية الأكثر ترجيحًا؛ فـالرجل —— أعتذر، مصاص الدماء —— قُطع رأسه في مكتبه، عند طاولة عمله. وقد قال بعضُ الضيوف الآخرين في الحفلة إنه صعد لـلأعلى في منتصف الليل، قائلًا إنه ذاهبٌ لـترتيبِ مفاجأة.»

أومأ كاي بـرأسه قائلًا:

— «إذًا عندما دخل ووجد أن الكتاب قد اختفى، صمم على الاحتفاظ بـبطاقة بيلفيغور لـلتحقيقِ فيها لاحقًا. رغم أنه يبدو حذرًا بـشكلٍ مبالغٍ فيه أن يضعها في الخزنة بدلًا من مجرد تركها في درجِ مكتبه. ولكن هل تعرض للهجوم بعدها؟»

قال سينغ:

– «هذا هو الحال. من قبل أعضاء «أخوية الحديد». لديَّ معلوماتٌ من بعضِ عملائنا؛ ونحن نعتقد أنهم لا بد أنهم كانوا يتنكرون بـزيِّ الضيوف. لقد قاموا ببساطة بـجزِّ رأسه، وخرجوا بـشكلٍ طبيعي، وغرسوه فوق الأسوار وهم يغادرون.»

قطبت إيرين جبينها وقالت:

– «ولكن مقتل ويندهام كان قبل انفجارِ الأوبرا وتغيرِ القيادة في الأخوية. هل هناك صلة؟»

تبادل سينغ وبرادامانت النظرات. وقال سينغ:

– «هذا سؤالٌ مثيرٌ لـلاهتمام يا آنسة وينترز. لكني في الوقت الحالي، أكثرُ اهتمامًا بـمعرفةِ مكانِ الكتاب الذي سرقته السيدة برادامانت.»

نظرت إليه برادامانت بـبرودٍ وقالت:

– «لقد كان الكتاب مزيفًا.»

لـلحظةٍ تداخلت أصواتُ الجميع، ومعظمها كانت تترددُ بين «ماذا؟» و «هل أنتِ متأكدة؟»

قطعت برادامانت الضجيجَ قائلة:

– «وأنا أعلمُ أنه كان مزيفًا، لأنني عندما أعدتُه لـرئيسي، نظر إليه ثم أوضح لي أنه غيرُ مهتمٍ بـالنُّسخِ المقلدة. خاصةً تلك التي تفتقرُ لـأجزاءٍ معينةٍ ذات صلة.»

سألت إيرين:

– «أيُّ أجزاءٍ ذات صلة؟» كانت واثقةً بـشكلٍ كبير من هويةِ الرئيس المعني؛ فـ برادامانت تأتمرُ بـأمر كوستشي مباشرةً، تمامًا كما تأتمرُ إيرين بـأمر كوبيليا. واحتمال تورط شخصٍ آخر، وإعطاء برادامانت الأوامر..

حسنًا، لم يكن مستحيلًا، لكنه كان مستبعدًا للغاية. في الوقت الحالي، بدت مبادئ «نصل أوكام[7]»، بدءًا من الإجابةِ الأكثر وضوحًا، هي الخطة الأفضل. سألتها: «هل أخبركِ؟»

قالت برادامانت بـمرارة:

— «لا. لـلحظة، خانت ملامحُ وجهها مشاعرَ حقيقية؛ غضبٌ، ومرارة، وفضولٌ محضٌ أُحبط.» تابعت قائلة: «لقد أُعطيتُ انطباعًا قويًا بـأنه من الأفضلِ لي ألا أعرف.»

حسبت إيرين الأوقات والتواريخ في رأسها وسألت:

— «إذًا، عندما التقيتِ بي و..» كادت أن تقول كاي، لكنها استدركت نفسها في الوقت المناسب «.. وبـالسيد سترونغروك، في طريقنا لـمهمتنا، كان هذا بعد أن اكتشفتِ أن الكتابَ كان مزيفًا؟»

وافقت برادامانت قائلة:

— «لقد كان كذلك.» ابتسامتها الغامضة كانت تقول «انظروا كم أنا صادقةٌ وصريحة»، وقد استعادت السيطرةَ على ملامحها مرةً أخرى. تابعت: «لقد ظننتُ أنني لو استطعتُ اعتراضَ طريقكما، فـسأتمكنُ من محاولةِ العثورِ على الكتابِ الحقيقي دون تدخلِكما. اعذريني على هذا التعبير.»

قالت إيرين بـهدوء:

— «بالطبع.» كانت تدركُ أن الرجال الثلاثة يصغون إليها. وسألتها: «إذًا بعد ذلك، قررتِ القدومَ على أي حال؟»

---

[7] النصل الأوكامي: مبدأ فلسفي ومنطقي ينصّ على أن أبسط تفسير هو الأرجح غالبًا ما دام يفسّر الوقائع دون افتراضات زائدة. نُسب إلى الفيلسوف الإنجليزي ويليام الأوكامي في القرن الرابع عشر، ويُستخدم في العلم والتحليل لتقليل التعقيد غير الضروري.

أجابت برادامانت:

– «لقد كانت لديَّ ميزةُ معرفةِ هذا المكان مسبقًا. لم أتوقع أن تعملا بسرعةٍ كما فعلتما.»

أجالت إيرين بصرها بين الرجال الثلاثة. لسببٍ ما، كانوا يشتركون في سمتٍ متشابه، مهما كانت ردةُ فعلهم تجاه هذه المعلوماتِ الجديدة. ربما كان نوعًا من الوقارِ الأرستقراطي، يقينٌ فطريٌ بأن العالم سيتعاونُ مع احتياجاتهم.

تمنت لو كانت تشاركهم هذا اليقين.

قال فيل بحزم:

– «ويندهام هو المرشحُ الأبرز لصنعِ النسخةِ المزيفة، بما أن السجلاتِ تظهرُ أنه كان يملكُ الكتاب الأصلي. المفتش سينغ، لو تكرمت بـ..»

قال سينغ:

– «بالطبع.» سحب حزمةً من الأوراق من حقيبته. «لقد قام الكتبةُ والآلاتُ الحاسبة في سكوتلاند يارد بتبويبِ سجلاتِ الأسابيعِ القليلة الماضية للورد ويندهام. لقد حصل على الكتابِ منذ أسبوعين ونصف فقط، في مزادٍ لمقتنياتِ الراحل السيد بونهوم. وقد تم توثيقُه ككتابٍ أصليٍّ من قِبلِ دارِ المزادِ في ذلك الوقت، مما أدى لتحديدِ سعرٍ مذهلٍ له.»

أومأ فيل برأسه قائلًا:

– «لقد تمكنتُ من تتبّع أحد العروض المقدَّمة بالوكالة إلى اللورد سيلفر، عبر المحامي الذي كان يوظّفه. يمكننا أن نكون على يقين من اهتمامه بالأمر».

تابع سينغ:

– «كانت هناك بعضُ التهديدات بعد المزاد أيضًا. مما أدى لـوضعِ الكتاب تحت حراسةٍ مشددة. لذا لو كان قد صنع النسخةَ المزيفة، فـقد كان ذلك ضمن تلك الفترةِ الزمنية.»

سألت إيرين بـدهشة:

– «هل كان من الممكن القيامُ بـذلك بـهذه السرعة؟»

استند فيل بـظهره على كرسيه وقال:

– «هناك ثلاثةُ مزورين بـالضبط في لندن في الوقت الحالي يمكنهم القيامُ بـذلك. وحتى هؤلاء كانوا لـيستغرقوا أسبوعين على الأقل لـلقيامِ بـالأمر.»

أقرَّ سينغ قائلًا:

– «بالفعل. وقد وصلت شحنةٌ من أحدهم ——»

رفع فيل يده وسأل:

– «ماتياس؟»

قال سينغ بـتبجح:

– «لا، ليفانديس.»

قال فيل:

– «ظننتُ أن ماتياس هو من تعامل معه من قبل.»

أجاب سينغ:

– «ربما يكون هذا هو السببُ في عدمِ اختياره لـلتعاملِ معه هذه المرة. على أي حال، كان أحدُ رجالنا يراقبُ ليفانديس في ذلك الوقت —— بـسببِ قضيةِ «سيفيرن»، كما تعلم —— وهي تؤكدُ أنه كان يقومُ

بـرحلاتٍ يوميةٍ لـمنزل ويندهام. ويتفقُ الخدمُ على أنه كان يزورُهم، لكنهم سجلوه كـعاملٍ يقومُ بـبعضِ التعديلاتِ في ألواح الجدران في مكتب ويندهام. ويمكنهم التأكيدُ على أن ذلك كان هو المكانُ الذي يقضي فيه وقته يوميًا. وقد أرسل الشحنةَ النهائية لـ ويندهام قبل ثلاثةِ أيامٍ من مقتله، ولم يزر المنزلَ بعدها.»

أومأ فيل قائلًا:

– «هذا ملائمٌ للغاية.»

وافق سينغ قائلًا:

– «أحيانًا يحالفنا الحظ. لم تكن قادرةً على تحديد ما كان يجري في ذلك الوقت، ولكن بـالنظرِ لـهذا الأمر الآخر..»

قال كاي وهو يقطبُ جبينه:

– «انتظروا. بـافتراضِ أن ويندهام قد صنع نسخةً مزيفة لـسببٍ ما ثم عرضها، فـماذا فعل بـالنسخة الأصلية؟»

قالت إيرين بـتفكير، وهي تذكرُ اللقاء في مكتب ويندهام:

– «لم يعطها لـلورد سيلفر.» رأت شفتي سينغ ترتعشان في تعبيرٍ من الاشمئزاز. تابعت قائلة: «لقد كان سيلفر يفتشُ مكتب ويندهام وخزنته، وأعتقدُ أن الكتابَ كان هو ما يبحثُ عنه. ربما كان ويندهام ينوي إعطاءه لـسيلفر، أو وعده به.»

وافقت برادامانت قائلة:

– «إذا كان سيلفر متورطًا، فـقد تكون هناك شتى الأسباب التي قد تجعل ويندهام يصنعُ نسخةً مزيفة. لو كان الكتابُ ذا قيمةٍ هائلة، لـربما أراد ويندهام حمايته بـعرضِ النسخةِ المزيفة فقط. أو ربما قصد به أن يكون طعمًا لـسيلفر لـمحاولةِ سرقته؛ فـنحن نعرفُ أن «الفاي» يحبون

الأشياء التي لا يمكنهم الحصول عليها. كما كانت بينهما علاقةٌ وثيقة، وإن كانت عدائيةً في بعضِ الأحيان ــــ وقد استفاضت الصحفُ في الحديثِ عن ذلك. ربما أراد ويندهام التباهي بـإعارةِ سيلفر النسخةَ الحقيقية، أو حتى وعده بها لـردٍّ معروف ما. أو ربما قصد خداعه بـالنسخةِ المزيفة. من المستحيلِ معرفةُ ذلك دون استجوابِ سيلفر.»

أو ربما كانت النسخةُ مخصصةً لـ ألبريتش، هكذا فكرت إيرين. هل كان هذا هو المكان الذي يلائم ألبريتش في كل هذا؟ ولكن لو كان الأمرُ كذلك، فـلِم لـم يمتلك ألبريتش الكتاب بـالفعل؟

كان فيل يقول:

— «لقد كان اللورد سيلفر بالتأكيد حليفَ ويندهام الأكثر شهرة وجهة اتصاله. كما كان أحد أشهر أعدائه. هكذا هي علاقات «الفاي».»

وزمَّ شفتيه في استياء. وتابع قائلًا: «ولكن في هذه الحالة، قد لا يزالُ الكتابُ في منزل ويندهام.»

هز سينغ رأسه قائلًا:

— «لو كان هناك يا سيدي، فـهو مخفيٌّ بـشكلٍ جيدٍ للغاية.» شكت إيرين في أن كلمة «سيدي» كانت بـسبب وجود الغرباء. وتابع قائلًا: «لقد ــــ إمّم ــــ فتشنا المكانَ بـشكلٍ شامل بعد مقتلِ اللورد ويندهام. وعثرنا بـالفعلِ على عددٍ من الأشياءِ والوثائقِ المثيرةِ لـلاهتمام، والتي كانت منيرةً بـالنسبةِ لـقضايا أخرى، لكن كتابَ "غريم" لم يكن هناك.»

قال كاي بـنبرةِ أمل:

— «ربما يكون مخفيًا بـشكلٍ جيدٍ للغاية.»

قال سينغ بـنبرةٍ حسمت الموضوع:

— «لقد كان لدينا أفضلُ الباحثين في هذه المهمة يا سيد سترونغروك.»

أعادت إيرين الصياغة وهي تفكرُ بـصوتٍ عالٍ:

— «إذًا الكتابُ الحقيقي ليس في منزل ويندهام، والنسخةُ المزيفة التي سرقتها برادامانت لم تكن لـتبدأ إلا بعد أن حصل ويندهام على الكتاب بـالفعل. وهذا كان لـيستغرق أسبوعين على الأقل لـصنعه. فـهل تم نقله خلال تلك الفترة أم نُسخ قبل وصوله؟» التفتت لـسينغ وسألت: «هل يمكننا التأكد من أن الكتاب دخل منزل ويندهام مباشرةً بعد المزاد، وبقي في مكانٍ عام هناك حتى سُرق؟»

أومأ سينغ برأسه قائلًا:

— «يمكننا ذلك. وبعد وصوله، تؤكدُ شهادات الخدم أن الكتاب —— أو نسخة جيدة جدًا منه —— كان في مكتب اللورد ويندهام طوال اليوم وكل يوم يا سيدتي. الخادمةُ التي كانت تنفضُ الغبار عنه كانت حازمةً للغاية في هذا الشأن؛ فـقد كان اللورد ويندهام يريده بـحالةٍ مثالية.»

— «جميلٌ جدًا. إذًا.. إما أن النسخة الحقيقية أو نسخة ممتازة منها كانت معروضةً طوال الوقت، لكن برادامانت أخذت النسخةَ المزيفة بـالتأكيد. ولا يمكن أن يكون الكتابُ الحقيقي قد نُقل إلا بعد أن صارت النسخةُ المزيفة جاهزة. وإذا كانت النسخةُ المزيفة قد جهزت فقط قبل مقتل ويندهام بـبضعةِ أيام —— بـالنظرِ لـأن المزاد كان قبل ما يزيد قليلًا عن أسبوعين من جريمة القتل، والنسخةُ المزيفة كانت لـتستغرق أسبوعين —— فـلا بد أن الكتابَ الحقيقي قد أُخرج من المنزل في تلك الأيامِ القليلةِ الأخيرة. هذا إذا لم يكن هناك الآن.»

تمتم فيل:

— «تسلسلُ أفكارٍ مثيرٌ للاهتمام.» واضطرت إيرين لبذلِ جهدٍ لكبحِ خجلِ الفخر. من الرائعِ أن يتحقق ولو حلمٌ صغير واحد. والأفضلُ من ذلك عندما يكون مستحقًا بالفعل. تابع فيل: «ولكن لِمَ لا يحتفظ به في المنزل؟»

اقترح سينغ:

— «هناك خطرُ السرقة — من قِبَلِ شخصٍ آخر غير بيلفيغور بالطبع. خزنته قد تكون حصينةً ضد «الفاي»، بالنظرِ لكونها مصنوعةً من الحديد البارد، لكن اللصوصَ البشر كان بإمكانهم فتحها.» ألقى بنظرةٍ ذات مغزى لـ برادامانت. وتابع قائلًا: «لو لم يكن الكتابُ الحقيقي مخفيًا بإحكامٍ شديد، وظهر للعلن، لكشف أن نسخة عرض ويندهام كانت مزيفة — مهما كان السببُ وراء كل هذا التمويه والسرية. أتساءلُ عما كان يخطط له..» وأخيرًا أومأ برأسه لإيرين قائلًا: «أنا أتفقُ مع نظريتكِ يا سيدتي. رغم أنها تعني أن علينا افتراضَ أن اللورد ويندهام تعامل مع الكتاب بنفسه، بدلًا من تسليمه لوكيلٍ أو طرفٍ ثالث للتعاملِ معه.»

قال فيل بحزم:

— «دعونا نبدأ بذلك كفرضيةِ عمل. في تلك الأيام الثلاثة، أين ذهب؟ ومتى كان بإمكانه حملُ كتابٍ معه؟ ما هو حجمُ الكتاب على أي حال؟»

قالت برادامانت وهي ترسمُ الشكل في الهواء بيديها:

— «مجلدٌ ضخم. مجلدٌ بغلافٍ كرتوني صلب، وتجليدٍ جلديٍ ومزينٍ بالرسومات. ربما ست بوصات في ثمان. من المستحيل إخفاؤه تحت معطفٍ أنيق. ولكن يمكن حمله في حقيبةِ أوراق بسهولةٍ كافية.»

قال فيل:

— «ممتاز. هذا يضيقُ الاحتمالات. لم يكن اللورد ويندهام يفضلُ المعاطف الثقيلة. ما الذي يمكنك تزويدنا به بناءً على ذلك أيها المفتش؟»

قال سينغ وهو يقلبُ الأوراق بسرعة: «لحظةً واحدةً من فضلك يا سيدي. لديَّ بعضُ الإفاداتِ هنا من خادمِ اللورد ويندهام الخاص، تتعلقُ بتحركاته في الأيامِ القليلةِ الماضيةِ قبل مقتله. لقد نجحنا في تجميعِ جدولٍ زمنيٍّ لتحركاتِ الرجل بينما كنا نحددُ من قد يرغبُ في قتله. لم يقم بالكثيرِ من الرحلات خلال تلك الفترة، لذا أعتقدُ أننا يجب أن نكون قادرين على استبعادِ عددٍ من الاحتمالات.»

خيم التوترُ على الغرفة. مرت الثواني ببطءٍ مؤلم. فكرت إيرين في اقتراحِ أن يساعدوا جميعًا بأخذِ ورقةٍ لكل منهم والتحقق منها بشكلٍ منفصل. ثم قررت أنها فكرةٌ غبية. ثم فكرت فيها مرةً أخرى. ثم راحت تراقبُ شاربَ سينغ ولحيته وهما يرتعشان وهو يتمتمُ بصوتٍ خفيض ويقلبُ الصفحات.

وبجهد، نظرت نحو النافذة بدلًا من مراقبةِ سينغ وهو يقرأ. بدا أن الجوَّ في الخارج لا يزالُ جيدًا — بالنسبةِ لهذا العالم البديل على أي حال — مع سحب تحلقُ عاليًا وأشعةِ شمس. كانت «صائدةُ الأحلام» التي لاحظتها سابقًا تبدو داكنةً في مواجهةِ السماءِ الشاحبة.

وتساءلت أيُّ نوعٍ من الأحلام يراودُ فيل، حتى يضطر هو — الرجل الشكاك والمنطقي — لـتعليقِ صائدةِ أحلامٍ في النافذة.

قال سينغ أخيرًا:

— «آه، أظنُّ أننا عثرنا على شيءٍ هنا.»

الفصل السادس عشر

قال المفتش سينغ:

— «قبل مقتله بيومٍ واحد، زار اللورد ويندهام مصرفه. لم تكن زيارةً مجدولة، ويبدو أنهً تعذر استقباله على الفور، فأبدى بضعة احتجاجاتٍ جعلت بعض الصرافين يتذكرون زيارته حين كنا نستجوبهم. ومع أن أيًا من الإفادات لم تؤكد ما إذا كان يحمل حقيبة أوراق، إلا أنها لم تنفِ ذلك أيضًا. وهو أمرٌ طبيعيٌ تمامًا لرجلٍ بمنزلته يقصدُ لقاء مصرفيِّه.»

سألت برادامانت:

— «مع أي مصرفٍ كان يتعامل؟»

أجاب سينغ:

— «مصرف لويدز.» ثم قطب جبينه وتابع: «سأحتاج لاستصدار أمرِ تفتيشٍ إذا أردنا فحص صندوق أماناته يا سيدي. سيستغرقُ الأمرُ بضع ساعاتٍ على الأقل، وسيكون أيسر لو توفر لدينا دليلٌ نقدمه للقاضي.»

خيم صمتٌ كئيبٌ على أرجاء الغرفة.

أضاف سينغ:

— «ليس الأمر مستحيلاً بالتأكيد، لكن الدليل قد يعجلُ بصدورِ الأمر قليلًا.»

قالت إيرين بنبرةٍ ملؤها الأمل:

— «إذا كانت أخوية الحديد وراء هجوم ليلة البارحة على السفارة، وكانوا هم أيضًا يبحثون عن هذا الكتاب، فربما يحاولون سرقة صندوق الأمانات من مصرف لويدز.»

نظر إليها سينغ بنبرةِ خيبةِ أملٍ وقال:

— «لقد قلتُ دليلاً يا سيدتي، لا تخميناً.»

قال فيل وهو يصفق بيديه بقوة:

— «حسنًا! أيها المفتش، أقترحُ أن تبدأ في الإجراءات —— وإذا كان هناك أي مكانٍ آخر يمكن للرجل أن يخفي فيه الكتاب، فبإمكاننا مراجعة الاحتمالات بينما ننتظر. هل هناك أي مكانٍ آخر يبدو منطقيًا، أو حتى ممكناً؟»

قال سينغ:

— «ثمة أمرٌ آخر.»

ثم عاد ليقلب في إحدى الصفحات الأولى من حزمة أوراقه وتابع:

— «يبدو أن اللورد ويندهام كان يتبرعُ بالكتب بانتظام لمتاحف مختلفة في أنحاء لندن. كانت عادةً كتباً جمعها في وقتٍ سابق، ولم تعد تثير اهتمامه أو اهتمام شركائه.»

انتفضت إيرين لمجرد فكرة التبرع بالكتب.

— «يا له من استهتار!» هكذا قالت أخيرًا.

صحح لها فيل قائلًا:

— «بل هو إيثارٌ منه بدلًا من اكتنازها لنفسه. استمر أيها المفتش.»

أحدث سينغ خشخشةً بأوراقه، ليؤكد للجميع أنه الممسك بزمام الموقف، وقال:

— «قبل مقتله بـيومين، أرسل اللورد ويندهام صندوقًا صغيرًا من هذه الكتب إلى متحف التاريخ الطبيعي. كتبٌ عن الأعشاب، ومجموعاتٌ عن الحيوانات، وأشياءٌ من هذا القبيل. لقد فحص رجالي الأمر كـجزءٍ من روتين التحقيق في تحركاته قبل مقتله. وقال الموظف الذي تحدثوا إليه إن أحدًا لم يتفرغ لـفحصه بعد. من فضلكِ لا تنظري إليّ هكذا يا سيدتي؛ فـمن المعتاد لـأصحاب المكانة تقديم تبرعاتٍ لـلمتاحف. وقد تمر شهورٌ قبل أن يلتفت أحدٌ لـفحصها، ما لم يتم إخطارهم بـشكلٍ خاص بـوجود شيءٍ ذي أهمية بـداخلها.»

قطب كاي جبينه وسأل:

— «هل تقترحُ أنه أخفى الكتاب الأصلي في صندوق التبرعات؟ أليس ذلك —— حسنًا —— مخاطرةً كبرى؟ لو عثر عليه شخصٌ واحدٌ فقط هناك، لـكان قد فقده. يبدو صندوق أمانات البنك احتمالًا أرجح بكثير.»

خالفته برادامانت قائلة:

— «لا، أنا أرى المنطق في ذلك. فـإذا كان هناك تراكمٌ في مثل هذه التبرعات، فـقد يمر عامٌ كامل قبل أن يفتحه أحد، وكان بـإمكانه استعادته إذا احتاج لـتقديمه لـسيلفر —— أو لـأي شخصٍ آخر.» أضافت ذلك بـتفكير.

وافق فيل قائلًا:

— «حسنًا، كان الرجل مصاص دماء، لذا فـالأمر يتفقُ مع جوانب التآمر في شخصيته —— رغم أنه لا يجوز ذكر مساوئ الموتى الأحياء.» توقف لـلحظة، لكن لم يضحك أحد علي مزحته. «أوه، حسنًا. هل هناك

أي طرقٍ أخرى محتملة يمكن أن يكون الكتاب قد هُرّب بها من المنزل أيها المفتش؟»

أجاب سينغ بـحذر:

— «ممكنة بـالتأكيد يا سيدي، لكن لا شيء منها يبدو منطقيًا. لقد جعلتُ رجالي يفتشون الأقبية بـدقةٍ متناهية؛ فلا توجد صلاتٌ بـالمجاري المحلية، أو بـمترو الأنفاق. وبالطبع، إذا كان قد ائتمن أحد خدمه عليه، فـسنكون أمام مجموعةٍ جديدة تمامًا من الاحتمالات. وإذا كان الأمر كذلك، فـربما يكون من الأفضل مراقبة السوق السوداء لـمثل هذه الأشياء لـنرى إن كان سيظهر. أو بـإمكاننا رؤية كيف ستبحث أخوية الحديد عنه —— إذا كانوا هم أيضًا يطاردون هذا الشيء اللعين.»

تبادلت إيرين وبرادامانت النظرات، واستطاعت إيرين تخمين ما يدور في خلد الأخرى. فـإذا اضطروا لـلمسح في السوق السوداء، أو التنسيق مع أعضاء الجمعيات السرية، فـربما يكون من الأفضل لـ برادامانت أن تنفصل عن المجموعة؛ فعندها يمكنها استخدام أي صلاتٍ كونتها بـصفتها «بيلفيغور»، بدلًا من أن تُعرف بـعملها مع سينغ وفيل. وبالطبع، قد تعثر برادامانت على الكتاب، وتكون هي من تعيده لـلمكتبة. فـأيهما كان أهم لـإيرين؟ أن تجد الكتاب بـنفسها، أم أن تتأكد من العثور عليه؟ كانت تعرف ما يجب أن تكون عليه الإجابة، لكن ذلك لا يعني أنها أحبتها.

كان فيل وسينغ يتبادلان نظراتٍ فاحصة هما أيضًا. ثم قفز فيل واقفًا وقال:

— «حسنًا إذًا! أعتقدُ أن الأمر يستدعي زيارةً لـ متحف التاريخ الطبيعي. أيتها السيدات، سيد سترونغروك، أثقُ بـأنني سـأقنعكم

بـمرافقتنا. أيها المفتش، هل لديك عربةٌ في الأسفل؟ يمكنك أن تـقلنا إلى هناك قبل أن تذهب لـاستصدار أمر التفتيش.»

نظر سينغ إلى برادامانت وإيرين وكاي بـحماسٍ فاتر، لكنه تمالك ملامحه وقال:

— «لديَّ واحدة يا سيدي، لكني أعتقدُ أننا قد نحتاج لـواحدةٍ ثانية حتى لا نضيق على السيدات في مساحةٍ محدودة.»

قاطعتهم إيرين قائلة:

— «أفضلُ ألا نتأخر.» فقد كان إحساسٌ متزايد بـالاستعجال يوخزها. ربما كان صندوق البنك هو الاحتمال الأرجح، ولكن ماذا لو كانوا مخطئين؟ سألت: «أيها المفتش، هل تعتقد أنك كنت مُراقبًا وأنت قادمٌ إلى هنا؟»

قطب سينغ جبينه وقال:

— «لا يمكنني إنكارُ أن ذلك ممكنٌ يا سيدتي. ليس لأن أحدًا سيجد الأمر غريبًا؛ فـكثيرٌ من رجال سكوتلاند يارد يزورون السيد فيل هنا، وبـشكلٍ متكررٍ للغاية.»

خطا فيل نحو النافذة، ووقف بـجانبها، يختلسُ النظر إلى الشارع في الأسفل، وقال:

— «لا يمكنني الجزم بـما إذا كانوا قد تبعوك أيها المفتش، أم أنهم يراقبونني أنا؛ ولكن "جيمي المشعر" من فتيان وايت تشابل الصاخبين يراقبُ باب منزلي.»

قال سينغ وهو يعيد أوراقه إلى حقيبته:

— «أعتقدُ أن هذا من طرف اللورد سيلفر. فـأخوية الحديد لن يكون لها علاقة بـالمستذئبين.»

فكر فيل لـلحظة وقال:

— «حسنًا، مع زحام لندن كما هو في هذه الساعة من الصباح، حتى لو كانوا ذاهبين لـلمتحف، فـلا يزالُ بـإمكاننا الوصول إلى هناك قبلهم.» ثم اختطف معطفاً من علّاقة الملابس المكتظة، وارتداه بـسرعة، والتقط قبعته وعصاه السيف وتابع: «هيا بنا.»

قفز كاي هو الآخر واقفًا بـحماسٍ جامح، وانشغل بـالبحث عن قبعته ومعطفه، مما أتاح لـإيرين جذب برادامانت إلى الممر لـكلمةٍ خاصة.

سألت برادامانت بـهدوء:

— «ما الأمر؟»

— «ما هي العلامات المميزة لـلكتاب؟» رأت برادامانت تهمُّ بـقول شيءٍ ما، فـرفعت يدها لـتوقفها. «انظري؛ لقد قلتِ بـالفعل إنكِ خُدعتِ مرةً بـنسخةٍ مزيفة. إذا كان رئيسكِ هو من أعادكِ — إذا كنتِ هنا بـإذنٍ حقًا..» رأت عيني برادامانت تضيقان غضبًا عند ذلك. «.. فـلم يكن لـيرسلكِ ثانيةً دون أن يمنحكِ وسيلةً ما لـتحديد النسخة الأصلية. هل ستخاطرين حقًا بـفقدان الكتاب لأنكِ غير مستعدة لـمشاركتي ذلك؟ كتابٌ قد يكون بـهذه الأهمية لـهذا العالم؟»

كانت نظرةُ برادامانت سـماً ناقعاً.

— «لا تستعجليني. أنا أفكر.» هكذا قالت.

ردت إيرين:

— «فكري بـسرعة؛ فـفيل سـيأتي لـيبحث عنا بعد لحظة.»

قالت برادامانت:

— «الحكايةُ السابعة والثمانون. «قصةُ الحجر من برج بابل». إذا وُجدت هناك، فـالكتابُ أصلي.»

— «شكرًا لكِ.» هكذا قالت إيرين، ثم التقطت قبعتها وخمارها، وثبتتهما بـدبوسِ قبعة.

بدت برادامانت وكأنها تهمُّ بـقول شيءٍ ما، ولكن بـجهدٍ واضح، تمكنت من تمالك نفسها. سوت قبعتها هي الأخرى، ثم خرجت بـكبرياء وهي تنادي بـعذوبة:

— «نحن قادمتان!»

بعد بضع ثوانٍ، كانوا جميعًا محشورين في عربة «هانسوم» يتجهون نحو متحف التاريخ الطبيعي. ومن خلال ما تذكره إيرين عن جغرافية لندن، كان المتحفُ يبعدُ نصف ساعةٍ على الأقل —— وأكثر، إذا كان الزحام سيئًا. كان سينغ قد تمتم بـالتعليمات لـلسائق بـصوتٍ خفيض بدلًا من الصراخ بها لـتُسمع عبر الشارع، وكان الآن يجلسُ جهمًا في زاوية العربة. كان كاي وفيل وسينغ محشورين جميعًا في مقعدٍ واحد، بينما تقاسمت إيرين وبرادامانت المقعد المقابل وحاولتا ألا تظهرا بـمظهرٍ مريحٍ أكثر مما ينبغي.

سأل فيل سينغ:

— «أيها المفتش، هل تعرف مع من يجب أن نتحدث حين نصل إلى هناك؟»

أومأ سينغ برأسه وقال:

— «لديَّ الاسم من المرة السابقة —— البروفيسورة أمليا بيتوني، وحتى لو لم تجدوها، فـستجدون مكتبها في «قسم علم الكائنات

الغامضة» في الطابق السفلي. ومع قليلٍ من الحظ، يمكنكم الدخول والخروج من هناك قبل أن يدرككم من يراقبكم. وعندها يمكننا التأكدُ مما إذا كان الكتابُ هناك أم لا. وسأقومُ أنا باستصدار أمر التفتيش في هذه الأثناء.» ثم ألقى بنظرةٍ جامدة نحو برادامانت وتابع: «وعندها ستتمكنُ هذه الشابة من إعادة الكتب الأخرى التي استولت عليها.»

تورد وجه برادامانت خجلاً، وغضت بصرها، وأخذت تعبثُ بحزام حقيبة يدها. بدت في كل تفاصيلها كشابةٍ بريئة أوقعها رفاقُ السوء في الجريمة، ولا تريد شيئًا أكثر من التكفير عن ذنبها. لم تملك إيرين إلا الإعجاب بهذا الأداء، خاصةً بالنظر لمشاعر الغضب التي تكنّها برادامانت تجاهها على الأرجح.

سأل فيل إيرين:

— «آنسة وينترز، هل تُرسلين كثيرًا في مهماتٍ كهذه لصالح مكتبتكم هذه؟» حاول أن يبدو وكأنه يتبادلُ حديثًا عابرًا، لكنها شعرت بالفضول العميق الكامن خلف كلماته.

قالت إيرين:

— «هذه المهمة أكثر.. إمّم.. إثارةً من معظم المهمات الأخرى.» وشعرت بشيءٍ من الارتياح لأن فيل يسألها هي بدلًا من برادامانت. وكان ذلك صحيحًا تمامًا؛ فقد خاضت عشرات المهمات حيث كانت تكتفي بالتجول بهدوء، وشراء نسخةٍ من الكتاب المعني، والمغادرة دون أن يلحظها أحد. وخاضت عشر مهماتٍ على الأقل تضمنت مخالفاتٍ قانونيةً بسيطة، لكن لم تشمل أيٌّ منها مطارداتٍ عبر الشوارع، أو شخصياتٍ متمردةً بشكلٍ خطير، أو تماسيح آلية. تابعت: «كان هناك وقتٌ قبل هذا حين كنتُ في فرنسا.» حسنًا، لقد كانت فرنسا ما، فهناك الكثير من نسخ فرنسا. «كنتُ أحاول الحصول على نسخةٍ من كتابٍ عن

الخيمياء لـشخصٍ يُدعى مايكل ماير، يعودُ لـبضع مئاتٍ من السنين. كان يُدعى..» قطبت جبينها وتابعت: «شيئًا عن ثلاثياتٍ تسعٍ، وكان يحتوي على أغانٍ فكرية عن بعث العنقاء، أو شيءٍ من هذا القبيل. وانتهى بي الأمر بـالتورط مع مجموعةٍ من فرسان الهيكل، واضطررت لـلمغادرة على عجل.» قبل نحو خمس دقائق من تحطيمهم للباب بـالتحديد، لكن لا داعي لـإخبار فيل بـذلك الجزء.

قالت برادامانت بـعذوبة:

— «ولا ننسى قضية "اللصة المتسلقة".»

شعرت إيرين بـأناملها تشتدُّ بـقوةٍ داخل قفازاتها، لكنها أجبرت نفسها على التزام الهدوء.

— «نعم. لقد كانت هناك تلك القضية.» هكذا قالت بـاقتضاب.

انحنى كاي لـلأمام وسأل:

— «وما هي قضيةُ "اللصة المتسلقة" هذه؟»

ابتسمت برادامانت بـطريقةٍ متعاطفةٍ ومتفهمةٍ وخاليةٍ من الأحكام، وقالت:

— «أوه، كان ذلك حين كنتُ أرشدُ إيرين، في أولى سنوات عملها الميداني. كنا نحاول تحديد موقع كتابٍ سرقته لصّة ذائع الصيت. كان الجميعُ يعرفُ من هي؛ وكان أمهرُ ضباط الشرطة في المدينة يراقبون كل تحركاتها، ومع ذلك لم يتمكنوا من الإمساك بها. وحين حاولتُ أنا وإيرين التحقيق بـشأنها، حسنًا..» ابتسمت مرةً أخرى بـتسامح وتابعت: «كانت السيدة المعنية ساحرةً للغاية. ولم أكن في خطرٍ حقيقي بينما كانت إيرين —— لـنقل —— «مستغرقةً» بـها تمامًا. وقد نجحتُ في العثور على الكتاب، فـكلُّ شيءٍ يكتملُ بـخيرٍ إذا انتهى بـخير.»

نظرت إيرين إلى ركبتيها وعضت على لسانها. لم يكن الأمرُ كذلك على الإطلاق، لم يكن، لكن تلك كانت القصة الوحيدة التي سيعرفها الجميع الآن. لقد نشرت برادامانت تلك القصة بكل سعادةٍ في أرجاء المكتبة بتفاصيل هامسة، وأي شيءٍ قالته إيرين حينها، أو يمكنها قوله الآن، سيجعلها تبدو وكأنها تختلقُ الأعذار. لقد كان ذلك العالمُ البديل يحملُ مجموعةً محددةً للغاية من المعايير الاجتماعية؛ كانت السرقةُ فيه تعدُّ مخالفةً تافهةً نسبيًا، حتى وإن كانت غير قانونية؛ أما السلوكُ غير الأخلاقي فكان هو الشيء الذي يمكن أن يدمر سمعة المرأة تمامًا. لقد دبرت برادامانت الأمر برمته، ورتبت لإيرين هويةً كلصةٍ مستقلة، واقترحت أن تلك المرأة قد تُقنع بتسليم الكتاب، بل وحددت موعدًا للقاء. ثم قامت ببساطة بتفتيش منزل المرأة بينما كانت إيرين تحاول بصدقٍ إقناعها. وتُركت إيرين تتخبطُ وتختلقُ الأعذار، وتحاول شرح ما حدث لمنزل المرأة الأخرى، وممتلكاتها، وسمعتها..

لقد خرجت من تلك التجربة بغضبٍ مريرٍ ودائم تجاه برادامانت، وبقرارٍ راسخ بأنها لن تفعل الشيء نفسه أبدًا بشخصٍ يثقُ بها بالفعل. أبدًا. أبدًا.

وإذا حاولت الاعتراض الآن، فسيكون الأمرُ كالسابق تمامًا؛ ستبدو وكأنها تحاول تقديم أعذار لشيءٍ لا بد أنه كان خطأها إذا كانت تقدم أعذارًا لأجله. ستبدو مذنبة.. ستبدو تافهة..

ستبدو كطفلة.

قالت إيرين بابتسامةٍ لطيفةٍ تضاهي ابتسامة برادامانت:

— «نعم. كلُّ شيءٍ يكتملُ بخيرٍ إذا انتهى بخير.»

ألقى كاي بنظرةٍ من إيرين إلى برادامانت، ثم عاد ببصره ثانيةً، وقال بسرعةٍ تزيد قليلًا عن اللازم:

— «بالطبع، هذه هي المرة الأولى التي أعملُ فيها مع الآنسة وينترز. وكنتُ آملُ أن نُرسل لإحضار بعضِ الشِعر في وقتٍ ما؛ فأنا أقدرُ الشعر تقديراً عالياً. كان والدي وأعمامي يرون دائمًا أنه من الهام جدًا لأي شخصٍ يدعي الثقافة.»

— «همم!» انحنى سينغ للأمام، وقد بدا مهتمًا بصدق، وسأل: «الشعرُ الملحمي، أم الأشكالُ الأقصر؟»

تحولت المحادثةُ — لراحةِ إيرين الكبرى — إلى نقاشٍ حول الشعر استمر لمعظم الرحلة. كانت هي صامتةً في الغالب، فهي معتادةٌ على اقتنائه أكثر من قراءته. أدلت برادامانت بكلمةٍ أو اثنتين لصالح الأساليب «الإليزابيثية»، ولحسن الحظ كان هناك «إليزابيث» في هذا العالم البديل. كان فيل يميلُ للشعراء الفارسيين، رغم أن نطقه لأسمائهم كان سيئًا بما يكفي ليجعل سينغ ينتفض. أما سينغ نفسه، فقد رفض اعتبار أي شيءٍ أقصر من القصيدة الملحمية جديرًا بالدراسة الجادة. وكاي ـ بما لا يثير الدهشة كثيرًا ـ كان يفضلُ الأساليب الصينية الكلاسيكية، مع إيماءةٍ عابرة لأشكالٍ مثل «السيستينا» و«الفيلانيل».

استغرقت لحظةً لتدرك أنها كانت مستمتعةً حقًا. حتى لو لم تكن تشاركُ بكثيرٍ في الحديث، إلا أنها كانت جزءًا منه. كانت تقول ما يدور في خلدها، كانت تتبادلُ الآراء بصدق، كانت..

بين "أصدقاء"، هكذا أخبرها صوتٌ في مؤخرة عقلها، بذلك العناد الذي يصاحبُ الاعتراف بحقيقةٍ غير مرغوبٍ فيها. إنكِ تناقشين

اهتمامًا مشتركًا دون قلقٍ من الخيانة أو من فقدانهم، وأنتِ تستمتعين بـذلك. منذ متى لم تفعلي ذلك؟

نظرت حولها إلى تعابير الاهتمام المختلفة في مجموعتها، وشعرت وكأنها تعرفهم منذ سنوات. كان الأمرُ سخيفًا، ومع ذلك.. لم يكن غير مرحبٍ به.

الزحامُ في الخارج كان قد تحول من مجرد زحامٍ سيئ إلى زحامٍ مقيت، وتباطأ تقدمُ عربتهم لـيصبح بـسرعة المشي، مع اهتزازاتٍ عرضية عند إشارات المرور.

سألت إيرين بـقلق:

— «لا يوجد خطرٌ من أن يسبقنا أحد، أليس كذلك؟»

أجاب سينغ:

— «مستبعدٌ جدًا يا سيدتي. لـفعل ذلك، سـيحتاجون لـمعرفة إلى أين نحن ذاهبون، وهناك أماكنُ كثيرة جدًا يمكن أن نكون قاصدينها لـدرجة تمنعهم من التأكد.»

قال كاي:

— «ثمة أمرٌ كنتُ أتساءلُ عنه. بينما أعرفُ أن لديكم آلاتٍ حاسبة وآليات حسابية، إلا أنني لم أرَ بعدُ أي نوعٍ من أجهزة الاتصال بـعيدة المدى. والآن أنا ـــ» أدرك نظرة إيرين الحادة فـتابع: «ـــ أقصد، ألم يتم التحقيقُ في مثل هذا الشيء؟»

تنهد فيل وقال:

— «لابد أن هذه قطعةٌ تقنيةٌ متطورةٌ أخرى من عالمك البديل يا سيد سترونغروك؟ لقد كان هناك بـالفعل بعضُ البحث في هذا الموضوع، ولكنه أثبت بـبساطةٍ أنه عُرضةٌ لـلـ مَسِّ الشيطاني. ومع وجود

بعض النجاحات في أشكالٍ مختلفة من التمويهات القائمة على أُسسٍ لاهوتية، إلا أنه بـوجهٍ عام لاً يمكن القول إن هذا المجال يثمرُ عن شيءٍ يستحق البحث. وبالتأكيد، لن يكون من الأمان وضعُ مثل هذه الأشياء في أيدي العامة.»

سألت إيرين:

— «ولكن كيف يتواصلُ طيارو المناطيد مع الأرض؟»

تأفف فيل، وبدا سينغ مشمئزاً. وقال فيل:

— «سحرُ «الفاي». سببٌ آخر لـتمتع ليختنشتاين بـنفوذٍ كبير في صناعة المناطيد. وأعتقدُ أنهم يصنعون أيضًا بعض الآلات لـلغواصات، ولكن بـالطبع الكمياتُ الكبيرة من الحديد تقللُ من كفاءة السحر.»

أومأت إيرين بـرأسها، وتمنت لو كان شيءٌ من هذا قد ورد في حزمة المعلومات التي قدمها دومينيك أوبري. لقد أهمل الموضوع تمامًا؛ فقد كانت هناك موادٌ وفيرة عن الوضع الحالي لـغيرِ «الفاي»، ولكن لا شيء تقريبًا عن «الفاي» أنفسهم، وتداعياتهم السياسية، وخططهم المستمرة لـلسيطرة على العالم —— فـدائماً ما كانت لـ «الفاي» خططٌ لـلسيطرة على العالم. (لقد كان الأمرُ أكثر دراماتيكيةً بـهذه الطريقة، في نهاية المطاف). ربما ظن أنها سـتتمكنُ من تجنب تدخل «الفاي» —— رغم أنه بـالنظر لـتورط ويندهام مع سيلفر، لم يكن ذلك لـيكون ممكناً بـالكاد. هل يمكن أن يكون أحدٌ قد نجح في إزالة جزءٍ من حزمة المعلومات التي أعطاها إياهم أوبري؟ وإذا كان الأمر كذلك، فـكيف ومتى؟

كما تمنت لو كانت تجلسُ بـجانب كاي في العربة حتى تتمكن من ركل كاحله دون أن يكون الأمرُ ملحوظًا. فـالنقاشاتُ من قبيل «لِمَ لم

تُدخلوا هذا الجزء التقني في عالمكم البديل» نادرًا ما تنتهي بخير. فغالباً ما تكون هناك أسبابٌ وجيهةٌ تمامًا لعدم إدخاله، وأنت تفتحُ على نفسك بابًا من المتاعب بمجرد السؤال. وفي المرات القليلة التي لم يكن قد اختُرِع فيها بالفعل وقمتَ أنت بالفعل بتعريف العالم البديل بمفهومٍ جديدٍ تمامًا، قد تنتهي بمشكلاتٍ مثل الاندماج البارد. (ليس أنها تورطت في ذلك الأمر، ولكن القصص كانت تتناقل).

اهتزت العربةُ وتوقفت، وانحنى السائقُ نحو الفتحة قائلًا:

— «أنا آسف يا سيدي، لكني أخشى أن الزحام سيئٌ للغاية اليوم، سيستغرقُ الأمرُ عشر دقائق أخرى قبل أن أتمكن من الوصول لدرجات المتحف — رغم أنه بإمكانكم رؤية جداره هناك. إذا لم يكن ذلك سيسببُ لكم إزعاجًا يا سيدي، فقد تجدون أنت وأصدقاؤك الأمر أيسر إذا مشيتم من هنا.»

صاح فيل: «بالتأكيد!» وفتح باب العربة بعنف. نظر للأعلى نحو السائق وتابع: «انتظر هنا. لن نتأخر. خذ.» ثم قذف بعملةٍ معدنية للسائق. كانت هناك طاقةٌ حادة تقودُ تحركاته وهم يقتربون من مسرح العمل المحتمل. «هذا مقابل وقتك.»

ساعد كاي إيرين على الخروج من العربة، وضغط بخفةٍ إضافية على معصمها وهو يساعدها على النزول. وهمس قائلاً:

— «لقد اقتربنا.»

سعلت برادامانت بمعنىً واضح. وبنظرةِ اعتذار، أفلت كاي يد إيرين والتفت ليساعد برادامانت على النزول هي الأخرى.

كانت الشوارعُ مكتظةً بالمرور، تتحركُ ببطء مع كثيرٍ من الصياح، وكان الهواءُ مليئًا بالضباب الدخاني. طوت إيرين خمارها فوق وجهها،

وخطت نحو جدار المتحف لتسمح للناس بالمرور مسرعين. وانضم إليها الآخرون، ينتظرون سينغ الذي كان يتحدثُ مع السائق. كان الجدارُ ملطخًا بلونٍ بنيّ قذرٍ غائرٍ جراء عقودٍ من الدخان والضباب المترسب. والمباني المحيطة كانت من الطوب القديم والرخام، ملطخةً بالضباب بشكلٍ مماثل. كثيرٌ من الناس الذين يمرون مسرعين كانوا يحملون كتباً أو حقائب أوراق. وبناءً على ما تذكره من جغرافية بعض نسخ لندن، كانت هناك جامعةٌ بالقرب من هنا، تقعُ بشكلٍ ملائم بجانب المتحف.

لمحت من زاويةِ عينها منطادًا مارًا عالياً في السماء، فنظرت للأعلى. كانت هناك عدة مناطيد صغيرة راسية فوق سطح المتحف، وتتدلى منها راياتٌ منقوشٌ عليها اسم المتحف. وحين نظرت للأسفل في الشارع، رأت المزيد منها راسياً فوق أسطح مبانٍ ضخمة أخرى.

قال فيل متبعًا نظرتها:

— «آه، آلاتٌ رائعة، أليس كذلك؟ وأسرع بكثير من العربة، لكنها للأسف ليست بنفس القدر من السيطرة. يمكن لواحدةٍ من تلك الطائرات الصغيرة أن تعبر القنال وتعود دون حاجةٍ لإعادة التزود بالوقود.»

سألت إيرين:

— «عبر القنال؟ هل يستخدمُ المتحفُ هذه المناطيد لمثل تلك الرحلات إذًا؟»

أومأ فيل برأسه وقال:

— «يمكنها نقل الأشياء الصغيرة الهامة والنوادر الخاصة. وأفهمُ أن معظم المتاحف الكبرى تحتفظ بالقليل منها هذه الأيام. وبالطبع، مخاطرُ السرقة فيها أقل بكثير.» ثم تحولت نظرته الضيقة لبرادامانت

لـلحظة، وتأملت ظهرها غير المبالي. بدا أنه لم يسامح ولم ينسَ أي تفاصيل صغيرة عن اللصوص الحسناوات.

التفت إليها فيل وسألها:

— «إذا كنتِ من عالمٍ بديلٍ بـنفسكِ، فـكيف هو ذلك العالم؟»

لاحظت إيرين أن كاي قد اقترب بـما يكفي لـيسمع. المشكلةُ هي أنها لم تكن تملكُ إجابةً جيدة.

— «كان.. حسنًا، كان مجرد عالمٍ آخر. كانت التقنيةُ فيه تحت السيطرة أكثر مما هي عليه هنا. لم تكن هناك مناطيدُ كثيرة، ولم يكن هناك مصاصو دماءٍ أو مستذئبون. كان والداي يأخذانني لـلمكتبة قدر استطاعتهما، لكني قضيتُ كثيرًا من الوقت في مدرسةٍ داخلية. كانت في سويسرا، وممتازةً لـتعلم اللغات.» لم تكن ستذكر بعض الأشياء الأخرى التي علموها إياها؛ فـقد كانت المدرسةُ تفتخرُ بـتخريج طلابٍ مستعدين لـكل شيء، وكانت بعضُ أجزاء ذلك العالم خطيرةً للغاية.

أضافت إيرين:

— «لقد زرتُ عوالم بديلةً أخرى مع والديّ أيضًا. أحيانًا حين يكونان في مهمة، ولا يعتقدان أنها خطيرةٌ جدًا. وأحيانًا كنتُ أقدمُ المساعدة.» وجدت نفسها تبتسم وتابعت: «وكانت هناك سنواتٌ في المكتبة، رغم أنه لم يكن هناك كثيرٌ من الأطفال الآخرين هناك. ولكني اضطررتُ لـلنشوء في الغالب خارج المكتبة.»

سأل فيل:

— «ولماذا ذلك؟ بـالتأكيد كان من الأفضل لـكِ البقاءُ هناك والتعلمُ في أمان، بدلًا من التعرض لـلخطر؟»

كانت إيرين تعرفُ أنها في منطقةٍ خطيرة هنا. فهناك بعضُ الأشياء التي لا ينبغي لها إخباره بها. لسلامته الخاصة. وقالت أخيرًا:

— «الوقتُ يمر بشكلٍ مختلفٍ في المكتبة. أراد والداي أن أنشأ بشكلٍ طبيعي. حسنًا، طبيعي بقدرٍ ما. وإذا كان لي أن أكون أمينة مكتبةٍ نافعة، كان عليَّ أن أعرف كيف أعمل خارج ذلك المكان.»

سأل كاي:

— «هل هذا هو السببُ في أنهم عادةً ما يختارون من خارج المكتبة، بدلًا من أبناء أمناء المكتبة؟»

أومأت إيرين برأسها وقالت:

— «ذلك، و.. بصراحة، لا أعتقد أن أمناء المكتبة يميلون لإنجابِ أطفالٍ كثيرًا، وحتى عندها لا يوجدُ ضمانٌ بأنهم سيرغبون في أن يصبحوا أمناء مكتبةٍ بدورهم. أعتقدُ أنني الوحيدةُ في جيلٍ كاملٍ أو نحو ذلك.»

لمحت حركةً من زاويةِ عينها. كانت برادامانت تشيحُ بوجهها، ولكن ليس بالسرعة الكافية لإخفاء التعبير المرتسم على وجهها. كان هناك حسدٌ أكّال في عينيها. لم تكن إيرين تعتقد أنها رأت ذلك في المرأة الأخرى من قبل.. أم تراها رأته؟ لقد حاولت نسيان كثيرٍ من الأشياء الأخرى عن برادامانت، وفشلت بشكلٍ ذريع.

سار سينغ نحو فيل، بعد أن أنهى محادثته الهامسة مع سائق العربة، وقال:

— «سأرسل العربة لتعود إليكم هنا يا سيدي، بمجرد أن يوصلني إلى محكمة الجنايات المركزية. لا ينبغي أن يستغرق تحققكم مما إذا كان الكتابُ هنا وقتًا طويلاً.»

كتمت إيرين نـفاد صبرها. لقد كان شعورًا بـالارتياح الكبير أن تفكر في أنه بـعد نصف ساعة قد تكون في طريق عودتها لـلمكتبة، والكتابُ في يدها، وكاي بـرفقتها، وبرادامانت في... حسنًا، لم تكن تريد بـوعيٍ التفكير في برادامانت وهي في حالة خزي. ففي النهاية، الجميعُ يواجه الفشل بـين الحين والآخر. أشياءٌ مثل اللصوص المتسلقات الساحرات. أياً كان.

ربما ساعة. لم تكن تريد أن تكون متفائلةً أكثر من اللازم.

في داخل المتحف، اتسعت ردهةُ المبنى لـتصبح قاعةً تشبه الكاتدرائية المهيبة، بـسقفٍ عالٍ مقوسٍ مرصعٍ بـالنوافذ، وأرضيةٍ مطعمةٍ بـالفسيفساء. كان هيكلٌ عظمي لـ دبلودوكس يطلُّ بـملامحِ عظامٍ جهمة من مكانٍ مرتفعٍ فوق رؤوس الناظرين، بينما كانت أمٌّ تبدو مجهدةً تترجى صغيرها المدلل ألا يحاول تسلق قدمه. وكان تمثالٌ من الرخام الأبيض في مقدمة الدرج الرئيسي لـلغرفة يطلُّ على المشهد برمته بـهالةٍ من الوقار والاستحسان. لقد كانت تلك هي القطعة الرخامية الوحيدة غير الملطخة بـالضباب التي رأتها إيرين في نسخة لندن هذه.

افترضت أن المكان كان مثيرًا لـلاهتمام بـما يكفي. ولكنه كان يفتقرُ لـلأسف لـلكتب.

كان فيل يعرفُ طريقه بـوضوح وقادهم صعودًا عبر أحد الأدراج، مرورًا بـعدة غرفٍ ثانوية لـلمعروضات، ثم مرّ بـمجموعةٍ واسعة من الحيوانات المحنطة، والنباتات المحنطة، وربما رواسب معدنية محنطة (لم تكن تملكُ الوقت لـلفحص). بعدها أسرعوا هبوطاً عبر درجٍ آخر نحو مجموعةٍ من الممرات الأكثر فوضى وتكدسًا، حيث كان العملُ الحقيقيُ يجري بـالفعل. كانت الصناديقُ مكدسةً على الجدران، وكثيرٌ منها معلقٌ عليه ملاحظاتٌ تقول: «يُفتح هذا اليوم». الأشياء الوحيدة

التي لم تكن قذرةً أو مغبرةً كانت اللوحات النحاسية لـأسماء المكاتب. كانت هذه اللوحات تلمعُ بـبريقٍ يائس، وكأنها تحاول التعويض عن محيطها.

قال فيل، متوقفًا أمام بابٍ يبدو بـوضوح أنه يخص البروفيسورة أميليا بيتوني، الحاصلة على ماجستير العلوم، ودكتوراه الفلسفة، ودكتوراه في اللاهوت:

— «ها نحن ذا. كان هذا هو الشخص الذي وُجّه إليه الصندوق. لـنرَ إن كان بـإمكاننا استبعاد هذا الاحتمال.» ثم فتح الباب بـعنفٍ دون أن يكلف نفسه عناء الطرق.

في الداخل، كان المكتبُ ذو السقف المنخفض أكبر مما كان متوقعًا. كان المكتبُ الصغير في الزاوية مكتظًا بـأكوامٍ من الأظرف والطرود غير المفتوحة، وكانت الطاولةُ الكبيرة في وسط الغرفة مبعثرةً بـالعظام، وأواني الغراء، وأدوات القياس. كانت تفوحُ في الهواء رائحةُ الغبار والمذيبات الجافة. ثم دخل شابٌ من بابٍ جانبي، وبـيده كوبُ شايٍ يتصاعد منه البخار. وقف هناك، يرمشُ بـعينيه نحو الأربعة.

قال فيل وهو يتقدم بـخطواتٍ حازمة:

— «السيد رامسبوتوم، على ما أفترض؟ سكرتير البروفيسورة بيتوني؟»

أومأ الشابُ برأسه وحدق في فيل، واتسعت عيناه حين ميز هويته. وقال:

— «آه، أنا آسفٌ حقًا، لكن البروفيسورة بعيدةٌ في رحلةِ استكشافٍ إلى مصر، إذا كنتَ ترغبُ في استشارتها بـشأن قضيةٍ ما——»

قال فيل:

— «لحسن الحظ، أعتقدُ أنك ستفي بالغرض يا سيد رامسبوتوم. نحن هنا للتحقق من أمر طردٍ ربما يكون قد ضل طريقه.»

ألقى رامسبوتوم بنظرةٍ ملؤها الشعور بالذنب نحو أكوام البريد الوارد على المكتب الجانبي.

قال فيل:

— «نحن نبحث عن صندوقٍ من اللورد ويندهام.» وبجانبه، استطاعت إيرين رؤية كاي وهو يتوتر حماساً، ويراقبُ رامسبوتوم بنظرةِ ترقبٍ لعلها أزعجت ذلك الشاب الذي يبدو قلقاً بطبعة. تابع فيل: «لا بد أنه سُلّم منذ حوالي خمسة أيام.»

هل مرَّ حقًا هذا الوقتُ القصير منذ وفاة ويندهام، ومنذ وصولها هي وكاي إلى هنا؟ لقد شعرت بأن الوقت كان أطول بكثير، هكذا فكرت إيرين.

قال رامسبوتوم وهو يتسللُ نحو المكتب:

— «آه، في الواقع، أعتقدُ أنني أتذكرُ ذلك الصندوق.»

سأل فيل:

— «حقًا؟»

أومأ رامسبوتوم برأسه وقال:

— «كانت هناك تعليماتٌ خاصة مرفقةٌ به. أرجوكم، إمّم، أيها السادة، والسيدات، البروفيسورة بيتوني ستجيبُ بالتأكيد على كل شيء بكل سرعةٍ بمجرد عودتها.» ثم ألقى بنظرةٍ ملؤها الشعور بالذنب نحو كومة البريد ثانيةً وتابع: «لكنها تكنُّ كراهيةً محددةً للغاية لقراءةِ أي شخصٍ آخر لبريدها، وحين غادرت، أخبرتني أنه ما لم يذكر خطابٌ أو طردٌ بشكلٍ صريح أنه يجب فتحه..»

صاح فيل بـحدة وهو يخطو لـلأمام:

— «الصندوق يا رجل! ماذا حدث له؟»

تمتم رامسبوتوم وهو يعبثُ بـياقته:

— «آه، إمّم. الملاحظةُ المرفقة نصت على أنه إذا لم تعد البروفيسورة بيتوني لـفتحه في غضون ثلاثة أيام من استلامه، فـإن مرؤوسها المكلف، وهو أنا، عليه فتحه واتخاذ جميع الإجراءات اللازمة بـشأن محتوياته.»

ابتلعت إيرين ريقها. ومن جانبٍ واحد، استطاعت رؤية برادامانت وهي يشحبُ وجهها. ومن الجانب الآخر، استطاعت سماع بحةٍ في أنفاس كاي. لا بد أن هذه كانت نوعًا من المناورة الأخيرة من ويندهام، في حال لم يتمكن من استعادة كتابه الثمين.. توقعًا لـمقتله؟! كـمجرد خطوةٍ أخرى في أي علاقةٍ كانت بينه وبين سيلفر؟ كـحيلةٍ متعمدة لـمنع سيلفر من وضع يديه على الكتاب، أو لـإخفائه عن شخصٍ آخر؟

تابع رامسبوتوم، وهو يزداد قلقًا بـمرور الثواني:

— «كان الطردُ يحتوي على هيكلٍ عظمي لـطائر الأركيوبتركس، وطردٍ آخر، لـيتم إرساله إلى مكانٍ آخر..» ثم تلعثم وتوقف بـقلق.

سأل فيل:

— «وإلى أين يُرسل الطرد الآخر ذلك؟»

تردد رامسبوتوم وقال:

— «هذا أمرٌ يتعلقُ بـالسرية يا سيد فيل، وبينما أعرفُ صلاتك بـالشرطة، إلا أنني، آه، هذا يعني..» ثم تلاشت كلماته، ويبدو أنه عاجزٌ عن نطق عبارة: «لن أخبرك».

خطا فيل لـلأمام وقال:

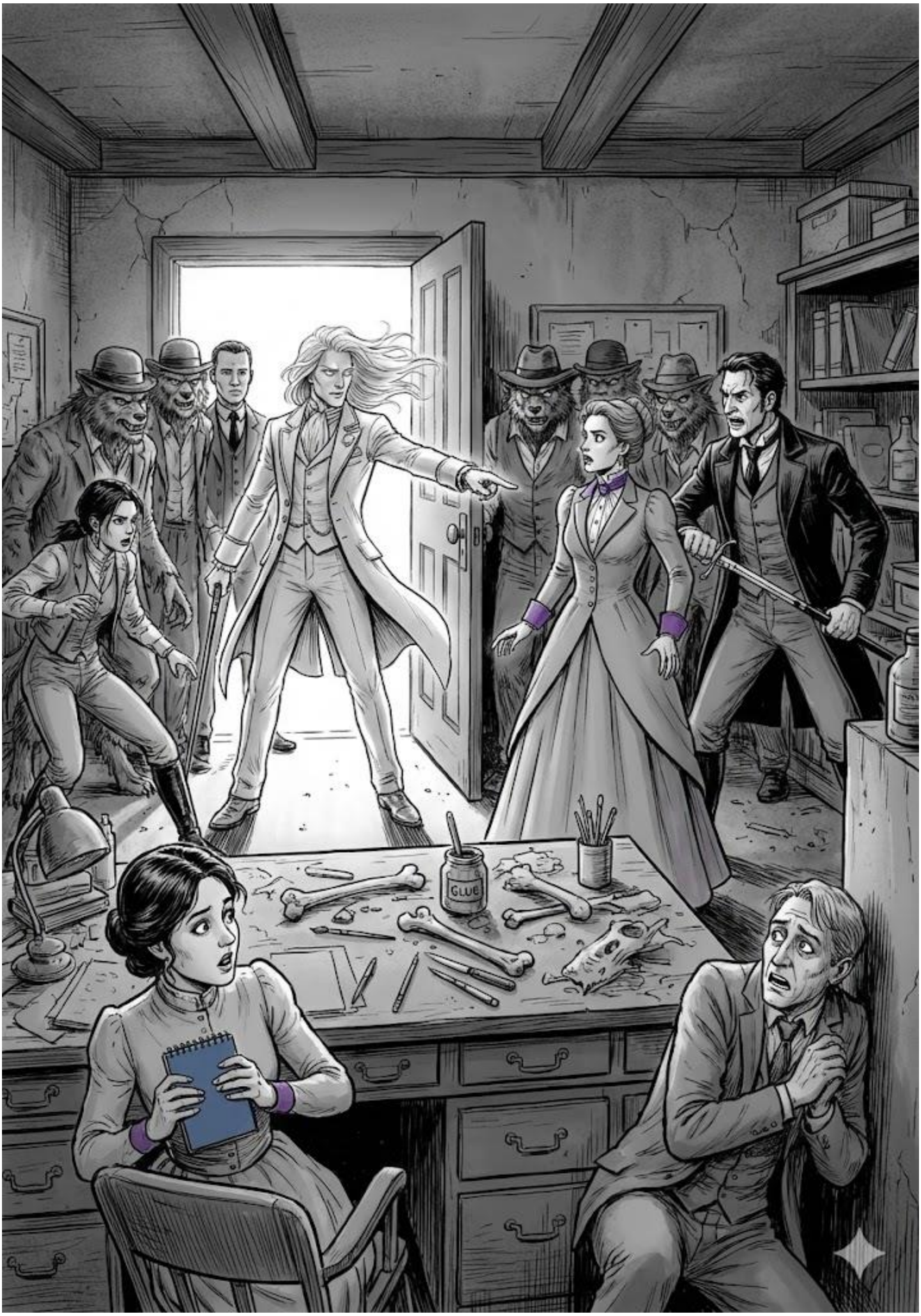
– «سيد رامسبوتوم. بـطبيعة الحال لن أضغط في هذا الأمر. لكني سـأكون ممتنًا لو استطعتَ طمأنتي بـأنه لن تكون هناك صعوبةٌ في تتبع الطرد، إذا ثبتت ضرورةُ ذلك.»

صاح رامسبوتوم وهو يبدو مرتاحًا بـشدة: «بالطبع!» ثم طرق على سجلٍ أزرق صغير وتابع: «لديَّ التفاصيل الكاملة هنا عن المكان الذي ذهب إليه الطرد.»

وفجأة، انفتح البابُ في الجانب المقابل من الغرفة بـعنف، ودخل سيلفر بـخطوات واسعة، يتبعه خادمه ذو الملامح الباهتة ونصف دزينة من الرجال ذوي الشعر الكثيف والبدلات الرخيصة والقبعات السيئة. وأعلن بـصوتٍ جهوريّ وهو يشير بـطريقةٍ درامية:

– «أخيرًا! لقد أوقعتُ بكِ الآن، يا عدوتي العزيزة!»

كان يشيرُ بـأصبعه إلى برادامانت.


GLUE

الفصل السابع عشر

قالت برادامانت:

— «ماذا؟»

ثم سرعان ما استدركت قائلة:

— «ولكن، آه، كيف وجدتنا بهذه السرعة؟»

ضحك سيلفر ضحكةً مرحة. كان شعره المنسدل فوق كتفيه يتطاير بفعل ريحٍ هبّت من حوله دون غيره، فداعبت ثيابه، بينما فشلت في تحريك شعرة واحدة من رؤوس البلطجية الملتحين غلاظ الرقاب الذين تزاحموا خلفه، يرمقون الغرفة بنظرات مريبة. كانت ملابسهم قذرةً شعثة بقدر ما كانت ملابس سيلفر أنيقةً وراقيةً، وكانت حواجبهم جميعًا متصلةً عند المنتصف.

قال سيلفر متبجحًا، وهو يوجه عصاه نحو رامسبوتوم المسكين، الذي كان يحاول التراجع نحو أي زاويةٍ تستره:

— «هاه! أنت! سلّم الكتاب فورًا، وستكون مكافأتك فوق ما يتصوره خيالك!»

قال فيل:

— «احذر يا سيلفر.»

لم تعد قبضته على عصاه السيف عفوية كما كانت قبل ثوانٍ. تابع قائلًا:

— «لا أظنك تود وجود أي شهودٍ على أفعالٍ غير قانونية ترتكبها، أليس كذلك؟»

التفت سيلفر نحو خادمه:

— «أفعال غير قانونية؟ جونسون! هل ارتكبتُ أي أفعالٍ غير قانونية؟»

تحقق جونسون من ساعته وقال:

— «ليس في الدقائق الثلاث الأخيرة يا سيدي.»

التفت سيلفر عائدًا إلى فيل:

— «ها قد سمعت. اطمئن، فأنا في هذه اللحظة لا أرتكب أي فعلٍ مخالفٍ للقانون؛ إنني مجرد رجلٍ يقطع وعودًا لهذا الأجير هنا بأنه إذا سلمني الكتاب الذي أبحث عنه، فسينال جزاءً يفوق أغلى أمانيه.»

قال رامسبوتوم بلهجةٍ غائمة:

— «حسنًا، إذا لم يكن في الأمر خرقٌ للقانون..»

كانت عيناه تلاحقان سيلفر بحلم، ترقبان كل إيماءةٍ منه وكل نَفَسٍ يخرُج من صدره. تذكرت إيرين تلك الهالة السحرية التي حاول سيلفر إلقاءها عليها ذات مرة في مكتب ويندهام.

قالت برادامانت بجرأةٍ لم تكن إيرين واثقةً من قدرتها على استجماعها:

— «سيدي العزيز، لا تزال لم تشرح لنا كيف تمكنت من تتبع أثرنا إلى هنا.»

خطت نحو يسارها، مجبرةً سيلفر على صرف انتباهه عن رامسبوتوم إذا أراد إبقاء عينيه عليها.

لوح سيلفر بيده بلامبالاة قائلًا:

— «أبسط الأمور؛ لقد استعنتُ بـ (جاسوس). ولعلمي أنني لا أستطيع تتبع وكيلٍ للمكتبة — آه، لقد خدعتِني مرة، لكن ذلك لن يتكرر! — فقد لجأتُ إلى الآنسة أولغا ريتروجريد الكبرى.»

تبادلت إيرين وبرادامانت نظرات خاطفةً ممتزجةً بالصدمة. إنّ معرفة سيلفر بوجود «المكتبة» أمر، فكثيرٌ من كائنات «الفاي» والتنانين يعرفونها كما تعرفهم هي، لكن أن ينطق باسمها هكذا جهارًا وأمام شهود، فذلك أمرٌ يبعث على القلق؛ إذ يوحي بأنه لن يكون هناك شهودٌ بعد قليل. وكيف علم سيلفر بالأمر على أي حال؟ ماذا رأى؟ وكم يعرف عن «المكتبة»؟

في هذه الأثناء، بدا فيل محتقنًا من الغيظ وصاح:

— «تعاملتَ معها؟»

قال سيلفر بزهو:

— «مجرد مسألة ملاءمة. عادةً ما تكون هي بذيئةً للغاية بحيث لا يسعني سوى دعوتها إلى حفلاتي. لا أظنك تود التعليق على ذلك، أليس كذلك يا محققي الخاص؟ من منظورٍ.. لِنقل.. عائلي؟»

بدا فيل أكثر حنقًا مما كان عليه، وصاح باصقًا كلماته:

— «ليس لدي ما أقوله عنها.»

قال سيلفر بمنتهى الرضا:

— «إذًا اسمح لي بالتوضيح؛ لقد أثبتت محاولاتها السحرية في التنبؤ خطأها حتى غادرتَ سكنك هذا الصباح، فالتقطتْ هي التعليمات التي أُعطيت لسائق العربة. ومنذ تلك اللحظة، كان الأمر مجرد سباقٍ للوصول

إلى هذا المتحف أولًا، وجعل أتباعي هؤلاء يحددون وجهتكم.» ثم ابتسم للبلطجية المشعرين.

زمجر أحدهم، وقد برز لسانه بشكلٍ مثيرٍ للاشمئزاز وهو يلهث:

— «نحن نعرف رائحة السيد فيل. كلنا نعرف رائحة السيد فيل. وثمة الكثير منا يودون إجراء دردشةٍ قصيرةٍ وهادئة مع السيد فيل في زقاقٍ مظلمٍ ما.»

قال سيلفر:

— «على مهلك، على مهلك. أنا واثقٌ أن فرصتكم ستأتي قريبًا جدًا — إذا لم ينصح السيد فيل زميلته في المكتبة بالامتثال لطلباتي.» ثم ابتسم لـ برادامانت ابتسامةً باهرة. شعرت إيرين بفيضٍ من تلك الابتسامة؛ موجةً حارقةً من الرغبة العبودية والوله الجارف، وشعرت بالوسم فوق ظهرها يلسعها كجليدٍ حارقٍ كرد فعل. كما شعرت براحةٍ خاطفة لأن سيلفر لم يتعرف عليها كعميلةٍ للمكتبة؛ فهي لا تزال متخفيةً حتى اللحظة.

سقطت يدا رامسبوتوم بجانبه، وكف عن كل محاولات المساعدة ليحدق في سيلفر بذهولٍ صامت. لم يبدُ أن فيل قد تأثر. غُلبت إيرين برغبةٍ في الالتفات لترى ما يفعله كاي، لكن بصفته تنينًا، فمن المؤكد أنه محصنٌ ضد أي سحرٍ يلقيه سيلفر. هكذا تمنت على الأقل.

كان سيلفر يظن أن الكتاب لا يزال هنا؛ ولا بد من وجود طريقةٍ لاستغلال ذلك. على الأقل كانت برادامانت تسايره وتُبقيه منشغلًا.

سألت برادامانت وهي تنحاز أكثر نحو اليسار:

— «ولكن كيف عرفتَ أنني من المكتبة؟»

تحرك أحد البلطجية للأمام كما لو كان يهمّ بالإمساك بها، لكن سيلفر هز رأسه قائلًا:

— «لا، خصمي يستحق أن يعرف هذا القدر على الأقل. كم نجحتِ في خدعي يا عزيزتي! لقد تشتت انتباهي تمامًا بتلك التابعة الضئيلة هناك بثوبها الباهت،» وأشار إلى إيرين، «وبسرقاتكِ الماكرة. كيف لي أن أدرك أنكِ كنتِ العقل المدبر خلف كل هذا؟ لم أرَ حقيقتكِ إلا بعد أن جمعتُ الخيوطَ كلها معًا.»

كانت إيرين ممزقةً بين الارتياح لأن تركيزه ليس عليها، وبين قدرٍ من الحنق لأنها في نظره مجرد «تابعة ضئيلة» لا تستحق الالتفات.

هل أنا غير مرئية إلى هذا الحد؟ لماذا لا يشير بإصبعه إليّ ويعلن أنني العقل المدبر المبهر؟ في الواقع، لماذا يدّعي سيلفر وجود عقلٍ مدبرٍ أصلًا؟

كان جزءٌ منها يدرك أن هذا الموقف غبيٌّ للغاية، وأنه مجرد رد فعلٍ لسحر «الفاي» أو ما شابه؛ السحرُ نفسه الذي جعلها ترغب في الدلال والتمخط أمام عينيه. ربما كشف كتفها أو التنفس بعمق أو جذب انتباهه بطريقةٍ ما. أن تلمسها هاتان اليدان الطويلتان الجميلتان، ويضغط جسدُه..

أفِيقِي.

كانت فكرةٌ في مؤخرة رأسها تحاول لفت انتباهها.

هذه هي مشكلة التعامل مع «الفاي». تذكرت صوت مدربٍ من «المكتبة»، يتحدث إلى نصف دزينة من المتدربين بينما يدونون ملاحظاتهم، وصوته يطن بينما يرتطم المطر بالنافذة المطلة على ساحةٍ حجريةٍ رماديةٍ مهجورة: إنهم يرون كل شيء من منظور دراماهم

الشخصية. إذا لم تكن حذرًا، فسوف يجرونك إليها. هذا في الواقع خطرٌ يحيق بكل العوالم البديلة الملوثة بالفوضى..

قالت برادامانت ببراعةٍ وهي تتظاهر بالانكسار ردًا على اتهامات سيلفر:

— «أرى ذلك. إذًا أنت تعرف كل شيء.»

أعلن سيلفر:

— «كل شيء! لستُ متفاجئًا أن أوبري قد استدعى تعزيزاتٍ من المكتبة في ظل وجود جائزةٍ كهذه، ولكن عليه الآن أن يعترف بفشله. لقد انتهى تنافسنا الطويل!»

رمشت إيرين بصدمة. لا، لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. إذا كان سيلفر يعرف دومينيك أوبري، وعلم أنه عميلٌ للمكتبة، لكان على دومينيك أن يعلم بخطر سيلفر. لكن دومينيك لم يقل كلمةً واحدة عن كون سيلفر عدوًا له، ولم يحذرهم منه، بل لم يخبرهم بوجوده أصلًا..

.. ولماذا تهز برادامانت رأسها موافقة؟ ماذا تعرف؟

قالت:

— «لقد حذرني أوبري منك، لكني أعتقد أنه لم يهيئني بما يكفي.»

لا، من المؤكد أن هذا مستحيل. لا يوجد سببٌ معقول يجعل دومينيك يحذر برادامانت ويتركها هي وكاي. لقد كان بإمكانهم التواصل، فالباب الوحيد للمكتبة كان في مكتب أوبري. لكن لم تظهر أي علامةٍ على تبادل هذا النوع من المعلومات. بالطبع قد يكون لـ دومينيك رعاته الخاصون في «المكتبة» الذين أرادوا لـ برادامانت أن تجد الكتاب أولًا، وهذا أمرٌ واردٌ ومحتمل. لكن إخفاء خطر سيلفر عنها وعن كاي لم

يكن مجرد هفوة، بل كان خيانة. لو عادت وأخبرت رؤساءها، لكان دومينيك قد عُزل من منصبه بكل تأكيد.

هل يمكن أن تكون برادامانت كاذبة؟ كانت الأفكار تتصارع في رأسها. وتصاعد التوتر في الغرفة بينما كان سيلفر يتدبر رده الدرامي التالي، وبينما غيّر فيل وكاي موقعهما خلفها، وبينما كان المستذئبون يلهثون انتظارًا للانقضاض.

لا، الأمر لا يستقيم. حسنًا، ربما كانت برادامانت وسيلفر حليفين سريين يمثلان هذا الشجار لإقناعها، لكن ذلك كان مبالغةً في الارتياب. إذًا، إذا كان دومينيك يعرف بشأن سيلفر واعتبره خطرًا يستوجب تحذير برادامانت — ولكنه لم يكلف نفسه عناء ذكره لـ إيرين في اليوم التالي، رغم علمه بأنها في مهمةٍ رسمية — فماذا يعني ذلك؟ ما الذي تغير؟

عادت بذاكرتها إلى لقائها القصير بـ دومينيك أوبري. كان استخدامه لـ «اللغة» قديم الطراز بشكلٍ غريب. ثم كان هناك اختفاء دومينيك أوبري وسلخ جلده، الذي تركَ وشم المكتبة سليمًا ولكن دون أي أثرٍ لجسده. وكيف يعمل ألبريتش في هذا العالم البديل؟ ألبريتش، الذي عاش طويلًا لدرجةٍ صار فيها أسطورةً حتى بين أمناء المكتبة.. لكن لا أحد يعرف كيف، ولا أحد يعرف حتى هيئته.

كانت ثمة فكرةٌ تتشكل، فكرةٌ انقبض لها قلبها، لكنها كانت تجيب على الكثير من الأسئلة. إنّ سرقة جلد شخصٍ ما وهويته أمرٌ ورد في أطروحات الفولكلور الغامضة، لكنها لم تتوقع يومًا أن يكون حقيقة. لم تكن تريدها أن تكون حقيقة.

كان سيلفر قد تقدم نحو فيل وهو يلوح بعصاه مهددًا.

– «ويندهام لم يرد الكتاب إلا بسبب معلوماتٍ أعطيتها له. ثم ظن أنه يستطيع المساومة عليه. معي أنا! لولا أن أخوية الحديد قد تخلصت منه، لكنتُ قد اضطررتُ لفعل ذلك بنفسي.. ولكن لم يضع كل شيء بعد يا عزيزتي.»

إذًا أخوية الحديد هي التي قتلت ويندهام. بافتراض صحة قول سيلفر، فقد حُسم أحد الخيوط العالقة. جيد، فكرت إيرين، على الأقل نقصت مجموعةٌ واحدة من القتلة المجهولين الذين يطاردوننا.

تقدم سيلفر خطوةً للأمام، بابتسامةٍ باهرة. شعرت إيرين بوخزٍ في الهواء بفعل الشوق المكبوت مجددًا.

– «سلّمي الكتاب وسأوافقُ بابتهاجٍ على أي شروطٍ ترغبين فيها.»

عند المكتب، بدا رامسبوتوم على وشك البوح بكل شيء؛ إذ تذبذبت يده نحو السجل الأزرق الصغير.

كان كاي هو من تحرك؛ وثب للأمام كفهدٍ، وألقى بنفسه في قفزةٍ خاطفة عبر المكتب، مختطفًا السجل الذي يدينهم من يدي رامسبوتوم. ثم قذف السجل عبر الغرفة نحو إيرين، فطار في الهواء بصفحاتٍ متموجة.

صرخ سيلفر:

– «أمسكوا به!»

التقطته إيرين.

صاح فيل وهو يلتف ببراعةٍ كاشفًا عن السيف الكامن داخل عصاه:

– «تراجعن أيتها السيدات!»

لمع الفولاذ في ضوء المصابيح المتوهج، ومع طرقةٍ مفاجئة، انهمرت شراراتٌ نارية منه، مشكلةً حاجزًا ساطعًا بينهم وبين الأعداء.

— «اللورد سيلفر، كبّل كلابك!»

كان كاي يدفع رامسبوتوم نحو الجدار، واضعًا نفسه بينه وبين أتباع سيلفر المزمجرين. أحسنت يا كاي، بإبقاء المدنيين بعيداً عن المعمعة. كان أتباع سيلفر يزدادون شَعَرًا بمرور الثواني؛ رأت إيرين بقعًا من الفراء الرمادي والأسود تغطي أيديهم، وأظافرهم تطول، وفكوكهم تنتفخ بأسنانٍ بارزة..

أمسكت برادامانت بكتف إيرين وجذبتها نحو الباب صائحةً:

— «هيا بنا!»

انتصر الرعبُ الحيواني المحض من فكرة التمزق بين أنياب ستة ذئابٍ ضخمة، فرجحت كفة الهروب. أما التفسيرات، فبإمكانها الانتظار.

تعثرت وهي تخرجُ إلى الممر خلف برادامانت. إذا ركضتا جهة اليمين، فسوف تقودان المطاردة نحو زوار المتحف العاديين، وهذا لن يكون خطأً أخلاقيًا فحسب، بل ربما يصيب الزوار بعقدةٍ من المتاحف مدى الحياة.

حشرت إيرين السجل تحت إبطها، ورفعت أطراف ثوبها، وانطلقت نحو اليسار. سمعت لعنةً مكتومة بينما تبعتها برادامانت.

بعد ممرّين، توقفت عند تقاطعٍ حيث تفرع الممر إلى طريقين. كان المكانُ أشبه بجحر الأرانب. فاحت رائحة هواءٍ أكثر نقاءً من جهة اليمين، مما يوحي بوجود مخرجٍ للطابق الأرضي، أو على الأقل سلم طوارئ، لكن الممر جهة اليسار كان أكثر إضاءة. أما الممر الذي أمامهما مباشرةً، فلم يكن فيه ما يغري.

قالت برادامانت وهي تتوقف لالتقاط أنفاسها:

— «واصلي الجري، المستذئبون خلفنا مباشرةً——»

لكن الأرضية كانت تهتز بعنفٍ تحت أقدامهما. بدا الأمر وكأن قطار أنفاقٍ يمر، ولكنه كان قريبًا من السطح بشكلٍ يثير القلق. ثم انبعجت ألواحٌ الأرضية أمامهما مباشرةً نحو الأعلى ببطء، ومزق شيءٌ مظلمٌ ذو مخالب طريقه عبرها. سحب نفسه إلى الممر وسط صريرٍ هائلٍ للتروس وطقطقة المعدن. كان كله من الفولاذ الملطخ بالزيت باستثناء الرأس، الذي كان مكسوًا بألواحٍ زجاجية على الجانبين ليشكل عينين مسطحتين هائلتين وشفافتين. كانٌ من الواضح أنه ينتمي لنفس التصميم الأساسي لذلك المخلوق المعدني الذي قاتله كاي وفيل قبل ليلتين، ولكنه كان أصغر وأسرع.

سألت برادامانت بهدوء، وكانت كلماتها واضحةً بشكلٍ غريب وسط صوت تحطم الخشب وصرير المعدن والعواء البعيد:

— «ما هذا؟»

أجابت إيرين:

— «أظن أنها أخوية الحديد. ربما تبعوا سيلفر.»

تأففت برادامانت:

— «أوه، لقد أصبح الأمر سخيفًا بحق. إلى أين الآن؟»

استدار رأس الروبوت الحشري ليركز على إيرين وبرادامانت. خطا خطوةً متمفصلةً في الممر نحوهما، والمخالب المثبتة في كل جزءٍ من جسده تجره وتترك شقوقًا مروعة في الخشب. كشط الجزءُ العلوي منه السقف، مُسقطًا خيوط العنكبوت التي ربما استغرق نسجها قرونًا، تاركًا خلفه أثرًا طويلاً من الجص الأبيض المهروس.

صرخت إيرين لـ برادامانت دون دليلٍ قاطع:

— «اتجهي يمينًا!» وركضت في ذلك الاتجاه. كانت تستحضر في ذهنها بالفعل مفردات «اللغة» — كلمات للتروس، والمفاصل، والدواسات، والفولاذ، والزجاج، والدعامات، والصواميل والبراغي. ولكن كانت هناك دائمًا فرصةٌ في أن يقرر هذا الكيان مطاردة سيلفر والمستذئبين بدلاً منهما، وبدا من المؤسف تحطيمه إن كان الأمر كذلك.

لحقت بها برادامانت وتجاوزتها وهي تلهث:

— «لن ينجح الأمر، أتعلمين؟ هل تظنين حقًا أن هذا الشيء لن يطاردنا؟»

قالت إيرين لاهثة:

— «الأمر يستحق المحاولة.» ثم التفتت لتنظر خلف كتفها.

جاء الإنسانُ الآلي الفولاذي منطلقًا نحو الأمام في قعقعةِ خطوات صاخبة، ثم توقف عندما وصل إلى التقاطع. وبصوتِ أزيز، دار الرأسُ ليوجه نفسه نحو الممر الذي تركض فيه برادامانت وإيرين. بدأت كتفاه في الصرير خلفه، وهو يناور لكي يندفع في الممر خلفهما كقطارٍ قادم.

تبادلت إيرين وبرادامانت النظرات.

قالت إيرين:

— «سأتولى أنا التروس إذا توليتِ أنتِ المفاصل.»

ردت برادامانت:

— «اتفقنا. امنحيه لحظةً حتى يسد التقاطع تمامًا.»

نجح الروبوت في قطع نصف الانعطاف. انغرست مخالبُه في الأرض بينما كانت النوابض الداخلية تعيد شحن نفسها. عكست العدساتُ

الضخمة المثبتة في الرأس صورتي المرأتين كـمرآة. وإذا كانت في الحقيقة نوافذ، فمن المستحيل رؤية من قد يكمن خلفها.

صرخت إيرين، وقد رفعت صوتها لـيصل إلى أبعد مدىً ممكن:

— «أيتهـــا الـتروس، تجمّـــدي! في الرأس، وفي المـــخالب، وفي الجسد، وفي كل جزءٍ يمكنه سماعي — أيتهـــــا التـــروس، تعصّـــي وتصّلبــــي واثبتـــي في مكانكِ!»

توقف الروبوت تمامًا وسط صراخٍ ميكانيكيٍ مروع للمفاصل والتروس المحشورة. حتى العواء البعيد للمستذئبين غرق وسط هذا الضجيج. توترت الأسلاك والكابلات وانقطعت. دار أحد المخالب للخلف، وانحشر في الأرض بزاويةٍ حادة، ثم انكسر. وطارت شظيةٌ من الفولاذ، رنانةً وهي ترتطم بالجدار بنغمةٍ معدنيةٍ حادة، سُمعت حتى فوق صوت تحطم الآلة لنفسها.

استدارت المرأتان، وركضتا في الممر بعيدًا عن ذلك الشيء، مرورًا بالمكاتب والمخازن المغلقة. كان الهواء مليئًا بالغبار الجديد، ورائحة الزيت والمعدن المحروق. تساءل جزءٌ من عقل إيرين عما إذا كان هذا سيحتل الصفحة الأولى في صحف الغد. على الأرجح. أنا لا أحب صنع العناوين؛ فالمفترض بـ (أمينة مكتبة) جيدة أن تقرأ العناوين لا أن تصنعها.

أشارت برادامانت دون داعٍ إلى سلمٍ أمامهما قائلة:

— «هناك!»

اندفعتا نحوه ركضًا، وكانت برادامانت تتأرجح ببراعةٍ على الدرابزين عند المنحنى وكادت أن تصدم إيرين بخصرها. انفتح الباب

عند قاعدته على الطابق الأرضي، كاشفًا عن غرفةٍ مليئةٍ بالأصداف والشعاب المرجانية. التفتت عدة عائلاتٍ لتنظر إليهم باستنكار.

رسمت إيرين أبرد ابتسامةٍ لديها، ونفضت بعض الغبار عن تنورتها، وأحكمت قبضتها على السجل الثمين. خلفها، همست برادامانت بشيءٍ لقفل الباب. لم تستطع إيرين تمييزه، لكنه كان يحمل إيقاع «اللغة».

تأمل أن يكون لديهما دقيقتان قبل أن يلحق بهما أي مستذئبين، أو «فاي»، أو «أخوية الحديد»، أو أي صائدي كتبٍ آخرين. لمحت إيرين مكتبًا صغيرًا في الجانب الآخر من الغرفة والتقت عيناها بـ برادامانت.

قالت مشيرةً بذقنها نحوه:

— «إلى هناك.»

وافقت برادامانت:

— «بكل تأكيد.»

مشوا بوقارٍ عبر الغرفة، متجاوزين صناديق زجاجية مليئة بشقائق النعمان البحرية الجافة، والبوليبات الهشة، وغيرها من الكائنات زاهية الألوان التي كانت على الأرجح أكثر سعادةً حين كانت تحت الماء.
وبإيماءةٍ مهذبةٍ لرجلٍ مسنٍّ يجر خطاه خلف مشاية، جربت إيرين بهدوء مقبض باب المكتب.

سألت برادامانت بهدوء:

— «هل هو مغلقٌ يا عزيزتي؟»

قالت إيرين وهي تخفض صوتها:

— «أوه لا. في الواقع، هذا الباب مفتوح.»

دارت «اللغة» في فمها، فـارتخى المقبض تحت يدها، ودار بـانصياعٍ لـيسمح لهما بالدخول.

قالت برادامانت وهي تغلق الباب خلفهما:

– «ليس سيئًا.» بحثت عن مفتاح، فلم تجد، فتمتمت: «أيها القفل، أُغلق.» فـأصدر القفلُ صوت طرقةٍ ثانية.

أجالت إيرين بصرها في الغرفة. كان من الواضح أنه مكتب لشخصٍ ذي شأن؛ فالمكتب والكراسي كانت أحدث من تلك الموجودة في الأسفل، واللوحات والرسوم البيانية المعلقة على الجدران كانت داخل أطر، ولم يكن هناك غبار.

قالت وهي تتوجه نحو المكتب:

– «من الأفضل ألا نتأخر كثيرًا. قد يدخل شخصٌ ما في أي لحظة.» جلست وفتحت السجل بـحركةٍ خاطفة.

قالت برادامانت وهي ترفع يديها لتسوية قبعتها وشعرها:

– «عزيزتي إيرين، قد لا أتمكن من التعامل مع قطيعٍ من المستذئبين وكائنٍ (فاي) غاضب، لكني أستطيع بالتأكيد التعامل مع موظفٍ متحفٍ واحد. خاصةً إذا كان بدينًا.»

– «بدينًا؟»

كانت سخرية برادامانت واضحةً في نبرة صوتها:

– «لا أحتاج لأن أكون محققةً عظيمة مثل فيل الخاص بكِ لأنظر إلى الكرسي الذي تجلسين عليه وأرى أنه عادةً ما يجلس عليه رجلٌ شديد السمنة.»

قالت إيرين، وهي تشعر بوخزةٍ خفيفة:

- «أوه.» لم يكن يعني امتلاكها لذوقها الخاص في القصص أنها تحب أن يسخر منها أحدٌ بشأنها.

قلبت الصفحات، تبحث عن قيودٍ تعود لتاريخ ما قبل يومين. وصل الصندوق منذ خمسة أيام، وبعد ثلاثة أيام من ذلك كان قد أرسله..

قالت وهي تعثر على التاريخ: «آه! إمّم.. لقد مرت عبره الكثير من الطرود. لا بد أن البروفيسورة بيتوني تتلقى الكثير من البريد.» مررت إصبعها على الصفحة، تبحث عن ذكر لاسم ويندهام. «وجدته. طردٌ من اللورد ويندهام، أُعيد إرساله إلى..»

قالت برادامانت بصدمةٍ وهي تقرأ من فوق كتفها:

- «إلى دومينيك أوبري، المكتبة البريطانية!»

ضربت إيرين يدها فوق المكتب صائحةً:

- «بالطبع! لقد قلتِها بنفسكِ، لقد كان دومينيك غير حذرٍ فيما أخبر به ويندهام! وكان ويندهام يخشى أن يهاجمه سيلفر أو يحاول سرقة الكتاب.» من الناحية التقنية، فإن خزنة الحديد البارد ستحمي الكتاب من أي لصوص، وليس فقط من «الفاي»، لكن سيلفر كان يعلم بوجوده هناك.

تابعت قائلة:

- «إذا أراد ويندهام إخفاء الكتاب عن سيلفر، وإذا كان يعرف القليل أو الكثير عن دومينيك، أو على الأقل إذا كان متأكدًا من أن دومينيك عدوٌ لـ (فاي) بشكلٍ عام، ولـ سيلفر بشكلٍ خاص.. فلا بد أن ويندهام قد أرسل هذا الطرد قبل وفاته، بمجرد أن صنع نسخة الكتاب المزيفة، تلك التي سرقتِها أنتِ.»

أدركت أنها بدأت تفقد ترابطها، فأخذت نفسًا عميقًا وتابعت:

– «لا بد أنه توقع استعادة الكتاب من دومينيك لاحقًا.» وفجأةً عادت إليها مخاوفها السابقة بشأن دومينيك. «لكن هذا يعني——»

انغرز ألمٌ حاد في جانب عنقها، كان حادًا وناضحًا كلدغة زنبور. همّت بالصراخ من هول الصدمة، لكن الكلمات كانت مشوشةً في فمها وشفتيها متخدرتين. تراجعت إلى الخلف في المقعد العريض، كانت أفكارها واضحةً لكن جسدها كان مخدرًا ومرتخيًا، عاجزًا عن صياغة كلمةٍ واحدةٍ صحيحة.

قالت برادامانت وهي تمسح طرف دبوس قبعتها على كتف معطف إيرين قبل أن تعيده إلى قبعتها ثانيةً:

– «لكن هذا يعني.. أنني لم أعد بحاجةٍ إليكِ.»

الفصل الثامن عشر

تمتمت إيرين بـصوتٍ متلعثم:

— «مـ ماذا تفعـ..ـلين؟»

بالكاد استطاعت مخارج حروفها أن تطاوعها بالإنجليزية، فكيف لها أن تنطق بـ «اللغة»؟

أجابت برادامانت:

— «أضمنُ نجاح هذه المهمة. أنا لم أنكث بعهدي؛ فقد وعدتُكِ أنني إذا وجدتُ الكتاب، فسأحضره إليكِ قبل عودتي للمكتبة. وسأفعلَ ذلك بمجرد استعادته من مكتب دومينيك أوبري. ولكن، سيكون ذلك في الوقت الذي يناسبني وبالطريقة التي أختارها. أما الآن، فلا أريد منكِ أي تدخلٍ آخر.»

غمغمت إيرين:

— «حـ..ـمقاء.»

كانت تقصد أنها حمقاء. كانت بحاجةٍ لأن تخبر برادامانت بشكوكها حول ألبريتش، لكن هجوم برادامانت عليها جعل ذلك مستحيلًا.

قالت برادامانت:

— «لا تقلقي.»

ومسحت خصلة شعرٍ شاردة لتعيدها تحت قبعتها. وتابعت بابتسامةٍ خبيثة:

— «إنه مشتقٌ من سم (الكورار). ستعودين للوقوف على قدميكِ في غضون نصف ساعةٍ أو نحو ذلك. من المحتمل ألا يؤثر على تنفسكِ أو قلبكِ.. أو ربما يفعل؛ ففي النهاية لم أختبره كثيرًا. ابتهجي يا عزيزتي إيرين! قريبًا ستتحررين من كل هذه الهموم المزعجة بشأن المكتبة وعملكِ الفعلي، وسيمكنكِ التركيز على أصدقائكِ هنا بدلًا من ذلك. ربما ستحصلين على مهمةٍ أخرى تتناسب مع مواهبكِ.. جمع ورق المرحاض مثلًا.»

حدقت إيرين فيها بغضب، وهي تكافح لصياغة الكلمات. *أيتها الحمقاء الغبية، ألا تدركين أنني كنتُ على وشك إخباركِ بشيءٍ مهم؟*

كان هذا هو الوقت المثالي لتطوير قدرة التخاطر، لولا أنها في حدود علمها مجرد محض خيالٍ روائي.

انحنت برادامانت لتستعيد السجل وقالت:

— «لستُ عمياء، أتعلمين؟ لقد كنتُ مدركةً لمراقبتكِ لي. وسخريتكِ الصغيرة من حقيقة أنني أستمتع بالملابس الجميلة. لقد رأيتُكِ تلوين أنفكِ الصغير استخفافًا باهتمامي بإتمام المهمة، واستعدادي للكذب لإنجاز العمل. وكرهكِ العام لي..؟ نعم، الكره كلمةٌ جيدة؛ لن نسميه ازدراءً الآن، لكنكِ لا تحبينني على الإطلاق.»

أخشى أن دومينيك أوبري ليس هو دومينيك الحقيقي، حاولت إيرين أن توصل الفكرة بعينيها. أعتقدُ أن ألبريتش قد حلَّ محله منذ أيام. أعتقدُ أن الرجل الطيب الذي التقيتُ به أنا وكاي كان في الواقع كائنًا قديمًا وشريرًا يرتدي جلد دومينيك أوبري. وأظن أن السبب الوحيد الذي منعه من العثور على الكتاب حتى الآن هو أنه لم يكن يعرف بجهات اتصال دومينيك. والأهم من ذلك، أنه لم يكلف نفسه عناء فحص بريده.

ابتسمت برادامانت لـ إيرين وهي تقول:

— «تجاوزي الأمر. بعضنا ليس من سلالةِ آباءٍ محظوظين أفسدهم الدلال، ليقضوا بقية حياتهم كالملائكة الصغار. بعضنا ممتنٌ لخروجه من أماكن أسوأ مما يمكنكِ تخيله.»

لمح ظلٌ خلف عينيها، وتابعت:

— «نحن نقدّر ما أُعطي لنا. وسنفعل أي شيء، أي شيء على الإطلاق، للقيام بعملنا على أكمل وجه. يمكنكِ اللعب مع محققكِ العظيم كما يحلو لكِ يا إيرين — أوه، لا تظني أنني لم أكتشف ذلك. أنا أعرف من تريدين أن تكوني. لكني أعرفُ من أنا. سأضحي بمن يجب وما يجب لإتمام المهمة. لو كنتِ تفهمين حقًا، لو كنتِ (أمينة مكتبة) حقيقية، لفعلتِ الشيء نفسه. ربما ستفهمين ذلك يومًا ما.»

أنتِ على وشك السيرِ بين يديه مباشرةً. شعرت إيرين بالدموع تحرقُ زوايا عينيها. ستدخلين إلى هناك وليس لديكِ أدنى فكرة عما ينتظركِ.

قالت برادامانت بلطفٍ مصطنع:

— «سأقفل الباب خلفي. لا ينبغي أن يقتحم عليكِ أي مستذئبين المكان وأنتِ عاجزةٌ هكذا.»

آملُ أن يقضموا أنفكِ الملعون، فكرت إيرين بانتقام.

قالت برادامانت ثم توقفت للحظة:

— «لا تظني أنني شريرة.. في الحقيقة، فكري بي كشريرة. فكري بي كعاهرةٍ خبيثة ستأخذ مهمتكِ، وفضلكِ، وربما تلميذكِ إذا لم تكوني قد أفسدتِه كثيرًا. فكري بما تشائين. ولكن..»

انحنت للأمام وربتت على خد إيرين بلطف. لم تستطع إيرين حتى الشعور بلمسة يد برادامانت على بشرتها.

قالت برادامانت:

— «فكري بي كعاهرةٍ تنجز العمل.» ثم توجهت نحو الباب وتابعت: «لا تتصلي بي.. أنا من سيتصل بكِ.»

انغلق الباب خلفها بـطقطقةٍ خفيفة.

حدقت إيرين في المكتب العاري أمامها، وهي ملقاةٌ كالدمية على الكرسي. لم تستطع تحريك رأسها، ولم تكن تملك التركيز العضلي للصراخ. ذاقت طعم المرارة واليأس.

ربما كنتُ مخطئةً حين قيدتُ برادامانت بقسمٍ بـ «اللغة»، هكذا فكرت وسط ضبابيتها. ربما تعود هذه الخيانة في النهاية إلى إهانتي لـنزاهتها. أو ربما، في المقابل، كانت برادامانت مجرد خائنةٍ لا أمان لها.

وخزةُ ذنبٍ طاردت مؤخرة عقلها. نعم، كان عليها أن تعترف بأنها استمتعت بالعملِ مع فيل. لم يكن الأمر مجرد هوسٍ بـ «المحقق العظيم». (لطالما أحبت قصص هولمز، وواطسون، وحتى موريارتي). لكن كان في فيل ما هو أكثر من مجرد كونه محققًا بارعًا؛ كان ذلك الرجل الحساس الذي اعترف بقطيعته مع عائلته، لكنه ظل مستعداً لمساعدتهم حين طلبوا ذلك. كان هناك كرمه ولباقته المفاجئان. حتى تلك اللمسة الإنسانية حين أعار كاي رداءه المنزلي، لـتجدهما جالسين على الإفطار يناقشان أمر المناطيد.

لم تكن طفلةً تبحث عن دورٍ تؤديه؛ بل كانت (أمينة مكتبة) لديها عملٌ تنجزه، وقد أدى تبادل المعلومات مع فيل وسينغ إلى دفع الأمور للأمام.

إنَّ الاستسلام لـلشعور بالذنب سيكون بـمثابةِ سُم (الكورار) الذي تنفثه برادامانت، وبنفس القدر من الأذى.

لكن ثمة شيءٌ أعمقُ من ذلك. وبينما كانت تكافح للبقاء متيقظة، وعقلها يصارع لـئلا يتبع جسدها في خموله، حاولت التفكير بـمنطقية؛ فليس لديها ما تفعله على أي حال. إنَّ أمناء المكتبة لا يخونون بعضهم هكذا. كانت برادامانت تؤدي دورها ببراعة، لكن إيرين لمحت في عينيها الخوف مرةً أو مرتين. لقد استولت على مهمة شخصٍ آخر — وهو أمرٌ، إن لم يكن محظورًا تمامًا، فهو خرقٌ خطير للأعراف. لقد فشلت مرةً في الحصول على الكتاب، والآن ها هي تهاجم إيرين وتتركها في خطرٍ لـتصل إليه أولًا. من الذي قد يدفعها إلى هذا الحد؟

شعرت إيرين بالقشعريرة. فـبعضُ كبار أمناء المكتبة لديهم.. سمعةٌ سيئة. إنَّ قضاء عمرٍ كاملٍ بين الكتب لا يورث الفجور أو المجون، بل يورث حب ألعاب العقل والسياسة. وتلك الألعاب قد تنحرفُ لـتصبح مظلمة. حتى كوبيليا قد تكون لها أهدافها الخاصة. انظر إلى كاي مثلًا؛ لقد زُرِع في طريق إيرين في خضمِ مهمةٍ تتعلق بـ ألبريتش. ما الذي يحدث هناك بـالضبط؟ وكم عدد الأشخاص الذين خمنوا حقيقته؟

شعرت بـعقلها وكأنه محشوٌ بـقطع «المارشملو»، مسدودٌ عند الحواف ومشوشٌ في المنتصف. لا بد أنه تأثير العقار. لكن كان عليها أن تفكر؛ كان عليها أن تحل هذا اللغز. لديها الحقائق، وتحتاج فقط لـتطبيقها.

بـالمقارنة مع كوبيليا، كان هناك أشخاصٌ مثل كوستشي، راعي برادامانت. كان رجلاً منعزلاً وشديد المتطلبات؛ لا يجرؤ أحدٌ على مجادلة رسله حين «يطلب» كتابًا بعينه. وتقول الشائعات إن له نفوذًا هائلًا بين كبار أمناء المكتبة حين يقرر استخدامه. وحقيقة أنه اختار

براداماnت كتلميذةٍ له كانت بمثابةِ أمرٍ مثيرٍ للاهتمام بذاته. وحقيقة أنها قد تهاجم أمناء مكتبةٍ آخرين وتسرق عملهم لتجنب تخييب آماله.. كانت أكثر إثارةً للدهشة.

وفجأة، اشتعلت في أعماق إيرين رغبةٌ محرق في قراءة هذا الكتاب اللعين والمراوغ، إذا كان بهذه الأهمية. (كانت تدرك أن هذا النوع من المنطق قد أوقع الناس في المتاعب من قبل. سحقًا للمنطق؛ إنها غاضبةٌ حقًا). هل كانت تلك إصبعها التي ارتعشت؟ أرجوكِ، لتكن إصبعها التي ارتعشت.

حاولت أن تسعل، فخرج منها ما يشبه صوتاً مفهوماً.

سأريها ما الذي يمكنني فعله بها.

تحرك مقبض الباب. استطاعت سماع غمغمة أصواتٍ في الخارج، لكنها لم تكن واضحة. كافحت لتنادي بشكلٍ مفهوم، لكن لم يخرج منها سوى غرغرةٍ متقطعة. وفي يأسها، حركت ساقها بقوة، لتركل المكتب. دوت ضربةٌ قوية حين اصطدم حذاؤها بجانب المكتب الأجوف.

تبادلٌ سريعٌ آخر للحديث. صمتٌ قصير.

انفتح الباب بقوة. ومن زاويةِ عينها، استطاعت رؤية فيل وكاي يقفان هناك؛ كان فيل يعيد طي شيءٍ في حجم المحفظة ويدسه في جيبه. بدا على كليهما آثارُ عراكٍ طفيف وشيءٌ من الشعث، لكن لم يكن الأمرُ مميتًا.

صاح كاي وهو يهرعُ إلى الغرفة:

— «إيرين! هل أنتِ بخير؟»

لا، أنا أعاني حاليًا من تسمم بـ (الكورار)، حاولت أن تتواصل معه، لكن لم يخرج منها سوى غرغرة.

اتجهت عينا كاي إلى الخدش في عنقها، وصاح:

— «يا للسماء! لقد سُممت! لا بد أن سيلفر وصل إلى هنا قبلنا! سأقتله..»

قال فيل:

— «عذرًا.»

وأمسك بيد إيرين الملقاة بارتخاءٍ على مسند الكرسي. أزاح كُمَّها وتحقق من نبضها، وتابع قائلاً:

— «الآنسة في وعيها كما ترى، وتبدو في صحةٍ جيدة لولا ذلك؛ لذا يجب أن نفترض أنه شللٌ عضلي..»

انحنى كاي للأمام وضم وجهها بين يديه، محدقًا في عينيها:

— «إيرين، قولي شيئًا!» استطاعت بالكاد أن تشعر بملامسة بشرته لوجهها. «هل تسمعيننا؟»

استطاعت بالكاد أن تنطق:

— «أسـ..ـمع.. كـ..ـورار..»

صاح كاي ملتفتًا لـ فيل:

— «لقد سُممت بـ (الكورار)! بسرعة! أين نجد طبيبًا؟»

تساءلت إيرين بمرارة عما إذا كانت التنانين تميلُ لذكرِ البديهيات في لحظات الأزمات، أم أنه هو بمفرده.

تهلل وجه فيل وبرقت عيناه بحماس:

– «آها. أعتقدُ أننا نستطيع التعامل مع هذا هنا والآن. لديَّ كميةٌ صغيرة من مشتقات (الستركنين)، أستخدمها كمنبهٍ في حالات الطوارئ..»

كثيرٌ من الأمور صار لها تفسيرٌ الآن، فكرت إيرين بمرارةٍ أشد. تابع قائلاً:

– «ورغم احتمال وجود بعض الآثار الجانبية الطفيفة، فمع قليلٍ من الحظ، سيعيدها ذلك لدرجةٍ تمكنها من الكلام. سيد سترونغروك، هل تتكرم بتثبيت كتفيها بإحكام؟»

قال كاي وهو يخطو خلف كرسيها ليمسك بكتفيها:

– «بالتأكيد.» استطاعت بالفعل أن تشعر بأصابعه وهي تضغطُ عليها عبر طيات ثيابها. إما أن مفعول (الكورار) بدأ يتلاشى، أو أن قبضة يده كانت قويةً بالفعل.

أخرج فيل أنبوباً زجاجياً صغيراً من جيب معطفه الداخلي. انحنى للأمام وأمال رأسه بعيداً، ثم نزع الغطاء ومرره للحظةٍ تحت أنف إيرين.

استنشقت إيرين. انتفض جسدها بأكمله في تشنجٍ غير لائق؛ ركلت ساقاها الهواء وتشابكتا في تنورتها الطويلة، وتقلصت عضلاتُ ذراعيها بعنف. ارتد رأسها للخلف، ولولا قبضة كاي على كتفيها، لكانت قد ارتمت من الكرسي لتتخبط على الأرض.

قال فيل وهو يغلق الأنبوب الزجاجي ويعيده لجيبه:

– «آنسة وينترز؟ هل تفهمينني؟»

سعلت إيرين وركزت على التنفس للحظة، بينما خف التشنج في أطرافها ببطء. شعرت بأن الأمر يشبه التقلصات العضلية الآن؛

تقلصاتٌ شديدةٌ للغاية. ذلك النوع من التقلصات الذي يتطلبُ في الظروف المثالية جلسة تدليكٍ طويلة وبطيئة في حمامٍ ساخن..

لا بد أن هذا تأثير (الستركنين)؛ فـهي لا تتركُ عقلها يشرد بـهذه الطريقة عادةً.

تمتمت بـصعوبة:

— «إمم، نعم.. شـ..ـكرًا لك. يجب أن.. لقد كانت برادامانت، الكتابُ مع أوبري، ليس أوبري الحقيقي..»

تبادل فيل نظرةً ذات مغزى مع كاي. استطاعت أن تخمن ما يدور في خلديهما: لا تزالُ تهذي.

كان عليها أن تجعل كلامها مفهوماً.

أغمضت عينيها لـلحظة، وركزت، وتمنت لـعناتٍ مريرة على رأس برادامانت، ثم فتحت عينيها مرةً أخرى.

قالت بـوضوح:

— «ثلاثة أمور. أولاً: الكتابُ أُرسل لـ دومينيك أوبري؛ أعتقدُ أن ويندهام أراده أن يحفظه بعيداً عن سيلفر. ثانياً: برادامانت هي من سممتني؛ إنها تريد الوصول لـلكتاب أولاً. ثالثاً: أظن أن ألبريتش قتل دومينيك أوبري قبل وصولنا؛ وأعتقدُ أنه كان يتنكر بـشخصيته حين وصلنا. والسببُ الوحيد الذي منعه من العثور على الكتاب هو أنه لم يفحص بريد أوبري.»

تشنجت ساقها بـقوة. انحنت بـصعوبة وضربتها بـقبضتها، وقالت:

— «آوه.»

تبادل فيل وكاي النظرات مجدداً. شعرت بـأن هناك من التواصل بـينهما ما يفوق ما تراه. ربما كان أمراً يخص الرجال، أو ربما أمراً يخص التنانين في جانبٍ والمحققين العظماء في الجانب الآخر.

سأل كاي:

– «هل يمكن لـ برادامانت أن تكون متآمرةً مع ألبريتش؟ بـما أنها سممتكِ؟»

هزت إيرين رأسها وندمت على ذلك. وضعت يديها على مسندي كرسيها وكافحت لـترفع نفسها لـلوقوف، وحدقت في كاي بـغضبٍ حين حاول مساعدتها.

قالت بـحدة:

– «برادامانت لا تملكُ أدنى فكرة. برادامانت حمقاء. لقد ركضت لـتحصل على الكتاب.. لم يتسنَّ لي إخبارها بـأمر ألبريتش ودومينيك. لستُ متأكدةً حتى من أنها صدقتني حين أخبرتُها أن ألبريتش هنا. وإذا كان لا يزالُ حول المكتبة البريطانية حين تصل..»

جف حلقها لـهذه الفكرة. كانت تود الانتقام من برادامانت بـشكلٍ موجع، لكنها لم تكن تكرهها إلى هذا الحد.

قالت بـحزم:

– «يجب أن نصل إلى هناك أولاً.»

خطت خطوة، وكادت أن تسقط.

أمسك فيل بـمرفقها لـيسندها:

– «آنسة وينترز، أنتِ لستِ في حالةٍ تسمحُ لكِ بـمرافقتنا. يجب أن تستريحي هنا بينما نذهب أنا والسيد سترونغروك لـلبحث عن زميلتكم الشاردة.»

قال كاي:

– «رغم أنني أوافقكَ الرأي عادةً، إلا أن هناك أولئك المستذئبين.»

قالت إيرين بـحدة:

– «ألم تتخلصوا من المستذئبين حتى؟» كانت تدرك أنها غير عادلةٍ بـعض الشيء، لكن على الأقل لم يطعنها حلفاؤها المفترضون في الظهر وهم يحاولون القيام بـعملهم.. أو في العنق.. أياً كان.

قال فيل:

– «صحيح. قد يشكلُ المستذئبون مشكلة؛ فـنحن عطلنا حركتهم فقط ولم نقضِ عليهم. لقد طلبتُ الشرطة، لكنهم سـيحتاجون وقتاً لـلوصول. ربما لو أننا..»

قالت نبرةُ صوتٍ مزمجرة:

– «ربما لو أنكم ماذا؟»

وقف شخصٌ رث الهيئة عند الباب المفتوح، يبرزُ الشعرُ من ثيابه عند العنق والأكمام، وفمه مـفـتـوحٌ عن أسنانٍ مزمجرة. وتابع قائلاً:

– «هذه المرة، فات الأوان على السيد فيل اللعين..»

التقط كاي المحبرة من على المكتب، وقذفها مباشرةً في وجه المستذئب. تناثر الحبرُ في كل مكان، على الأرضية الملمعة والجدران المكسوة بـالورق، لكن معظمه استقر على المستذئب. لم يملك إلا لحظةً واحدة لـنظرةِ دهشةٍ يقطر منها الحبرُ الأسود قبل أن تـصيبه ركلةُ كاي في صدره وتجعله يترنح لـلخلف نحو الردهة المركزية. تبعها كاي بـضربةِ مرفقٍ لـذقن المستذئب، وركلةٍ أخرى لـخلف ركبته، ثم ضربةٍ بـكلتا يديه لـخلف عنقه.

سقط المستذئبُ أرضاً وسط بقعةٍ من اللعاب والحبر. سحب فيل إيرين من المكتب نحو الردهة الرئيسية بنصفِ سحبٍ ونصفِ إسناد:

— «يبدو أنه سيتعينُ عليكِ المجيء معنا بعد كل شيء يا آنسة وينترز.»

صاح كاي بصوتٍ عالٍ متجاهلاً الحشود التي كانت تصرخُ أو تحدقُ في ذهول:

— «بسرعة! نحتاج لعربة.»

قال فيل:

— «عربة؟ يا عزيزي، العربةُ ستكون بطيئةً للغاية. نحتاج للوصول إلى السطح.»

سألت إيرين:

— «السطح؟» ربما كانت بطيئة الفهم بعض الشيء، لكنها لم تكن متأكدة من أن تحول كاي إلى تنين ليحلق بهم سيكون مفيداً جداً، إلا إذا.. «آه، فهمت. المناطيد.»

قال فيل وهو يسرعُ بها نحو الدرج:

— «بالضبط. بالطبع، قد نواجه بعض المشاكل في الرسو لاحقاً، لكنه خيارنا الأفضل.»

لحق بهما كاي، وأمسك بمرفق إيرين الآخر ليساعد في عملية سحبها كأنها دميةٌ عملاقة.

— «أسمعُ المزيد منهم يقتربون.. أي طريق يا فيل؟»

أمره فيل:

— «يساراً عند القمة.»

اندفعوا متجاوزين مجموعتين سياحيتين مذهولتين وانعطفوا يساراً، ودخلوا صالة عرضٍ واسعة مليئة بـالخزائن الزجاجية الضخمة. هنا، كانت الضباعُ المحنطةُ تهددُ الغزلان المحنطة، ودبٌ قطبيٌ عملاقٌ محنطٌ يرتفعُ فوق فـقمات محنطة تبدو عليها علامات الملل، ومجموعةٌ من الطيور المحنطة بـألوانٍ قوس قزح تجلسُ بـأسى بـين الزهور المجففة.

سمعت صوت سيلفر ينادي من خلفهم:

– «أمسكوا بهم!»

تعالى عواءٌ يـجمد الدماء في العروق أمامهم. فر الزوار المذعورون من الغرفة، دافعين بـإيرين والرجلين لـلجانب وهم يندفعون خارج الأبواب البعيدة.

قالت إيرين بـهدوء لـ كاي بينما كانت ساقاها لا تزالان تتشنجان وهي تتشبثُ بـ فيل لـتبقي نفسها واقفة:

– «أحضر لي مكبراً لـلصوت.»

لقد خطرت لها فكرة، وهذه المرة، هذه المرة فقط، كانت تشعرُ بـأنها ستنجح.

– «المرشدون السياحيون يملكونها..»

أمسك كاي بـمرشدٍ سياحي وهو يركضُ مسرعاً، وأخذ منه مكبر الصوت بـسرعة. وسأل:

– «هل يفي هذا بـالغرض؟»

ظهر أول مستذئبٍ يعوي، وهو يلتفُ حول إحدى الخزائن الزجاجية. كان رأسه ويداه بـهيئة ذئبٍ تماماً، وثيابه تتمزقُ عند الخيوط وهو يغير هيئته.

جربت إيرين مكبر الصوت:

– «هل يعملُ هذا الشيء؟»

تردد صدى صوتها بتشويشٍ في الغرفة.

بدا المستذئبُ كأنه يضحك. وانضم إليه آخر. كانا يقتربان ببطء؛ فمن الواضح أن اهتمامهما بإثارة الرعب لا يقلُ عن اهتمامهما بسفك الدماء.

بدأ فيل قائلاً:

– «آنسة وينترز، إذا كان في ذهنكِ شيءٌ ما..»

رفعت إيرين يدها بمعنى الاعتذار. وبدقةٍ متناهية، وجهت «اللغة» عبر مكبر الصوت:

– **«أيتها الكائناتُ المحنطة، فلِتَدُبّ فيكِ الحياةُ وهاجمي المستذئبين!»**

اهتزت الكلماتُ في الهواء واستمدت الطاقة منها لتتحول لواقعٍ ملموسٍ في العالم. كان من السهلِ إخبارُ قفلٍ بأن ينفتح، أو باب بأن ينغلق؛ فهذه الأفعال تأتي بشكلٍ طبيعي لتلك الأشياء، والكونُ يسعدُ بتلبية الطلب. لكن الحيوانات المحنطة ليست معتادةً على العودة للحياة لمهاجمة الأشياء.

إلا أنه الآن، وبينما كان فيل ينظرُ إليها بتفاهمٍ متزايد وكاي يبتسمُ ابتسامةً حادة، صار الأمرُ حقيقة.

انفجر الدبُ القطبيُ من خزانته بزئيرٍ صامت، وفمه مفتوحٌ ليعرض تلك الأسنان المحفوظة بعناية. تحطمت الألواحُ الزجاجية كشلالٍ من الشظايا على الأرضية المبلطة، وتناثرت في كل الاتجاهات.

تبعته الـفـقماتُ وهي تزحفُ خلفه، وتتخبطُ في حركاتٍ تشنجية عبر الأرض.

وفي مكانٍ آخر من الغرفة، تكسر المزيدُ من الزجاج بـينما كانت فيضٌ من المخلوقات تشقُ طريقها لـلخروج. قطيعٌ من الذئاب تـقدم بـخطىً متصلبة، وأفعى «بوا» عاصرة كانت مربوطةً بـعنايةٍ خرجت تتلوى من خزانتها، غير مباليةٍ بـالخناجر الزجاجية المنغرسة في جسدها المحشو بـنشارة الخشب، وحتى الطيور ألقت بـأنفسها على جدران خزائنها، وهي تـكافحُ عند أطراف أسلاكها.

قال فيل:

– «يا للسماء.. آنسة وينترز. ماذا فعلتِ؟»

قالت إيرين وهي تقذفُ بـمكبر الصوت جانباً:

– «لن تهاجم سوى المستذئبين. نحتاج لـلهرب وهم منشغلون، قبل أن يصل سيلفر إلى هنا.»

اصطدم مكبر الصوت بـالأرض فـتحطم وأحدث رنيناً.

كان لدى فيل غريزةٌ جيدة لـمعرفة متى يجبُ التحرك الآن وتأجيل الأسئلة لاحقاً. لا بد أن هذا جزءٌ من كونه محققاً عظيماً، هكذا قررت إيرين بـدوار، وهي تتساءل عما إذا كان مزيج (الستركنين) و (الكورار) يجعلها تـهذي.

حاول أحدُ المستذئبين الانفصال عن الحشد المهاجم من ثعالب الماء والتماسيح لـيصل إليهم، لكن تمساحاً صغيراً بـإصراره (لاحظ صغار هذا النوع، طوله قدمان فقط) قضم كاحله وجره عائدةً لـلمعمعة.

سلك فيل طريقه بـثقةٍ عبر المزيد من السلالم والممرات، ثم صاروا على السطح. كان الهواءُ في الخارج بارداً ومشوباً بـالضباب الدخاني؛

ارتطم بحلق إيرين وجعلها تسعل. منطادان صغيران يتأرجحان عند أطراف المرابط في سماءٍ تبدو مشؤومة، ويحلقان على ارتفاعِ عشرين قدماً تقريباً فوق سطح المتحف.

جاء حارسٌ يهرعُ نحوهم، وشاربه يرتجف:

– «سيد فيل! اعذرني يا سيدي، أنا متأكد من أن لديك عملاً عاجلاً جداً هنا، لكن هذا المكان محظور.»

أعلن فيل:

– «ليس هناك وقتٌ لهذا يا رجل! حصّن الأبواب. هناك مستذئبون طلقاء في المتحف. المفتش سينغ سيأتي بقوةٍ من سكوتلاند يارد لتمشيط المكان. في غضون ذلك، أحتاجُ لأحد مناطيدك لإيقاف الجاني قبل أن يهرب.»

اتسعت عينا الحارس، ومسح شاربه بقلق:

– «هل الأمرُ بهذه العجلة يا سيدي؟»

قال فيل بحدة:

– «إنها مسألةُ حياةٍ أو موت. المفتش سينغ سيشرحُ كل شيء حين يصل. هل أنت معي يا رجل؟»

أعلن الحارس، وهو يكادُ يطرقُ حذاءه بعضهما البعض بحماس:

– «نعم يا سيدي.» (لا بد أن التعامل مع المستذئبين ومساعدة المحققين العظماء أمرٌ غير معتاد). التفت لينظر للأعلى نحو المناطيد المحلقة، ولوح بيده: «جينكينز! ألقي بالسلم يا فتاة، لديكِ مهمةٌ للقيام بها!»

بقدرٍ من الدفع من الأسفل والسحب من الأعلى، تمت مساعدةُ إيرين للصعود عبر سلم الحبال المتأرجح. قررت أن تكون ممتنةً

لـأمرين: أولاً، أنها لم تُترك وحيدةً في الخلف، وثانياً، أنها ترتدي ملابس داخليةً رصينة. أما بقيةُ عقلها فـكان منشغلاً بـالتشبث بـسلم الحبال بـيدين متعرقتين، محاولةً ألا تسقط وتـموت.

كان الطيارُ امرأة، ترتدي ثياباً من القماش الخام والجلد ــــ وهي المرةُ الأولى التي تـرى فيها إيرين امرأةً تـرتدي سروالاً حتى الآن في هذا العالم البديل. كانت نظاراتُها مرفوعةً فوق ضفيرةٍ ثقيلةٍ من الشعر الملفوف، وبدت أكثر ارتياباً من الحارس. وقالت:

ــ «لا أعرفُ ما الذي يحدث، لكن عليَّ رؤيةُ تصريحٍ ما.»

أعلن فيل:

ــ «اسمي فيل. وأحتاج لـمساعدتكِ لـلوصول لـلمكتبة البريطانية بـأسرع ما يمكن.»

قالت المرأة بـعدم اكتراث:

ــ «ذلك الاسم وعليه قرشاً سـيشتريان لك رطلاً من البصل.» ثم استندت لـلخلف في مقعدها، وهو عبارة عن شبكةٍ من الأحزمة الجلدية والمطاط الذي يصدر صريراً، وتابعت قائلة: «اذهب وابحث عن مسكينٍ آخر يـخاطر بـعمله إذا كنت ترغب في مطاردة المجرمين.»

فكرت إيرين في الضرر النفسي المحتمل لـما كانت سـتفعله. فـعادةً ما يـتجنبُ أمناء المكتبة ذلك، بـسبب مخاطر فرض الإرادة على عقول الناس، ناهيك عن رد فعل الكون الذي يـأتي أحياناً بـطرقٍ مثيرةٍ لـلاهتمام. لكن الوقت كان يـنفد.

ــ «آنسة جينكينز..»

قالت المرأة بـحدة:

ــ «بل السيدة جينكينز بـالنسبةِ لكِ. أنا امرأةٌ متزوجةٌ ومحترمة.»

تابعت إيرين، وهي تنتقلُ بسلاسةٍ لـ «اللغة»:

– «**سيـــدة جينكينز، أنتِ تـــدركين أن المحقـق هنا يُــظهرُ لكِ تصريحاً موثوقـــاً ومقبـــولاً.**»

قطبت السيدة جينكينز جبينها، وهي تحدقُ في فيل. وقالت أخيراً:

– «.. حسنًا، لا يمكنني القول إنني معجبةٌ بذلك، لكن يبدو أن كل شيءٍ سليم. المكتبةُ البريطانية، قلت؟»

قال فيل، مع قطبةِ جبينٍ سريعة لـإيرين:

– «على الفور. ليس هناك وقتٌ لـإضاعته.»

قالت المرأة:

– «جميلٌ جداً يا سيدي. تـفضل أنت وأصدقاؤك بـالتشبث بـالأحزمة في مؤخرة المقصورة. ستكون رحلةً وعرة؛ فـالرياحُ ضدنا.»

سمعت إيرين صياحاً في الخلفية ونظرت لـلأسفل. كان سيلفر يقفُ على السطح، وعباءته تـتطايرُ خلفه وهو يشيرُ نحو المنطاد.

رآه كاي أيضاً واتخذ إجراءً سريعاً، بـفك كابل الرسو. اهتز المنطادُ بـأكمله، واضطرت إيرين لـلتشبث بـالأحزمة، لكنهم كانوا يتحركون، ويندفعون بـعيداً عن المتحف بـسبب الفقد المفاجئ لـلمربط.

تمتمت السيدة جينكينز: «سحقاً لـلهواة العابثين»، ومررت يديها على أدوات التحكم، وقلبت مفتاحين وأدارت قرصاً قبل أن تـسحب ذراع التحكم. مال المنطادُ واندفع لـلأمام. وتابعت قائلة:

– «أيها الركاب، نحن الآن في الجو ونتجهُ لـلمكتبة البريطانية. تـفضلوا بـالحديثِ فيما بـينكم بينما أقودُ هذا الشيء اللعين لأنني لا أحبُ أن يـتشتت انتباهي.»

قال فيل ملتفتاً لـإيرين:

— «نعم. نحتاجُ لـلحديث يا آنسة وينترز.»

الفصل التاسع عشر

تزاحمت في مخيلة إيرين أمورٌ شتى قد يود فيل مناقشتها، لدرجةٍ جعلت الموقف يبدو أبعد ما يكون عن الهزل، لكنها قررت أن تبحث لنفسها عن مقعدٍ أولًا.

وبينما كانت تستقر فوق نتوءٍ قد يصلحُ مقعدًا، خيّل إليها أن هذا النوع من وسائل النقل لا بد وأنه خُصص لنقل المنمنمات الأثرية الصغيرة فحسب؛ فالمقصورة كانت ضيقةً للغاية، وبالكاد تتسع لثلاثتهم، فضلًا عن تخزين أغراضٍ ضخمة. كما كان زئيرُ المحرك صاخبًا بشكلٍ مذهل، وهو أمرٌ حسنٌ؛ إذ لم تكن إيرين ترغب حقًا في أن تتسمع السيدة جينكينز إلى حديثهم.

أما فيل فقد ظل واقفًا، متشبثًا بحزامٍ متدلٍ من السقف، مستغلًا ميزة طول فارعٍ ليهيمن بقامته فوق إيرين. وربما كرد فعلٍ على ذلك، ظل كاي واقفًا هو الآخر، وانتقل ليطل من خلف كتف إيرين بنظرةٍ مؤازرة.

تمنت إيرين لو أنهما تجرعا السم مثلها؛ فربما حينها سيظهران قدرًا أكبر من التفهّم لرغبتها في الجلوس.

قال فيل، وهو يلوذ بالرسمية:

— «آنسة وينترز، هل لي أن أفهم أنكِ تمتلكين قوةً تشبه قوة «الفاي» في سحر العقول وتضليلها؟»

آه، إذًا هذا هو الأمر الذي أزعجه.

قالت:

— «لا، ليس بـالضبط. وأنت على الأرجح تتساءل لِمَ لم أفعل شيئًا كهذا من قبل.»

علق فيل مقطبًا حاجبيه بـريبة:

— «أو لِمَ كشفتِ عن ذلك فجأةً الآن، بعد أن استخدمتِه عليّ دون أن أدرك؟»

سحقًا! لقد كان شكًا منطقيًا تمنت ألا يخطر بـباله. لماذا يتحتم عليه استخدام تلك الخصال التي أعجب بها ضدي؟

قالت:

— «لستُ بـهذا القدر من الغباء.»

أجابها فيل:

— «ولكنكِ ربما كنتِ بـهذا القدر من اليأس. أريد تفسيرًا، لو سمحتِ.»

تنهدت إيرين؛ فقد كانت تأمل في تجنب هذا الحديث.

— «حسناً. أنت تعلم أنني أستطيع استخدام «اللغة» لـجعل الأشياء —— بـعبارةٍ صريحة —— تفعل أشياءً محددة. لا أستطيع تغيير الباب من بابٍ مغلق لـبابٍ مفتوح، لكنني أستطيع جعل القفل يفتح نفسه. ثمة تفاصيلٍ دقيقة في هذا الأمر، ولكنني آمل أن تتفهم أنني لا أستطيع شرح كل شيء بـاستفاضةٍ مع حواشٍ مفسرة. قد يمرُّ إخباري لـرؤسائي بـأني شرحتُ لك بعض الأمور بـسلام، ولكن لـلأمر حدود.»

علق فيل قائلًا:

— «أرى أنكِ تبدين فجأةً تقديرًا عاليًا لـرأي رؤسائكِ.»

اشتعلت بداخلها موجةٌ مفاجئة من الغضب، إذ أحيت كلماته سخرية برادامانت من عدم توريط الآخرين وإنجاز المهمة — مهما كان الثمن.

صاحت بحدة، وهي تشعر بزمام سيطرتها يفلتُ منها، مما زاد الأمر سوءًا:

– «من المفترض ألا أشاركك أي شيءٍ على الإطلاق!» كان يجدر بها التعامل مع الأمر بتجرد كـ (أمينة مكتبة) كفؤة، كما كانت برادامانت ستفعل. ولم يكن ينبغي لها أن تشعر بهذا الانقباض المفاجئ عند فكرة تدمير أي نوعٍ من الصداقة مع فيل. فمن المفترض ألا ترتبط به أبدًا، ولا بأي شخصٍ آخر.

تابعت قائلة:

– «الإجراءاتُ المعتادة تقتضي الدخول والخروج دون ترك أثر. الإجراءات المعتادة لا تتضمن التحقيق في جرائم قتل محلية، أو حضور حفلات استقبال، أو التورط مع جمعياتٍ سرية..»

قاطعها كاي قائلًا:

– «أو زيارة محققين محليين.»

أو تكوين صداقات، هكذا سمعت إيرين ما خلف كلماته. تمنت لو كانت تملك دبوس قبعةٍ إضافيًا لتغرسه في فيل، أو ربما في كاي الذي لم يكن يقدم مساعدةً بتعليقه هذا.

قالت ببرود:

– «والإجراءات المعتادة تميلُ أيضًا إلى التحذير من المطاردات عالية السرعة في مناطيد مستعارة. كانت برادامانت ستخبرك بكل هذا. ربما هي من كان يجدر بك العمل معها منذ البداية.» نعم، فـ برادامانت

ما كانت لـتتورط بـهذا الشكل أبدًا. «لا أزال لا أفهم لِمَ قادتك نزعاتُ التنبؤ لديك إلينا نحن، بدلًا منها هي. لو كنتم تعملون معًا، لـربما تمكنتم من تتبع الأمور بـسرعةٍ أكبر بكثير.»

اكتفى فيل بـالتحديق فيها من علٍ قائلًا:

— «كل هذا لا يفسر قدرتكِ على التحكم في عقول الآخرين.»

— «حسنًا..» حاولت إيرين التفكير في كيفية شرح الأمر. «عندما أستخدم «اللغة» لـأمر شيءٍ بـفعل ما يتعارض مع طبيعته، فـإن الكون يقاوم. لهذا السبب ستعود تلك الحيوانات المحنطة إلى حالتها السابقة، في وقتٍ قريبٍ على الأرجح. وآملُ أن يكون المفتش سينغ هناك لـيتدبر الأمر. من السهل أمر القفل بـأن يفتح —— فـهذا يـقع ضمن طبيعة القفل. أما أمر شيءٍ بـالتصرف بـطريقةٍ غير طبيعية فـهو أصعبُ بـكثير.»

وافقها فيل قائلًا:

— «مثل بثِّ الحياة في حيواناتٍ محنطة.»

قالت إيرين:

— «حسنًا، هذا ليس غير طبيعي تمامًا؛ ففي النهاية كانت ذات يوم حيواناتٍ حية. لا أستطيع إرغام مبنىً على القفز والوقوع فوق شخصٍ ما، لكنني أستطيع أمر قرميدة سقف بـأن تنخلع. هل تفهمني حتى الآنً؟»

قال فيل، وبدا عليه الاهتمام بـوضوح رغم نـفاد صبره:

— «أستطيع فهم منطقكِ. ولكن مرةً أخرى، ما علاقة هذا بـالتحكم في العقول؟»

— «أستطيع إخبار شخصٍ ما بـأنه يدرك شيئًا آخر غير ما يراه بـالفعل.» هكذا قالت إيرين، متمنيةً لو كانت الإنجليزية أكثر طواعيةً لـمثل هذه النقاشات. وتابعت: «المشكلة هي أن الكون يقاوم، كما هو

الحال مع الأشياء التي يُطلب منها فعلُ أمورٍ غير طبيعية. بشكلٍ أدق، عقلُ الشخص هو الذي يقاوم، ويستمرُ في المقاومة حتى ——» توقفت للحظة ثم تابعت: «حسنًا، بعض الأفراد يتدبرون الأمر بشكلٍ أفضل من غيرهم، لكن النتائج بوجهٍ عام ليست سارة. هذا ما قيل لي في الدروس. لكن ما فعلتُه للتو ليس مثل سحر التمويه، ولن يدوم مثله أيضًا.» كانت واثقةً بشكلٍ كبير من أن السيدة جينكينز لا يمكنها سماع هذا، وتمنت ذلك بصدق. «في هذه اللحظة، يخبرها عقلها أنها لا، لم ترَ تصريحًا كاملًا. وعندما يتغلب عقلها على تعديلي المؤقت، في غضون ساعةٍ على الأرجح، فستتذكر كل شيء. ولكن، أكنتَ تفضل أن يمسك بنا سيلفر؟»

صوّب فيل نحو إيرين نظرةً باردة، ثم ألقى نظرةً عبر النافذة إلى لندن القابعة في الأسفل، مترفعًا عن الإجابة.

أسندت إيرين مرفقيها على ركبتيها وقالت:

— «لو أخبرتنا «المكتبة» ألا نعبث بالعقول لأن ذلك غير أخلاقي، لكان ذلك فضيلة. لكن الحقيقة هي أن الأمر غير موثوقٍ بالمرة. وبمجرد أن يستعيد الشخص ذاكرته، فقد يجعل المهمة أكثر خطورة بكثير.» حاولت إيرين ألا تستغرق في التفكير في افتقارها للأخلاقيات. أأنا مجرد لصة كتب؟ أم أن الفرق الحقيقي الوحيد بيني وبين برادامانت هو أن برادامانت تبدو أنيقة في الملابس الجلدية السوداء؟ كان من الأسهل التفكير في نفسها كحاميةٍ شجاعة للكتب عندما لا يكون هناك من يحدق في عينيها ويشكك في ذلك. تابعت قائلة: «كل ما فعلته هو وضع رقعةٍ مؤقتة للغاية. لأني لم أجد بديلًا آخر، وكنا في عجلةٍ من أمرنا. كما رأيت.»

التفت فيل مبتعدًا وسأل:

— «أكنا كذلك؟»

رفعت إيرين حاجبيها، حتى وإن كان لا ينظر إليها، وقالت:

— «أدركُ أنك لا ترى ألبريتش كتهديدٍ شخصي، أو حتى كتهديدٍ للنظام والقانون العام.»

قال فيل بشهامة:

— «أعترفُ أن الرجل حاول قتلي.»

تابعت إيرين:

— «سيظل يشكل تهديدًا لكم جميعًا طالما أن الكتاب هنا.»

شعرت بـ كاي يضغط على كتفها مشجعًا، فتابعت: «بمجرد خروج الكتاب من هنا، لن يتنافس هو وسيلفر عليه بعد الآن.»

قال فيل:

— «سيلفر لا يهمني يا آنسة وينترز. لكني أعجز عن فهم ضيقكِ بشأن عالمٍ واحد، بينما لديكِ بلا شك عوالم كثيرة تشغل وقتكِ. لِمَ يهمكِ أمرنا، إلا كمصدرٍ للكتب؟»

ابتلعت إيرين ريقها، وشعرت بوجنتيها تتوردان بمزيجٍ من الغضب والخجل؛ فثمة ذرةُ حقيقةٍ مزعجة فيما يقوله. فهذا مجرد عالمٍ بديلٍ واحد، وكتابٍ واحد.

— «حتى الآن، تعرضتُ للاعتداء، وهاجمتني تماسيح آلية، وكدتُ أغرق في التايمز، وجُرّد معظم الجلد عن يدي، وسُممت بالكورار، وأُنعشت بالستركنين، وطاردني المستذئبون والروبوتات العملاقة. أبعد كل هذا تتهمني بعدم أخذ الأمر على محمل الجد يا سيدي؟»

— «على العكس يا سيدتي. أرى أنكِ تأخذين الأمر على محمل الجد بشكلٍ فائق. ومثل هذا التفاني جديرٌ بقضيةٍ نبيلة. ولكن انظري

لـلأمر من هذا المنظور.» استند فيل بـكتفيه على جدران المقصورة وتابع: «أرى امرأةً ــــ ومساعدها ــــ مستعدين لـلذهاب إلى أقصى الحدود لـتأمين كتابٍ واحد. لقد شاهدتُكِ تختطفين منطادًا لـتحقيق مآربكِ. وأسأل نفسي يا آنسة وينترز، إلى أيِ مدىً أنتِ مستعدة لـلذهاب؟»

رائع. أولًا براداmanت تسخر منها لـعدم ذهابها لـلمدى المطلوب، والآن فيل يـنظر إليها كـأنها عينةٌ نادرة من عالم الجريمة.

قالت:

– «أريد فقط القيام بـعملي. لديَّ واجبٌ تجاه المكتبة.»

قاطعها فيل:

– «أولـد (مكتبة) قوانين؟ أوقعت معاهداتٍ مع كل العوالم تـسمح لها بـسرقة الكتب؟ ألديها أي سلطةٍ غير تلك التي تـدعيها لـنفسها؟ أودُّ أن أعرف إن كان ثمة سببٌ واحدٌ في العالم يـجعلني أحترمها أو أحترم خَدَمها.»

زمّت إيرين فكيها بـعناد وسألت:

– «هل خرقتُ أنا شخصيًا أي قوانين؟»

أجاب فيل:

– «ليس بـعد. على الأقل، لا قوانين أعلم بـها.» وجعلت نبرةُ صوته من الواضح أنه يشك في أنها لن تتردد في فعل ذلك.

وهل ستفعل؟ حسنًا، سـيعتمد الأمرُ على القانون. كان جسدُها يـطن كسلكٍ تحت ضغطٍ عالٍ، ربما بـسبب تأثير الأدوية الممزوجة. قالت بـهدوءٍ وهي تـطرق بـرأسها:

– «لا أريد إلحاق الضرر بـعالمك. أريد فقط كتابًا واحدًا.»

استشعرت ثقل نظرة فيل الاتهامية، وهو يـقول:

— «ولذا يتحتم علينا الإسراع عبر لندن، وخداع القائدة وتعريضها لـلخطر هي وأنفسنا، لـأنكِ يـجب أن تحصلي على هذا الكتاب.»

قال كاي بـصوتٍ خفيض:

— «احذر فيما تـقول.»

هز فيل كتفيه قائلًا:

— «أنا أوجه لـلآنسة وينترز أسئلةً يـنبغي أن تـملك إجاباتٍ عليها —— إن كانت ثمة إجابات أصلاً. وإن لم تكن تـملكها، فـربما يـجدر بك مراجعة ولاءاتك. ما الجدوى من هذه (المكتبة)، إذا كانت تـتطلبُ مثل هذه التضحيات؟»

دفعت إيرين نفسها واقفةً وقالت:

— «شكرًا لك يا كاي، لكنك لا تحتاج لـلدفاع عني. وإجابةً على أسئلتك يا سيد فيل، أنا سـأحصل على هذا الكتاب. ليس فقط لـأن (المكتبة) تريده، بل لـأن ألبريتش يريده أيضًا، وهو أخطرُ بـكثيرٍ مما أنا عليه.» وصوبت إليه نظرةً قاسية وتابعت: «ألم يخطر بـبالك أنه بـجانب محاولته قتلنا، قد قتل أشخاصًا آخرين؟ أمناء مكتبة، أشخاصٌ أعرفهم حتى وإن لم تكن تـعرفهم —— ولا نملك أدنى فكرة عما قد يكون فعله في هذا العالم؟ وأني إذا لم أخرج هذا الكتاب من هنا، فـسيقتل الآخرين على الأرجح؟ وأني إذا لم أصل إلى المكتبة البريطانية أولًا، فـإنه ——» استوعب عقلها ما كانت تـقوله، فـختمت بـقولها: «—— فـإنه سيقتل برادامانت.»

تأفف فيل:

— «من الواضح أن تلك المرأة قادرةٌ على رعاية نفسها.»

قالت إيرين:

— «ربما كانت كذلك. لكن ليست هذه هي القضية. لن أسمح لها بالسير إلى هناك ببساطة و..» فكرت في دومينيك أوبري، وتساءلت بقشعريرةٍ كيف انتهى المطاف بجلده في تلك الجرة. لن تسمح، ولن تطيق، أن يحدث ذلك لشخصٍ آخر تعرفه ما دامت هناك فرصةٌ لإيقافه. «تستطيع أن تفكر بي كما تشاء. أنا أنوي إنقاذ برادامانت. وأرفضُ الشعور بالذنب تجاه ما فعلتُه للتو.»

— «آه.» خطا فيل مبتعدًا عن جانب المنطاد، ومدَّ يده إليها قائلًا: «إذًا أعتقدُ أننا نستطيع العمل معًا يا آنسة وينترز.»

كادت إيرين أن تقول «هاه؟» —— وهو ما كان سيكون غير لائقٍ بشتى الطرق. واكتفت بالوقوف بارتخاء وسألت: «ولكنك كنت تقول..»

— «تؤ، تؤ.» هكذا قال فيل، وتابع: «حقًا يا سيدتي. أستطيع أن أقبل أنكِ عميلةٌ فعالة، تمامًا كزميلتكِ برادامانت. لكني أردتُ أن أتأكد من وجود ما هو أكثر من ذلك بداخلكِ. وإذا كانت (المكتبة) توظف أشخاصًا مثلكِ، فأفترضُ أن ثمة ما يمكن قوله في صالحها بعد كل شيء.»

بدأ كاي يقول: «عذرًا..»

قاطعه فيل:

— «لقد كنت تقوم بواجبك في اتباع الأوامر، ولا يمكن لرجلٍ أن يطلب أكثر من ذلك. ولكن الآنسة وينترز هي قائدتك. وكان لا بد أن تصدر الحقيقةُ منها.»

وبعد أن كسبت النقطة في صالحهما، شعرت إيرين بمزيج غريب من المشاعر — من بينها الغضب. كيف يتجرأ على تقييم أخلاقياتي من علٍ؟ كيف يتجرأ على الحكم عليّ؟ أخذت نفسًا عميقًا، وقمعت الغضب بأي تبريراتٍ تمكنت من استحضارها. كان عليه أن يتخذ قراراته الخاصة، وكان يحتاج لفهمها ليفعل ذلك.

ومع ذلك، فقد كان للأمر وقعٌ موجع.

مدت يدها وصافحته للحظة. وقالت:

— «شكرًا لك. أقدرُ ذلك.»

تقدم كاي ووضع يده فوق أيديهما المتصافحة وقال:

— «معًا سنقضي على ألبريتش وننقذ برادامانت. رغم أنفي شخصيًا، وبما أنها خانت بلا ولاء —» لمح نظرة إيرين الحادة، فختم بقوله ببطولة: «— ومع ذلك، أنا تحت أوامركِ.»

فكّت إيرين يدها بلباقةٍ قدر الإمكان. فالروايات البطولية تزخر بمثل هذه المصافحات الرجولية، وقد قرأت ما يكفي منها. لكنها لم تتطرق أبدًا لكيفية سحب يدك بعد ذلك، وما إذا كانت هناك ضغطاتٌ معينة أو مناوراتٌ أخرى.

قالت:

— «لقد كنتُ أحاول التفكير في كيفية التعامل مع ألبريتش.» ولم تضف «في وقت فراغي الوفير» كما غلبتها الرغبة في ذلك، وتابعت: «وسيسرني أن أعرف إن كان لديكم ما تقترحونه.»

اقترح فيل:

— «أطلقوا النار على هذا المتمرد. فهذا ينجح مع مصاصي الدماء أو المستذئبين، وحتى مع «الفاي» في بعض الظروف.»

حرك كاي يديه ذواتي الأصابع الطويلة، وبدا ـــ للمرة الأولى ـــ مترددًا.

حثته إيرين: «كاي؟»

ـ «ثمة طرقٌ معينة نستطيع بها ـــ أقصدُ عائلتي ـــ» وكان هذا على الأرجح أقرب ما يمكنه قوله للكشف عن حقيقته كتنين في الوقت الحالي «ـــ تحصين منطقةٍ ما ضد الفوضى. ألبريتش يستخدم الفوضى، لذا لا بد وأنه ملوثٌ بها، ومن ثم فإن هذا سيعمل ضده أيضًا.»

سأل فيل:

ـ «ما مدى كبر هذه المنطقة؟ وهل يمكنك جعلها دائمة؟» من الواضح أن لديه رؤىً عظيمة لطرد «الفاي» من عالمه بأكمله، أو على الأقل من جزء الإمبراطورية البريطانية فيه.

هز كاي رأسه قائلًا:

ـ «لو استطعنا ذلك، لما كانت لدينا هذه المشكلة المستمرة. لكنا ببساطة دفعناهم للخارج وأبقيناهم هناك. أقصى ما أستطيع فعله هو تحديد منطقةٍ وحمايتها بسور من التعاويذ. ويجب أن تكون منطقةً أستطيع الطواف حولها في فترة زمنية محددة.» ثم تهلل وجهه وتابع: «القوى العظمى مثل والدي أو أعمامي يمكنهم حماية محيطٍ بأكمله في دورةِ شمسٍ واحدة!»

عضت إيرين بقوة على باطن خدها قبل أن تدلي بأي تعليقاتٍ حول لفِّ العالم بزنارٍ في أربعين دقيقة[8]. لم يكن الوقت ملائمًا لتذكر

---

[8] إشارة لعبارة شهيرة من مسرحية «حلم ليلة صيف» (*A Midsummer Night's Dream*) لوليام شكسبير حيث يقول أحد الجنيات إن بإمكانه «أن يطوّق الأرض في أربعين دقيقة»، في إشارة شعرية إلى سرعة خارقة.

«شيكسبير»، ولم تظن أن كاي سيجد التشبيه مضحكًا. سألت: «وعنك أنت؟»

تهدلت كتفا كاي، وظهرت عليه ملامح المراهق المتذمر. وتمتم:

— «أنا مقيدٌ أكثر بالقيود المادية. ولا أستطيع فعليًا إرغام أحد تلك المخلوقات على الخروج إذا كان بالفعل داخل أسواري. أستطيع فقط وضع حدودٍ لئلا يتمكن من الدخول أو الخروج.»

ضغط فيل متسائلًا: «نعم، ولكن ما مدى كبر المنطقة؟ أتعني لندن بأكملها؟»

قال كاي:

— «ربما. لو منحتني الليلة بأكملها. وكان عليَّ.. آه.. سيجذب ذلك الانتباه.»

سألت إيرين: «من قِبل من؟ «الفاي»؟»

أجاب كاي: «أقاربي.» وبدا وكأنه يود الانكماش في زاويةٍ عند ذكرهم. بدا وكأنه يجمع بين النبل البطولي لمراهقٍ يفعل الصواب، ويأسِ المذنب الذي يتوقع حرمانه من الامتيازات للعقد القادم. تساءلت كم يبلغ عمره — أو صغره — بمقاييس التنانين. فقد كان ناضجًا في بعض الجوانب، وصغيرًا جدًا في جوانب أخرى.

قطبت إيرين جبينها وقالت:

— «حسنًا، أستطيع حماية منطقةٍ ضد الفوضى من خلال مواءمتها مع (المكتبة). قد يرغم ذلك ألبريتش على الخروج من منطقةٍ ما إذا كان بداخلها بالفعل — لكني لا أستطيع تغطية سوى مساحةٍ صغيرةٍ نسبيًا بهذه الطريقة. وثمة مسائل تتعلق بالطاقة..» نعم، كانت هذه إحدى الطرق لوصف الأمر. فحماية غرف فيل في الليلة السابقة كانت بسيطةً

نسبيًا. أما محاولة سد مساحةٍ أكبر من الواقع، إذا جاز التعبير، فستستنزفُ من طاقتها الكثير. كما ستحتاج لوصفٍ دقيقٍ للغاية للمنطقة التي تحاول حمايتها. ولكن لا بد من وجود طريقةٍ لاستخدام هذا..

اهتز المنطادُ بعنف، مما أفقد إيرين توازنها. وسمع طنينٌ وضوضاء في الجو بالخارج تشبه أسراب الجراد. أمسك كاي بخصرها، متشبثًا بحزامٍ متدلٍ بيده الأخرى. وتمكن فيل من موازنة نفسه ضد الجدار البعيد، وصرخ باتجاه السيدة جينكينز:

— «ما الذي يحدث؟»

صاحت السيدة جينكينز بنبرةٍ حادة:

— «نحن نتعرض للهجوم!» ولم تشح ببصرها عن أدوات التحكم. كانت يدها اليمنى مقيدةً في وسط نموذج كوكبي من النحاس والقصدير، ويدها اليسرى تسحب مجموعةً من الروافع. ثم جذبت شيئًا يشبه مقابض الأورغن، وقطبت جبينها عندما لم يستجب. «خطر من جهة الميمنة!»

تزاحمت إيرين والآخرون عند النافذة.

قالت إيرين: «لا أرى شيئًا.» فكل ما كان يلوح في الأفق هو أسطح المنازل والضباب الدخاني.

أعلن فيل مشيرًا بإصبعه: «هناك! أترين ذيل البخار ذاك؟»

قال كاي وهو يميل من فوق كتف إيرين: «شيءٌ صغير. لكني لا أشعر بأي تدخلٍ من «الفاي».»

قاطعه فيل: «لقد نسيتَ (أخوية الحديد). لديهم عملاؤهم الذين يطاردوننا هم أيضًا.»

نادت السيدة جينكينز من مقصورة القيادة: «تمسكوا جيدًا!» ترنح المنطادُ مرةً أخرى، منجرفًا جانبيًا في حركةٍ مؤلمة وخرقاء هزت المقصورة كأنها وعاء نرد. تشبثت إيرين والرجلان بالمقابض. وتأرجحت قطع الحبال التي لم تكن مربوطةً بالجدران وظلت تخبط في الهواء، وارتطم كوب شايٍ غير مثبت بالجدران من جانبٍ لآخر، تاركًا خلفه أثرًا من قطرات الشاي الباردة.

صاح فيل: «ها هو ذا!» وقد ظهر رجلٌ في مجال الرؤية. كان مقيدًا في نوعٍ من وحدات المروحية المتنقلة التي كانت ريشاتها الصدئة تطن بشكلٍ خطر بالقرب من رأسه، وكان يرتدي خوذةً جلديةً ملطخةً بالزيت وبذلة عمل. وبإحدى يديه كان يحمل مسدسًا ثقيلًا، يخرجُ منه كابلٌ يتصل بشيءٍ مربوطٍ في أسفل ظهره. كان يتأرجح في الهواء، مثبتًا المسدس بيده الأخرى بينما يحاول تصويب طلقة.

سأل كاي، وهو يعود لرزانته المعهودة: «هل من سبيلٍ للرد عليه؟»

— «من هنا.» قفز فيل إلى مقصورة القيادة وجذب لوحةً فوق رأس السيدة جينكينز التي تجاهلته، مركزةً بكل كيانها على توجيه المنطاد. وتابع: «الأسلحة تحفظ هنا في مركبات المتاحف —— آه، ها هي ذا.»

أخرج زوجًا من المسدسات، قذف بأحدهما لكاي والآخر لإيرين، التي لم تكن تشعر بثقةٍ كبيرة في إطلاق النار على هدف طائر. سألت: «ألا يوجدُ شيءٌ أكبر على متن هذا المنطاد؟ مسدس إشاراتٍ مثلًا؟»

صرف فيل انتباهه عن تحطيم نافذة ليرمقها بنظرةٍ حادة: «حقًا يا آنسة وينترز! مسدس إشاراتٍ على منطاد؟ ظننتُ أنكِ أكثر رزانةً من ذلك.»



تمتمت إيرين: «ليس هذا مما درسته قط.» وقررت الاحتفاظ بأي أفكار نيرة أخرى لنفسها في الوقت الحالي. كان كاي وفيل يطلقان النار من النافذة وبإمكانهما فعل ذلك دون مساعدتها. ترنحت متجهةً للأمام نحو مقصورة القيادة وسألت: «كم بقي للوصول للمكتبة يا سيدة جينكينز؟»

أجابت السيدة جينكينز بصراحة: «كدنا نصل، لكن ذلك لن يكون له أي فائدة لعينة، لأننا لا نستطيع الهبوط مع ذلك المعتوه الذي يطلق النار علينا في الخارج. لا أعرف أي نوعٍ من القصص سمعتِها عما يمكن للمناطيد فعله وما لا يمكنها فعله يا آنسة، لكني أحتاج للتحليق الثابت بينما يلقي لنا أحدهم حبلًا ويؤمننا. وهذا ما نسميه، بلغة الطيارين، (هدفًا ثابتًا). لذا آملُ أن يكون أصدقاؤكِ بارعين في الرماية، وإلا فسأصعد للأعلى وأتجه شمالًا حتى نفقده. لا يمكنني المخاطرة بالتحطم والشوارع مزدحمةٌ هكذا.»

اقترب فيل مزاحمًا ليمسك بذراع إيرين؛ ويبدو أن طلقاتهم جميعًا قد أخطأت الهدف. وسألها: «آنسة وينترز، هل يمكن لقدراتكِ أن تنفعنا هنا؟»

هزت إيرين رأسها قائلة:

— «لا أستطيع التأثير عليه أو على عتاده. فهم لا يسمعونني.»

حدق بها فيل: «يسمعونكِ؟»

صاحت إيرين:

— «(اللغة) لا تعملُ على الكون إلا إذا كان بإمكان الكون سماعها!» كانت متأكدةً من أنها شرحت له هذا من قبل. وربما لم تفعل. تابعت: «أستطيع التأثير على هذا المنطاد، لكني لا أرى ما الجدوى من ذلك »

فجأة طرقع فيل بأصابعه صائحًا:

— «أنا أرى! سيدة جينكينز، حلِّقي بنا فوق المكتبة البريطانية الآن، لو سمحتِ. وكوني مستعدةً لهبوطٍ مفاجئ.»

سأل كاي، وهو يتطلع من النافذة:

— «ماذا نحاول أن نفعل؟»

قالت السيدة جينكينز:

— «لا مانع لديَّ من معرفة ذلك أنا أيضًا.» وانعطف المنطادُ لليسار، مما أفقد جميعهم توازنهم مرةً أخرى. وتابعت: «نحن على بعد ثلاثمائة ياردة، نقترب بسرعة خمسة وأربعين ميلًا في الساعة، وطول سطح الهبوط خمسون ياردةً فقط.»

أمر فيل:

— «عند إشارتي يا آنسة وينترز، أخبري كل مكونات هيكل المنطاد بأن تزيد من وزنها بنسبة خمسين في المائة. سيدة جينكينز، عليكِ نشر زعانف الهبوط.» ثم تحقق من ساعته.

دوت زخةٌ أخرى من الطنين في الخارج. علقت السيدة جينكينز:

— «سحقًا، أنا أكره تلك الأشياء.»

سألت إيرين وهي تحاول بيأس تذكر مفردات أجزاء المنطاد: «أي أشياء؟»

أجابت السيدة جينكينز وهي تضبط مقابض التحكم:

— «الذخيرة البذرية. تمضغُ طبقات كيس الهواء مضغًا. استعدوا لفرملةٍ سريعة.»

أعلن فيل: «الآن!»

صاحت إيرين، رافعةً صوتها لتضمن وصوله للمقصورة ومكان القيادة معًا:

— «**يـــا أجــزاء هيكل المنطـــاد، زيـــدي من ثقلـــكِ بمقدار النصـــف مرةً أخرى!**»

لم تكن تريد أن تقرر نصف الدعامات البقاء على وزنها الأصلي، مما يؤدي لتفكك المنطاد بأكمله في الهواء. فالخيال يمكن أن يصور مشاهد كثيرة، ولا يوجد أيٌّ منها يبشر بالخير.

ضربت السيدة جينكينز نصف دزينة من مقابض الأورغن في آنٍ واحد، مستخدمةً يدها اليسرى وساعدها، وألقت بنفسها للخلف في مقعدها.

ارتجف المنطادُ بقوة، وتوترت الجلود وصرَّ المعدن، وعوت المحركات الدوارة في الخارج بألمٍ يكادُ يكون بشريًا. كان كاي قد أسقط مسدسه وتشبث بالأحزمة بيد وبإيرين باليد الأخرى، ولم تكن إيرين في وضعٍ يسمح لها بالشكوى. أما فيل فقد دسَّ مرفقه في حزامٍ وكان يراقب المشهد عبر النافذة المحطمة بفضولٍ حاد.

كانوا يهبطون في الهواء، ينجذبون للأسفل كأن شخصًا ما يسحب حبل مربط المركبة من الأسفل، لكنهم كانوا لا يزالون يتحركون للأمام. زعانف الفرملة كانت تعمل، لكن إيرين فكرت أنها ربما ليست بالسرعة الكافية.

صاحت في وجه فيل، وصوتها بالكاد يصل فوق عويل الهواء وضجيج الدعامات المعدنية المعذبة:

— «هل أزيدُ من ثقلها أكثر؟»

هز فيل رأسه بالنفي القاطع.

في مثل هذه اللحظات تمنت إيرين حقًا لو كانت تؤمن بالصلاة. فالموت المفاجئ سهلُ التعامل معه، بما أنك لا تملك وقتًا للتدبر. لكن تحطمهم واحتراقهم الوشيك فوق المتحف البريطاني كان يترك وقتًا طويلاً للرعب، مع هلاكٍ ناري محتوم في النهاية. بدا أن كل ثانية تتمطى لتصبح لحظةً أبدية من الذعر.

ثم استقر المنطادُ على أرضٍ صلبة بارتطامٍ قذف بإيرين تمامًا فوق كاي، وأطاح بالسيدة جينكينز للخلف في مقعدها، وجعل فيل يسقط ساعته. واستطاعت إيرين سماع صرخاتٍ وصياحٍ بشكلٍ غامض في الخارج. ونأملُ أن أي شخصٍ كان يقف على السطح قد تمتع بالحس السليم للهرب بعيدًا.

ومع لعنةٍ مكتومة، بدأت السيدة جينكينز في إطفاء المفاتيح. وبدأ طنين المحركات في التباطؤ، وهي تتوقف واحدةً تلو الأخرى. وفجأةً صار المنطادُ هادئًا بشكلٍ مثير للسخرية بعد كل ذلك الضجيج السابق، مع صرير المقصورة وأنينها كخلفيةٍ مريبة.

قال فيل:

— «شكرًا لكِ. قيادة ممتازة. سأذكرُ تصرفكِ لرئيسكِ.»

نظرت إليه السيدة جينكينز للحظةٍ طويلة، ثم التقطت خرقةً ومسحت بها نظاراتها وقالت ببرود:

— «ستجدون المخرج عن يمينكم.»

أفلت كاي إيرين، وذهب ليفتح باب المنطاد.

رأت إيرين الأمر قادمًا، لكنه كان أسرع من أن توقفه «اللغة». الرجل في مروحيته الصغيرة كان يحوم هناك، يصوب مسدسه ليطلق النار

مباشرةً عبر الباب المفتوح على الأشخاص في المقصورة. على كاي الواقف هناك بظهره الملتف جزئيًا.

لم يكن لديها وقت للكلام، لكنها ملكت وقتًا للحركة. ألقت بنفسها على كاي، فسقطا معًا على الأرض، وفم كاي مفتوحٌ من الصدمة، بينما مرَّ وابلٌ طنان من الشظايا الفضية مخترقًا الهواء حيث كان يقف. نشبت القطع المعدنية في الأجزاء الجلدية والخشبية من الهيكل، مازقةً فيها شقوقًا طويلة، وارتدت عن الدعامات المعدنية، تاركةً ندوبًا فضية طويلة ضد الأسطح المزيتة الداكنة. وشقت اثنتان منهما طريقهما على طول ذراع إيرين اليسرى، مخترقتين قماش كم ثوبها ومدميتين إياها.

نزل فيل على ركبةٍ واحدة، واختطف مسدس كاي من حيث سقط، وأطلق النار.

تعالت صرخةٌ طويلةٌ تتلاشى، ثم تبعها صوت ارتطامٍ بعيد.

نظرت إيرين إلى وجه كاي للحظة. كان ينظر إليها بتلك النظرة الضائعة، نظرة الجرو مرةً أخرى، كأنها قد ملأت بشكلٍ مثالي ثغرةً في كونه الخاص. لم يكن هناك شكٌ في أن الأمر مُطرٍ للغايةٍ، لكنها لم تملك وقتًا لذلك. لم تملك وقتًا لتخبره بأنها تثقُ به، أو أنه يمكنه الثقة بها. لم تملك وقتًا لذلك الشعور الهائل بالامتنان لأنه بخير — أو لأي شيءٍ سوى العثور على الكتاب، وإيقاف ألبريتش، وإنقاذ برادامانت. كان عليها إنهاء المهمة، وإلا فإن كل جهودهم والخطر الذي أوقعت فيه الناس سيذهب سُدىً.

ولم تكن تستطيع إضاعة الوقت في تدليل مشاعرها الشخصية. حتى لو أرادت ذلك.

قالت بحزم وهي تنهض على ركبتيها:

– «أنت بخير؟ حسنًا. هيا بنا.»

مدَّ فيل يده، وسحبها لتقف على قدميها قائلًا:

– «ردود فعلٍ جيدة يا آنسة وينترز.»

أجابت:

– «رمايةٌ موفقة يا سيد فيل. شكرًا لك. والآن لنبحث عن ذلك الكتاب.»

الفصل العشرون

كان فوق السطح ثلةٌ من الحراس الذين تمنوا لو حظوا بفرصةٍ لمناقشة ذلك الهبوط الاضطراري وما تلاه من إطلاقِ نار، بيدَ أن فيل تجاوزهم بخطواتٍ واسعة، ومن خلفه سارت إيرين وكاي على أثره. لم يعكر صفو هيبتهم تلك سوى نظرات كاي الجانبية المختلسة كلما ظن أن إيرين قد ولّته ظهرها؛ فما تراه كان يرجو منها؟

قال فيل مشيرًا إلى بابٍ في أحد البروج الصغيرة التي تحيط بمهبط المناطيد:

— «من هنا.»

خلف ذلك الباب، برز السقفُ الزجاجي المقوس والعريض لما لا بد أن يكون «قاعة القراءة». لم يتسع الوقت لـ إيرين لـتتأمل روعتها في هذا العالم، لكنها رأت نسخًا منها في نسخٍ أخرى من لندن، واقشعر بدنها حين فكرت في مدى القرب الذي كادوا أنً يهبطوا به فوق ذلك السقف. ومع ذلك، ففي عالمٍ يغصُّ بالمناطيد والمروحيات الشخصية، ألا يجدر بـأُمناء المتحف أن يتخذوا احتياطاتهم ضد ارتطام الأشياء أو الأشخاص من الأعلى؟

تمنت ذلك بصدق؛ فقد رأت من الأهرامات الزجاجية والأسقف القبابية والثريات الضخمة ما يكفي لـتعتبرها مجرد حوادث تنتظر وقوعها.

تبادل فيل بضع كلماتٍ سريعة مع الحارس، الذي فتح الباب على مصراعيه وحياهم بـإجلالٍ وهم يمرون. وفي لحظة، صاروا في الداخل،

بعيدًا عن لَفح الرياح، تحيط بهم جدرانٌ وجدرانٌ من الكتبِ التي تمنحُ النفسَ سكينةً لا تُضاهى. كانت رائحة الورق العتيق والجلد والحبر الشذية تملأ المكان، وتغسلُ عن أنوفهم ما علق بها من روائح الدم والزيت والضباب الدخاني التافهة.

شعرت إيرين بموجةٍ عاتمة من الحنين إلى مكتبتها؛ فحياتها لم تكن مجرد مطاردات مناطيد وهجماتِ تماسيح آلية، أو مرافقةِ أقربِ شبيهٍ لـ شرلوك هولمز في هذا الكون البديل. إنها «أمينة مكتبة»، وأعمق جزءٍ في كينونتها وأكثرُه تجذرًا هو حب الكتب. وفي هذه اللحظة، لم تكن ترجو شيئًا سوى أن يوصد العالمُ أبوابه دونها، وألا يشغل بالها شيءٌ سوى الصفحة التالية مما تقرأ.

سأل فيل:

– «أين يقع مكتب أوبري؟»

قطبت إيرين جبينها وهي تحاول استحضار الطريق في ذاكرتها:

– «في الطابق الثالث، على امتداد السلالم الجنوبية؛ غرفتان جهة الشرق، ثم غرفة جهة الجنوب، ثم شرقًا مرة أخرى.. أظن أن معظم الكتب في ذلك الرواق كانت عن التاريخ الأوروبي.»

قال فيل وهو يقودهم عبر رواقٍ للرسومات والمطبوعات:

– «من هذا الطريق. هل لديكِ خطةٌ ما؟»

رفع رجلان بصريهما عن دفاتر الرسم باستنكارٍ للضجيج، وارتسمت على وجهيهما ملامح تقول: نحن مهذبون لدرجة تمنعنا من قول ذلك، ولكن حقًا، لا يجدر بكم إحداث أي جلبةٍ هنا.

تجاهلتهم إيرين وقالت لـ فيل:

— «سنحصل على الكتاب، ونؤمّن هذا المبنى ضد ألبريتش. إن استحضاري لقوة «المكتبة» لن يمنع برادامانت من الدخول، لذا ستكون في أمانٍ حين تصل إلى هنا. وسأقوم بالاتصال بمركزي لطلب مساعدةٍ مباشرة.»

رفع فيل حاجبه مستفسرًا:

— «ألن تواجهي ذلك الرجل بنفسكِ؟»

لم تقوّ إيرين على ملاقاة عينه وقالت:

— «سأخسر.»

بدأ فيل يقول:

— «ولكن هذه اللغة التي تتحدثينها——»

قاطعته إيرين بـحدةٍ لم تملك دفعها:

— «يصعب عليَّ أن أصدق أن أُمناء مكتبةٍ آخرين لم يجربوا ذلك ضده من قبل. والمواجهات مع ألبريتش تنتهي عادةً بـإرساله أجزاءً من أعضائهم الداخلية إلى «المكتبة»؛ في طرودٍ ملفوفةٍ بـأناقة. حتى إن أحدهم قال إن بإمكانهم تمييز طروده؛ لأنه يطوي الورق دائمًا بـذات الطريقة.»

— «آنسة وينترز، لمجرد أن هذا الرجل صار بمثابة "أسطورة حضرية"..»

قاطعه كاي بـإلحاح، ووقع أقدامهم يدوّي في بيت الدرج:

— «إنه أكثر من ذلك يا فيل. لقد كنتَ هناك ليلة البارحة؛ لقد ختم علينا العربة ووضع عليها قفلًا عجزتُ أنا عن فكه.» كانت في نبرته غطرسةٌ غير واعية وهو يتابع: «وأوبري، أمين المكتبة الذي كان متمركزًا هنا، لا بد أنه كان أكثر خبرةً من إيرين —— بلا إهانة يا إيرين، ولكن——»

قالت إيرين وهي تهز كتفيها وتجرب مرونة يديها خفيةً لـتحدد مدى تعافيها:

— «أوه، لا تقلق؛ أنت محقٌ تمامًا. لم يكن ليُعيَّن في عالمٍ بديلٍ كهذا ما لم يكن كفوًا، وقد كان أكبر سنًا وأكثر خبرةً مني.»

قال فيل:

— «إنه هذا الطابق.»

خرجوا من بيت الدرج إلى غرفةٍ تضج بالهيروغليفية الملونة، والأيقونات، والصلبان ذات الأطراف المدببة —— فن قبطي، هكذا جزمت إيرين. كان الضوء اصطناعيًا، لـحماية ورق البردي من أشعة الشمس على ما يبدو، لكن الألوان قفزت إلى أعينهم في ثورةٍ من الذهبي والأحمر والفيروزي.

تابع فيل:

— «إلى الأمام مباشرة، ثم يسارًا. واسمحي لي أن أقترح أن السيد أوبري لم يتلقَ أي تحذيرٍ بقدوم ألبريتش؛ فلو تلقاه، لـتمكن من تحصين نفسه وطلب النجدة من المكتبة، تمامًا كما تنوين الفعـل؟»

لم تكن تود سماع هذا الكلام.

رآهم المتنزهون قادمين فـأفسحوا لهم الطريق. وتمتمت سيدتان مسنتان بـكلماتٍ تدينُ شباب هذه الأيام، بينما كانت إيرين تجهدُ سمعها لـتتلقط أي حركةٍ.

كانت تدرك أن انشغالها هذا ما هو إلا «سلوكٌ تعويضي»؛ فـآخر ما تريده هو الاستماع لـ فيل وهو يتحدث عن مواجهة ألبريتش. إن لعب الشطرنج ضد أساتذةٍ سيهزمونك حتمًا هو أمرٌ ممتع؛ فـأنت تتعلم اللعبة ولا تموت في نهايتها. أما الدخول في عراكٍ مع شخصٍ سيقتلك

(ببشاعة)، فهو لن يعلمك شيئًا نافعًا، إلا إذا كان تناسخ الأرواح حقيقة، فأنت ستموت يقينًا. كان من الصعب عليها حتى التفكير في مدى أهمية هذا الكتاب لهذا العالم. لم يكن بوسعها سوى التفكير في خطواتٍ صغيرة: إذا كان ألبريتش يريد الكتاب، فهذا يعني أنه مهم، وربما حيوي لهذا العالم، ويجب ألا يناله..

كما كانت تحاول تجاهل نظرات كاي المتعاطفة من خلف ظهر فيل. ربما كان هناك أدبٌ كامل كتبته التنانين للتنانين حول كيفية بقائهم بعقلانيةٍ بعيدًا عن المعارك التي لا أمل لهم في كسبها، والطيران بعيدًا لفعل شيءٍ بالغ الأهمية في مكانٍ آخر. أو ربما كان من السيئ أن تشتت نفسها بهذا العمق وهم على وشك الوصول إلى مكتب أوبري.

قالت أخيرًا:

— «لا يمكننا بأي حالٍ معرفة كيف حاول أوبري التعامل مع ألبريتش. أعتقد أن أوبري الذي التقيتُ به لم يكن سوى ألبريتش متنكرًا. أنا لم أقابل الرجل الحقيقي قط. كل ما أعرفه هو أنني لن أدخل في قتالٍ لا يمكنني كسبه، طالما أن هناك بدائل.»

أومأ فيل نحو المخرج:

— «من ذلك الطريق، ثم للأمام عبر الغرف السبع التالية، ثم انعطفي يسارًا. حسنًا، أنا أقبل حكمكِ. فهل يمكنكِ جلب النجدة بسرعة؟»

سرَّت إيرين بأنها تستطيع الموافقة:

— «مما سمعته، المشكلة الرئيسية هي أن رؤسائي نادرًا ما يعرفون مكان ألبريتش. فإذا استطاعوا تحديد مكانه في هذا العالم بدقة، فسيمكنهم اتخاذ الإجراءات——»

قاطعها فيل، وأدركت إيرين أن مقاطعته بـحد ذاتها دليلٌ على استعجاله:

– «آنسة وينترز! قليلٌ من المنطق لو سمحتِ. هم يعرفون بالفعل أنه في هذا العالم، فـقد حذروكِ منه.»

تسلل بردٌ غريب إلى معدة إيرين.

– «أوه.» هكذا قالت؛ فقد غاب عنها هذا الاستنتاج. «ربما.. ربما كانوا يشكون في وجوده هنا فقط، ولكن لم يملكوا دليلًا قاطعًا..»

لم يقل فيل شيئًا، ولم يكن بحاجةٍ لـذلك؛ فـ إيرين استشعرت وهن منطقها. لقد كان من الشائع بين أُمناء المكتبة في مثل سنها أن ينسبوا دوافع مريبة لـكبارهم. سمعت الأقاويل: سيستخدموننا كطعمٍ إذا لزم الأمر، إنهم يعدلون المعلومات التي يزودوننا بها، سيضحون بنا لـيضعوا أيديهم على نصٍّ ما. لكن ذلك لم يكن يعني أنهم يصدقون ذلك حقًا. ففي سويداء قلبها، كانت إيرين تؤمن بـرؤسائها.

إن الشك الحقيقي كان أسوأ من أي شكٍ مراهقٍ عابر.

قالت وهي تجبر صوتها على الثبات:

– «ربما أخطأتُ في فهم المعلومات. هل يمكننا على الأقل تقييم الوضع قبل أن نفترض الأسوأ؟»

قال فيل بـنبرةٍ مفادها (أعلمُ يقينًا أنكِ لن تـكـفّي عن التفكير في الأمر الآن):

– «كما تشائين. ولكن لِمَ لا يكون في مكتبه، حتى وإن كنا نتمنى أن يكون في مكانٍ آخر؟»

اقترح كاي:

– «هجوم الروبوت في المتحف؛ فإذا كان هو المسؤول عنه، وإذا كان يتوقع العثور على الكتاب هناك، ألا يجدر به أن يكون في موقع الحدث ليتسلمه؟»

فرك فيل ذقنه بتفكير:

– «هذا يفترض أنه المسؤول عن هجوم الروبوت. وسيكون من الغلوِّ في حب السيطرة، ألا توافقني الرأي، أن يكون هناك بشخصه إذا كان بإمكانه إرسال مرؤوسيه..»

أجابه كاي:

– «لقد حاول إغراقنا بنفسه. أليس هذا من نوع الأعمال التي يوكلها الناس عادةً لتابعيهم؟»

– «صحيح، صحيح.» انفرجت قطبةُ جبين فيل. «إذا كان الأمر كذلك، فلنغتنم الفرصة بلا شك. وإن لم يكن، فأعتقد أن الميزة ستكون في جانبنا؛ لأنه لن يتوقع قدومنا. وفي كلتا الحالتين، المفاجأة والسرعة هما أفضل خيارٍ لنا.» ثم نظر حوله إلى الكم الهائل من التحف الرومانية السلتية المملة في الغرفة، ولاحظ: «وأعتقدُ أننا كدنا نصل.»

قال كاي بحزم:

– «يجب أن نخلي المكان.»

أشارت إيرين:

– «لا يمكننا فعل ذلك دون إثارة الإنذار.» فإذا كان ألبريتش في الجوار، فسيتفاعل مع إطلاق أجهزة الإنذار، أو إخلاء الحراس للمنطقة، أو أي اضطرابٍ يتضمن ركض الناس وصراخهم. والناس ينتهي بهم المطاف دائمًا بالركض والصراخ؛ هذا قانونٌ طبيعي أو ما شابه. تساءلت إن كان بإمكانها استخدام «اللغة» لتعرف مسبقًا إن كان

ألبريتش في مكتبه أم لا، لكن لم يخطر ببالها شيء. «أظن أننا سنضطر لطرق الباب والتمثيل ببراءة.»

وافق فيل:

— «همم. أعتقد أن هذا قد ينجح؛ فلا يوجد لديه سببٌ ليعتقد أنكِ قد كشفتِ انتحاله للشخصية. سأبقى أنا في الخلف مستعداً بمسدسي.»

حاولت إيرين التفكير في كيفية فشل هذه الخطة. لم يكن لـ ألبريتش أن يضع تعويذة «اقتل_كل_من_يلمس_الباب» على مكتبه (بافتراض وجود مثل هذه التعويذة، وهو أمرٌ لا تملك عنه أدنى فكرة)؛ فمن المرجح أن تقتل تلك التعويذةُ موظفي المكتبة البريطانية الأبرياء أو الأطفال الزوار. وهذا أمرٌ إيجابي. أما ما قد يفعله —— وهو ما كانت ستفعله هي لو عرفت الطريقة —— فهو وضع حمايةٍ ضد استخدام «اللغة». ومرةً أخرى، لم تكن تدري إن كان ذلك ممكنًا، لكنها ستفترض حاليًا أنه ممكن، ولذا عليها تجنب «اللغة» في الوقت الراهن.

ساعدها هذا التخطيطُ الحذرُ على السير عبر عددٍ من معروضات العصور المظلمة دون أن تبدو مذعورةً كما كانت تشعر. وأخيرًا، صار هدفهم خلف آخر صناديق العرض، على اليسار مباشرةً.

أخذت إيرين نفسًا عميقًا. استجمعت عزمها، وابتسمت بهدوءٍ لـ كاي وفيل، ثم تقدمت للأمام. حاولت تجاهل الجد الذي كان يرافقه طفلٌ متذمرٌ عن يمينها والطلاب عند القنطرة في الأمام. وكان من بين الشهود المحتملين أيضًا امرأةٌ تقرأُ بطاقةَ عرضٍ بعينين مضيقتين، بدت مألوفةً بشكلٍ غامض —— ربما رأتها من قبل حين جاءت إلى هنا في المرة السابقة —— يا إلهي، ها هي تماطلُ مرةً أخرى، أليس كذلك؟

لِمَ لم تكن هذه القصةُ من ذلك النوع الذي تكسر فيه الباب بركلةٍ وتقتحمُ المكان بمسدسٍ محشو؟ على الأرجح لأن الباب كان ثقيلًا، ولأنها كانت ترتدي تنورةً طويلة، ولأنها لا تملك مسدسًا محشوًا.

رسمت على وجهها أصدق نظرات القلق والسذاجة، وطرقت الباب.

لا إجابة.

طرقت مرةً أخرى. ألقى بضعةٌ من المارة نظرةً عابرة، ثم عادوا لمزاولة ما كانوا يفعلونه.

لا تزال لا توجد إجابة.

قال كاي بصوتٍ خفيض:

— «احمي ظهري.»

تقدم للأمام، وأخرج مسبارًا معدنيًا رفيعًا من جيبه الداخلي. طرق به مقبض الباب بينما كانت إيرين تحجبه عن الأنظار. تطلعت حولها، بيدَ أن أحدًا لم يكن يعيرهم أي اهتمام —— باستثناء فيل، الذي كان يقف بعيدًا متظاهرًا بتجاهلهم.

لم يثر الطرقُ أي رد فعلٍ مرئي، فجرب كاي المقبض. لم يتحرك، فانحنى وبدأ في فتح القفل. من الواضح أن فترته كمجرمٍ شاب لم تكن محض خيالٍ بالكامل.

نشرت إيرين أطراف تنورتها، والتفتت تراقب القاعة، والابتسامةُ لا تفارق وجهها. لا، لا يوجد شيءٌ مريبٌ هنا، كل شيءٍ طبيعيٌ تمامًا؛ فصديقي هذا يحب التحديق في الأقفال وتحريك قطع المعدن داخلها، إنه يفعل ذلك كل يوم، ومرتين في أيام الأحد..

بعد لحظة، ربت كاي على كتفها، بنظرةِ ترفعٍ هادئة.

أومأت له إيرين وجربت الباب. لم ينفجر.

هذا جيد. لقد بدأتُ أتفوقُ في هذه اللعبة.

أدارت المقبض ودخلت الغرفة. أظهرت نظرةٌ سريعة أن المكان بدا تـمامًا كما تركوه في المرة الأخيرة. لا أثر لـأحد. لا أحد يختبئ تحت الطاولات. لا أحد يختبئ خلف الباب. لا أثر لـ ألبريتش.

تنفست الصعداء بـقوةٍ لم تكن تدرك أنها كانت تحبسها، وابتعدت جانباً لـيتمكن كاي من الدخول. تبعه فيل بعد بضع ثوانٍ، وأغلق الباب خلفه.

أجالت إيرين بـصرها في المكان، باحثةً عن أي شيءٍ يشبه «سلة البريد الوارد». لقد أصابت الهدف! كان هناك واحدةٌ واضحةٌ تـمامًا على مكتب أوبري. تذكرت أنها كانت مرتبةً حين وصلوا أول مرة، لكنها الآن كانت تعج بالأوراق والمتفرقات. فرزتها بـسرعة، وكان الطردُ الذي يحملُ عنوان «متحف التاريخ الطبيعي» في الخلف (مُعاد لـلمرسل) هو القطعة السابعة. كان طردًا متواضعًا ملفوفًا بـورقٍ بنيٍّ عادي.

مدت يدها وقالت:

— «سكين الورق.»

وضع فيل مقبض سكينٍ في كفها. كان أنيقًا، مصنوعًا من العاج أو عظم الحوت، ولا شك أنه ساهم في انقراض نوعٍ واحدٍ على الأقل من الكائنات المهددة بالانقراض. وكان نصله حادًا وجميلًا.

شقت إيرين الخيط وفكت الأغلفة. وفي الداخل كان يوجد كتابٌ وظرف. كان عنوان الكتاب (Kinder und Hausmärchen).

ترجمتها تلقائيًا في ذهنها: «حكايات الأطفال والبيوت»، وتنفست الصعداء بـارتياح. فتحت الكتاب لـتتحقق من تاريخ النشر: ١٨١٢. أفضل وأفضل. والآن، ما هو الدليلُ القاطع الذي ذكرته برادامانت؟

انتقلت إلى الفهرس. كان هناك ثمانٍ وثمانون قصةً مدرجة. والقصة السابعة والثمانون كانت بـالألمانية بعنوان: «قصةُ الحجرِ من برج بابل».

تنفست الصعداء بـارتياح وقالت:

— «إنه هو.»

قال كاي بـابتهاج وهو يضرب بـكفه على المكتب:

— «نعم! لقد نلناه!»

سأل فيل:

— «ماذا يقول الخطاب؟»

وضعت إيرين الكتاب جانبًا لـلحظة وفتحت الظرف. خطرت لها فكرةُ «الرسائل المفخخة» متأخرةً بـضع ثوان. وبـتنهيدة، أفرغت الخطاب بـرفقٍ فوق المكتب. لا قنابل. جيد.

انحنى كاي لـيقرأ من فوق كتفها، ثم توقف، وأمال رأسه.

وبعد كسرٍ من الثانية، سمعت إيرين ذلك أيضًا. صرخات. صرخات، وخشخشةٌ من ذلك النوع الذي يبعثُ القشعريرة بـألفةٍ كابوسية.

دست الخطاب في سترتها. سيكون هناك وقتٌ لـقراءته لاحقًا.

انفتح البابُ بـعنفٍ مدوٍّ، وركضت امرأةٌ لـلداخل وهي تتلفت حولها بـيأس. كانت من بين المتصفحين في الخارج، لكنها الآن بدت مذعورةً وفي حالةٍ من الشعث. لـهثت قائلة:

– «أين المخرج؟»

خلفها، ومن خلال الباب المفتوح، استطاعت إيرين رؤية المزيد من الناس يركضون في كل الاتجاهات، ولكن جميعهم في النهاية يركضون نحو الـ «هرب». كان هناك سيلٌ يتسربُ من شيءٍ فضيٍ يزحفُ عبر الأرض بطريقةٍ مرعبة تشبه تقنية إيقاف الحركة في الأفلام. يصلُ إلى صفٍ من الخزائن، ثم تجده فجأةً يزحفُ حول قواعد الصف التالي. كان الصوتُ الذي يصدره، خشخشةٌ وحفيفٌ جائعٌ وعنيف، يترددُ صداه في القاعة الكبيرة، كخلفيةٍ للصراخ. وفي الخلف، كان الفيضُ الفضي يتسربُ فوق كتلٍ ذات أشكالٍ مشؤومة على الأرض، مغطيًا إياها بكثافةٍ منعت رؤية لون الملابس أو الشعر أو البشرة.

صرخت المرأة فيهم:

– «إنه السمك الفضي! اخرجوا من هنا الآن!»

كان الخطرُ القادم قد كاد يصلُ إلى باب الحجرة.

كانت إيرين امرأةً لبيبة، رصينة، وعملية. (أو على الأقل، هكذا ستصف نفسها في تقييم الأداء لأي أُمينة مكتبةٍ كبيرة). لكنها صرخت بذعرٍ وتسلقت فوق المكتب، وسحبت تنورتها وهي تنكمشُ هناك في رعب. وحاولت بيأسٍ تذكر ما إذا كانت «اللغة» تملكُ مفردات لـ «السمك الفضي» أو لمبيدٍ حشريٍ يقتل فورًا، وإن كان الأمر كذلك، فما عساها أن تكون.

اندفع كاي عبر الغرفة بحركةٍ انسيابيةٍ تماثلُ تقريبًا انسياب السمك الفضي المقترب. التقط المرأة الصارخة، وقذف بها فوق الطاولة بجانب إيرين قبل أن ينضم إليهم. أما فيل فقد قفز فوق كرسي.

صرخت المرأة في وجه كاي:

— «لقد قلتم إنكم هنا لتفعلوا شيئًا بشأن السمك الفضي! لِمَ لم تتخلصوا منها؟»

تذكرتها إيرين الآن؛ لقد كانت هنا حين كانوا يبحثون عن أوبري ووجدوا جلده بدلًا منه. لقد خدعوها بقصةٍ عن انتشار الحشرات. رائع. إنها تكرهُ المفارقات الدرامية. سألت:

— «هل يمكنها أكل الخشب؟»

ردت المرأة بحدة:

— «أنتم خبراءُ الإبادة، أخبروني أنتم!»

أخبرهم فيل من فوق كرسيه:

— «السمكُ الفضي يأكلُ أي شيءٍ أساسُه النشا؛ الغراء، وتجليد الكتب، والأوراق، والسجاد، والملابس، والمنسوجات.. أتخيلُ أنها نظريًا يمكنها أكل الخشب.»

قال كاي وهو يميلُ من فوق حافة الطاولة لينظر للأرض:

— «هذا إن لم تتسلق إلى هنا أولًا.» لم يكن السمك الفضي يحاول فعليًا تسلق أرجل الطاولة رأسياً بعد، لكن إيرين لم تكن لتنتظر الدليل التجريبي. كان المزيد والمزيد منها يتدفقُ الآن إلى الغرفة، يزحفُ بعضه فوق بعضٍ على الأرض في كتلةٍ كثيفةٍ وهائجةٍ من اللون الفضي السقيم.

ثمة شيءٌ في مؤخرة عقل إيرين كان يحاول لفت انتباهها. لم يكن السمك الفضي. ولم تكن المرأة التي بجانبها. بل كانت الطريقةُ التي ترى بها صحيفةً فوق صندوق عرض، وهي تتحرك. دون مساعدة السمك الفضي، كانت الصحيفةُ تزاح بالفعل، مليمترًا بمليمتر، فوق سطح الزجاج، في انزلاقٍ خفيفٍ له حفيف..

لهثت قائلة:

– «فيل! هل يمكن أن يكون هذا ناتجًا عن ترددات تحت صوتية؟ هل لديك علمٌ بمثل هذه الأمور؟» وأشارت إلى الكائنات المتجمهرة التي تغطي الأرض.

أدرك فيل معناها وقال:

– «ممكن.» وقطب جبينه للسمك الفضي كأنه لا يراه وهو يبدأُ بتسلق أرجل كرسيه. وتابع: «رغم أن أي ترددٍ يمكن أن يستفز تلك المخلوقات، فلا بد أن يكون له أيضًا نوعٌ من التأثير على البشر. يسبب الذعر، ربما——»

قالت المرأة بنبرةٍ يشوبها الهذيان:

– «أوه، أنا بالتأكيد أشعرُ بالذعر. وهي لا تزالُ تدخلُ إلى هنا، إنها تستمرُ في الورود— »

قالت إيرين وهي تحاول الحفاظ على هدوء صوتها، متعمدةً عدم التفكير في الحشرات التي تزحفُ تحت تنورتها وفوق جسدها و.. ابتلعت ريقها وتابعت:

– «حسنًا. إنها تستمرُ في الدخول. إذا كان هناك مولدٌ للترددات تحت الصوتية في مكانٍ ما، فلا بد أنه إما يدفعها أو يجذبها إلى هنا.»

أقسم كاي بتأكيدٍ عنيف:

– «يا للسماء! لا بد أنه تم ضبطُه ليعمل بمجرد فتحنا للباب– انظروا إلى توقيت الأمر!»

بدأت إيرين تقول: «ولكن إذا كان مرتبطًا بالباب، فكيف——»، وفي اللحظة نفسها أشار فيل إلى مفصلات الباب وصاح:

– «هناك! ذلك السلك. إنه يتبعُ الإطار السفلي ويقودُ إلى الخزانة في تلك الزاوية. وهي تتجمعُ بكثافةٍ أكبر حولها..»

بالكاد استطاعت إيرين رؤية أي أثرٍ لسلك، لكنها كانت مستعدةً للثقة بعيني فيل. كانت الخزانةُ المصنوعة من الخشب الداكن متراجعةً في زاوية الغرفة، وكان السمكُ الفضي يتلوى حول قاعدتها. لقد تجمعت حتى ارتفاع قدم عن الأرض، والآن بعد أن صارت تنتبه، بدت الحشراتُ متركزةً هناك بكثافةٍ ملحوظة.

تمتمت قائلة: «هذا يكفي.» لحسن الحظ، كان هناك من التفاصيل في قطعة الأثاث تلك ما يسمحُ لها بأن تكون دقيقة. كانت تنوي تجنب استخدام «اللغة» خوفًا من الأفخاخ المنصوبة، لكنها كانت مستعدةً للمرونة. فالأفخاخ المنصوبة سيتعينُ عليها تدبر أمرها بنفسها. رفعت صوتها قائلة:

— «**أبواب الخزانة ذات المقابض على شكل ورق البلوط؛ افتحي واقفلي.**»

انفتحت أبوابُ الخزانة بقوة، متأرجحةً على مصراعيها ومازقةً البراغي في كلٍ من الأعلى والأسفل. وداخل الخزانة كان هناك تشابكٌ معقدٌ من الآلات والأسلاك، بالكاد يرى تحت السمك الفضي الذي كان ينصبُّ فوقه كالماء القشري. لمعت أضواءٌ فوقه وكان ثمة شيءٌ يطن.

قال فيل: «هذا هو!»

بدأت إيرين تقول: «كاي——»

قاطعها كاي: «أنا هناك بالفعل.» وقفز من الطاولة نحو الخزانة. تهشم السمكُ الفضي تحت حذائه حين ارتطم بالأرض. ثم كان يدور بالفعل، يلتف جسدُه برشاقة وهو ينطلقُ في ركلةٍ طائرة عالية. ارتطمت قدمُه المتقدمة بالآلات الملتوية بارتطامٍ مدوٍّ وصوت تحطم.

توقف الطنين.

توقف السمكُ الفضي في جميع أنحاء الغرفة، ثم بدأ في الانسراب بعيداً. تسرب بعضُه للأسفل عبر شقوقٍ لا تكادُ تُرى في الأرضية والإطارات الخشبية. وتدفق بعضُه الآخر خارجًا عبر الباب مرةً أخرى، متشتتًا في جميع الاتجاهات بأسرع ما يمكنه. وظل بعضُه يتربصُ حول الآلة، يحاولُ جميعُه الانزلاق تحتها ولم ينجح سوى نصفهم تقريبًا. وأخذ كاي يقفزُ على قدمٍ واحدة، محاولًا إخراج قدمه الأخرى من الجهاز المحطم. وكان يقسِّمُ بما افترضت إيرين أنها كلماتٌ يستخدمها التنانين المهذبون حين لا يرغبون في إثارة صدمة الكائنات الأقل شأنًا.

انفتحت أبوابُ الخزانة بقوة، متأرجحةً على مصراعيها ومازقةً البراغي في كلٍ من الأعلى والأسفل. وداخل الخزانة كان هناك تشابكٌ معقدٌ من الآلاتِ والأسلاك، بالكاد يرى تحت السمك الفضي الذي كان ينصبُّ فوقه كالماء القشري. لمعت أضواءٌ فوقه وكان ثمة شيءٌ يطن.

قال فيل: «هذا هو!»

بدأت إيرين تقول: «كاي——»

قاطعها كاي: «أنا هناك بالفعل.» وقفز من الطاولة نحو الخزانة. تهشم السمكُ الفضي تحت حذائه حين ارتطم بالأرض. ثم كان يدور بالفعل، يلتف جسدُه برشاقة وهو ينطلقُ في ركلةٍ طائرة عالية. ارتطمت قدمُه المتقدمة بالآلات الملتوية بارتطامٍ مدوٍّ وصوت تحطم.

توقف الطنين.

توقف السمكُ الفضي في جميع أنحاء الغرفة، ثم بدأ في الانسراب بعيداً. تسرب بعضُه للأسفل عبر شقوقٍ لا تكادُ تُرى في الأرضية والإطارات الخشبية. وتدفق بعضُه الآخر خارجًا عبر الباب مرةً أخرى، متشتتًا في جميع الاتجاهات بأسرع ما يمكنه. وظل بعضُه يتربصُ حول

الآلة، يحاولُ جميعُه الانزلاق تحتها ولم ينجح سوى نصفهم تقريبًا. وأخذ كاي يقفزُ على قدمٍ واحدة، محاولًا إخراج قدمه الأخرى من الجهاز المحطم. وكان يقسِمُ بما افترضت إيرين أنها كلماتٌ يستخدمها التنانين المهذبون حين لا يرغبون في إثارة صدمة الكائنات الأقل شأنًا.

قالت إيرين بينما خمد حفيفُ السمك الفضي المتحرك ليتركهم في هدوءٍ نسبي:

— «كنتُ على وشكِ القول: من فضلك حطمها باستخدام كرسي. لكن شكرًا لك. شكرًا جزيلاً. عملٌ رائع.»

كان الكتابُ يرقدُ بأمان في سلة بريد دومينيك أوبري، لم يمسه ضرر، ولم يصبه أذى. ولم يُؤكل. هكذا انتهت مناورة ألبريتش الأخيرة.

سألت المرأة: «أهكذا تقومون بأعمال الإبادة عادةً؟» ولم تكن تظهرُ أي علامةٍ على النزول من فوق الطاولة بعد. وللإنصاف، لم تكن إيرين تفعلُ ذلك أيضًا.

قال كاي بنبرةِ اشمئزازٍ عميق: «أظنُ أنها في حذائي.»

نزل فيل بحذرٍ من فوق كرسيه. ولم تعره بقايا السمك الفضي القليلة أي اهتمام. مشى بحذرٍ نحو طاولة إيرين، ومدَّ لها يدًا ليساعدها على النزول.

— «أحسنتِ صنعًا يا آنسة وينترز.»

أجابت إيرين:

— «شكرًا لملاحظتك السلك.» وأمسكت بيده وهي تنزلُ بتمهل من فوق الطاولة، محاولةً ألا تكشف الكثير من ساقها في هذه

العملية. ستستمتعُ بالعودة لعالمٍ بديلٍ ترتدي فيه النساءُ السراويل بشكلٍ اعتيادي.

تابعت:

– «أتظنُ أن هذا يعني أن ——»

كانت على وشك المتابعة بقول: أن ألبريتش في مكانٍ آخر، وأنه ترك هذا الفخ، حين لاحظت النظرة ذات المغزى التي كان يلقيها فيل من فوق كتفها. آه. بالطبع. المرأة. كلما أسرعوا في إخراجها من هنا، كان ذلك أفضل.

ختمت قولها:

– «—— آه، شكرًا لك.»

همس كاي بصوتٍ خفيض حين انضمت إليه: «أهو فخٌ لنا؟»

وافقته إيرين بنفس الهدوء، بينما كان فيل والمرأة يتهامسان فلم يكن بإمكان أحد سماعهم: «منطقي. لكنه متهورٌ بعض الشيء؛ فلا بد أن يجذب الانتباه إلى هنا، إلى هذه الغرفة. إلا إذا كان مجرد مناورةٍ للتعطيل.»

قالت المرأة:

– «لقد كانت مناورةً للتعطيل.»

التفت كاي وإيرين للنظر.

كان كلا منها ومن فيل محشورين الآن ضد الطاولة، وكان لوضعية فيل جمودٌ غريب. كانت عيناه تتقدان غضبًا، لكن جسدُه كان ساكنًا تمامًا، يداه مرفوعتان كأنه كان للتو يساعد المرأة على النزول ولم يتسنَّ له خفضهما. وكانت المرأةُ تصوّبُ سكينًا نحو حنجرته. لم تكن السكين

تبدو أنيقة، لكنها بدت ذات فعاليةٍ وحشية. وربما كانت حادةً بما يكفي لسلخ جلدِ شخصٍ ما.

قالت المرأة:

– «أيها الباب، أُغلق.»

انغلق بابُ الغرفة وبابُ الخزانة بقوة.

– «ها قد انتهى الأمر. الآن سنحظى ببضعِ دقائق دون انقطاع.»

شعرت إيرين بقلبها يخفقُ بألمٍ في صدرها. وقالت بتردد:

– «أنتِ ألبريتش؟»

أجابت المرأة:

– «نعم. هذا لقاؤنا الرابع. وآملُ أن تكوني منتبهةً هذه المرة. لأنكِ إذا لم تفعلي ما آمركِ به بالضبط، فإن صديقكِ سيموت.» توقفت للحظةٍ ثم تابعت: «أقصدُ أنه سيموتُ أولًا، وبينما تشاهدين أنتِ ذلك.»



الفصل الحادي والعشرون

قالت إيرين:

— «آذاننا صاغية، فاسترسل.»

أبقت يديها ساكنتين، حريصةً على تجنب أي حركة قد تُفسر استفزازاً يدفعه لنحرِ عُنق فيل. لم تكن تدرك أن تقمُّص جلد آخر قد يكون بهذا الشمول والاتقان؛ فهي — بل هو — يتحدث الآن بصوت امرأة، نبرةٌ تختلف تماماً عن ذلك الصوت الذي سمعتْه من داخل سيارة الأجرة المنكوبة، وتختلف أيضاً عن صوت أوبري. هل كان يزرع الحبال الصوتية أيضاً؟ لا، على الأرجح أن هذا مجرد أثرٍ لعملية انتقال الجلد السحرية، مهما كانت آلية عملها. كم كان سيفيدها لو استطاعت رصد أي شيء غير مألوف في مظهره — أو مظهرها — لكن لا شيء هناك على الإطلاق.

قال ألبريتش:

— «أنا مستعدٌ لتقديم بعض التنازلات؛ فليس من الضروري أن تموتوا جميعاً. لنكن عقلانيين، وعندها يمكننا أن نفترق بسلام.»

بذلت إيرين قصارى جهدها لتبتسم رداً على قوله، وهي تضمر في نفسها:

شيءٌ ما في أعماقي يأبى تصديقك.

تابعت قائلة:

– «يهمني أن أبقى على قيد الحياة، وكذلك كاي. أليس كذلك يا كاي؟»

زمجر كاي:

– «أطلق سراح فيل أولاً ثم نتحدث.»

كان في صوته نبرةٌ لم تعهدْها إيرين من قبل، نبرةٌ تشبه —— لولا غيابُ وصفٍ أدق —— "نزعة التملك". تُرى، أهي عاطفةٌ تنينية؟

قال ألبريتش:

– «اصمت أيها الفتى.»

حرّك السكين عمداً لمسافةٍ ضئيلة جداً، فانساب خيطٌ من الدماء على عنق فيل ليلطخ ياقته البيضاء.

– «ابقَ مكانك، ولا تحاول الانقضاض عليّ، واترك الكلام لرئيستك. حسناً.. هل معكِ الكتاب يا إيرين؟»

لا بد أنه لاحظ الكتاب في درج الوارد، لكنها إذا لم يلحظْه، فلن تلفت انتباهه إليه.

عرضت قائلة:

– «يمكنني الحصول عليه. أهذا هو الثمن؟»

– «أريد أكثر من ذلك بكثير.»

لمحت خلف عينيه بريقاً كانت ستعرفه لو رأته ثانيةً؛ جوعاً ضارياً، وفراغاً أبدياً لن يمتلئ أبداً، مع كل ما يصاحب ذلك من جنون.

– «لديَّ جملةٌ من الأسئلة. يمكنكِ الجلوس إن أردتِ.»

قالت إيرين بسرعة:

– «نُفضل البقاء واقفين.»

— «كما تشائين.»

انحنت شفتاه عن ابتسامةٍ بدت للناظر ابتسامة رجلٍ أكثر منها امرأة.

— «هل يجدر بي اتباع التقاليد الأدبية المعتادة؟ أولاً، أخبركِ بأن ما سُمع عني من أكاذيب وافتراءات لا أساس له، فتهزين رأسكِ بتفهمٍ وأنتِ لا تصدقين كلمةً مما أقول. ثم أعدكِ بإطلاق سراحكم إن سلمتموني الكتاب، فتكذبين عليَّ وتسلمينني نسخةً مزورة. وبعدها أقتلكِ.» هز كتفيه، والسكين لا تزال في مكانها. «أم نخرج عن هذه الأنماط المبتذلة ونفعل شيئاً مختلفاً؟ شيئاً قد يضمن لكِ النجاة؟»

فكرت إيرين في كم من أمناء المكتبة الآخرين وجدوا أنفسهم في هذا الموقف. لم يكن لقبه "أسطورة حضرية" من فراغ.

لكن إذا قُتلوا جميعاً، فمَن يعود ليروي الحكايات؟

طرح عليها هذا السؤال جزءٌ مزعجٌ من عقلها، فتجاهلته.

انطلقت الكلمات من فمها بآليةٍ وهي تحاول التفكير:

— «لا أفهم كيف يمكنك استخدام كل من «اللغة» وسحر "الفاي" معاً.»

لم يكن من الصعب جعل نبرتها تبدو معجبة، حتى لو كان سيدرك أنها مجرد مناورة.

قال ألبريتش بسخاءٍ جعل إيرين تخفض احتمالات نجاتها أكثر في مخيلتها:

— «سأمنحكِ هذه الإجابة مجاناً: بمجرد أن يتمكن المرء من استخدام «اللغة»، لا يمكن انتزاعها منه أبداً. لقد تعلمتُ استخدام "الفوضى" منذ ذلك الحين، والأمر يتطلب قدراً من إعادة تعريف الذات. هو أمرٌ صعب، لكنه ليس مستحيلاً. لا يحتاج المرء للموت كي ينجح.

ربما يجدر بكِ وضع هذا في الاعتبار في مستقبلك المهني؟ فهناك فرصٌ أمامكِ أكثر بكثير مما تظنين.»

فرص.. وأي فرصٍ أملكها الآن؟ ربما يستطيع كاي استخدام قوى التنين المذهلة لمنع ألبريتش من دخول منطقةٍ ما، لكن لا نفع لذلك وهو بالداخل بالفعل. وربما تستطيع هي إجبار ألبريتش على الخروج باستخدام «اللغة»، لكن ثانيةً، لن يجدي ذلك نفعاً إن كان سينتظر ببساطة خارج الحدود..

الحدود. لاحت فكرةٌ شبه منطقية في مؤخرة عقلها. تمنت لو كان لديها مزيدٌ من الوقت لسؤال كاي عن قدراته؛ حين يحصّنُ مكاناً، هل يتبع التحصين المسار الذي يتركه هو خلفه؟ أم أنه أمرٌ ميتافيزيقي، بحيث ترتبط حدود تحصينه بالشيء الذي ينوي حمايته؟

قالت بحزم، متجاهلةً شهيق كاي خلفها:

— «لنقلل عدد الرهائن المحتملين. أنا من تريدها؛ وكما قلتَ، أنا رئيسة كاي. وجودُه هنا وربما فقدانه لأعصابه لن يفيد أياً منا.» حاولت أن تبدو ساذجة، وكأنها صدقت ألبريتش حين قال إنها قد تنجو. «لديك رهينةٌ بالفعل، وأنت تعلم مدى قلقي على سلامته، فلولا ذلك لهاجمنا أو هربنا منذ زمن. لنمهّد الأرض للمفاوضات؛ دع كاي يذهب كبادرةِ حُسن نية.»

تفرّس فيها ألبريتش بتفكير، وومض ذلك الجوع في عينيه مجدداً.

قال ببطء:

— «صحيحٌ أن أسئلتي تخصكِ أنتِ لا هو، وهو ليس مصدر خطر لي، فلا أخشى محاولته فتح بابٍ لـ المكتَبة خلف ظهري. حسناً، سأكون عاقلاً.. مقابل تنازلٍ مماثل منكِ.»

تذكرت إيرين أن تتنفس، وسألت:

— «مثل ماذا؟»

قال ألبريتش بسرعة:

— «اسمُكِ الحقيقي.»

وأدركت حينها أن هذه كانت خطته منذ البداية.

لم يكن السحر يوماً مجال خبرة إيرين، ولا يزال كذلك، لكنها لم تكن بحاجةٍ لتكون خبيرةً لتعرف أن سحر "الفاي" الذي يملكه ألبريتش، مع معرفته باسمها الحقيقي، سيكون كارثةً محققة لها.

قال كاي: «هاه!» واشتبهت في أنه كان يزدري الأمر.

أومأت إيرين لـ ألبريتش ثم التفتت نحو كاي، وكان كما ظنت، يرتدي تعبير الازدراء.

قالت:

— «كاي، أريدك أن تفعل شيئاً بسيطاً جداً من أجلي. اخرج وابقَ بالخارج. لا أريد أن تطأ قدماك هذه المكتبة أبداً.»

كيف أوصلُ له أنني أريدك أن تضع ذلك التحصين الذي تحدثتَ عنه وتفعل ذلك بأسرع ما يمكن؟

تابعت:

— «سأتولى أنا الأمر.»

رمش كاي بعينيه، وقد أُخذ على غرةٍ تماماً. بدأ يقول: «ولكن——»

قاطعته إيرين بحدة:

— «لا تجادلني. الأمر كما قال ألبريتش؛ أنت لست من أمناء المكتبة وليس بيدك ما تفعله في هذا الموقف. أنت لا تملك «اللغة» ولا يمكنك

محاربته. لن أعرض شخصاً آخر للخطر. والآن، هل ستطيع أوامري وتخرج،» شعرت بصوتها يرتفع، «أم سأضطر للقلق عليك وعلى فيل معاً؟»

حدق بها كاي طويلاً بنظرةٍ شعرت فيها بالعتاب. كان عتاباً بالفعل. لم تكن تريد فعل هذا به، لكن ألبريتش ليس أحمق؛ فأدنى إشارةٍ إلى التواطؤ ستؤدي لمقتل فيل، ولم يكن أمامها سوى الأمل في أن يستوعب كاي ذلك.

قال:

– «أنتِ تعلمين جيداً أنه لا يمكنني فعل شيء إن كنتُ خارج هذه الجدران.»

هل أدركَ ما أريده؟

تابع قائلاً:

– «يُفترض بي أن أكون زميلكِ، لا تابعكِ الذي يعاني من خللٍ دماغي! على الأقل دعيني أبقى قريباً.»

قال ألبريتش ببرود:

– «لا فرق عندي.»

أشارت إيرين بإبهامها نحو الباب:

– «هذه أوامرك يا كاي. اخرج، وابقَ بالخارج، ولا أريد رؤية وجهك حتى ننتهي.» لمحت النافذة للحظة وأضافت: «ولا تساورك أي أفكارٍ حول الطيران على المناطيد.»

ضاقت عينا كاي قليلاً، ولم يتبقَّ لها سوى الأمل في أنه فهم الإشارة.

قال:

— «لا تظني أنني سعيدٌ بهذا.»

وتهدّل كتفاه بتلك الزاوية التي كانا عليها في لقائهما الأول. لقد بدا مظهراً أفضل وهو يرتدي سترةً جلدية.

أومأت إيرين والتفتت نحو ألبريتش:

— «الباب، لو سمحت.»

قال بصيغةٍ مشابهة لصيغتها:

— «اسمُكِ، لو سمحتِ.»

قالت إيرين بـ «اللغة»:

— «**أعطيــك كـلـمتي أنني سأمنحــك اســـم ولادتي في اللحظة التي يقف فيها كــــاي آمـــناً خلــف ذلك البـــاب المغلق.**»

علق ألبريتش:

— «بارعة؛ تفكيركِ سريع. **بــــــاب الغرفة، انفتــــح.**»

تأرجح الباب منفتحاً، ساحقاً حشرات "السمك الفضي" في مساره، وارتطم بالجدار. لم يكن هناك أحدٌ في الغرفة وراءه — على الأقل، لم يكن هناك أحدٌ حي. مجرد أكوامٍ هامدة من بضع جثث سيئة الحظ سقطت في هجوم "السمك الفضيّ". تمنت إيرين بمرارةٍ أن يكونوا مغمىً عليهم فقط بفعل الموجات فوق الصوتية أو شيءٍ من هذا القبيل؛ فهي لا تحتمل مزيداً من الموتى.

قال كاي بهدوء:

— «إن آذيتَها، أقسمُ بوالدي وإخوته، وبعظام أجدادي، أنك ستدفع الثمن.»

تفرّس فيه ألبريتش بتفكير:

– «يا لها من طريقةٍ غريبة في التعبير. أنا متأكدٌ أنني سمعت هذا من قبل.. أوه، لا يهم، لعلي أشرّح جثتك لاحقاً إن لزم الأمر. اخرج من هنا الآن قبل أن أغير رأيي.»

لم تنطق إيرين بكلمة، خشية أن يغير ألبريتش رأيه فعلاً. أشارت لـ كاي نحو الباب، وتساءلت في نفسها كم سيستغرقه الوقت ليضع الحاجز، وكم من الوقت بقي لها قبل أن يفرغ منها ألبريتش.

حدب كاي كتفيه غاضباً وخرج من المكتب بخطىً ثقيلة.

قال ألبريتش:

– «أوصد، باب الغرفة.»

فانغلق الباب بعنف مع صوت سحقٍ آخر لحشرات "السمك الفضي"، ليترك الثلاثة بمفردهم.

شعرت إيرين بوطأةِ قسَمِها كأنه حبلُ مشنقةٍ حول عنقها.

قالت وهي تختار كلماتها بعناية قبل أن يضطر القسَم لانتزاع مزيدٍ من التفاصيل:

– «لقد أطلق عليَّ والداي اسم راي.»

كانت الصياغة أكثر تعقيداً مما ينبغي، لكنها كانت حقيقةً كافية.

– «لا أعرف أسماء ولادتهما، لذا لا يمكنني إعطاؤك اسم عائلة.»

– «راي.. (أي: شعاع)!»

بدا ألبريتش وكأنه على وشك الضحك.

– «وهل كانا ينادیانكِ "شعاع الشمس الصغير"؟»

في الحقيقة، كانا يفعلان. رفعت إيرين حاجبيها وسألت:

– «هل لهذا صلةٌ بالموضوع؟»

– «ليس كثيراً، لكني لطالما كنت رجلاً فضولياً.»

لم تتحرك يده، وظلت السكين ثابتةً عند عنق فيل.

– «ولماذا لا تعرفين أسماء ولادتهما؟»

مستحيلٌ أن تخبره أنهما كانا من أمناء المكتبة أيضاً. والآن وقد أجابت، لم تعد مقيدةً ويمكنها الكذب كما تشاء.

اخترعت إجابةً قائلة:

– «لقد كانا دائماً يخفيان الأسرار عني. أنا أجيب على سؤالك بأفضل ما أستطيع.»

ضيّق ألبريتش عينيه، وشعرت ببرودةٍ تسري في جسدها لاشتباهها في أنه لم يصدقها.

قال:

– «أسئلةٌ ذات صلة إذن. ما الذي كان يحدث بالضبط؟»

لم تتوقع هذا السؤال. سألت: «أعني.. بأي قدرٍ من التفاصيل؟»

– «لقد تدخل الكثير من الناس فيما كان يُفترض أن يكون عملية استردادٍ بسيطة تماماً. صدقيني يا راي..»

علمت أنه رأى ارتعاشتها حين نطق اسمها؛ فلم تستطع منع نفسها، إذ لم تسمع أحداً يناديها به منذ سنوات. لقد كان اسم طفولة، وهي لم تعد طفلة.

تابع بسلاسة:

– «أنا لم أطلب أياً من هذا. كان من الأفضل لي كثيراً أن آخذ الكتاب وأرحل ببساطة. بلا فوضى، بلا جلبة. لذا أطلب منكِ، بطريقةٍ

عقلانية تماماً، أن تقفي باعتدال، وتكفّي عن التلعثم، وتعطيني تقريراً كاملاً. تخيلي أنني أحد رؤسائكِ.»

كان من السهل تخيله كذلك؛ فقد كان رؤساؤها متنوعين بما يكفي ـــ مثل كوبيليا بأطرافها الميكانيكية أو كوستشي بنظرته التي تخترق المدى. لكن جميعهم امتلكوا تلك الهيبة التي كان ألبريتش يستعرضها الآن. وبخلاف ذلك والشائعات، لم تكن تعرف عنه شيئاً، حتى ملامحه الحقيقية كانت مجهولة لها. وكان يثير رعبها.

تدخل فيل قائلاً:

– «في ظل هذه الظروف ـــ»

قال ألبريتش:

– «تذكر أنني أستطيع، بل وسأجمد حبالك الصوتية أيضاً، ورئتيك. إلا إذا كنت تريد شرح الأحداث بنفسك؟ وفي هذه الحالة، ستصبح راي هنا بلا قيمة..»

قال فيل:

– «أعتقد أن الآنسة وينترز يمكنها التعامل مع الأمر. لن أقاطع إلا إذا كان لدي شيءٌ مهمٌ لأضيفه.»

فكرت إيرين بمرارة: من المؤكد أنه اعتاد على التأقلم والسكاكين عند حنجرته.

قالت:

– «اسمح لي؛ أعتقد أن العامل الرئيسي هنا كان أن ويندهام عرف أكثر مما ينبغي.»

قال ألبريتش بلطف:

— «ادعاءٌ جريء، بالنظر إلى ما يبدو أن فيل يعرفه عن شؤون المكتبة.»

قررت إيرين تجاهل ذلك وهي تتساءل كم سيستغرق كاي من الوقت، وهل ستعرف متى ينتهي؟ كان عليها إطالة أمد الكلام قدر الإمكان، وحياكة كل تخميناتها في سردٍ مقنع، والدعاء بأن يتقبله ألبريتش.

بدأت بثقة:

— «كانت لـ ويندهام صلاتٌ بـ "الفاي"، لكنه عرف أيضاً أن دومينيك أوبري كان "أمين مكتبة"، وبوصفه كذلك، فهو يعارض "الفاي". عرف ويندهام أن الكتاب كان مهماً لـ سيلفر وظن أنه يمكنه استخدامه كبطاقة ضغط للحصول على شيءٍ في المقابل. أو ربما كان يسعى لنوعٍ من الانتقام المعقد؛ كانت واحدةً من تلك العلاقات الغريبة مع "الفاي". لذا قرر التأكد من وجود الكتاب في مكانٍ آمن بينما يتفاوض، فأرسله تحت غطاء طردٍ آخر إلى متحف التاريخ الطبيعي.»

هل يمكنني إقناع ألبريتش بالذهاب إلى هناك للبحث عنه؟

تابعت:

— «وبعدها قُتل.»

قال ألبريتش:

— «أوه نعم. أنا من رتب مقتله. لم يجد عميلي الكتاب حين كانوا هناك، ولكن ذلك لأن بيلفيغور سبقتهم إليه. لقد كانت «أخوية الحديد» مفيدةً للغاية؛ قتلة متخصصون في إبادة مصاصي الدماء، وآليون لإرسالهم خلفكِ، وأشياء أخرى أيضاً. بدا لي ذلك أسهل طريق للحصول على الكتاب. لم أرغب في التعامل مع سيلفر أو غيره من الفاي

؛ فبعض حلفائي لديهم مشاكل مع فصائل معينة. لكني لن أملّكِ بالتفاصيل. لقد دخلتُ هذا العالم الموازي، وسيطرتُ على «أخوية الحديد»، وعثرتُ على أمين المكتبة المتمركز هنا، واستجوبتُه، ثم تقمصتُ جلده. الأمر بسيطٌ بما يكفي. وبالحديث عن ذلك، هل لا يزال الجلد معكِ؟»

فجأةً شعرت إيرين برغبةٍ في التقيؤ. لقد حافظت على رباطة جأشها أثناء هجمات المستذئبين، واقتراب تحطم المنطاد، ووفيات "السمك الفضي"، لكن هذا كان مختلفاً. استجوبه. تقمص جلده.

— «لقد كنتَ أنت، أليس كذلك؟ في المرة الأولى؟»

فهم سؤالها رغم صياغته الضعيفة.

— «أوه نعم. أنا من قابلك أنتِ ومتدربكِ حين عبرتما لأول مرة. لأكون صادقاً، لقد كنتِ مفاجأةً بالنسبة لي.»

قالت إيرين بتزمت وهي تعد الثواني في عقلها:

— «لن ينفعك الإطراء في شيء.»

كان هناك شيءٌ آخر يدور بوضوح خلف عيني ألبريتش.

— «لو كنتِ وجدتِ الكتاب في متحف التاريخ الطبيعي، لكان بإمكانكِ العودة مباشرةً إلى المكتبة عبر فتح بوابة في مكانٍ آخر. لم تكوني بحاجة للمجيء إلى هنا. وقد اعترفتِ أن ويندهام عرف أن أوبري كان أمين مكتبة. أجيبي يا راي؛ هل أرسل ويندهام الكتاب إلى أوبري؟»

قالت إيرين: «نعم.»

خرجت الكلمة قسراً من فمها رداً على سؤاله واستخدامه لاسمها، قبل أن تتمكن من المناورة حول الموضوع أكثر.

ظهرت حمرةٌ شديدة على وجنتي ألبريتش، لا بد أنها رد فعل غضبٍ تحول عبر الجلد الذي يرتديه.

— «هل تقولين لي إن الكتاب جاء إلى هنا؟»

شعرت إيرين بالإجابة تُنتزع من حنجرتها، تحاول النطق بنفسها. تلاقت عيناها بـ فيل للحظة، وهي تزن نفع إشغال ألبريتش أكثر مقابل خطر نحره لعنق فيل إن فقد أعصابه.

قالت بسرعة، مستسلمةً ومخرجةً الكلمة قبل أن يقرر ألبريتش تنفيذ تهديداته: «نعم.»

— «وهو الكتاب الموجود على المكتب؟»

فتحت إيرين فمها لتنكر، لكنها لم تستطع. انتزعت الكلمة نفسها من شفتيها: «نعم.»

انفجر ألبريتش:

— «أيتها الحمقاء المثيرة للشفقة! هل لديكِ أي فكرة عن حجم الجهد الذي بذلتُه هنا خلال الأيام القليلة الماضية؟»

كان يصرخ كالمرأة السليطة، ورغم أن السكين عند عنق فيل كانت ثابتة، إلا أن وجهه كان غريباً — فمه مفتوحٌ أكثر مما ينبغي، وعيناه تحدقان بغضب، والرذاذ يتطاير على جانب وجه فيل.

— «لقد بدلتُ جلدي مرتين، وصرفتُ انتباهي عن مشاريع غاية في الأهمية. وبسبب ركضكِ هنا وهناك لإخفاء هذا الكتاب، ضاعت جهودي سدى. هل تظنينَ أن هذا مضحك يا راي؟ هل تظنين ذلك؟»

بدأت الغرفة تهتز وتتحرك من حوله. الأوراق على المكتب استحالت سائلاً وتقطرت بعيداً، منسكبةً لتلطخ الأرضية. حشرات "السمك الفضي" الميتة ذابت في بخارٍ انطلق نحو الخارج في دوائر

متسعة، وكأن ألبريتش وفيل يقفان في قلب إعصار. بدأت ألواح الزجاج في خزائن العرض بالاهتزاز، مصدرةً طنيناً وكأن شخصاً يغني بنبرةٍ حادة مستحيلة. والآن شعرت إيرين بالنبض في مؤخرة جمجمتها، وطنين في أذنيها.

صرخت: «توقف!»

قال ألبريتش الذي ابتسم لها بهدوء مفاجئ:

— «كلا، ليس الأمر مضحكاً. سآخذ ذلك الكتاب. ستعطينه لي.»

قالت إيرين:

— «أو ستنحر عنق رهينتك؟»

كانت لا تزال مهتزة من ذلك الاضطراب المفاجئ؛ فكل شيء فيه كان خاطئاً. "الفاي" سيئون بما يكفي، لكن هذا "التميع" في الواقع كان أسوأ بكثير. لقد كانت مستعدةً لمواجهة الموت حتى، لكن هذا —— لا.

قال ألبريتش:

— «كوني عاقلة. سأحتاج لجلدٍ جديد قريباً، وجلدُ أمين مكتبة آخر سيناسبني تماماً، كما سيناسبني منصب فيل في المجتمع. لا تقدمي لي أي أعذار يا راي. لا تعطني مزيداً من الأسباب لنحر هذا الرجل ثم سلخ جلدكِ. كوني مهذبة جداً، ومفيدة جداً، واستمعي لما سأقوله لكِ.»

اكتفت إيرين بهز رأسها موافقة. كانت تخشى إثارة ذلك الغضب مجدداً، تخشى على حياة فيل —— ولأكون صادقة، كانت مرعوبةً على نفسها.

— «أين كنت؟»

للحظةٍ ذكّرها بـ دومينيك أوبري، مما جعلها تتساءل كم من ذلك العرض كان تقليداً وكم كان هو ألبريتش الحقيقي، مرشحاً عبر جلد رجل ميت. لقد أحبت أوبري.

تابع قائلاً:

— «آه نعم. الدوافع. أخبريني يا راي، ما هو الغرض من المكتبة؟»

قالت إيرين بآلية: «الحفظ.»

أومأ ألبريتش كأنه توقع هذه الإجابة.

— «والآن أخبريني —— أخبريني بصدق وإخلاص —— ألم تفكري يوماً في استخدام المعرفة التي ساعدتِ في حفظها؟ لتغيير العوالم من حولك للأفضل. أم تظنين أنها مثالية بالفعل؟» تقطر صوته سخرية.

شعرت إيرين وكأنها مضطرة للركض في حقل ألغام وهي معصوبة العينين، ولا تدري ما هي الإجابات الصحيحة.

— «بالطبع فكرتُ في ذلك. لكنك تعلم أنهم لا يرسلوننا ——» تمنت لو أنها لم تستخدم كلمة "نا"، التي جعلتهما في المستوى ذاته «—— في مهمات إلا إذا كانوا واثقين من قدرتهم على الثقة بنا.»

— «وتقبلين بذلك بهذه السهولة؟»

— «إنه الثمن الذي اخترتُ دفعه للحصول على ما أردتُ.»

ولم تكن قد أرادت شيئاً آخر قط.

تابع ألبريتش:

— «لا تظني أنني أقدم هذا النوع من العروض لأي أمين مكتبة؛ فقد أظهرتِ قدراً من الذكاء أثار إعجابي. ليس كل أمناء المكتبة يعرفون متى وكيف يكسرون القواعد.»

قال فيل بتهذيب، بينما تساءلت إيرين إن كان ألبريتش يلقي أسطوانة "أنا عادة لا أبقي أحداً حياً لكنكِ مميزة" على كل أمين مكتبة يقابله:

— «هل لي أن أسأل عما حدث للآنسة موني الأصلية؟»

قال ألبريتش بذهول: «مَن؟»

تقطر نبرة فيل بالازدراء البارد:

— «المرأة التي تسكنُ جسدها الآن. جينيفر موني، إحدى الشخصيات الأكثر نفوذاً في «أخوية الحديد». أتذكر وجهها من إحدى صور سينغ. تمنيتُ لو تذكرتُ ذلك في وقتٍ سابق.»

— «أوه.» ابتسم ألبريتش: «آه، الآنسة موني —— اضطررتُ لأخذ هويتها على عجَل، من أجل استخدام "الأخوية" كأداة تشتيت.»

كادت إيرين توبخ نفسها؛ بالطبع، هجوم التماسيح على السفارة لتشتيت سيلفر. تذكرت بوضوح انطلاقه لحماية «كتابٍ ما». وكان ألبريتش في قلب الحدث بعدها مباشرة، مما أدى لتعرضهما للغرق الوشيك. ثم كان الهجوم على متحف التاريخ الطبيعي —— كل شيء صار منطقياً الآن. هذا ما عناه حين قال إنه سيطر على "الأخوية".

رأت وجه فيل يرتعش خجلاً ومهانة؛ فلا بد أنه يمر بسلسلة الأفكار ذاتها، ويلوم نفسه لعدم استنتاج ذلك مبكراً.

تابع ألبريتش:

— «ولديهم أكثر الأفكار تعقيداً حول الأسماء المستعارة والهويات المزيفة. كنتِ تظنين أن مجموعة مؤيدة للتكنولوجيا ستكون أكثر كفاءة في حفظ السجلات، أليس كذلك؟ لو كنتَ قلتَ "داموقليس"، لعرفتُ تماماً مَن تقصد.»

لم يكن يعرف حتى اسمها. لسببٍ ما، أصاب ذلك إيرين برعدةٍ في أوصالها. ولا بد أن ألبريتش رأى ذلك فيٍ وجهها، فتابع:

— «والآن يا سيد فيل، لا مزيد من الكلمات؛ **حبالــــك الصــــوتية موصــــــدة.**»

رأت إيرين وميض الذعر المفاجئ في عيني فيل ورأت فمه يتحرك، لكن لم يصدر عنه أي صوت.

لا أظنه يحسن التعامل مع كونه عاجزاً.

تصارع الغضب مع الخوف الذي كان يشلها أيضاً، حرارته ضد برودة الخوف.

وأنا أيضاً لا أظنني أحسنُ التعامل مع ذلك.

قال ألبريتش عائداً لنبرته الحوارية:

— «لنفترض أن لديكِ ثلاثة خيارات يا راي. الأول هو أن توافقي على مساعدتي؛ أعطني الكتاب، وأقسمي بالولاء لي بيمينٍ سأمليه عليكِ، وانضمي إليّ. لم يُقصد بـ المكتبة يوماً أن تكون مجرد مخزن للكتب ومدرسة للمهوسين؛ بل يمكنها تغيير عوالم، وتوحيد عوالم موازية. هي تملك إمكانيات، وأنتِ تملكين إمكانيات، وهذه الإمكانيات تذهب سدى. سأقسم على حمايتكِ، كما تقسمين أنتِ على الولاء لي، وستكونين في أمان. يمكنكِ تعلم استخدام قوى "الفاي" كما فعلتُ أنا. ربما مع الوقت تتحديني، لكننا معاً سنفعل أشياءً رهيبة ورائعة. أنتِ تعلمين أن بعض الكتب المفتاحية يمكنها تغيير العوالم المرتبطة بها. ساعديني، وسنغيرها للأفضل. ستمتلكين القوة لجعل الأمور أفضل. وإن رفضتِ تلك القوة، فهذا اختيارٌ بحد ذاته، أليس كذلك؟»

كل العوالم مقابل عالمها الخاص. بالطبع لم تكن لتقبل الصفقة. مستحيلٌ أن تكون خادمته وعبدته. لكن فكرة انعدام المسؤولية الصرف في فعل ما تريده تماماً، مع امتلاك القوة لفعل ذلك..

— «الخيار الثاني هو أن تضعي الكتاب وتغادري.» كان يراقبها عن كثب بعيني المرأة التي قتلها. «رؤساؤكِ لن يلوموكِ؛ فهم يعرفون قدري وقوتي، وسيعتبرون أنكِ فعلتِ الشيء العاقل. ربما أتفق معهم في ذلك.»

هزت رأسها إيماءةً بالاعتراف.

— «والخيار الثالث..» هز ألبريتش كتفيه: «ستندمين على تكبيدي ذاك العناء.»

ابتلعت إيرين ريقها. مخيلتها كانت تعمل، وهذا مكمن البلاء؛ فقد بدأت الآن تمدها بأفكارٍ بشعة عما قد يفعله ألبريتش إن بذل جهداً حقيقياً. إذا كان يرى قتل شخصٍ وسلخه مجرد عمل روتيني، فما الذي سيعتبره "جهداً إضافياً"؟ شعرت بالغثيان من الصور شبه المتشكلة في ذهنها، وغصت بمرارتها. بالكاد نجحت في إبقاء صوتها ثابتاً:

— «أعتقد أنهما خياران فقط.»

تمتم ألبريتش: «أحقاً؟»

— «يساورني الشك أن هناك طريقاً واحداً فقط لأخرج من هنا حية.»

اعترف ألبريتش:

— «حسناً، صحيح.. لكن الخيار الثاني سيكون غير مؤلمٍ بالنسبة لكِ نسبياً. لكِ كلمتي على ذلك.»

— «هل يمكنني أن أسأل——»

— «كلا.» ضاقت عيناه: «أعتقد أنكِ تماطلين لكسب الوقت يا راي. أحتاج قراركِ الآن. سأضم صديقكِ كـ "علاوة توقيع"، لكني أريد قراركِ خلال خمس ثوانٍ.»

أربعة.

ثلاثة.

إذا أقسمت له بـ «اللغة»، فستظل مقيدةً مدى الحياة. هو ليس أحمقاً، بل هو النوع الذي يكون قد أعدَّ الصيغة مسبقاً، ولن تترك ثغرات.

اثنان.

ربما يقول الناس إنه قتل أمناء مكتبة لأن أحداً لم يعد أبداً. لكن ربما انضموا جميعاً إليه. قد تنضم لمجموعة سرية ستغير الواقع وتجعل الكون مكاناً أفضل.

واحد.

ربما شخصٌ يطوف سالخاً وذابحاً للناس (الترتيب غير محدد بعد) لا يعنيه جعل الكون مكاناً أفضل. مجرد خاطر.

صفر.

قال ألبريتش: «راي..»

كانت على وجهه ابتسامةٌ تشبه الأمل، كأنه يريدها حقاً أن تقول نعم.

وعلى الأرجح كان يريد ذلك.

لقد كانت على وشك الموت.

ما كانت تحتاجه هو معجزة.

لكن ما حصلت عليه كان تنيناً.

الفصل الثاني والعشرون

لطالما افترضت إيرين، حين كانت تقرأ عن زئير التنانين، أن الأوصاف لم تكن سوى مجازاتٍ لغوية أو مبالغاتٍ أدبية. ظنت أن عباراتٍ من قبيل «زلزل الأرض» تشير إلى الرهبة التي تُلقيها التنانين في النفوس، فمن الطبيعي أن يتصدع العالم من حولها بفعل غضبها؛ فماذا ننتظر من التنانين غير ذلك؟

لكنَّ العالم المادي لم يكن هو ما اهتزَّ بفعل زئير التنين.. بل كان الواقعُ ذاتُه هو الذي ارتعد.

أقسم ألبريتش قائلاً:

— «يا للهول!»

وجاءت كلماته متنافرةً مع شخصيته الأنثوية المتزمتة التي يتقمصها. رأت إيرين يده تتوتر بوضوح فوق السكين عند عنق فيل، وعلمت برعبٍ يجمّد الأوصال أنه على وشك ذبح المحقق بدافع الغريزة المحضة. ثم ضاقت عيناه بتفكيرٍ خبيث وقال:

— «الأمرُ أبسطُ من ذلك بكثير. راي.. **بإرادتي وباســمكِ، لن تنطقــي ولن تتحــركي**.»

لم تكن تلك «اللغة»، ولم تملك سلطتها الآمرة، لكنَّ كلماته امتلكت قوتها الخاصة، وسحرُ «الفاي» علِق بها كأصفادٍ غليظة. سُمّرت إيرين في مكانها كفراشةٍ مثبّتة بدبوس، ووسمُها يحترقُ فوق ظهرها بينما تصارعُ قوةُ المكتبة أمره السحري. كانت واعيةً بكل ما حولها —— الحشرات المسحوقة، أنفاسها المتلاحقة، خيط الدماء على عنق فيل، وعيني ألبريتش اللتين تحسبان كل شيء بدقة —— لكنَّ وعيها لم يجدِ

نفعاً. لم يسعفها الوقت لاستحضار سلطة المكتبة وإخراجه من الغرفة قسراً كما خططت؛ فقد نال منها زئير كاي كما نال منه، غير أنه استعاد توازنه أسرع منها. شعرت بخجلٍ أحمق، لكن كان عليها تذكير نفسها بأن هذا ليس موقفاً لتقييم الدرجات، بل هو موقفٌ يوشكُ فيه على قتلكِ.

ورغم كل غضبها، لم تستطع تحريك عضلةٍ واحدة.

قال ألبريتش:

– «يا للأسف، لقد كنتُ معجباً بكِ حقاً. برادامانت كانت كفؤة، لكنها لم تكن بنباهتِكِ أبداً. أخشى أن وقتكِ للاختيار قد نفد ما دام ثمة تنينٌ في الحسبان، لكن كوني واثقةً أن ذكراكِ ستبقى عندي بكل ود.»

تحطم الباب وانفتح بعنف، واتسعت عينا ألبريتش حين رأى الطارق. فتح فمه ليتكلم، لكن ثلاث رصاصات متتابعة استقرت في منتصف جبهته، بسرعةٍ ودقةٍ تشبهان حركة إبرة آلة الخياطة وهي تنقرُ القماش مراراً وتكراراً. ترنح متراجعاً عن فيل، وذراعاه تتخبطان بينما تلتفُّ تنورته حول ساقيه. تشبث بوهنٍ بالطاولة، لكن لم تنزف بقعة دمٍ واحدة من جروحه المفتوحة.

صاحت برادامانت بـ «اللغة»:

– «**فيـــل وإيريـــن، تحرّكـــا بحريـــة!**»

ثم أضافت بالإنجليزية:

– «وابتعدا عنه! لا أدري إن كان ذلك قد قتله.»

قال ألبريتش:

– «لم يقتلني. **أيها المســدس، انفجـــر!**»

ألقت برادامانت المسدس جانباً في اللحظة الأخيرة؛ فتمزق في الهواء وسط انفجارٍ من المعدن والنار. وانحنت في اللحظة ذاتها باحثةً عن ساتر. أما فيل فقد ألقى بنفسه جانباً حين أومأ ألبريتش بيده، لكن تموجاً في الهواء صدمه وقذف به نحو إحدى خزائن العرض، التي تحطمت في سحابةٍ من شظايا الزجاج. ودوى صوتُ تحطمٍ قبيح.

ولم ينهض فيل مجدداً.

قال ألبريتش:

— «حقاً، ما كان يجب أن أمنح الناس كل هذا الوقت لاتخاذ القرار.»

تجاهل إيرين القابعة في مكانها كتمثالٍ متجمد؛ فسحرُ "الفاي" الخاص به لا يزال يقيدها، ملتفاً كالسلاسل حول اسمها وروحها.

— «برادامانت العزيزة، هل تودين عقد صفقةٍ مقابل حياة أصدقائك؟»

هتفت برادامانت بحدة، وهي تختبئ خلف خزانةٍ ضخمة:

— «الأحمقُ وحده من يعقدُ صفقةً معك.»

— «كلامٌ دقيق، لكنه يفتقرُ للياقة.»

كانت الثقوب في جبهة ألبريتش خاليةً من الدماء، ومظلمةً بشكلٍ غير طبيعي، فلا يظهرُ فيها لحمٌ ولا عظم. رفع يده، وجعل كفه في مواجهة برادامانت.

— «إن أسياد "الفاي" العظام لا يتجسدون بهيئتهم الحقيقية في العوالم المادية. هل تعرفين لماذا؟»

أجابت برادامانت بنبرةٍ حادة وكأنها في قاعة درس:

– «لأن فوضاهم عارمةٌ جداً.. سيقومون بتفكيك العالم.»

فحَّ ألبريتش قائلاً:

– «بالضبط، وأنتِ لا تريدين ذلك بالتأكيد.»

بدأ الهواء يرتجفُ حول يده، وتصاعد منه دخانٌ وكأن لحمه استحال نتروجيناً سائلاً، بارداً بما يكفي لحرق ثقبٍ في نسيج الواقع.

– «ولمنع ذلك التجسد، لا أحتاجُ سوى لواحدٍ منكم بجلدٍ سليم..»

تنفست إيرين. لم يمنعها من فعل ذلك. ولم تكن تنوي قبول القيد الذي فرضه عليها. هي «أمين مكتبة»، ورغم أن ذلك جعلها خادمةً لـ المكتبة، إلا أنه كان أيضاً درعاً لها. «اللغة» هي حريتها. لقد أمرتها برادامانت بالتحرك بحرية. لا يمكنها أن تسمح..

ووسمُها ثقُل فوق ظهرها، حملٌ باهظ يحاول إرغامها على الجثو

.. لن تفعل..

حديدٌ ملتهبٌ يحرقُ كيانها

.. لن تسمح له بفعل هذا. رفضت الخضوع. حتى لو كان وحشاً، كائناً قتل أمناء مكتبةٍ أعظم منها، فلن تقبل بقيده.

فتحت إيرين فمها. بدت الحركة البسيطة لفتح شفتيها وكأنها استغرقت دهراً وهي تراقب النار المظلمة تتفتحُ حول يد ألبريتش. بحثت عن شيءٍ يشتت انتباهه، يمنحها الوقت لاستحضار سلطة المكتبة. وجاءها الإلهام في ومضةٍ خاطفة:

– «**جِلـد جينيـفر مونـي! انـزعْ عن ذلـك الجسـد الآن!**»

وهذا ما حدث؛ تمزق الجلد أسمالاً وخرقاً، كقطعة ثيابٍ تُفتقُ عند الخياطة. خمدت الشعلة حول يد ألبريتش، وفتح فمه على وسعه في عواء

ألم فظيع. تفتت الفستان، وتساقط كشظايا الجلد الشاحبة. ما كان يكمنُ خلفه كان مؤلماً لعيني إيرين لدرجة أنها اضطرت للإشاحة بوجهها وحمايتهما بيدها. خلف الجلد المسروق، كان ألبريتش فجوةً حيةً تطلُّ على مكانٍ أو كونٍ لا ينبغي أن يوجد في أي مستوى بشري. في تلك اللحظة الخاطفة، رأت عضلاتٍ نابضة وأوتاراً ودماءً —— ورأت أيضاً ألواناً وكتلاً تركت فراغاتٍ محترقة في شبكية عينها. رأت أشياءً تتحركُ فتحني الضوء من حولها، وبُنىً متموجة لا يدركها منطق. بدا واقعُها فجأةً هشاً كستارةٍ يوشك شخصٌ ما على تمزيقها في أي لحظة. أدركت إيرين أنها تصرخ، وسمعت صراخ برادامانت أيضاً. لكن خلف كل ذلك كان ألبريتش، صوته أعلى من أي نبرةٍ بشرية، يصرخُ بغيظٍ وألمٍ محض.

«لهذا السبب إذن عليه ارتداء جلد،» تلاحقت أفكارها، وكأن الكلمات يمكن أن تشكل سلسلةً من الروابط تعيدها إلى رشدها. «لهذا السبب يرتدي جلوداً..»

التفت ألبريتش وأشار نحوها، فتشوه الواقع في مسار إيماءته. تعفنت الأرضية الخشبية تحت قدميها، وانفتحت فيها أفواهٌ راحت تبتلع حشرات "السمك الفضي" الميتة وتعضُّ كاحليها. تدلت عُقدٌ غليظة من خيوط العنكبوت من السقف، تغصُّ بالعناكب والرماد المتطاير.

همس ألبريتش بصوت قد تغير مجدداً؛ لم يعد أنثوياً، ولا هو بصوت أوبري، بل كان شيئاً آخر. شيئاً يطنُّ كمفاتيح بيانو غادرها النغم، تخطئ الألحان البشرية الطبيعية لتعزف موسيقى أكثر إيلاماً:

— «سيأتون من أجلك.. لقد آذيتِني وسأؤذيكِ في المقابل، سأهبُكِ لـ "المنشدين البيض" و"الأبراج الساقطة" ..»

سقطت طيةٌ من خيوط العنكبوت فوق وجه إيرين، وكان الرعب المحض من اضطرارها لانتزاعها، وشعورها بالعناكب تبدأ في الزحف

داخل شعرها، هو ما أعادها فجأةً لوعيها. تحول رعبها من شيءٍ غريب موغلٍ في القدم إلى اشمئزازٍ بشريٍّ مألوف. احتاجت لحظةً لنطق اسم المكتبة واستحضارها. كانت تلك هي الخطة، ضئيلةً وبائسةً كما كانت، لكنها كانت الخطة. بيد أن ألبريتش سيعلم بالأمر بمجرد أن تبدأ، وهي الآن تستحوذ على كل انتباهه. لن تتمكن أبداً من نطق الكلمة.

كانت برادامانت تصرخ؛ فلا عون من ذلك الجانب. و فيل فاقدٌ للوعي، كما أمِلت؛ ففقدان الوعي أفضل من الموت.

تحطم الزجاج ومزقت شظايا من خزانة عرضٍ أخرى فستانها، مشوهةً الواقع لتتحول الشظايا إلى طيور زجاجية مغردة بمخالب حادة ومناقير مسننة. رفعت ذراعها لتحمي وجهها، فانقضَّ طائرٌ زجاجي على يدها، تاركاً خدوشاً عميقة بجناحيه المتخبطين. انساب الدم كالحبر على ذراعها.

بالطبع.. فـ «اللغة» أكثرُ بكثير من مجرد الكلمة المنطوقة.

أطبقت يديها حول الطائر المتلوي، وجثت على ركبتيها. كانت تسمع صرخات ألمها وهي تشعر بالشيء يمزق كفها وأصابعها، لكن الألم بدا بعيداً بطريقةٍ ما. كانت الاستحالات من حولها أكثر واقعيةً وعمقاً من الوجع. تساءلت بذهول إن كانت تدمر يدها.. مجدداً. لكن في مقابل حياتها، أو عقلها، كان الخيار جلياً.

من خلال شعرها المتشابك الملطخ بخيوط العنكبوت، رأت ألبريتش يرفع يده، ربما لاستحضار المزيد من الأهوال أو لتوجيه ضربة الموت.

كان بإمكان ألبريتش منعها لو حاولت التحدث، لكنه تجاهلها وهي تغرز الطائر المتلوي في خشب الأرضية الذي استحال كالمرق، وهي

تخدشُ السطح لتصنع شقاً طويلاً يملأه الدم. اكتفى بالضحك بينما استمرت الأنقاض في التساقط فوق كتفيها من السقف الذي بات مهتزاً. لكنها كانت بحاجةٍ لعذرٍ يبرر أفعالها؛ شيءٍ يتوقع هو منها أن تحاوله.

رفعت إيرين كلتا يديها، موجهةً الطائر الزجاجي الملطخ بالدماء نحوه، وصرخت بـ «اللغة»:

— «**أيتهـــا الأرضيـــة! ابتلعـــي ألبريـــتش!**»

اندفعت كتلةُ الخشب المتعفن المتموجة حول قدميه، لكنه ظل فوقها وكأنه يمشي على الماء. ضحك عليها قائلاً:

— «لنجرب ذلك بالعكس، أليس كذلك؟ **انــزلي أنتِ واغرقــي فيها!**»

كانت جاثيةً بالفعل. شعرت بالخشب يرتفع حول ساقيها كطينٍ سميك، منزلقاً نحو فخذيها. لم يتسرب عبر أقمشة ثوبها كالماء، بل ضغط عليها كأنه شفاهٌ جائعة. انتابتها لحظة ذعر — ماذا سيحدث لو لم تنجح فكرتها؟ تركت نفسها تصرخ، وبدفعٍ من طاقة ذلك الرعب، راحت تخدشُ الخشب المتبقي بالطائر الزجاجي. مراراً وتكراراً، وهي تغوص أكثر فأكثر في الخشب، وكأنها تحاول إنقاذ نفسها. تطاير دمها فوق الخطوط المحفورة، بينما أطبق الخشب حول خصرها. برزت علامات الطائر واضحةً في الأرضية التي تنضحُ ببطء. ربما لأنها كُتبت بـ «اللغة»، أو ربما فقط لأنها "يجب" أن تنجح وإلا فهي أسوأ من الموت.

قال ألبريتش بابتهاج:

— «توسلي إليَّ وسأنقذكِ.. توسلي إليَّ وسأجعلكِ طالبتي المفضلة، طفلتي العزيزة..»

غطت خيوط العنكبوت عينيها الآن. باتت تعمل وهي عمياء.

لكنَّ بعض الأشياء تعرفها حتى في الظلمة.

قالت: «لا.»

ونقشت الخط الأخير في مكانه. وتجلى الرمز الذي يمثل المكتبة العظمى ذاتها بوضوحٍ في الخشب المتموج بينهما.

لم تصل المكتبة كزئير تنينٍ أو موجات فوضى؛ بل انبثق ضوءٌ في الغرفة لم يكن هناك من قبل، ضوءٌ أكثر نفاذاً ووضوحاً من مصابيح الغاز المتراقصة. تلاشت خيوط العنكبوت التي علقت بوجهها وكتفيها كغبارٍ رقيق. نبضت سلطة المكتبة في أرجاء الغرفة كهمسٍ مستقر، يشبه صوتَ تقليب الصفحات في حركةٍ بطيئة، وتلا ذلك استقرارٌ تام. عادت الأرضية صلبةً حيث تجثو إيرين، والزجاج في يدها بات حاداً فحسب، ولم يعد طائراً حياً. خفف الضوء حتى من بشاعة هيئة ألبريتش، محولاً إياها لشيءٍ يُرى من خلف زجاجٍ باهت، يتراجع مبتعداً أكثر فأكثر..

لقد كان ينسحبُ ببطءٍ بالفعل. كان حضور المكتبة يدفعه للخلف، ورغم أن لمستها كانت مرحبةً بها، كشعورٍ بالعودة للمنزل، إلا أنها كانت تطردُ ألبريتش قسراً. وإذا كانت الأصوات التي يصدرها معياراً للحكم، فإن طرده كان عذاباً محضاً.

بيد أنه لم ينتهِ منها بعد؛ ومض السواد في عينيه وفي فمه المفتوح:

— «أتسمين هذا نصراً يا راي؟»

ثم لامس ظهره الجدار، وبدأ يمرُّ من خلاله. رقَّ الجدار حتى صار شفافاً من حوله وهو يتخبط، منغمساً فيه جزئياً، كحشرةٍ من عصور ما قبل التاريخ علقت في الكهرمان.

وبينما يراقبون، تقوس ظهر ألبريتش وصرخ ــ لكن هذه الصرخة كانت بمقياسٍ مختلفٍ تماماً عن كل ما سمعوه. شعرت إيرين بقلبها يرتجفُ بتعاطفٍ غير مرغوبٍ فيه وهي ترى العقاب الذي يعانيه؛ فقد كان ألبريتش مصلّوباً بين واقعٍ المكتبة والحاجز الذي صنعه كاي في الخارج، كائنٌ متلوٍ من الفوضى محاصرٌ بين سطحين من الواقع.

أدركت إيرين أنها لا تملك أدنى فكرة عما سيحدث تالياً. لم تكن تعرف، ولم يكن يهمها ما دام ذلك سيبعده عن هنا. فلا مكان لهذا النوع من "اللا ــ واقع" في هذا العالم. إنه أمرٌ ممقوت. ماذا فعل بنفسه ليصبح هكذا؟ أي نوعٍ من الصفقات عقد؟

شهق ألبريتش واللعاب الممزوج بالدم يسيل من فمه:

ــ «أطلقي سراحي.. لا يمكنكِ الثقة بالتنانين.. سينقلبون عليكِ أيضاً.. أطلقي سراحي وسأخبركِ.»

بصقت برادامانت قائلة، وهي ترفع نفسها عن الأرض وفستانها أسمالٌ ممزقة، متكئةً على حطام كرسي لتدعم نفسها:

ــ «لا تكن أحمق. أتظن حقاً أننا سنتركك ترحل الآن؟»

فكرت إيرين: شكراً لكِ على توضيح الواضح كالعادة، لكنها كتمت الفكرة في نفسها. اكتفت بهز رأسها. بدأت شعلةٌ خافتة من شيءٍ يشبه الأمل تتوقدُ في داخلها. ما فعلوه قد آذى ألبريتش. لقد أخافه.

ربما ينتصرون حقاً.

لم تكن تدرك مقدار استسلامها لفكرة أنهم خسروا بالفعل.

همس ألبريتش بـ «اللغة»:

ــ «**ستندميــــن على هـــذا.**»

اشتد الضوء، وتضاءل هو في المقابل، متلاشياً بعيداً عنهم كبقعةٍ تختفي. رنت صرخته الأخيرة في الغرفة، محطمةً ما تبقى من الزجاج وقاذفةً بالكتب من الرفوف. لمحت إيرين لمحةً أخيرة لوجهه، وجهٌ بشريٌّ يعلوه شحوب الغضب، قبل أن يختفي تماماً.

— «إيرين!»

كانت برادامانت هناك فجأة، وأدركت إيرين أنها فقدت الوعي بضع لحظات. كانت تراقب تلاشي ألبريتش والآن تضع برادامانت ذراعها حول كتفها وترغمها على الجلوس. أما فيل —— ألم يكن غائباً عن الوعي؟ —— فكان ينشغلُ بفحص يديها.

قالت برادامانت:

— «إيرين، اسمعي، أعدك أنني لن آخذه. سأعطيكِ كلمتي بـ «اللغة» الآن إن أردتِ، وفيل هنا شاهدٌ على ذلك. إذا أفلتِّ ذلكَ الكتاب، فسيسهل علينا العناية بيديكِ. إيرين، من فضلكِ، اسمعيني، قولي شيئاً..»

تحطم الباب وانفتح. مجدداً.

صاح كاي: «إيرين!»

لم يتبقَّ لـ إيرين سوى الأمل في ألا يكون أحدٌ من المارة قريباً بما يكفي لسماعه.

— «برادامانت! ماذا فعلتِ بها؟»

«عشر درجات لاهتمامك الصادق بسلامتي،» قررت إيرين في سرها، «وناقص عدة آلاف لضعف ملاحظتك.»

قال فيل بتعب:

– «من فضلك، لقد كان ذلك المدعو ألبريتش. خطتك نجحت تماماً، لكني أخشى أن الآنسة وينترز في حالة صدمة. لو تساعدنا فقط في إقناعها بالاسترخاء لنتمكن من تضميد يديها.. لديَّ بعض البراندي هنا.»

تمتمت إيرين: «لا تضيع ذلك على يدي.»

لم تكن تدرك حتى أنها كانت ممسكةً بالكتاب. تركت برادامانت تسحب الكتاب من تحت ذراعها برفق.

– «بل أحتاجُ لجرعةٍ منه.»

هتف فيل: «آنسة وينترز!»

– «اجعلها جرعتين كبيرتين. أنا في حالة صدمة. أعطني البراندي.»

احتج فيل:

– «لكن يديكِ.. تحتاجان لعنايةٍ فورية.»

لم تكن إيرين تريد النظر، لكنها أجبرت نفسها. كانت هناك جروحٌ عميقة في كلتا الراحتين وفي الجهة الداخلية لأصابعها. كانت طياتٌ من الجلد تتدلى، وظنت أنها رأت العظم. أشاحت ببصرها قبل أن تحرج نفسها بالتقيؤ. كان تنورة فستانها مبتلةً بدمائها. لا بد أنها في حالة صدمة، وإلا لكان الألم أشد مما هو عليه بالفعل. لم يسبق لها أن آذت نفسها بهذا السوء. لم تكن متأكدة حتى إن كان بالإمكان علاجها.

قالت بحزم، وهي تصلي في سرها ألا تكون تكذب على نفسها:

– «هناك أشخاصٌ في المكتبة يمكنهم التعامل مع هذا.»

انطلقت كلماتها متلاحقةً ومهنية، كمحاولةٍ للتشتيت عن واقع يديها. كانت تسمع النبرة المتكلفة في صوتها. بدا حديثها وكأنها تسمعه من مسافةٍ بعيدة، كزقزقة عصافير صغيرة نائية.

— «سيد فيل، شكراً لك على مساعدتك، وأنا آسفة لأنك جُررت لهذا الأمر. برادامانت، هل يمكنكِ فحص الباب — الباب الداخلي، مدخل المكتبة — بحثاً عن أي فخاخ؟»

قالت برادامانت برقة:

— «لا أظن أن هناك أي تأثيراتٍ دخيلة بقيت بعد أن استحضرتِ المكتبة داخل هذا المكان.»

— «أوه.» لا بد أنها في صدمةٍ أعمق مما ظنت. «حسناً إذن. كاي، ساعدني للوقوف من فضلك.»

لفَّ كاي ذراعه حولها، مساعداً إياها للنهوض. في ظروفٍ أخرى ربما كانت ستتوخى الحذر قبل الاستناد عليه، لكن في هذه اللحظة لم يبدُ الأمر مهماً حقاً. لذا استندت عليه؛ فهي مصابة، وهو زميلها. كان هذا هو التصرف العقلاني الوحيد.

كانت ثيابه مبعثرة، لكنها لا تزال عليه. إذن، التحول لتنين لا يعني فقدان كل الملابس. بدا هذا الأمر ذا أهميةٍ غير عادية، فدونته في ذاكرتها لتسأل عنه لاحقاً.

همس في أذنها: «هل أنتِ متأكدة من هذا؟»

— «أعتقد أن الأفضل أن نرحل قبل أن تظهر أي أسئلة تحتاج لإجابة.»

هذه الحكمة غُرست في نفوس جميع أمناء المكتبة منذ البداية.

— «أحم..» نفض فيل خيط الدم عن ياقته، بحركةٍ بدت غير ذات جدوى بالنظر إلى حالته المزرية بشكلٍ عام.

– «رغم أنني مستعدٌ لمساعدة سينغ في التستر على هذا الأمر، إلا أنني أود أيضاً معرفة المزيد عنه. قبل أن ترحلوا، آنسة وينترز.. جميعكم.. هل يمكنكم إخباري عن القصة الأخيرة في ذلك الكتاب؟»

فتحت برادامانت فمها، وكان من الواضح أن الكلمة الأولى ستكون «لا»، وكذلك كل الكلمات التي ستتبعها.

رفعت إيرين يدها لتوقفها.

– «سيد فيل، هل أنت متأكدٌ أنك تريدنا أن نبلغ رؤساءنا بأنك قرأته؟ أياً كان محتواه؟»

قال فيل بجفاف:

– «أجدُ من الصعب تصديق أنهم سيفترضون أنني لم أقرأه.»

كان هذا حقيقياً بما يكفي.

قالت إيرين ببطء: «أفترض أنه لا يوجد سببٌ يمنعك من النظر فوق أكتافنا بينما نتأكد من أنه الكتاب الصحيح.»

ألقمت كاي نظرةً سريعة، لكنه كان يملك من الفطنة ما يكفي ليلزم الصمت ولا يذكر أنهم فعلوا ذلك بالفعل.

– «برادامانت، قلتِ إن علينا فحص القصة السابعة والثمانين، صحيح؟» أشارت للكتاب الذي بات في حوزة برادامانت. «كنتُ سأفتحه بنفسي، لكن يديَّ..»

زمّت برادامانت شفتيها، ثم أومأت. ربما تعاطفت معها، أو ربما كانت تنوي إلقاء لوم كل ذرةٍ من "الكشف غير المصرح به" على عاتق إيرين. مسحت يديها من الغبار والدم في أطراف تنورتها الممزقة وفتحت الكتاب.

– «القصة السابعة والثمانون، نعم. "قصة الحجر من برج بابل".»

أطلقت تنهيدةً عميقة.

– «إنها هنا. السابعة والثمانون من.. ثمانٍ وثمانين؟»

خيم الصمت على الغرفة وهم يفكرون في هذه النقطة. فإذا كان من الغريب وجود قصةٍ سابعة وثمانين، فكرت إيرين، فما الذي تفعله الثامنة والثمانون هناك؟ هل أُعطيت برادامانت مجرد إشارةٍ سطحية، بخلاف السبب الحقيقي لأهمية الكتاب..؟

قال كاي بنبرةٍ شاكية: «لغتي الألمانية ليست جيدة جداً.»

تنهدت برادامانت وبدأت تترجم:

«*كان يا ما كان في قديم الزمان، عاش أخٌ وأخت، وكلاهما ينتميان لـ "المكتبة" ذاتها. وكانت هذه مكتبةً غريبة؛ فهي تحوي كتباً من ألف عالم، لكنها تقبعُ خارج حدودها جميعاً. وكان الأخ والأخت يحبان بعضهما ويعملان معاً للعثور على كتبٍ جديدة لمكتبتهما..*»

قال فيل بارتياح: «لا عجب أن جماعتكم لم ترد لهذا الكتاب أن يخرج للعلن.»

توقفت برادامانت لترفع حاجبيها نحوه قبل أن تواصل:

«*وفي يومٍ من الأيام، قال الأخ لأخته: "بما أن هذه المكتبة تحوي جميع الكتب، فهل تحوي قصة تأسيسها هي؟"*»

قالت إيرين: «لا.»

قال كاي: «بالتأكيد لا بد أن تحويها. لعلنا فقط لم نصل إليها بعد.»

قالت برادامانت: «لو سمحتما.»

– «أعتذر،» قال كاي. فأومأت برادامانت ببرود وتابعت:

— «*قالت الأخت: "أظن ذلك، لكن من غير الحكمة البحث عنها". سألها الأخ: "لماذا؟". فأجابت: "بسبب طبيعة سر المكتبة، الذي نرتديه كلانا موسوماً بوشم فوق ظهورنا".*»

قال فيل بلهجة مساعدة: «تمتلك القصة الإيقاع الصحيح لقصص الأخوين غريم.» شعرت إيرين بحكةٍ في ظهرها.

تابعت برادامانت:

— «*بيد أن الأخ لم يكلف نفسه يوماً عناء النظر في الوسم الذي فوق ظهره. لكن في تلك الليلة، بحث عن مرآة وقرأ الكتابة المنقوشة على جلده، وما قرأه هناك أصابه بالجنون. فغادر المكتبة حينها وتواطأ مع أعدائها ضدها. لكنه قبل كل شيء، أقسم على الانتقام من أخته؛ فهي من نطقت بالكلمات التي وضعته على هذا الطريق. وبعد مئة عام، عادت أخته للمكتبة عقب مهمةٍ كُلفت بها، وكانت حُبلى.*»

قال فيل: «مئة عام؟»

قالت إيرين: «يمكن أن يحدث ذلك؛ لو كانت في عالمٍ موازي تتوفر فيه وسيلةٌ لإبطاء الشيخوخة —— تكنولوجيا متقدمة، أو سحرٌ عالٍ. لكن الحمل سيكون هو المشكلة——»

قالت برادامانت:

— «نعم، بالضبط.»

ثم تابعت القراءة :

— «*وهذا سبب مشكلةً كبيرة؛ إذ لا يمكن أن تحدث ولادةٌ ولا وفاةٌ داخل المكتبة. ومع ذلك، كانت تخشى أن تطأ قدماها خارجها لئلا يجدها أخوها. فبكت من الألم وتوسلت إليهم أن يشقوا بطنها ويخرجوا*

الطفل، وفعلوا ذلك، ورُزقت بطفل. فخاطوا بطنها بخيوطٍ فضية وأخفوها في أعمق السراديب خوفاً من أن يبحث عنها أخوها مجدداً.»

شعرت إيرين بمعدتها تنقبض داخلها برعبٍ بارد، ببطءٍ وتعمد.

همست قائلة: «لهذا السبب كان يريد هذا الكتاب. ليس لأنه يستطيع استخدامه للحصول على سلطةٍ فوق هذا العالم. بل لأن..» لم تكن متأكدة كيف تنطقها. لأن أحداً ما عرف هذا عن أسراره؟ إذا كان هذا "غريم"، فقد كُتب منذ قرون. لكن الزمن لا يعني شيئاً في أعماق المكتبة، ما دام المرءُ باقياً هناك. وألبريتش كان.. حسناً، لا أحد يدري كم يبلغ من العمر. لكن كم يبلغ عمر أخته؟ وهل لا تزال هناك؟

تمتم كاي وعيناه تضيقان بتفكير: «أخت.. وطفل أخته. كيف تنتهي القصة؟»

— «هكذا تنتهي.»

أغلقت برادامانت الكتاب بقوة، وترددت، ثم دسته تحت ذراع إيرين مجدداً.

— «هيا. يجب أن نخرج من هنا فوراً. سيد فيل، آمل أن نتمكن من الاعتماد عليك..»

قال فيل بتهكم مرير: «لا أظن أن هناك فائدةً من جعل الأمر علنياً. أنا متأكدٌ أنني سأجدُ أحداً لألقي عليه باللوم في كل هذا —— «أخوية الحديد» ربما، أو اللورد سيلفر. سيكون في غاية الاستياء حين يجد نفسه بلا كتاب، ولا خاتمة، ولا عدو.» جعلته الفكرة يبتسم. «لكني سأقدر عالياً جداً فرصة التحدث معكم جميعاً مرة أخرى.»

استجمعت إيرين قواها: «هذا يعتمدُ على رؤسائنا.» جذبها صدقٌ ملح في داخلها فقالت: «لكن.. إذا سنحت الفرصة، أودُّ ذلك أيضاً. أما في الوقت الحالي ــــ »

ــ «تماماً،» قالت برادامانت. ومشت نحو الباب البعيد. «كاي، احملها إن كانت لا تقوى على المشي.»

تذمرت إيرين بينما كان كاي يوجهها عبر الأرضية الزلقة:

ــ «قليلٌ من البراندي كان سيساعد. وأنا قادرةٌ تماماً على المشي دون أن أُجرّ.»

زمجر كاي في أذنها:

ــ «اسمحِي لي بهذه الخدمة الصغيرة. بعد أن طردتِني وحرمتِني من فرصة حمايتكِ، وبعد أن آذيتِ نفسكِ بهذا القدر البالغ، لا بد أن أصرَّ على ذلك.»

وضعت برادامانت يدها على مقبض الباب، وهي تهمس بـ «اللغة»، فارتجف الهواء. وتأرجح الباب منفتحاً ليكشف عن صفوفٍ من الأرفف وراءه.

همست إيرين:

ــ «لقد علمونا ألا ندخل في جدالاتٍ لا يمكننا الفوز بها.»

كانت منهكةً الآن، ويداها تشتعلان بالألم.

خطوا إلى الداخل، وانغلق باب المكتبة خلفهم.

الفصل الثالث والعشرون

انغلق البابُ خلفهم بصلصلةٍ مدوية، بابٌ متينٌ مصفحٌ بالحديد. كان أحدهم قد حدَّث ملصقاتِ التحذير في غرفة المكتبة؛ إذ غدت الآن مكتوبةً بحبرٍ أحمر وخطٍّ قوطيٍّ مهيب. ومع شرود أفكارها، تساءلت إيرين إن كانت تلك الحروف مطبوعةً أم مخطوطةً ببراعة اليد.

وجّهت برادامانت أمرها إلى كاي، متسربلةً بوشاح السلطة:

— «أجلسها هنا. سأذهبُ لإحضار المساعدة.»

قاطعتها إيرين قائلة:

— «لحظة واحدة.»

ساورها حدسٌ بأن برادامانت، ما إن تخرج من هنا، فلن تعود قبل وقتٍ طويل، وكان هناك شيءٌ بالغ الأهمية تودُّ قوله لها أولاً.

قالت برادامانت باستخفاف:

— «أنتِ لا تكادين تقوين على الوقوف؛ أنتِ بحاجةٍ للمساعدة.»

بحث كاي حوله عن كرسي، ولما لم يجد، أنزلها بعناية حتى جلست فوق الأرض. وقال بنبرة الصبر التي يستخدمها الرجال المتعاطفون مع النساء المنهارات:

— «إيرين، برادامانت محقة. أنتِ مصابة.»

قالت إيرين:

— «أصمت.»

ورقبت فمه وهو ينفغر دهشةً من فظاظتها. كانت تشعر بدوارٍ حاد، وكأن يديها غُمستا في أسلاكٍ شائكةٍ منصهرة. لكن كان عليها قول هذا قبل أن تفقد العزيمة.

تابعت قائلة:

— «برادامانت.. لقد اقتحمتِ مهمتي، وخدرتِني، وحاولتِ سرقة كتابي، وخرقتِ عدداً لا يُستهان به من القواعد غير المكتوبة. أَصحيحٌ هذا أم لا؟»

نظرت برادامانت إليها من علٍ. وكعادتها، حتى في ثيابها الممزقة، بدت وقفتها رشيقةً دون عناء، بينما شعرت إيرين بأنها أكثر رثاثةً من المعتاد وهي منبطحةٌ هكذا فوق الأرض. صمتت برادامانت للحظة، ثم قالت أخيراً:

— «صحيحٌ تماماً.»

— «وبعد؟»

هزت برادامانت كتفيها:

— «يمكنني أن أعتذر، لكني أرجو ألا تتوقعي مني أن أقول إنني نادمة.»

قالت إيرين بحذر:

— «لا أتوقع شيئاً من هذا القبيل. ما أريده هو..»

— «نعم؟»

— «ما أريده هو أن نكفَّ عن ازدراء بعضنا بعضاً بهذا القدر؛ فهذا مضيعةٌ للوقت والجهد.»

رفعت برادامانت حاجبيها وقالت:

— «عزيزتي إيرين، كي أزدريكِ، يجب أن أكلف نفسي عناء..»

قاطعتها إيرين:

— «أوه، أرجوكِ. لقد أخبرتِني بكل شيء، أتذكرين؟ تظنينني فتاةً مدللة، ويسرُّكِ جداً أن تريني أفشلُ فشلاً علنياً ذريعاً، وإن كنتِ لا تفضلين موتي ثمناً لذلك. لم تكوني لتهتمي بصياغة إهانةٍ كهذه لو لم تريدي لها أن تلسع.» رأت الحمرة تتصاعد في وجنتي برادامانت، وكان ذراع كاي الذي يسند ظهرها يمنحها عزاءً ساعدها على التماسك.

تابعت:

— «أعتقدُ أن ما تريدينه —— ما نريده كلانا —— هو أن نخدم بصدقٍ المكتبة.»

بصقت برادامانت قائلة:

— «لقد ارتكبتِ خطأً في صياغة الجملة؛ فالمصدر لا يُفصل عنه حرفه.»

قالت إيرين والتعبُ يجرُّ جفنيها للأسفل:

— «ضعي هذا في تقريركِ. فقط لا تضيعي وقتكِ في كرهي بعد الآن، حسناً؟ وسأحاول أنا فعل الشيء ذاته؛ لأني لا أظن أن هذا يفيد.. لا أظن أنه يفيدُ أياً منا.»

قال كاي لـ برادامانت بحدة:

— «اذهبي لإحضار المساعدة الآن.»

— «من فضلكِ؟» أجبرت إيرين نفسها على رفع بصرها لتلاقي عيني برادامانت. «فكري في الأمر؟»

قالت برادامانت ببرود:

– «ظننتُكِ أردتِنا أن نكفَّ عن التفكير ببعضنا كثيراً.»

ثم استدارت على عقبها ومضت مبتعدة، وحفيفُ تنورتها يملأ المكان.

بدأت رؤية إيرين تضيق بينما كانت خيالات برادامانت تتلاشى. تمتمت، والكلماتُ ثقيلةٌ غليظةٌ في فمها:

– «فكري في الأمر..»

غرز كاي أصابعه في كتفها بقوةٍ كافية لتستعيد تركيزها. وقال بنبرةٍ حوارية:

– «إن أُغمي عليكِ الآن، فسأقتلكِ.»

قالت إيرين:

– «يا لها من فكرةٍ غير مجدية.»

أجاب وهو يقتربُ أكثر، حتى بات وجهه على بُعد بوصاتٍ من وجهها:

– «بل ستُبهجني كما لا يفعل شيءٌ آخر. لقد أبعدتِني.. أبعدتِني وكدتِ تقتلين نفسكِ. هل لديكِ أدنى فكرةٍ عن مدى حماقة ذلك؟»

ربما كان زمامُ سيطرته يفلتُ من يده؛ فبشرتُه بدت كمرمرٍ تتخلله عروقٌ زرقاء، وشعره بدا أزرق داكناً، سواداً يميلُ للزرقة العميقة. كان في عينيه غضبٌ سحيقٌ يبعدُ كل البعد عن الغضب البشري؛ غضبٌ مزيجٌ من نزعة التملك، والكبرياء، وشعورٍ بالسيادة.

قالت إيرين وهي تنجح في مبادلته النظرات:

– «لقد نجحت الخطة.»

لم تعد حدقتاه بشريتين هما الآخرين؛ فقد ضاقتا لتصبحا كشِقَّي أفعى، تماماً كذاك التنين الذي قابلتْه من قبل. لكن الشخص القابع خلفهما كان أكثر واقعيةً عندها من «سيلفر» وإنسانيته المزعومة، أو أياً كان ذلك الذي كان يحدق فيها من وراء جِلد ألبريتش المسروق. أرادت أن تجد الكلمات لتخبره بذلك.

تابعت:

— «لقد تغلبنا عليه. شكراً لك.»

قاطعها صارخاً:

— «لقد عرَّضكِ للخطر! ما كان يجب أن أترك أيَّ إنسانٍ حياً هناك!»

كان بإمكانها شكره على طاعته أو ثقته بها، أو ربما لأنها تستطيع الثقة به. لكن لسببٍ ما، ربما لتشتيت انتباهه، قالت:

— «شكراً لمساعدتي في إنقاذ حياة فيل؛ فأنا أحبه.»

ولدهشتها، جعل ذلك كاي يشيح بوجهه ويطرق برأسه، بينما تفتحت حمرةٌ قرمزيةٌ على وجنتيه الشاحبتين العاليتين. ارتخت قبضتُه عن كتفها، وعادت ملامحُ وجهه لتبدو أكثر بشرية. تمتم قائلاً:

— «إنه رجلٌ يستحقُّ التقدير. يسرُّني أنكِ تؤيدينني في هذا أيضاً.»

ربما كان اعترافُ تنينٍ بإعجابه بأيِّ إنسانٍ تنازلاً كبيراً. تمتمت إيرين: «حسناً.. بالتأكيد. هل يمكنك إحضار بعض القهوة لي؟» أدركت أنها استعادت وعيها لدرجة طلب القهوة. «أعني القهوة. أشعرُ ببعض الدوار.»

— «ابقِ ساكنة.»

يا له من أحمق؛ هل يظن حقاً أنني سأركض إلى مكانٍ ما؟

– «ستحضر برادامانت المساعدة.»

تمتمت قائلة: «إنه مجردُ جرحٍ سطحي..» ثم هبط الظلامُ فوق عينيها وابتلعها تماماً.

عاد الضوءُ على مضض، متسللاً عبر ستائر النوافذ الطويلة. كانت إيرين مستلقيةً فوق أريكة، ويداها المضمودتان بكثافةٍ مستقرتان بنظامٍ في حجرها. كانت في إحدى الغرف التي تطلُّ على المدينة المجهولة خارج جدران المكتبة. كان أحدهم قد خلع حذاءها ورتب طيات فستانها بحيث تغطي قدميها المكسوتين بالجوارب. هذا الشيء الصغير، رغم بساطته، سمح لها بالاسترخاء؛ فلا يوجدُ سوى شخصٍ واحدٍ قد يتكبدُ هذا العناء.

رفعت رأسها تبحث عن رئيستها وقالت:

– «كوبيليا.»

تلاشت حدة التوتر في داخلها قليلاً. لطالما كانت كوبيليا منصفة، رغم صفاتها الأخرى، كالسخرية مثلاً، ومستوى توقعاتها الذي قد يتحدى بطل وثبٍ عالٍ أولمبي. لكنها كانت تستطيع الاعتماد عليها.

– «يا لكِ من فتاةٍ ذكية.»

كانت كوبيليا تجلسُ فوق كرسيٍّ مرتفع الظهر بجوار الأريكة. يغطي حجرها مكتبٌ محمول، مكدسٌ بأوراقٍ منسوخةٍ باليد تفيضُ بـ «اللغة». كانت تجلسُ بحيث يقعُ الضوءُ فوق مكتبها، تاركاً وجهها وكتفيها في الظل. تحركت، فصرَّت مفاصلها الآلية.

– «أتعتقدين أنكِ قويةٌ بما يكفي لإعطائي تقريراً؟»

فركت إيرين عينيها بساعدها وسألت:



– «هل يمكننا الحصولُ على مزيدٍ من الضوء هنا؟»

كانت الألواحُ الفلورية في السقف مطفأة، والضوء الشحيح الوحيد يأتي عبر الستائر. جعل ذلك الغرفة تبدو باهتةً وغير واقعية، كفيلمٍ أبيض وأسود صُممت كآبته لتكون جزءاً من الفن.

أجابت كوبيليا:

– «ليس الآن تماماً.»

كان في صوتها نبرةُ حذر، رغم أن وجهها كان فاتراً لا ينمُّ عن شيء كالعادة. شعرُها الأبيض الناصع كان مضفوراً تحت قبعةٍ كحلية، ليظهر في تباينٍ صارخ مع بشرتها الداكنة. في الضوء الخافت، شكلَّ الأمرُ نمطاً من السطوع والظلمة أمام عيني إيرين المنهكتين. نقرت أصابعُ يدها اليسرى المصنوعة من الخشب المنحوت فوق حافة مكتبها، وهو صوتٌ ألفته إيرين وبثَّ فيها الطمأنينة.

تابعت كوبيليا:

– «لقد أجهدتِ جسدكِ بطرقٍ لا تدركينها حتى. لقد قمنا بتصريف بعض الطاقات الزائدة، ولكن في الوقت الحالي، يجب أن تتعرضي لأقل قدرٍ ممكن من التحفيز.»

رفعت إيرين حاجبيها وقالت:

– «ألا تعتقدين أن رواية قصتي لكِ ستكون محفزة؟»

أصدرت كوبيليا ضحكةً مخنوقة:

– «بالنسبة لي، ربما. أما بالنسبة لكِ، فستكون مجرد عملية لتبديد الحساسية.»

قالت إيرين: «يا له من أمرٍ ممل.» ثم شعرت بالفراغ بجانبها، المساحة الخالية بين ذراعها وأضلاعها حيث كانت تحتضن الكتاب.

راحت تتحسس بيديها المضمودتين محاولةً العثور عليه. «الكتاب.. مخطوطة غريم..»

قالت كوبيليا بابتهاج:

— «سبع درجات من عشرة فقط على سرعة رد الفعل، للأسف. نعم، هو في أمان، وكذلك رسالة ويندهام. أفترضُ أن الأمل في أنكِ لم تقرئيه هو أملٌ يفوق الحد؟ بالطبع هو كذلك؛ فماذا قد يفعل أيُّ شخصٍ في مثل تلك الظروف؟»

قالت إيرين وهي تأمل أن تتحول العاطفة إلى لين في المعاملة:

— «حسناً.. آه، نعم. كان عليَّ التأكد من أنه الكتاب المنشود بطبيعة الحال.»

ظل صوتُ كوبيليا مرحاً، لكن عينيها قسيتا:

— «وكيف عرفتِ كيف تتأكدين من أنه الكتاب الصحيح، بالضبط؟»

هنا كان عليها أن تقرر مقدار ما ستشي به عن برادامانت. حسناً، برادامانت كانت تحاول سرقة الكتاب. وقبل أن أتمكن من إحضاره، خدرتني وتركتني فيما ظنته هي مكاناً آمناً. لكنها تزدريني وأنا لا أحبها كثيراً أيضاً..

قالت، ممتنةً لكونهما تتحدثان بالإنجليزية لا بـ «اللغة»:

— «لقد قابلتُ برادامانت هناك.»

لم تكن تنوي الكذب حقاً، ولكن.. حسناً، قد يكون هناك قدرٌ من المرونة. هي تعرفُ ذلك، وكوبيليا تعرفُ ذلك على الأرجح، ولكن من الأفضل ألا يُقال.

تابعت:

— «حين اكتشفتْ مهمتي، قدمت بعض المعلومات الإضافية التي ساعدتنا في تحديد الكتاب. وساعدتنا أيضاً في قتال ألبريتش.»

قالت كوبيليا:

— «خصمُ درجةٍ لاستخدام الفعل "ساعدت" مرتين متتاليتين. وماذا بعد؟ أفهمُ أنها قرأته أيضاً؟»

قالت إيرين وهي تشعر وكأنها تمشي فوق جليدٍ رقيق:

— «فقط بالقدر الذي قرأتُه أنا.»

ضغطت كوبيليا: «والذي كان؟»

— «القصة الثامنة والثمانون.»

كانت إيرين تحب كوبيليا بصدق، وظنت أن الشعور متبادل. لم يكن مجرد ذلك النوع من الصداقة الذي ينمو بين المعلم وتلميذه، بل عاطفة حقيقية صادقة. كانت هي التي تدفعها لجلب الكتب من المهمات لمجرد أن كوبيليا قد تستمتع بها. كنتَ تراها تزيّتُ مفاصل كوبيليا الخشبية، أو تقضي ساعات تتحدث معها في المكتبة الخالدة، حيث لا نهار ولا ليل. كان ثمة رفقةٌ تحت تلك الأضواء المشتعلة دوماً، وهما تراقبان النوافذ المتغيرة على العالم الغريب في الخارج. فكرت في كل ذلك، وشعرت بحاجزٍ يرتفع بينهما حين ضاقت عينا كوبيليا.

سألت كوبيليا بحيادٍ تام: «واستنتاجاتُكِ؟»

قالت إيرين —— فلم يكن هذا هو الوقت ولا المكان المناسب للتظاهر بالغباء:

— «كان لـ ألبريتش أخت، وللأخت طفل. وألبريتش إما يريد إخفاء هذه المعلومة، أو يبحث عنهما، أو كلاهما معاً. أو ربما كان الأمرُ ببساطة لأن الكتاب مرتبطٌ بمصير ذلك العالم، وبذلك يمكنه أن يمنح

ألبريتش سلطةً عليه. القصة عن الأخوين والطفل قد تكون مجرد مصادفة محضة. لكني لا أعتقد ذلك، وأنتِ لن تصدقي لو قلتُ لكِ إنني أعتقد ذلك.»

ضغطت كوبيليا مجدداً:

– «وهل هذا كلُّ ما تعتقدينه؟»

أظهر الالتواءُ الجاف عند زاوية فمها موافقةً ضمنية على عبارة إيرين الأخيرة.

– «هذا كلُّ ما يمكنني التأكد منه.»

شعرت إيرين بوخزة ألمٍ في صدغها، فرفعت يدها المضمودة لتدلكه.

تابعت :

– «لا أفهم لماذا قد يتكبد ألبريتش كل هذا العناء للعثور على الكتاب لو كان مجرد تكتيك تضليلي لصرف الانتباه عن مؤامرةٍ أكبر. لقد بذل جهوداً مضنية لمجرد مخططٍ يتعلق بذلك العالم الموازي.. لكن صيد الكتاب بدا أمراً شخصياً جداً بالنسبة له.. ولولا وجود كاي معي، لكنتُ في عداد الموتى.» بذلت قصارى جهدها لتلقي على كوبيليا نظرةً لائمة. «لقد كنتِ تعرفين أمر كاي.»

قالت كوبيليا بزهو:

– «ما يمكنكِ استنتاجه في بضعة أيام، لديَّ على الأقل فرصةٌ جيدة لملاحظته على مدار عدة سنوات.» ولكن ظلت مسحةُ الحذر قائمةً خلف عينيها. «هل يعرفُ أنني على علمٍ بطبيعته؟»

أجابت إيرين: «لا أدري. هو يعرف أنني أعرف.»

— «حسناً، هذا جليٌّ.» تابعت كوبيليا: «وهل يعرف أنكِ ستخبرينني بما تعرفينه؟»

قالت إيرين بعد برهة تفكير:

— «سيجدُ من المذهل ألا أفعل؛ فنظرته للولاء محددةٌ جداً.»

لاحظت أن كوبيليا لم تسألها إن كانت تحب كاي أم لا. وبما أنها تحبه، رأت أن الأفضل الاحتفاظ بذلك لنفسها. فلو كانوا يبحثون عن عذرٍ لتعيينه في مكانٍ آخر —— وهو آخر ما تريده —— فإن الاعتراف بأنها تفتقر للموضوعية تجاهه سيحقق لهم ذلك بالتأكيد. وهذا أمرٌ سيئ. لذا ستتجنب الذاتية، أو على الأقل ستتجنب الانكشاف بها.

أومأت كوبيليا برأسها:

— «حسناً، إنه تنين. يُرجى ألا تفيضي في التكهنات أمامه حول مقدار ما ندركه عنه بالفعل، إلا إذا استلزم الموقف ذلك. ستعرفين متى يحين الوقت. في الوقت الحالي، علينا افتراض أنه يدرك أننا نعرف كل شيء.»

— «كل شيء؟»

أوضحت كوبيليا: «نحن المكتبة العظمى. ما لا نعرفه، نبحثُ عنه. والآن أخبريني بالبقية.»

أعطت إيرين تقريراً موجزاً وواقعياً للتفاصيل.. ثم جاء ذكر ألبريتش. استأثر ألبريتش بجزءٍ كبير من التقرير. ومع ذلك، وجدت إيرين أن من الأسهل —— بل ومن الضروري لسلامتها العقلية —— أن تكون مقتضبةً في أوصافها.

من المرجح أن رغبتي الحالية في الإمساك بكل من أقابله والتأكد من أنه ليس ألبريتش متنكراً ستزول في النهاية. هكذا آمل.

في النهاية، خمد صوتها. بدا وكأنهما قد عادتا إلى أسلوب المزاح المعتاد في المهمات السابقة. كان كل شيءٍ أبسط حينها، وكان الغرور يجعل من السهل على إيرين التحدث بطلاقةٍ عن الأسرار، وعن كيف يمكن لكبار أمناء المكتبة استخدامها كقطع شطرنج. أما الآن وقد حدث ذلك على الأرجح، فقد غدا الأمر أقل إثارة. كان كشظيةٍ في عقلها، تؤلمها كلما فكرت فيها. سألت أخيراً:

— «أكان بإمكانكِ إعطائي مزيداً من المعلومات؟»

قالت كوبيليا برقة:

— «لقد حُذّرتِ من ألبريتش بمجرد تأكدنا من وجوده داخل ذلك العالم الموازي. قبل ذلك، كان من الممكن لكِ إتمام المهمة بناءً على المعلومات المعطاة. هل تشعرين حقاً بأمانٍ أكبر الآن، مع معرفتكِ الحالية، وإدراككِ أنه يشكُّ في أنكِ تملكين تلك المعرفة؟»

كانت على وشك الإجابة بـ «لا، ليس حقاً»، ولكن السؤال كان يحمل أبعاداً أكثر من ذلك. فقالت:

— «أشعرُ بقدرةٍ أفضل على التعامل مع الأمور الآن بعد أن تشكلت لديَّ فكرةٌ عما يحدث. الناس الذين يصابون بانهيارات عصبية بسبب "معرفة لا ينبغي للإنسان أن يعرفها" —— هذا يحدث في أدب الرعب، لا في الحياة الواقعية.»

— «نعم.» تنهدت كوبيليا. «ونعم، أعرف أنكِ تفضلين أدب الجريمة.»

صححت لها إيرين: «روايات التحري.»

رفعت كوبيليا حاجبها وسألت: «وهل هناك شيءٌ آخر؟»

حاولت إيرين تخمين قصدها، ثم استسلمت: «مثل ماذا؟»

— «هذا السؤال من شخصٍ يدعي أنه محقق!»

— «لكني لم أدعِ يوماً أنني محققة » حاولت إيرين الاعتراض.

— «يجب أن أقول إنني أعتقدُ أنه كان بإمكانكِ أداء وظيفةٍ أفضل كعميلةٍ سرية.»

انفجرت إيرين قائلة:

— «لكنه كان سيناريو معقداً للغاية، بمعلوماتٍ محدودة!» كان هذا وكأنه امتحانٌ من أسوأ كوابيسها. شعرت بنفسها تنكمشُ متراجعةً نحو الأريكة.

— «أوه؟»

عقدت كوبيليا ذراعيها بطريقةٍ تنذرُ بحكمٍ صارم.

— «أيتها الشابة، رغم أنكِ طالبتي، إلا أنكِ تجاوزتِ عدداً من الخطوط الحمراء في هذه المرة. لقد كشفتِ حقائق عن المكتبة لشخصين غير معنيين على الأقل.»

قررت إيرين الاستسلام فحسب.

— «لقد شجعتِ على تجسد تنينٍ في العلن.»

— «معذرةً.» كان هذا أكثر مما تحتمل. «لم أكن أعلم أن هذا مخالفٌ لقواعد المكتبة، ثم إن المكتبة هي من أرسلته معي في المقام الأول!»

قالت كوبيليا:

— «لقد تم تدوين ملحوظاتكِ.» كان صوتها يبدو ضجراً تقريباً، لكن ثمة بريقُ مرحٍ في عينيها. «بطبيعة الحال، سأوليها كامل اعتباري. سأحاول أيضاً عرضها في ضوءٍ مناسب وعقلاني أمام كبار أمناء المكتبة،

إذا ما احتجتُ لتبرير أفعالكِ، بدلاً من معاملتها كسلسلةٍ مثيرة للشفقة من الأعذار.»

حدقت إيرين فيها بغضب؛ فهذا يتجاوز الظلم، إنه غيابٌ مطلق للمنطق.

— «لقد كنتُ أتوقعُ الأفضل. يا للأسف.» نقرت كوبيليا أصابعها ببعضها؛ فصدر عنها صوتُ "طقطقة" كحشرات الموت. «لحسن الحظ، وبصفتي معلمتُكِ، فأنا كفؤةٌ للتعامل مع هذا الأمر ولا حاجة لرفعه لمستوياتٍ أعلى.» الآن غدت الرسالة في عينيها أكثر وضوحاً؛ لقد كان تحذيراً، وتمنت إيرين لو تملك فكرةً أفضل عما يعنيه. «وكما قلتُ سابقاً، نحن أمناء مكتبة. ما لا نعرفه، نبحثُ عنه. وأنتِ يا عزيزتي إيرين، لديكِ الكثير لتبحثي عنه.»

قالت إيرين وهي تلمس طريقها بحذر:

— «لديَّ؟ أفترضُ أنني أملك ذلك فعلاً.»

أومأت كوبيليا برأسها:

— «نعم. بالضبط. في الواقع، أعتقد أن من حقي وضعكِ في "مهمةٍ ميدانية مقيمة" في ذلك العالم الموازي. وذلك حتى تنتهي من توضيح بضع نهاياتٍ سائبة في التحقيق. وسيبقى متدربُكِ معكِ بالطبع.»

انتاب إيرين شعورٌ غير عادي وكأنها في مصعدٍ يسقط سقوطاً حراً.

— «ولكن.. أنا.. ماذا عن ألبريتش؟.»

قالت كوبيليا:

— «هو على الأقل لا داعي للقلق بشأنه؛ فدون أي تدريبٍ مناسب، نجحتِ فعلاً في نفيه من ذلك العالم الموازي. أنا معجبةٌ بذلك. تسع درجات من عشرة في الاستنتاج الاستقرائي. ما فعلتِه سيؤدي لنشوء رنينٍ

في الحواجز بين العوالم سيمنعه من دخوله مجدداً عبر السحر المرتبط بالفوضى. وبالطبع لا يمكنه استخدام المكتبة نفسها. سيسبب هذا أيضاً إزعاجاً كبيراً لـ "الفاي" المحليين، لكني لا أعتبر ذلك ذا أهميةٍ كبيرة. على الأقل، ليس بالنسبة لـ المكتبة.»

صاحت إيرين بصوت عالٍ: «تريدين مني العودة؟» أخذت نفساً عميقاً وأخفضت صوتها: «أعني، تريدين مني العودة إلى هناك في مهمةٍ منفصلة؟»

قالت كوبيليا: «بالضبط.» وابتسمت ابتسامةً دافئة، تشبه تماماً تلك الابتسامة التي قد يبديها تمساح —— آلي أو غير ذلك —— بعد وجبةٍ دسمة من أي شيءٍ تقتات عليه التماسيح. أمناء المكتبة ربما.

— «أعتقدُ أن هذا هو المكان الأفضل لكِ في هذه اللحظة. كما أن منصب "أمين المكتبة المقيم" شاغرٌ وأنتِ على درايةٍ بذلك العالم.»

قالت إيرين بتردد:

— «يكادُ هذا يبدو وكأنكِ تظنينه أكثر أماناً من المكتبة نفسها.»

قالت كوبيليا:

— «قد تظنين ذلك فعلاً. لا يمكنني التعليق.»

لقد استحال السقوط الحرُّ إلى هوةٍ شاسعة مصيبة بالدوار، لكن الأمر لم يعد مخيفاً الآن. بل كان مثيراً.

— «سأحتاج لحساب مصاريف لأعيل نفسي وكاي طبعاً، وأوراق هوية.»

قالت كوبيليا بصرامة:

— «إيرين، أتوقع منكِ تدبير أوراق هويتكِ بنفسكِ. حقاً. هاكِ.» مدت يدها نحو حقيبة جلدية صغيرة وناولتها لـ إيرين. «هذه تحوي

كامل بيانات دومينيك أوبري، بما في ذلك حساباته المصرفية. اهتمي بنقل الأموال. اجعلي كاي يتقمص دور ابن عمه المفقود منذ زمن أو ما شابه. أنا متأكدة أن صديقكِ فيل سيسعد بالمساعدة.»

احمرَّ وجه إيرين: «أتظنين ذلك؟»

— «يبدو رجلاً عملياً. أظن أنه سيفضل أن تكوني في صفه.» صمتت مفكرةً وتابعت: «على الأرجح لن تحصلي على مكتب أوبري، لذا يجب عليكِ إبلاغنا فور حصولكِ على سكن. بهذه الطريقة سيعرف أيُّ زوارٍ مستقبليين للعالم الموازي مكان العثور عليكِ. ستكونين "أمين المكتبة المقيم" بعد كل شيء.»

قالت إيرين:

— «سأكون؟»

واحمرَّ وجهها مجدداً، هذه المرة بدافع التواضع الصادق لا الخجل البسيط. فمنصب "أمين المكتبة المقيم" مسؤوليةٌ كبيرة، ولم تكن حتى تفكر في توليها قبل عقودٍ من الآن. بدأ الحماسُ يفسح المجال للذعر.

— «لا أدري ماذا أقول..»

قالت كوبيليا بحزم:

— «كلمة "شكراً" و"وداعاً" تفيان بالغرض. هيا الآن. ها أنتِ جالسةٌ هنا، وكاي يقلق عليكِ ويؤرق نفسه. نصيحةٌ لكِ: لا تؤذي نفسكِ إذا كان ثمة احتمالٌ بأن يلقي هو بنفسه في طريق الخطر بدلاً منكِ. سيحزنُ هو للأمر أكثر بكثير مما ستحزنين أنتِ.»

— «كوبيليا.. لماذا؟» أخذت إيرين نفساً عميقاً.

أغمضت العجوز عينيها للحظة. كانت واهنة، حتى بمقاييس المكتبة، وذراعها وساقاها الخشبية كانت هي الأشياء الصلبة الوحيدة

فيها. الباقي كان جسداً هشاً، وشعراً أبيض كخيوط العنكبوت، وعينين باردتين كنجومٍ سوداء. قالت بصوتٍ متعب:

— «لا تسألي. لا تقولي شيئاً، وعندها لن أحتاج للرد. ولاحقاً، يمكننا كلانا الإجابة بصدقٍ بأنه لم يتم تبادل أي شيء. لقد كنتِ دائماً تتجنبين طرح الأسئلة في الماضي، لكن وقت ذلك قد نفد. الحقيقة أننا بحاجةٍ لمعرفة المزيد. وأنتِ تعرفين الأسئلة. اذهبي وابحثي عن الإجابات، ودعيني أبلغهم بأنني أرسلتُكِ للتحقيق. الحقيقة هي أنكِ ستكونين هناك في أمانٍ من ألبريتش؛ فلديه صيدٌ أكبر ليطارده. دعيه يفعل. ولنلقِ بأنفسنا نحن الباقين في طريق الخطر هذه المرة. اذهبي والْعبي دور المحققة يا إيرين، وأدي عملكِ بإتقان. اجعليني فخورةً بكِ.»

دوى حفيفٌ عند الباب، ثم طرقاتٌ رشيقة.

قالت كوبيليا:

— «هذا سيكون كاي. من الأفضل أن ترحلي. هو يعرف الطريق من هنا إلى مدخل العالم الموازي.»

أنزلت إيرين قدميها من فوق الأريكة ووقفت. قالت:

— «شكراً لكِ.»

خرجت الكلمة بامتنانٍ مكبوت، فحاولت مجدداً:

— «شكراً لكِ يا كوبيليا. أنا أقدر ذلك حقاً. أعني.. أنا ممتنة.»

قالت كوبيليا:

— «أنتِ لستِ ممتنةً الآن، لكنكِ ستكونين كذلك.» تنهدت مجدداً وتابعت: «لقد تم تجميع يديكِ؛ لقد سحبتُ العجوز وورميوس بعيداً

عن رموزِه ليعيد وصل كل القطع والشظايا. وهذا سببٌ آخر لتكوني في "الزمن الحقيقي" بالخارج؛ فهما لن يبرآ هنا في المكتبة.»

أدركت إيرين حقيقة ذلك؛ فيداها قد تكونان مخيطتين ومضمدتين، ولكن ما لم تغادر المكتبة، فلن تلتئما أبداً.

— «شكراً لكِ مجدداً.»

انتظرت كوبيليا حتى كادت إيرين تصل للباب، قبل أن تقول:

— «حذاؤكِ تحت الأريكة.»

انفجرت إيرين قائلة، وقد فقدت الكثير من امتنانها: «ألم يكن بإمكانكِ قول ذلك في وقتٍ سابق؟» ثم نادت نحو الباب: «لحظة واحدة!»، وهرولت عائدةً نحو الأريكة لتجلس وتنتعل حذاءها.

قالت كوبيليا وهي تراقب إيرين وهي تتعثر في ربط خيوط الحذاء بأصابعها المضمودة:

— «سأنتظر تقارير منتظمة. ولا تندمجي أكثر من اللازم. تذكري من أنتِ.»

أجابت إيرين وهي تنتهي من عقد الخيوط وتعتدل في جلستها:

— «لستُ ممن ينسون ذلك؛ أنا أمينة مكتبة.»

قالت كوبيليا:

— «أنت كذلك.»

لم تنطق بكلمةٍ أخرى، بل أومأت برأسها مودعة، وشعرت إيرين بعينيها تلاحقانها مع كل خطوةٍ تخطوها نحو الباب.

كان كاي ينتظرُ على الجانب الآخر.

نجحت إيرين في خطو بضع خطواتٍ واثقة في الممر، بمجرد أن أُغلق البابُ بينهما وبين كوبيليا، قبل أن تتباطأ مشيتها الواثقة لتتحول إلى تعثرٍ متردد. قطب كاي حاجبيه، ومدَّ لها ذراعه. ربما ظنَّ حقاً أنها مصابةٌ بإصابةٍ بالغة، أو لعل نزعة التملك هي سمةٌ من سمات العاطفة التنينية؛ فالمفترض أنهم مكتنزون للأشياء، في نهاية المطاف. ليسوا مختلفين كثيراً عن أمناء المكتبة.

لكن في هذه اللحظة فحسب —— في هذه اللحظة الوحيدة، وهما في طريقهما للعودة إلى هذا العالم الموازي الذي غدا موطناً لها —— استطاعت أن تسترخي وتقدر ما نالته. لقد صار كلُّ شيءٍ ملكاً لها؛ منطقتُها، وصندوقُ كنوزها المفتوح من الكتب الجديدة لتكتشفها. عالمٌ جديدٌ من كبار المحققين، والمناطيد، و"الفاي"، والتنانين. لن تشكو أبداً.

وبالتأكيد لن تهرب؛ فلديها أسئلةٌ لتطرحها، وإجاباتٌ لتبحث عنها. لم تكن تأملُ سوى أن تعيش طويلاً بما يكفي لتستمتع بكل ذلك.

-تمت-


THE LIBRARY'S
BRAND.
INDELIBLE.

المكتبة الخفيــة

جينيفيف كوجمان

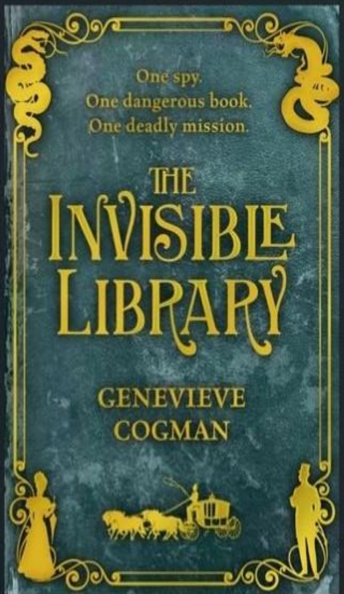
"قد يكون جمع الكتب مهمة محفوفة بالمخاطر المميتة..
مرحبًا بك في المغامرة الأولى من سلسلة (المكتبة الخفية) المذهلة"

هناك حقيقة واحدة سيؤكدها لك أي "أمين مكتبة": الحقيقة دائماً أغرب بكثير من الخيال...

تعمل "إيرين" كجاسوسة محترفة لصالح "المكتبة"؛ منظمة خفية تكرس جهودها لجمع أهم الأعمال الأدبية النادرة من كافة أبعاد الواقع المختلفة. في مهمتها الأخيرة، أُرسلت إيرين برفقة مساعدها الغامض "كاي" إلى نسخة بديلة من مدينة لندن. مهمتهما: استعادة كتاب بالغ الخطورة. لكن المشكلة: بحلول الوقت الذي وصلا فيه، كان الكتاب قد سُرق بالفعل.

تجد إيرين نفسها عالقة في شبكة محيرة من المخاطر، والأدلة المتضاربة، والجمعيات السرية الخبيثة. في هذا الصراع، الفشل ليس خياراً مطروحاً على الإطلاق.. لأن ما هو على المحك ليس فقط حياة إيرين، بل طبيعة "الواقع" ذاته!

ترجمات
مكتبة الوادي
t.me/wadistreambooks



ترجمة / قناة wadistreambooks

@t.me/wadistreambooks